

ال

ب

36

2



961.2
Z39JA

SE 9 '58

SE 02 '63

AG 25 '54

~~FEB 1 '57~~

~~JUN 1 '57~~

~~MAR 20 '59~~

~~[8 FEB 1978~~

J. Lib.

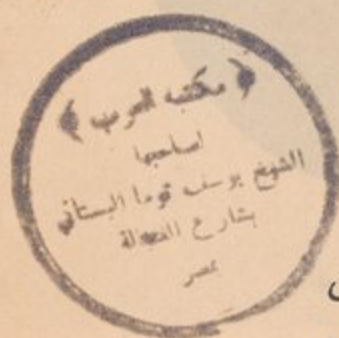
- 1 JUL 1981

جهد الأبطال في طرابلس الغرب

تأليف

الطاهر أحمد الزاوي
الطاهر البسني

من علماء الأزهر الشريف



الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٠

٧٧٧١٥

مطبعة البغالة الجديدة

شارع المجالة رقم ٥٦

مراجع الكتاب

مشاهدات

الرواية عن الزعماء ورؤساء الحكومات وكبار الموظفين

تعريب سليم سر كيس

كتاب أر نست بانيت

، ، ،

كتاب فرانسز ما كولا

لأستاذ رشيد رضا

مجلة المنار - الجزء العاشر

لأمين سعيد

تاريخ الاستعماريين الفرنسيين والاطالي

للأمير شكيب أرسلان

التعليق على حاضر العالم الاسلامي

، ، ،

التعليق على تاريخ ابن خلدون

اسليم قبعين

تاريخ الحرب العثمانية الايطالية

جريدة المؤيد سنة ١٩١٠ - ١٩١٢

تعريب الاستاذ ابراهيم الرفاعي

كتاب جرازباني (نحو الفزان)

مجلة الهلال (السنة العاشرة)

باعت في القبة

٥٥٦٠

٥١٢٦٤

مكتبة المآثر

٥٥٦٠

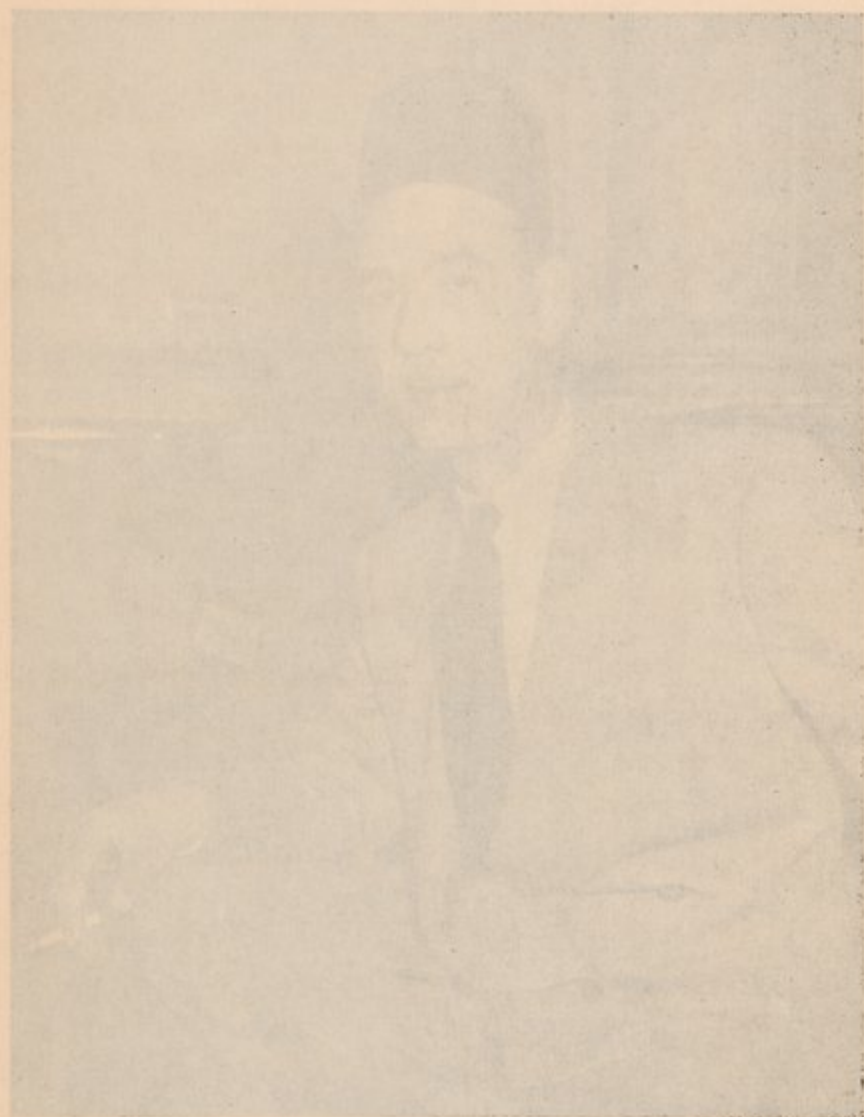


صورة المؤلف

مقدمة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية



مضرة صايب المعالي عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية



لشرفه وجاهه وعلو مقامه ونبوغه
فیهما راغبنا وعلو مقامه ونبوغه

عبد الرحمن عزام

نقدم إلى مواطنينا الأعزاء صديقاً من أعز أصدقائهم ، ورجلاً من أبرز رجالات نهضتهم الحديثة وهو حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا .

وليس من طرابلسي لا يعرف لهذا الرجل مشاركته في جهادنا ، وفضله على قضيتنا ولكن لمناسبة طبع كتابي (جهاد الأبطال) أحببت أن أصدره بكلمة عن هذا الرجل العظيم في تاريخ حياته في طرابلس اعترافاً بفضلته وجميل خدماته .

نشأ هذا الرجل نفسه على حب العرب ، وكرس حياته لخدمتهم . واعتنق هذا المبدأ منذ نعومة أظفاره فشب عليه وشاب معه ، فامتزج بدمه ، وتربى منه لحمه ، فأصبح لا يرى ولا يسمع إلا بعيون العرب وآذانهم .

وكانت له في قضايا العرب مغامرات لا تحلو له الحياة إلا في معامعها . وكانت القضية الطرابلسية أول ما افتتح به هذه المغامرات فكان لها الحل الممتاز من جهوده للقضايا العربية . وكان في أوروبا قبيل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ مع بعض الطلبة الشرقيين يعملون للقضايا العربية . وبعد نشوب الحرب وقع عليه اختيار إخوانه للسفر إلى مصر للاشراف على بعض المصالح التي تخصهم . وقد حاول أن يخرج من مصر الالتحاق بالجيش التركي ، فمنعه الإنجليز ووضعوه تحت مراقبة البوليس . وقد استطاع — بعد محاولات — أن يهرب إلى حدود مصر الغربية والتحق بالسيد أحمد الشريف السنوسي في ديسمبر سنة ١٩١٥ واشترك في الهجوم الذي قام به الأتراك على حدود مصر . ولما فشل هذا الهجوم ، تغلب الإنجليز على الترك والسيد أحمد السنوسي بقي هو ونوري بك في برقة وأبدى بعض المحاولات لاستئناف الهجوم ثانية ، ولكن اتصال السيد إدريس بالإنجليز والطلليان ، والبدء في مفاوضات الزويتينة حال دون ذلك .

والتحق بمصراته في نوفمبر سنة ١٩١٦ بعد أن ضاقت برقة عما اعتزم القيام به لخدمة العرب . وكانت فيها حكومة برياسة رمضان بك السويحلي فوجد من نشاط رئيسها

(ب)

وإخلاصه ما طمأن نفسه لإمكان العمل في محيط ملائم لرغباته . ووجد رمضان في تفكيره الصائب ونشاطه المتواصل ما جعله منه محل الثقة والرضا . وكانت توجيهاته في محل القبول والتقدير دائماً .

وصادف وقت مجيئه إلى مصراته وجود حرب بينها وبين ترهونة ، فكان رسول خير بين المتحاربين حتى طفئت الفتنة وسلم الوطن من شرها .

واتصلت الغواصات الألمانية بمصراته فكانت تأتي بالمدد لتغذية حركة الجهاد في طرابلس فكان هذا مما ساعد عزاماً على السعي في تنشيط الإدارات المختلفة في مصراته وترهونة والعزيرية وغيرها . وأفسح أمامه المجال للعمل للتقريب بين وجهات نظر الزعماء وأطباعهم .

وسافر إلى الآستانة في أغسطس سنة ١٩١٧ لأمر تتعلق بالحرب وأرسلته الحكومة العثمانية إلى برلين وفيها لعمل الترتيبات اللازمة لإرسال العتاد الحربي إلى طرابلس . ولحق به نوري في الآستانة في يناير سنة ١٩١٨ وقد أثنى عليه أمام الأمير شكيب ثناء عاطراً^(١) .

ولما عين الأمير عثمان فؤاد قائداً للقوات الإفريقية عين مستشاراً له ، ورجع معه إلى مصراته في مارس سنة ١٩١٨

وجاء دور الجمهورية الطرابلسية فكان أشد الناس تحمساً لها ، وفي مقدمة الداعين لتأسيسها . وعين مستشاراً لها فكان مثال التوفيق فيما يشير به أو يستشار فيه .

وفي سنة ١٩١٩ كان صلح بنيادم ، فأبدى في مفاوضاته — بصفته مستشار الجمهورية — من الملاحظات والرأى الصائب ما كان له أحسن الأثر في ملائمة مواده لحالة الطرابلسيين وكان الجنرال ترديتي في شك من إخلاص العرب ، فأبدى معه من المحاولات ما أقنعه بحسن نيتهم ورغبتهم في السلم . ولم يفته أن حذر من فوات الفرصة ، فكان لتحذيره نتائجها الحسنة في ركون الطليان للصلح .

وأُسست حكومة القطر الطرابلسي فكان مركز عزام محفوظاً بين أعضائها لا ينفردون

(١) انظر ص ٢١٦ وما ذكر فيها بشأن سفر عزام ونوري بصحبه مما ذكر هنا .

بمداولاتهم عنه ، ولا يتخلف عن مجالسهم . وأسس حزب الإصلاح الوطنى وجريدة (اللواء الطرابلسى) فكانت آراء عزام فيها محل الانتظار والقبول من الجمهور الطرابلسى دائماً . ولم يخف على الطليان ما لعزام من الأثر الواضح فى توجيه رأى الطرابلسى ، فكانوا يعملون لإبعاده ، من طريق الدس بينه وبين الزعماء تارة ، ومحاولة حجزه فى مدينة طرابلس أخرى ، ولكنهم لم يجدوا لذلك سبيلاً .

وانتقل رمضان إلى مسلاتة فكان عزام معه ، وكانت المدة التى قضاها رمضان فى مسلاتة من أدق الأدوار فى الحركة الطرابلسية لما صحبها من التحزب ضده والعمل لإسقاط حكومته ، فكانت مشاركة عزام له فى التفكير تخفف عنه ما يجده فى نفسه من متاعب الحكم والعمل لإحباط الدسائس .

وبعد وفاة رمضان كان دعاة الفتنة يتوثبون لإيقاظها فكان لمساعديه خير أثر فى إحباط دعايتهم . وقد كلفته سفارته فى الخير أسفاراً طويلة ، فقد قطع المسافة فيما بين مصراته وزوارة ثلاث عشرة مرة فى ثمانية أشهر لجمع الكلمة والتأليف بين القلوب . وجاء دور مؤتمر غريان فكان أحد المؤسسين ، وأول المنادين بالوحدة وجمع الكلمة . وقد أعطاه الله يداً سحرية ما مس بها جسم طرابلسى إلا لان قلبه ، وحنّت إلى الاتحاد نفسه ، ورأى فى عزام الأخ الصادق والناصح المخلص .

وانتخبت هيئة الإصلاح المركزية فكان مستشارها ، ولو أراد غير هذا المركز لما فاته إدراكه ، ولكن كياسته جعلته لا يتطلع إلى ما يمكن أن يتطلع إليه غيره . وهو مادام فى محل الرضا من الجميع لا يهمه ما وراء ذلك .

وكان يعرف لدى العامة من الطرابلسيين بعزام المصرى فكانت مصريته لا تزيد إلا احتراماً ، ولا ينعت بها إلا فى مقام التكريم . وإذا كانت مصريته تزيد تكريماً ، فلا شك أن كياسته كانت سبباً فى احترام هذه المصرية . ولو كان عبد الرحمن عزام غير مصرى لما قلل ذلك من شأنه عند الطرابلسيين .

وقد عرف عزام كيف يمثل هذه المصرية تمثيل الكياسة والوفاء والإخلاص ، فكان

أخاً لجميع الطرابلسيين ناصحاً فيما يقول مخلصاً فيما يعمل ، فكان الطرابلسيون ينظرون إلى مصريته بالمنظار الذي ينظرون به إليه . ولقد أفاد مصريته بكياسته وحسن تقديره الأمور أكثر مما استفاد منها .

ولم يقتصر حبه على الزعماء والبارزين من أعيان الشعب بل كان له في كل ناد ذكر وفي كل مجلس حديث .

قضى عزام نحو ست سنوات في طرابلس كان فيها مثال الطرابلسي المخلص لوطنه . وكان — وما يزال — طرابلسياً لا ينقصه من معاني هذه الكلمة إلا أنه ولد في مصر . وقد تأثر بحب الطرابلسيين حتى أصهر فيهم مرتين ، وأصبحت لأولاده فيهم خؤولة .

وفي كل هذه المدة لم تربط له ماهية لامن حكومة مصراته ولا من غيرها . وكان يسر الطرابلسيين أن يتفضل بقبول ما يرى فيه كفايته ولكنه أبى . وكان يكتفى في حياته بما بينه وبين الرؤساء من صلة وثيقة . وحينما رجع إلى مصر في سنة ١٩٢٢ ووصل إلى سيوه جاءته رسائل تهنئة فلم يكن لديه ما يرد به على الرسائل ، ففسلف خمسة جنيهاً من أحد رفقاته ليقوم بهذا الواجب .

ولم يكتف في مصر بعمله للقضية الطرابلسية ، بل فتح لنفسه طريقاً إلى الوظائف الكبرى في الدولة المصرية . فانتخب عضواً في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ وعين وزيراً مفوضاً لمصر في العراق ، وإيران ، والحجاز ، وأفغانستان في سنة ١٩٣٦ . وعين وزيراً مفوضاً كذلك في تركيا سنة ١٩٣٩ . وكانت هذه السفارات مما أفسح له مجال التوسع في دراسات القضايا الإسلامية والعربية فتخصص فيها حتى أصبح المرجع الذي يحتاج إليه جميع المشتغلين بهذه القضايا ، سواء من الناحية الدولية أو من الناحية الإقليمية . وأسندت إليه وزارة الأوقاف في سنة ١٩٣٩ وفي سنة ١٩٤٠ أسندت إليه وزارة الشؤون الاجتماعية .

ولما أسست الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ لم يجد العرب بداً من انتخابه أميناً عاماً لها لما يعلمونه فيه من جدارة بهذا المنصب .

وقد رأى في توليته منصب أمانة الجامعة فرصة لخدمة القضية الطرابلسية ، فأثارها

في المحيط الدولي ، ودافع عنها في إنجلترا ، وفرنسا ، وفي هيئة الأمم المتحدة . واستعمل نفوذه لدى دول الجامعة العربية ووفودها لدى هيئة الأمم ومجلس الأمن . وكان له فيها مذكرات ضافية ، وتصريحات صحفية ، وخطب رنانة هدد فيها دول أوروبا بالحرب إذا لم تعترف باستقلال الشعب الطرابلسي المجيد .

وقد أثمرت جهوده اعتراف هيئة الأمم بوحدة ليبيا واستقلالها فكان له كل الفضل فيما أصابته قضيتنا من نجاح . وهو الآن الأمين العام لجامعة الدول العربية . ويتمتع بثقة ستين مليوناً من أبناء العروبة ، ويدعون له بالنجاح في عمله ، والتوفيق في خدمة العرب .

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في القرن العشرين . وفي وقت أخذت فيه الشيخوخة بخناق الحكومة العثمانية ، وعلى مرءأ من رجالاتها الذين لم يحسنوا سياسة الملك ، أخذت أوروبا تكيد للإسلام والعرب ، وترسم الخطط المحكمة لابتلاع الشرق ، والقضاء على بقية حضارته الباقية .

وفي سنة ١٩١١ تم إحكام الخطط لقطع طرابلس من جسم وطن العربية وفصلها عن المملكة العثمانية . وفي أكتوبر من هذه السنة كانت أساطيل دولة الروم تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فكان اعتداء فظيع ، وكانت إغارة شعواء مثلت فيها قوة الحديد والنار أفظع رواية عرفت للظلم في تاريخه المظلم . ووجد الطرابلسيون أنفسهم أمام دوى المدافع وأزيز الطائرات ، وجيوش الظلم المدججة بالسلاح تحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيماهم وعن شمالهم ، فتنادوا إلى الحرب ، ونفروا إليها خفافاً وثقالاً دفاعاً عن الوطن وذوداً عن كرامة العرب . ودلف إليها شبيهم وكهولهم ، وشبانهم ، ونسأؤهم غضباً للحرمان وحباً في الجهاد في سبيل الله . وفي أقل من خمسة عشر يوماً اشتعلت نار الحرب من حدود مصر إلى حدود تونس .

ولقد كان في أول رصاصة أطلقت في طرابلس رسالة الاستغاثة حملها الأثير إلى شعوب العربية قاصيها ودانيها ، فلبت الغوث من أقصى حدود اليمن إلى أقصى حدود مراکش ، وأذن مؤذن الكفاح حي على نصر العرب ، فأرسلت الإعانات والاحتجاجات من جميع هذه الأقطار ، فكان هذا مما شد العزائم ، وحفز الهمم لملاقات الإيطاليين والثبات أمامهم وكانت مصر وتونس في مقدمة هؤلاء المغيثن .

وشمرت الحرب عن ساقها . وشمل البلاد الطرابلسية دوى المدافع . ولهب البارود كان يأخذ بمعاطس الرجال ، وتركز الجهاد في السواحل وعلى أبواب المدن ، فماطلت رأس إيطالية إلا اصطدمت في رصاصة عربية .

وكانت الحرب الطرابلسية هائجة مأجحة أراد الله لها أن تم البلاد من أقصاها إلى أقصاها

فتركزت فيما بين البحر والجبل ثمانية عشر شهراً : من أكتوبر سنة ١٩١١ إلى مارس سنة ١٩١٣ ثم امتدت إلى فزان تتقاذفها أمواج الصحراء ، فكان وقودها تلك الفلول من الطليان التي فقدت توازنها واختل نظامها . وما استقر بها المقام في فزان حتى ارتدت على أعقابها في ديسمبر سنة ١٩١٤ تسابق الريح فراراً بالحياة ولا فرار . وكانت القرضائية وما تبعها من نصر مؤزر وفتح مبين ، لم يكن للطليان ملجأ بعده إلا حصون البحر ومدافع الأسطول .

ووقف الطرابلسيون ثانية على سواحل البحر وأبواب المدن وتركزت الحرب فيما بين مصراته وزوارة ثمان سنوات فكانت حرباً مريرة قاسية ، ما تركت بيتاً في طرابلس إلا طوحت بأحد أفرادها .

وقد شاركنا آلام هذه الحرب وآمالها إخوان من مصر كانوا لنا كما كنا لهم ، وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية ، واليوزباشي إبراهيم عوض استشهد مع رمضان بك السويحلي في أرفلة . واليوزباشي عبد الحليم حمدي استشهد في معارك الزاوية . والدكتور السيد دسوقي استشهد في سرت ، وغيرهم كثير من الإخوان البررة الذين تشرفوا بالشهادة في هذه البلاد التي باركها الله بالجهاد في سبيله . وكانت آمال العروبة تجمع بيننا وبين هؤلاء السادة في محيط لا يشعر فيه الجميع إلا بالاخوة المثالية .

وانهارت قوة الطليان تحت ضربات العرب . فهدوا أيديهم إلى الصلح . وكان صلح بنيادم في يونيه سنة ١٩١٩ . وساد البلاد سكون التجربة والانتظار دام إثنين وثلاثين شهراً وكانت أطول مدة وقعت بين حرب وأخرى في الحروب الطرابلسية ، وانقطع هذا السكون باعتداء الطليان على مصراته في يناير سنة ١٩٢٢ . وكانت ثورة . وكان جهاد اليانس بما صحبه من ضعف وفتور أعقبها بأس الخلفين ثم جلاء المجاهدين . وبقي الوطن يتلقى من ضربات الإبطاليين القاسية ما كتب على صفحات القلوب بأقلام المدافع ودماء الشهداء . كل هذا يجده القارئ مفصلاً في كتابنا هذا في حقيقة كأن قد رأى وقد سمع .

وكان يسوءني من المتطفلين على التاريخ أن يتجاهلوا جهادنا أو ينسبوه إلى غيرنا ، فكنت أقابل ظلمهم بالصبر ، وألتمس لهم العذر فيما جهلوا ريثما أتمهى من جمع هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال ، ومصادمات الأبطال . ثم نقول لهم هاؤم اقرأوا جهاد الطرابلسيين فقيه لطلاب الحقيقة ما يريدون .

وها هو — والحمد لله — قد برز إلى الوجود يحمل من معاني البطولة وضروب المغامرات ما يشرف الطرابلسيين ، ويرفع من شأن العرب أجمعين . وسميته (جهاد الأبطال) تيمنا بما حواه من أعمال البطولة .

وقد سلخت في جمعه من عمرى زهاء عشرين سنة ، ما سمعت بحادثة إلى قيدها . ولا وقع نظرى على مسألة إلا نقلتها . وما اجتمعت بعد الهجرة بذى شأن من الطرابلسيين ممن لهم صلة بالحرب وإدارتها إلى رويت عنه وناقشته فيما يتعارض مع رواية غيره . ولا سمعت بحاكم منطقة أو رئيس إدارة الا أخذت عنه ما وسعنى أخذه .

وكان في مقدمة من رويت عنهم أحمد بك السويحلى . وعبد الرحمن عزام باشا . وعون سوف^(١) . والتهامى بك قليصة . ومختار بك كعبار . والسيد محمد العيساوى بوخنجر . وعبد السلام أفندى المريض وغيرهم كثير من المجاهدين ورؤسائهم الذين لهم دراية بتفاصيل المعارك وتقلباتها .

وما رويت عن يخامرني فيه شك . أو روايته تخالف من هو أوثق منه عندي . وكانت مشاهداتي من أكبر العوامل التي شجعتني على الكتابة في الحروب الطرابلسية

(١) الكريم ابن الكريم . حضر الجهاد من أول الاحتلال إلى أن تغلب الطليان في مارس سنة ١٩١٣ فهاجر إلى الشام في جماعات كثيرة من المجاهدين . ورجع إلى طرابلس سنة ١٩٢٠ ولما نشبت الحرب في سنة ١٩٢٢ كان في مقدمة من أسندت إليهم رئاسة المجاهدين . وكانت له جولات في معارك بئر الغنم ومصراته وقد تجلبت شجاعته في معارك مصراته سنة ١٩٢٣ بمقدار قل أن وصل إليه غيره . وجرح في معركة الكراريم . وكان إذا احتدم القتال مشى بين الصفوف وهو ينادى « أنا عون بن سوف » وفي سنة ١٩٢٤ هاجر إلى مصر وبقي فيها إلى سنة ١٩٤٥ . وفي هذه السنة رجع إلى طرابلس . وكان يطالب باستقلال البلاد ووحدتها . ويتقدم قومه لدى الإنجليز فيما يعن لهم من مصالح . وفي سنة ١٩٤٧ مرض فسافر إلى إيطاليا للتداوى وعملته جراحة في بطنه توفي بسببها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ . ودفن في طرابلس . عليه رحمة الله .

فقد شهدت أول الاحتلال إلى قرب صلح أوشى ، وشهدت ما وقع من الحوادث بعد صلح بنيادم سنة ١٩١٩ إلى أوائل سنة ١٩٢٤ . وما لم أشهده كان يقع على مسمع منى فكنت أذكره لمجرد سماعه .

وقد أعاننى كثيراً على الوصول إلى الحقيقة اجتماعى فى كثير من الأوقات برؤساء الحكومات وذوى الشأن من قومنا . وقد هينأ لى هذا الاجتماع إيفادى فى كثير من البعثات الحكومية ، مما سهّل على الاطلاع على كثير من الحقائق .

وقد وجدت من صديقنا الفاضل الأستاذ إبراهيم الرفاعى ^(١) معونة لا أنساها ، وهى ترجمة كل ما احتجت إليه من كتاب جرازيانى « نحو الفزان » من اللغة الإيطالية إلى اللغة العربية ، فقد توصلت بهذا الكتاب إلى حقائق ما كنت أجدها فى غيره .

وقد بذلت جهدى فى الوصول إلى الحقيقة . وكثيراً ما اعترضتنى مناسبات رأيت فيها مبرراً لترك بعض الحقائق إلى وقت آخر . وأعتقد أنى وضعت لقومى ما يصلح أساساً للبناء عليه فى مستقبل الأيام . والله يحفظ لطرابلس أبنائها ، ويحقق لها وحدتها واستقلالها .

الظاهر الراوى

رجب سنة ١٣٦٩

مايو سنة ١٩٥٠

(١) هو من أولاد سيدى ابن جعا من الأشراف سكان الخمس . درس فى الأزهر وخرج فى صلبية الصريعة سنة ١٩٤٦ . وكان يجيد اللغة الإيطالية .

تهديد

منذ أن احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ قوى التنافس بين فرنسا وإنجلترا في امتلاك البلاد الشرقية . واتجهت سياسة الفتح والتوسع الاستعماري اتجاهها أوسع من ذي قبل . وكان الطليان ينظرون إلى هذا التنافس بعين القلق ، وقويت الرغبة في نفوسهم في أن يكونوا أحد المستعمرين وثالث المتقاسمين ، فأخذوا يترقبون الفرص للحصول على حصتهم من هذه الغنائم المقسمة .

وقد وجدوا من الأسباب ما أغراههم بخصر تفكيرهم في احتلال طرابلس : منها أن وجود الإنجليز في مصر والهند وغيرها من البلاد الشرقية ، وتفوق الأسطول الإنجليزي في البحار يحد من مطامعهم في استعمار البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض . ووجود فرنسا في الجزائر ومطامعها في تونس ، ونفوذها في مراکش يحول دون تحقيق مطامعهم في بلاد المغرب ، ولم يبق بين حدود النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي إلا طرابلس ، ويوشك أن تتفقا بشأنها على سياسة معينة فتحرم منها إيطاليا وتبقى محصورة في أوروبا . فلم يبق إذاً أمامها ما تنتظره الفرص إلا طرابلس الغرب ، فأخذت تعد نفسها لاحتلالها في المستقبل القريب أو البعيد .

ولما اجتمع الإمبراطور نابليون الثالث ، وزوج الملكة فكتوريا في أوربورن سنة ١٨٥٧ ، واقترح نابليون إعطاء جزء من طرابلس إلى حكومة سردينيا أيقظ فيهم هذا الاقتراح رغبة الاستعمار ووقع منهم موقع التشجيع على الإقدام على ما هم بسبيله بشأن طرابلس .

وجاء احتلال تونس سنة ١٨٨١ فأثار مخاوف الإيطاليين أن تمتد يد فرنسا إلى طرابلس وتضمها إلى تونس .

واحتلت فرنسا فاشودة في يوليو سنة ١٨٩٨ وكانت تابعة للسودان المصري ، فكان لهذا العمل أسوأ الوقع على نفوس الإنجليز ، وحصلت مشادة بينهم وبين فرنسا ، فأذروها بالحرب إذا هي لم تتخل عن فاشودة ، فانسحب الجنود الفرنسيون يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ وانتهى المشكل إلى هذا الحد .

وقد أحدث هذا النشاط الفرنسي في الاستعمار قلقاً في الرأي الإيطالي ، فطوراً تحتل تونس وتفوز بغنيمتها ، وتارة تحتل فاشودة لتأخذ قسطها من السودان المصري ، ولولا موقف الإنجليز الحازم لفازت بالغنيمتين .

ولم تخف إيطاليا هذا القلق فطلبت من فرنسا أن توافقها على احتلال طرابلس ، فساومتها فرنسا على ألا تتدخل في سياسة المغرب الأقصى ، فرضيت إيطاليا بذلك ، واتفقتا في شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠ على أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في معالجة المسألة الطرابلسية ولا تتعرض لها بشيء ، وعلى أن تطلق إيطاليا يد فرنسا في معالجة المسألة المغربية ولا تتعرض لها بشيء . وقد حصل بينهما اتفاق آخر بهذا المعنى في أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ . وقد أبلغ هذان الاتفاقان إلى إنجلترا والنمسا فأقرتاها ولم تعارضا .

غير أن حادث فاشودة ما زال يشغل بال الكثيرين من الإنجليز والفرنساويين لأنه انتهى إلى حد لا يكفي لقطع القلاقل وحسم المشكلات ، فمن الممكن جداً — ما دام الفرنسيون والإنجليز يتسابقون في مضمار التوسع الاستعماري — أن تصطدم الدولتان على مثل فاشودة ، وقد لا ينتهي هذا الصدام بمثل ما انتهت به مشكلة فاشودة ، بل ينتهي بحرب قد تكون وبالاً على الطرفين . ففكروا في وضع خطة نهائية لتقسيم إفريقيا والبلاد الشرقية ، ولوقف هذا التنافس الاستعماري . وحصر كل فريق سياسته في ناحية لا يشاركه فيها الآخر . فعقدوا اجتماعاً سرّياً في لندن في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ اتفقوا فيه على تنازل إنجلترا عن التدخل في شؤون المغرب مقابل تنازل فرنسا عن التدخل في شؤون مصر .

وكان هذا المؤتمر أعظم حجر وضع في بناء المقبرة التي بنتها إنجلترا وفرنسا ليدفن

فيها المسلمون خاصة والشرقيون عامة . ولما اطلع الإيطاليون على هذا القرار وعلموا أن انجلترا وفرنسا تقاسمتا إفريقيا ، وحددت كل منهما سياستها بإزاء الأخرى ، وأن طرابلس لم يتناولها هذا التقسيم ، أرسلوا مذكرة إلى الباب العالي قالوا فيها : « إنها مدامت الحالة غير متغيرة في البحر المتوسط فإن إيطاليا لا تدعى بشيء في طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير في البحر المتوسط يخل بالتوازن الدولي فهي مضطرة أن تتخذ تدابير لوقاية مصالحها » .

ولم يقتصروا على هذا ، بل رأوا أن الفرصة سانحة بالمطالبة بقسط من هذه الغنيمة ، فطلبوا من انجلترا وفرنسا وألمانيا الموافقة على احتلال طرابلس وألحوا في ذلك . وكان من أشد الناس إلحاحاً في ذلك كريسي رئيس وزراء إيطاليا إذ ذاك ، وله رسائل عديدة في هذا الشأن إلى دول أوربا يطلب منها الموافقة على احتلال إيطاليا طرابلس وعدم التعرض لها . منها رسالة كتبها إلى السفير الإيطالي في برلين إذ ذاك جاء فيها : « أما وقد احتلت فرنسا تونس دون أقل معارضة من دول أوربا فلم يبق إذا شك في أنها ستقدم غداً فتحتل طرابلس كما احتلت تونس ، فيجب علينا إذا أن نسعى في تحديد سلطة فرنسا في تونس بحجة الوقوف في وجه فرنسا ومطامعها ، وعدم ازدياد قوتها البحرية والبرية » .

وقد كتب رسالة أخرى إلى اللورد سالسبوري الإنجليزي جاء فيها : « إن فرنسا بتعدّيها على الحدود التونسية وغيرها تبرهن على أنها تنوى الاستيلاء على طرابلس » . فكتب المختص بالشئون الإيطالية في لندن إلى كريسي يقول له :

« إن رسالة سعادتكم أثرت تأثيراً كبيراً في اللورد سالسبوري . وقد أمرني بأبلاغكم أنه يعتقد بأنه إذا جاء يوم يطلب فيه تغيير كبيراً كان أو صغيراً في البحر الأبيض المتوسط فإن طرابلس الغرب ستكون بلا شك نصيباً لإيطاليا لا لغيرها ، ولكن اللورد سالسبوري مع ذلك لا يوافقكم على نقطة واحدة ، ويعتقد أن زمن الاستيلاء على طرابلس لم يحن بعد ، نعم إن إيطاليا تستعوى على طرابلس ، ولكنها يجب أن تتمثل بذلك الضياع

الذى يتحين الفرص ليقم من إصابة فريسته ولا تغلت منه ولو كانت مجروحة » .
ويتضح من رسالة سالسبورى أنه يوافق إيطاليا على احتلال طرابلس ويحرضها على
تحين الفرص الملائمة لتكون الضربة قاتلة . ويؤيد هذا ما كتبه المستر « أرنت
بانيت » أحد نواب البرلمان الإنجليزى سابقاً ، ونصه :
« » ثم جاءت إيطاليا فأعلنت ضم طرابلس الغرب إلى أملاكها ، فلم تجد من
دول أوروبا إلا تحييداً وموافقة . ولقد صدق أحد الضباط الأتراك فى قوله لى : إنا
لا نكاد نخطو خطوة فى ميدان التقدم حتى نرى أوروبا واقفة فى طريقنا تمنعنا عن متابعة
خطوات مباركة ، فأنتم بذلك تخنقون الطفل فى بدء نشأته ولا تعطونه فرصة يظهر بها
مقدرته » . ثم قال :

« ولو كانت أوروبا بريئة من اشتراكها فى عمل إيطاليا للمعيب لحق للحكومة العثمانية
رفع أمرها إليها ، ولكنها لسوء الحظ ليست إلا شريكة لإيطاليا فى جريمتها ضد الحق
والإنسانية ، وذلك بأنها كانت جميعها عالمة بعزم إيطاليا على غزو طرابلس ، فلم تقف فى
وجهها وتمنعها من تنفيذ عزمها ، بل أذنت لها فى العمل ، وأرقت إذنها بكلمات التشجيع
والتحريض . وأنا — كإنجليزى — أخجل ولا يرتاح ضميرى لدى تذكرى بأن بريطانيا
العظمى كانت إحدى هذه الدول المتفقة على سلب الدولة العثمانية قطعة من أرضها » .
وما يعلمه الناس فى عصرنا هذا من التكالب الأوربى على احتلال البلاد الشرقية ،
والتعصب ضد أهلها ، وسلبها كل مقومات الحياة الصالحة لا يحتاج للتدليل عليه إلى مثل
هذه النصوص ، فذلك أمر علمه الكبير والصغير ، ومن له دراية بالسياسة ومن لا يفقه
فيها شيئاً ، ولكن التاريخ يجب أن يدعم بالحجج لإقناع من سيوجدون فى القرون المقبلة .
ومن الأسباب التى حملت الطليان على احتلال طرابلس أنها قريبة من سواحلها ،
ولا يفصلها عنها إلا البحر الأبيض . ومنها أن طرابلس كانت تابعة لروما قبل الفتح
الإسلامى ، وبعده فى فترات متقطعة ، فلاستيلاء عليها فيه نأر للنفس وإرضاء للنمرة
القومية بما استردوا من العرب الذين كانوا أجلوهم عنها ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى

فإن طرابلس كانت تابعة للدولة العثمانية ، وكانت هذه الدولة بلغت سن الشيخوخة ، حتى كان الأوربيون يعبرون عنها « بالرجل المريض » وكانت الدول الأوربية تمن في إرهابها ، وتثير عليها الشعوب التابعة لها وتمدهم بما يلزم للثورة من المال ومعدات الحرب ، وتقتطع كل ما أمكنها اقتطاعه من الولايات التابعة لها . وهي بهذا كله إنما تريد الإجهاد على هذا الرجل المريض لتستولى على ممتلكاته .

وكانت هذه السياسة الأوربية المعاكسة من أقوى الأسباب المؤثرة في ضعف الولايات العثمانية البعيدة على مركز الدولة . يضاف إلى هذا ما كانت عليه الدولة من ضعف بالغ وخلافات مستحكمة ، وما كانت تجده من مناوأة الدول الأوربية لها والوقوف لها في كل طريق من طرق الإصلاح .

إهمال طرابلس :

كانت طرابلس خالية من جميع أسباب القوة وال عمران . فقد جاء الاحتلال الإيطالي وهي لا يوجد فيها من أنواع المواصلات إلا طرق القوافل التي ألفها الناس منذ مئات السنين . ولا يوجد فيها من وسائل النقل إلا الجمال . ولا يوجد فيها شيء من أنواع التعليم الحديث . وإلى يوم الناس هذا سنة ١٩٤٥ لم تنجب طرابلس محامياً حقوقيًا ، ولا قاضياً قانونياً ، ولا طبيباً جامعياً ، ولا مهندساً معمارياً ، وكانت خالية من أسباب الثروة إلا قليلاً من الزراعة على المطر وبعض الحيوانات وشجر النخل والزيتون ، مع خصب أرضها ، واستعدادها للانبات وتربية الحيوانات . وكانت خالية من الجند وآلات الحرب وجميع وسائل الدفاع . وجاءت سياسة الاتحاديين بعد إعلان الدستور في ٢٤ يولييه سنة ١٩٠٨ — فيما يختص بطرابلس — مقوية لهذا الضعف فجردوها من كل ما بقي فيها من جند وسلاح . وكانت وزارات الحكومة العثمانية المختلفة لا تدخر وسعاً — كل فيما يخصها — في تحسين حالة الولايات العثمانية التركية وتحسينها ، إلا طرابلس فقد أهملوها من كل شيء : من المعارف ، والمواصلات ، والزراعة ، ووسائل الدفاع ، وكل مرافق الحياة الهامة . وكان مكتب الزراعة التركي في طرابلس يتمتع أن يقرض الطرابلسيين أو يعطيهم من البذور ما يحتاجون

اليه ، في الوقت الذي كان فيه مكتب الزراعة الإيطالي التابع لبنك دى روما يفتح أبوابه على مصراعها لإقراض الطرابلسيين كل ما يحتاجون اليه وتقديم جميع أنواع المساعدة لهم . هذا وغيره يعلمه رجال الحكومة العثمانية في الآستانة وطرابلس ، ومع ذلك لم يتداركوا الحال بأى نوع من أنواع الإصلاح . يزداد على هذا بُعدها عن مركز الدولة ، وضعف الدولة ضعفاً ممتداً ، وعدم وجود المتعلمين تعليماً عالياً ، وجهل الفنون العسكرية جهلاً مطبقاً .

وغير هذا كثير من أسباب الضعف التي جعلت مركز البلاد ضعيفاً في الدفاع سواء من الناحية المادية أو من الناحية المعنوية . اللهم إلا ما كان من بعض القلاع في العاصمة ، وكانت هذه القلاع لا تمتد إليها يد الإصلاح إلا في القليل النادر ، فهي دائماً بين مد وجزر تبعاً لسياسة الولاة المخلصين أو المنافقين .

هذا النقص في أسباب قوة الدفاع البادى في كل ناحية من نواحي حياة الطرابلسيين أغرى بهم الإيطاليين ، وهياً لهم امتلاك وطنهم بقوة الحديد والنار . وكان الطليان يرون في طرابلس منفذاً للسودان ^(١) فزادهم تسكالباً عليها .

كل هذه الأسباب — متفرقة ومجمعة — جعلت الطليان يتحينون الفرص لاحتلال طرابلس .

وقد وصلت إيطاليا بما بذلت من جهود لدى الدول الأوربية إلى نتيجة هي أنها آتست منها الرضى عن مساعيها لاحتلال طرابلس فزاد نشاطها وأخذت في إعداد ما يلزم لضرب هذه الفريسة ضربة قاتلة كما قال « سالسبورى » في رسالته آنفه الذكر . واتجهت في سياستها مع الدولة العثمانية اتجاهًا يدل في جميع مظاهره على أنها تقصد احتلال طرابلس .

(١) قدتحققت هذه الفكرة حينما احتلوا الحبشة سنة ١٩٣٥ . فكانت طرابلس أكبر عون لهم في هذه الحرب برجالها ومواصلاتها ، وكانت الجيوش ومعدات الحرب تشحن من موانئها على طريق قناة السويس . وكانت الكفرة — وهي على حدود السودان — مركزاً للاستطلاع بالطائرات والسيارات .

وجعلت في مقدمة سياستها سياسة بذل المال ، والسعى في رفع شأن ضعاف النفوس ،
وتمكينهم من مناصب الدولة لتصل من طريقهم إلى أغراضها السيئة . (تدقيقاً)
بنك دى روما :

أسس فرع لبنك دى روما في طرابلس سنة ١٩٠٥ تقريباً ، على أثر نشاط الدعاية
الإيطالية ضد الدولة العثمانية ، واكتتب البابا بالتدشين من مجموع رأس ماله . وقد استعمل رجب
باشا كل نفوذه في معارضة تأسيسه ، ولكن حكومة الأستانة كانت تشايع السياسة
الإيطالية فاعزت إليه بعدم التشدد خوفاً من (القلق السياسية) وأنشئ البنك رغم
أنفه ، وبدون استصدار مرسوم من حكومة الأستانة أو موافقة الحكومة المحلية . واتخذ
الطليان منه مركزاً للدعاية ، وأسندوا إدارته إلى « براشيانى » وهو أحد ثعالب السياسة ،
ومن أشد الناس تعصباً لجنسيته وعلى العرب . وكان كثير التجول في البلاد الطرابلسية
لبث الدعاية فيها والاطلاع على ميول السكان . وكان يقوم بهذه الرحلات تحت حماية
حكومة طرابلس ورعايتها . وكان يبذل المال من سعة في كل مناسبة . واتصل ببعض
الأعيان ممن كانت في أخلاقهم نعومة : فاتخذ منهم أصدقاء وسماراً .

وقد تمكن الطليان من التأثير على حقى بك — وكان إذ ذاك سفيراً في روما للدولة
التركية — بأن يتوسط لديها في التساهل مع بنك دى روما في شراء الأراضي ،
فكتب إليها يقول :

« إن إيطاليا تبذل جهداً كبيراً لمساعدة الحكومة العثمانية ، خصوصاً بعد الدستور ،
ومن الواجب على الباب العالي أن يتسامح مع بنك دى روما تثبتاً لأواصر المودة بين
الدولتين ، وإحكاماً لمباني الحب والصدقة » .

وبناء على هذه التوصيات من سفير الدولة أو عز الباب العالي إلى الحكومة المحلية
بطرابلس أن تقبل بيع الأراضي الفراغ باسم المدير العام لبنك دى روما ، ولكن رجب
باشا عارض هذه السياسة أشد المعارضة . وصار يمانع في بيع الأراضي لبنك دى روما ،
ويحرض الأهالي على الشراء بعضهم من بعض ، فإذا لم يوجد أحد التجأ إلى أصحاب الشفعة ،

أنصار بنك دى روما :

وقد وجدت هذه الدعاية أنصاراً من أناس كانوا يرون أنفسهم فى المقدمة ، وإذا كانت أقدار الرجال توزن بأعمالهم فسيجد أبناءنا فى أعمال هؤلاء نفر ما يهين لهم المقعد اللائق بهم ، وهم من الذين انحطت مداركهم ، وقصرت همهم عن القيام بالواجب^(١) . وكانوا موظفين فى بنك دى روما ، ويأخذون مرتبات حسب مراكزهم الاجتماعية وما يقدمونه من خدمات ضد وطنهم .

وكانت الدعاية الإيطالية تقوى وتضعف تبعاً لقوة إرادة والى وضعها ، ولشدة معارضته للسياسة الإيطالية ومسايرتها .

المشير رجب باشا :

عين والياً على طرابلس سنة ١٩٠٤^(٢) وكان برتبة مشير وكومندان .

وكان سعادته من أشد الناس وطأة على السياسة الإيطالية ، وعنده من أحسن عهود الولاية الأتراك فى طرابلس ، فكان عهد إصلاح ونشاط . وكانت سياسته فى طرابلس تقوم على أساسين : معارضة سياسة إيطاليا ، ونشر التعليم . وقد أفلح فى الناحيتين ، فوقف للسياسة الإيطالية فى كل طريق ، واستعمل نفوذه فى معارضتها إلى أبعد حدود المعارضة . فما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفاً لها بالمرصاد . وأصلح القلاع والحصون ، وأتى بالجند والأسلحة من الأستانة ، وكان يشجع على الزراعة . ويحث

(١) قد تضطرنا المجاملة إلى ترك ذكر أسماء هؤلاء المساكين ، ونكل أمرهم إلى الله الذى قدموا عليه بهذه الأعمال الخزية إلى أن يحين الوقت الذى تذكر فيه مقرونة بما قدمت أيديهم ، وما ذلك الوقت ببعيد ، فإن التاريخ يهمل ولا يهمل .

(٢) قضى فى طرابلس أكثر من عشر سنوات شغل فيها عدة مناصب كبيرة من مناصب الدولة . وقد تولى منصب الولاية سنة ١٩٠٤ . وبقي فيه نحو ست سنوات وقد أكسبه نشاطه المستمر شهرة كبيرة قبل تولى الولاية وبعدها . وما ينسب إليه من أعمال ليس قاصراً على زمن الولاية ، فإن ما كان يشغله من المناصب الكبيرة كان يهين له دائماً القيام بما يراه من أعمال الإصلاح .

على تعلم العلم والاستزادة منه . ورغب الناس في الجندية بأساليبه الحكيمه ، حتى وجد الناس ما طمأن نفوسهم إليها ، وانخرط كثير منهم في سلكها .
وكان مخلصاً في عمله ، لبقاً في أساليبه ، يدخل على الناس من حيث يجدون الطمأنينة في أنفسهم إلى ما يطلبه منهم .

وقد ظهرت آثار هذه الأساليب الحكيمه في تكييف الروح العامه في مدة وجيزه مما جعل السياسة الايطالية تنظر إليه بعين الاهتمام والجد . وأحس دعاة الطليان بفشل سياستهم في تغيير الطرابلسيين من الجندية ، فاتجهت سياستهم إلى عزل رجب باشا ، وما زالوا يسعون به لدى حكومة الأستانة حتى عزل ، وجيء بعده بولاة كانوا آله في يد السياسة الايطالية فقصعت الطريق على إصلاحات رجب باشا بعد أن بدت بشأرها في كثير من نواحي الحياة الطرابلسية ، وبقيت البلاد مهملة من كل شيء وهي في حاجة إلى كل شيء .

تهمة باطله

قد يحلو لكثير ممن لحظوا على طرابلس قبل الاحتلال الايطالى ، خلوها من النظام وال عمران والتعليم العصري أن ينحوا باللائمة على الطرابلسيين ويرون في حالهم هذه قصوراً منهم وتقصيراً في واجب العلم وال عمران .

وفي الحقيقة ان اللوم لا يقع على غير الحكومة العثمانية وولاتها في طرابلس ، والناس في سلوكهم على دين ملوكهم . والذي يؤيده التاريخ ويتمشى مع سنة التطور أن الأمم إنما تنهض في ظل مايتاح لها من صلاحية الحكم والأداة الحاكمة . فالحكومة بما لها من السلطة والهيمنة على مقدرات الأمة ومصائرهما هي التي تدير الشعب إلى ما فيه الصلاح ، وتمهد له الطريق إلى أسباب الثروة ، وتفتح له دور العلم والصناعات . وقد تقع من الحكومة بعض الأخطاء في قيادة الشعب فينهض لتقويم هذا الخطأ بعض أفرادها ممن تخرجوا في مدارسها وما أنشأته من دور العلم والثقافة .

فالحكومة إذا هي المعلم الأول للشعب . وهي التي تربي من يصلح لقيادة الشعب وتستعمله في مصالح الشعب . أما ان شعباً يرشد من غير مرشد ، أو يتعلم من غير معلم ، فذلك مالم

يعرفه التاريخ فيما أعلم . كالقياض والنبات والحيوان والجمادات . وإذا سلم هذا فإن اللوم لا يقع على الطرابلسيين لا في كثير ولا قليل ، وإنما يقع على الحكومة التركية والولاية التي كانت تبعث بهم لمباشرة الحكم في طرابلس . فما كان يهم هؤلاء الولاية من أمر طرابلس إلا جباية الأموال وما يوفر لهم حياة الترف وطيب العيش . أما ما ينهض بالشعب الطرابلسي ويدفع عنه غائلة الجهل والفقر فلا يفكرون فيه ولا يمر لهم ببال . والذي يشاهد عهد رجب باشا على قصره ، وما حصل فيه من إقبال الناس على التعليم والجنديّة ، والرغبة في التوطن والزراعة لا يخامرهم شك في أن في الشعب الطرابلسي استعداداً للاخذ بقسطه من الحضارة العلمية والاقتصادية ، وأن مسلك الحكام الترك هو الذي أوقفه موقف اللوم والانتقاد ، كما أن الذي يشاهد سوء سياستهم في طرابلس وغلظتهم في الحكم ، وقسوتهم في جباية الضرائب يحمد للطرابلسيين احتفاظهم بوجودهم ولو على تلك الحال الناقصة . وسنزيد الموضوع شرحاً إن شاء الله .

محمد علي سامي^(١)

ولما عزل رجب باشا تولى الأمور بعده محمد علي سامي أمير اللواء ، وكان رئيس أركان

(١) ذكر في مجلة الهلال الجزء الثاني من السنة العشرين ، أن رجب باشا عين والياً على طرابلس سنة ١٩٠٤ ولم يذكر نهاية حكمه ولا من تولى بعده . وجاء في كتاب « ليبيا في العهد العثماني » لليجور أنتوني جوزيف كاكيا ، تعريب يوسف حسن العسلي : أن رجب باشا عين والياً على طرابلس من سنة ١٩٠٦ — سنة ١٩٠٩ وتولى بعده أحمد فوزي سنة ١٩٠٩ ولم يذكر له نهاية . وتولى بعده إبراهيم باشا من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١١

وقد جاء في بعض المصادر في حكم طرابلس : محمد علي سامي باشا ، وأحمد فوزي باشا ، وحسن باشا ، على هذا الترتيب وكلهم بعد رجب باشا ، وذكر هذا المصدر أن مدة هؤلاء الثلاثة لم تزد على سنتين . وإذا سلمنا أن تعيين إبراهيم باشا كان سنة ١٩٠٩ اتضح لنا أن مدتهم لم تزد على سنة واحدة لأن سنة ٩ هي التي عزل فيها رجب باشا وعين فيها إبراهيم باشا . على أن هؤلاء الثلاثة ، لم يذكر في المعينين منهم إلا أحمد فوزي كما ذكر آنفاً . أما

حرب الولاية وهو جندي ليس عنده من الحنكة السياسية والإدارية ما يكفل تصريف الأمور في وجهاتها الصحيحة ، فعادت الدعاية الإيطالية إلى الظهور ، لأنها وجدت من ضعفه مشجعاً ، وبقي في الحكم نحو ثمانية أشهر ثم عزل .

أحمد فوزى باشا

كان أحمد فوزى باشا برتبة فريق ، وعين والياً بعد محمد على سامى ، فزاد نشاط السياسة الإيطالية في زمنه وكثر أنصارها ، ووجدوا من خزانة بنك دى روما مشجعاً لهم ، وأصبح لها أنصار من الموظفين في جميع مصالح الحكومة : في التلغراف ، وفي البريد ، وفي غيرها من مصالح الحكومة . وقد حدث أن حكومة طرابلس أحدثت تعديلاً داخلياً ، فأقتضى الحال أن استغنت عن بعض الموظفين ، فأنهزها بنك دى روما فرصة ووظفهم عنده ، فكان ذلك مما شجع الدعاية الإيطالية وزاد في انتشارها .

وأنشأت الحكومة الإيطالية مدارس في طرابلس فكانت تقبل التلاميذ بالجان ، وكانت المدارس التركية تطرد بعض التلاميذ إما لقلة الأمانة أو لعجزهم عن دفع المصاريف فكانت المدارس الإيطالية تتلقاهم بالترحيب ^(١) .

كل هذا تعلمه الحكومة العثمانية سواء في الآستانة وفي طرابلس ، ولكن الإهمال

الاثنان الباقيان فيظهر أنهما أسندت إليهما إدارة البلاد إدارة مؤقتة إلى أن يصدر المرسوم السلطاني بتعيين الوالى كما نشاهده الآن كثيراً .

وقد يكون لعلاء التاريخ بعض الملحوظات على هذا الترتيب . وعذرى في ذلك قلة المصادر . ووقفت عند ما وقفت عليه منها بعد الاستعانة بمعلومات بعض المواطنين على ترجيح ما اخترته .

(١) بذل أحمد رامى باشا معارضة شديدة في إنشاء المدارس الإيطالية ، واستعمل نفوذه للتغيب منها . وبالرغم على ذلك فقد تعلم فيها كثير من الفقراء واليهود ، وصاروا تجاراً بعد ذلك وربطوا معاملتهم التجارية بإيطاليا وصاروا يروجون بضائعها .

وبلغ الذين يتكلمون الإيطالية قبيل الاحتلال في مدينة طرابلس ٣٠ ٪ أكثرهم من اليهود بينما الذين يتكلمون التركية لا يزيدون على ٥ ٪ .

غلب على جميع أعمالها ، وقد عرف الموظفون منها ذلك فتجروأوا عليها ، ووجدوا في حماية النفوذ الايطالى في طرابلس ماشجعهم على التمرد والخروج على الطاعة .

وقد بلغ من جرأة هؤلاء الخارجين على الوطن ، أن جعل أحدهم من بيته استراحة لقنصل إيطاليا في غدواته وروحاته ، كما جعل بيته نادياً يجتمع فيه مروجو السياسة الايطالية للتشاور فيما يصدر إليهم من التعليمات من بنك دى روما والقنصلية الايطالية ، وأصبح الموظف في حكومة طرابلس الذى لا رادع له من وجدانه وأخلاقه يفعل ما يشاء من غير أن يخشى لوماً اتكالا على حماية القنصلية الايطالية له .

وكانت الجرائد المحلية « تعميم حرية » التركية ، و « الترقى » و « المرصاد » و « أبو قشة » العربية تبين للحكومة والرأى العام مقاصد إيطاليا وأغراض بنك دى روما ، وتنبه أولياء الأمور إلى المصائب التى يسعى البنك فى جرّها على طرابلس ، فلم يصغ إليها أحد من رجال الحكومة المسؤولين ، ولكنها أثرت فى الرأى العام ، وفهم أن البنك أسس لترويج سياسة الطليان ، وأنه مصدر المصائب على البلاد . وقد خشى البنك مغبة انقلاب الرأى العام ، فأنشأ مطبعة وجريدتين : (ايكودى تريبلى » و « استيلا » وصارتا تدافعان عن سياسته ، وتحاولان إقناع الناس أنه مؤسسة تجارية ، وأنه أبعد المؤسسات عن سياسة الاستعمار ، ولكن الرأى العام لم يتأثر بهذه الأكاذيب . وما يغنى الشعور العام إذا كانت الحكومة لا تشعر به .

ولاية حسنى باشا

وبعد نقل أحمد فوزى باشا عينت الحكومة حسن حسنى باشا خلفاً له ، فكان من معاول السياسة الإيطالية الهدامة . وكان ضعيف الإرادة سيء الإدارة ، تركياً بجنسيته ، إيطالياً بروحه وأعماله ، أتى على كل ما بقى فى البلاد من روح مقاومة السياسة الإيطالية ، وكان من أكبر المشجعين على إنشاء شركة فوسفات إيطالية ، وأفسح المجال للتدخل الإيطالى حتى اشمأز الناس من أعماله ، وأدركوا سوء عاقبتها السيئة ، وتسربت إلى نفوسهم كراهة الحكم العثماني ، وجاهرت الصحف الإيطالية فى زمنه بتعبيذ فكرة احتلال

طرابلس ، وأغرت حكومتها بذلك ، وحرضت الشعب على مطالبتها بتنفيذ هذه الفكرة ، ووصفت طرابلس بالخصب والرخاء لتقري الشعب الإيطالي بمحبتها ، وتثير شعوره لفكرة الاحتلال . وألف الشعراء فيها الأناشيد الحماسية ، وألقبوها « طرابلس الجميلة » . وألفت حكومة إيطاليا فرقة خاصة لاحتلال طرابلس سميتها « الفرقة الطرابلسية » ، وعلمتها تعليماً خاصاً ، وألبستها لباساً خاصاً يشبه لباس الطرابلسيين . وقد تجاوزت الجرائد الإيطالية كل حد في الغرض من كرامة الترك والطرابلسيين والحكومة العثمانية ، لتظهرهم في نظر الشعب الإيطالي بمظهر هين لا يقيم له وزن ليندفع في تحييد فكرة احتلال طرابلس .

كل هذا وأكثر منه تعلمه الحكومة العثمانية في الآستانة وفي طرابلس ، وهي التي سهلت للطلليان أسباب هذه الدعاية ، وأباحن لهم التمكن من مرافق البلاد ومصالح الحكومة حتى بلغت جرأتهم إلى ما ذكرنا بعضه ، ومع ذلك لم تحاول أن تصلح من هذا الغلط الفاحش وهذا الإفراط في التفريط ، وتركت الحوادث تجري في غير مصلحتها ، ومصلحة الطرابلسيين .

مَنْ يَهْتَسِ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحَ بِمَيِّتٍ إِسْلَامٌ
وقد استاء الطرابلسيون من بذاءة الصحف الإيطالية ، وإمعانها في الشتم والتعريض على احتلال طرابلس ، فاجتمع منهم جمهور كبير لتأليف مظاهرة احتجاجاً على لهجة الصحف الإيطالية ، فمنعهم الوالي « حسني باشا » بحجة أن الحكومة الإيطالية لم يظهر منها ما يؤيد لهجة الصحف ، فاجتمع نحو خمسين من أعيانهم وأرسلوا عريضة بالتعريف إلى الآستانة يظهر فيها استيائهم من لهجة الصحف الإيطالية واستعدادهم للدفاع عن وطنهم وقد وقعوها جميعاً ، وهذا نصها :

« إن أهالي طرابلس الغرب الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية منذ عصور قد عقدوا عزيمتهم على مقاومة كل قوة تحول بينهم وبين هذا الارتباط المتين الذي هو أعظم قيمة من حياتهم ، وأنهم لا ينتهون عن الدفاع في هذا السبيل ولو

انثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها ونحن ننبه الوزارة الحاضرة بكل وسائل التنبيه إلى وجوب تحصين البلاد من الوجهتين البحرية والحرية اللتين أهملت العناية بهما إلى الآن . ونلفت نظرها إلى موافاة البلاد بالذخائر والمؤن التي تكفيها مدة عام كامل على الأقل . ولقد كان في عزم شعبنا الطرابلسي المعروف بتدينه ونزغته القومية أن يعلن على الإيطاليين حرباً اقتصادية فيقاطع تجارتهم وتجارهم ، ولكنهم رجحوا جانب الصبر والتريث في الوقت الحاضر لئلا يشوشوا على الحكومة أمرها وعلى رجال السياسة مداولاتهم ومذاكراتهم . وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا — بكل سرور — آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس تراب وطنهم أقدام السالطة الأجنبية . وإنا ننقل إليكم هذه الكلمات على أسلاك البرق ونحن فوق ما كينة التلغراف نتنظر بفارغ الصبر جواب سؤالنا » .

وقد جاء الرد على هذه العريضة من المصدر الأعظم ونصه : « إن الحكومة ستدافع عن طرابلس ما استطاعت الدفاع ، فإن واليها بكر سامي بك سيسافر إليها عما قريب » . وكان هذا التسويف والمماطلة ، ثم الإهمال جزاء أعيان الطرابلس لمحبتهم وإخلاصهم للحكومة الآستانة .

لم يثن عزم الطليان عن التمهيد لاحتلال طرابلس شيء من هذه الاحتجاجات والمظاهرات ، وقد وثقوا بمعونة من بيدهم الأمر في الآستانة وفي طرابلس . وقد لمس سماسرة بنك دى روما قوة النفوذ الإيطالي في إخماد كل حركة وطنية تناوئهم أو تحد من نشاطهم ، فزادوا نشاطاً ، ووجدوا سوقاً رائجة لبث سمومهم وترويح دعايتهم . ورات إيطاليا أن تزيد هذا النفوذ تثبيتاً ، فطلبت من حكومة الآستانة أن تأذن لها في إنشاء شركة فوسفات فلم يمانع الوالى « حسنى باشا » . فألفت الشركة مبدئياً برأس مال قدره مليون فرنك ، يقسم على مائة سهم كل سهم عشرة آلاف فرنك . وانضم إليها كل من استطاع من أنصار بنك دى روما ، وكان في مقدمة المشجعين لهذه الشركة والى طرابلس

« حسنى باشا » وياوره حسن بك ، وترجمانه فروكر اليهودى ، ومدير الريجى فونوفسكى ، وكثير غيرهم من كبار موظفى الحكومة . وكان مدير الريجى هذا من أكبر الدعاة لإيطاليا . وقد عارض كثير من الوطنيين فى إنشاء هذه الشركة لأنهم أدركوا المقصود من إنشائها ، وهو تمكين رؤوس الأموال الإيطالية من البلاد ، وترويج السياسة الإيطالية . ولكن ماذا تنفع معارضتهم والوالى وشيعته من أكبر أنصارها ، وحكومة الآستانة لاتتردد فى الموافقة على أى مشروع إيطالى فى طرابلس .

وقد أرسل بنك دى روما أحد المواطنين — وهو من الموظفين فيه لحساب الدعاية الإيطالية — إلى الآستانة على حسابه ليروج لفكرة الشركة ويستصدر أمراً بتأسيسها ، ولكنه لم يوفق ورجع مخذولاً .

وطنية

لما عاد هذا الداعية إلى طرابلس يجر أذيال الخيبة ، وكل الناس يعلمون لمن ينتمى ولما إذا ذهب ، ورست به الباخرة على المرسا طلب زورقاً أو مركباً شراعياً ينتقل فيه من الباخرة إلى الرصيف ، فامتنع جميع البحارة أن يقدموا له أحد زوارقهم أو مركبهم ، وقد نقلوا إلى الرصيف جميع الركاب ما عداه . وبعد مظاهرات وهتافات وطنية ، كانت تحرق أذنيه ، وبعد تدخل مدير بنك دى روما ووساطة والى ، أنزلوه وعلى وجهه غبرة ترهقها قفزة .

وإنها لوطنية صادقة من البحارة الطرابلسيين أبت عليهم أن يحملوا فى زوارقهم رجالاً عرف بمآلاته للطلليان ضد وطنه ، وأسمعه من الإهانات ما كان يكفى لوقف نبضات قلبه . ولو كان لمثل هذا المسكين وشيعته من سماسة بنك دى روما بعض ما عند هؤلاء البحارة من الوطنية وعلو النفس لما دلوا العدو على عورات وطنهم ، ولما لوثوا أعراضهم بمثل هذه الخجالات المبكيات .

وليس بدعاً فى الدنيا أن يوجد فى طرابلس مثل هؤلاء النفرة الذين فسدت أخلاقهم وانماأت حيوياتهم ، ولم ينالوا من التربية الفاضلة ما يصدف بهم عن مثل هذه السفاسف .

فإن أمة في الدنيا لا تخلو منهم ، وقد تضافرت تواريخ العالم على وجود هذا النوع في كل زمان ومكان . و بوجدنا أن يكون فيما يلاقونه من مقت في حياتهم و بعد مماتهم عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

حوادث في ولاية حسنى باشا

أ — قدم إلى طرابلس المستر « كوزمان » من الأرجنتين ، وأصدر جريدة سماها (بروجريسو) وصار يطعن فيها على الحكومة الإيطالية ، ويبين نوايا بنك دى روما السيئة حتى تضايق منه البنك والإيطاليون . وبقي على ذلك عدة أشهر .

ب — جاء إلى طرابلس مصور أمريكي ، وبينما كان يصور جامع أحمد باشا مرصبي أمام العدسة فشوه الصورة فضربه ، وحضر البوليس لفك المشكلة ، فتناول عليه الأمريكي وضربه ، فأخذه إلى القسم للتحقيق . وغضب قنصل أمريكا واعتبر هذا إهانة له ، وطلب من حسنى باشا ترضيته فأجاب لذلك فى حفل رسمى بحضور كثير من الأجانب وطرده البوليس من الخدمة بدون وجه قانونى ، وانتهزها قنصل الطليان فرصة وطلب من الوالى نفي الصحفي كوزمان ، فأجابه لطلبه ونفاه بغير وجه قانونى . وقد استاء لعمله هذا كثير من الأجانب وأهل البلاد . وخرجت الجرائد الإيطالية عن الحد ولم تراع قانون المطبوعات العثمانى بإيعاز من البنك . وظل حسنى باشا ينعم برأحتة ولم يحرك ساكنا لكل ما يعمل فى طرابلس .

ج — فى عهد حسنى باشا جاءت لجنة فرنساوية إلى طرابلس للبحث عن مناجم الفسفات ومعبأ أمر من نظارة الداخلية العثمانية بوجوب المحافظة على أعضائها ، فاحتج الإيطاليون على هذا العمل واعتبروه إهانة لهم وتعدياً على حقوقهم . وقالوا « إن هذا يمس شرف إيطاليا صاحبة السيادة فى طرابلس » .

د — جاءت لجنة أمريكية إلى بنى غازى للبحث عن الآثار القديمة فاعتبر الطليان هذا العمل اعتداء ، وطالبت الجرائد الحكومة بإعلان سيادتها على طرابلس ، وإجبار الحكومة العثمانية على إخراج اللجنتين .

ودافعت الجرائد المحلية عن الحكومة بأنها حرة التصرف فى إعطاء الامتياز لمن

شاءت ، فزاد ذلك في استياء الطليان ، وطلبت جرائدهم إرسال الأسطول الإيطالى لاحتلال طرابلس .

هـ - (مدام كى دافلين) سيدة فرنسية زوجة طبيب الصحة فى طرابلس ، كاتبة فاضلة ساءتها خزعات الطليان ونواياهم السيئة فى طرابلس ، فأخذت تكتب فى القضية الطرابلسية ، وتفند مزاعم الطليان وما يعتمدون عليه من حجج لا أساس لها ، وتصرح بعجز إيطاليا عن احتلال طرابلس ، فاستاء الطليان من كتابتها ، وطلبوا من حكومتهم عزل زوجها وإخراجها من البلد ، ورفعوا أمرها إلى الباب العالى ، فوعد بإخراجها هى وزوجها من البلد .

وقد رأى الطليان فيما قدمه لهم حسنى باشا من المساعدات أن الفرصة سانحة للوصول إلى نتيجة هذه المقدمات ، وهى احتلال طرابلس ، ولأمر ما تأخر تنفيذ هذه السياسة المبيتة ، فعزل حسنى باشا وعين بدله إبراهيم أدهم باشا .

إبراهيم أدهم باشا

تولى والياً على طرابلس وقائداً عاماً لجيشها فى سنة ١٩٠٩ وقد وجد البلاد فى ارتباك عظيم وفوضى ما بعدها مزيد . ووجد النفوذ الإيطالى متغلغلاً فى البلاد بسبب سياسة الضعف والإهمال التى اتبعها من تقدمه من الولاة ، وخصوصاً حسنى باشا الذى كان طوع إشارة الايطاليين . ووجد الفساد قد دب فى الإدارة الحكومية بشكل يدعو إلى اليأس من إصلاحها . ولمس ما فى الإدارة من ارتباك ، وما خالط نفوس السكان من هلع من هذا المصير الذى أصبح منهم قاب قوسين . كل هذه الأمور جعلت إبراهيم باشا يحزم بأن طرابلس لم يبق بينها وبين الاحتلال الإيطالى إلا عشية أو ضحاها . فوقف من سياسة الطليان موقفاً حازماً ، وشرع فى إصلاح ما يمكن إصلاحه ، وقبض على الأمور بشدة واستعمل نفوذه فى كل صغيرة وكبيرة ، وشرع فى جمع الرديف وتعليم المتطوعين ليجمع أكبر عدد ممكن من الجند للدفاع عن البلاد .

وقد كانت صدمته للايطاليين شديدة ، وخيب آمال السياسة الإيطالية فى كل ما وصل

إليه نفوذه حتى سمي عدو إيطاليا الأكبر . وكتب عدة تقارير لحكومة الآستانة ينبهها إلى ما يحيط بطرابلس من خطر السياسة الإيطالية .

وفرض الجندية على الوطنيين ، وأمكنه أن يجمع من البلاد نحو سبعة آلاف جندي . وشرع في تحصين الحدود الغربية الفرنسية والجنوبية السودانية : فوضع قوة في « جنت » و « غات » ووضع خرائط جغرافية حربية للمناطق التي تصلح لحشد الجند والدفاع .

ومنع البنك من إخراج الحجارة الأثرية من قرقارش وناحية جنزور بحجة أنه لا يجوز إخراج المعادن الحجرية بدون رخصة ، وأنها منطقة عسكرية ، وقانون الطوبجية لا يسمح بالاقتراب منها . فاشتد الطليان وصحفهم في مناوآته والتطاول عليه ، وهو دائب في عمله لا يقابلهم إلا باللين . وعرض عليه بنك دى روما أن ينير المدينة بالكهرباء بدون مقابل ، محافظة على صداقة العثمانيين ، فرفض ، فامتعض الطليان وازدادوا كفرا .

وطلب المستر « كوزمان » العودة إلى طرابلس فلم يمانع إبراهيم باشا فخرج الطليان عن دائرة أدبهم ، واحتج سفيرهم لدى الباب العالي وطلبوا عزل إبراهيم باشا . وهذا لم يمنع كوزمان من عودته إلى طرابلس وتجهز الطليان لمنعه بالقوة ، فأحاطته الحكومة بالبوليس ونفذت إرادة إبراهيم باشا ورجع الطليان ولسان الحال يقول لهم « قل موتوا بغيظكم » . ولما منع الطليان من البحث عن آثار قرقارش التجأوا إلى حكومة الآستانة فأعطتهم رخصة بالبحث عن الآثار في مناطق أخرى .

ومن محاولات إبراهيم باشا للمحافظة على طرابلس أنه لما أيقن بخطر سياسة الطليان ، وهو يعلم أن البلاد خالية من الجند والمعدات الحربية ، رفع إلى حكومة الآستانة اقتراحاً هذا نصه :

« حيث انه لا يوجد لدى الدولة قوة بحرية تؤمن توصيل الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت عليها دولة كدولة إيطاليا ، فإنه يجب إرسال كمية وافرة من السلاح لشكنات طرابلس وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص على الأقل في نفس طرابلس ، بحيث يكون في أيدي الأهالي عدة كافية يدافعون بها عن أنفسهم لأنهم رجال أشداء ذوو بصائر في الحرب » .

فأهمل الباب العالى هذا الاقتراح رغماً على النذر التى كان بعضها يتلو بعضاً ، بأن
إيطاليا ستغير على طرابلس وبرقة .

وقد أدركت إيطاليا أن سياستها فى طرابلس معرضة للخطر ، فاجأت إلى حكومة
الآستانة تشكو إليها شدة معارضة إبراهيم باشا لسياستها فى طرابلس ، فكانت تأتية الأوامر
من حكومة الآستانة بما يرضى الايطاليين ، فكان يسوّف ويراوغ فى شئ من اللباقة كسباً
لوقت وانتهازاً للفرص . وقد ألح الطليان على حكومة الآستانة فى نقله من طرابلس والتجأوا
إلى رئيس الوزراء حتى باشا للتأثير عليه فى نقله فوافق على ذلك ، وأصدر أمره بعزله فى سبتمبر
سنة ١٩١١ واستدعاه إلى استنبول ليمنح المجال للاحتلال الايطالى . ولم تعين الحكومة
بدله لا وكيلاً ولا أصيلاً . وبقيت البلاد بلا وال ولا قائد ^(١) ، وهو حادث لم يسبق له
مشيل ، مما يدل على تأمر حتى باشا مع الايطاليين على احتلال طرابلس . وبعد عزله بنحو
١٥ يوماً حوصرت طرابلس بالأسطول الايطالى .

وفى أواخر أيام إبراهيم باشا أرسلت إيطاليا بعثة عسكرية للاطلاع على دواخل طرابلس
قالت عنها إنها بعثة علمية جغرافية والحقيقة أنها بعثة عسكرية من بين أعضائها ضباط من
هيئة أركان حرب الجيش الإيطالى لعمل خرائط ومصورات حربية .

وقد بقيت هذه البعثة تتجول فى البلاد حتى قامت الحرب وقبض على أعضائها فى
جهادى الأولى سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وحجى بهم إلى الجبل . وكان من بين أعضائها
الكونت سفورزا الذى سيأتى ذكره فى مفاوضات الشيخ سوف والشيخ سليمان البارونى
معه فى بنقردان سنة ١٩١٣ .

ولما كان إبراهيم باشا مقيماً فى الآستانة وأرسلت إيطاليا إنذارها النهائى إلى الحكومة
العثمانية أرسلت إليه لتأخذ رأيه فى مسألة طرابلس ، فأجابها بقوله : « إنى أدركت الأمر
من زمن بعيد ، وأرسلت إلى الحكومة تقريراً منذ سبعة أشهر فلم تلتفت إليه » ثم ترك
المجلس وقال : لا أعرف غير ذلك .

(١) انظر التقرير الذى قدمه نواب طرابلس إلى مجلس النواب التركى .

ولما طلب إبراهيم باشا إلى الأستانة ولم تعين الحكومة بدله ترك الأمر لبسيم بك الدفتردار . وبسيم بك هذا كان دفترداراً في أيام حسين حسنى باشا الذى جاء بعده إبراهيم باشا ، ولكنه لم يشارك حسين حسنى فى تصرفاته ، وهو من الرجال الذين كانوا يعارضونه فى سياسته الإيطالية ، وهو وإن كانت تغلب عليه الشيخوخة ، ولكنه أبى إلا أن يكون وفياً لوظيفته وحكومته . وقد أبقاه إبراهيم باشا فى منصبه لما عرف فيه من الإخلاص والوفاء .

حقى باشا

هو رئيس الوزارة العثمانية زمن احتلال الطليان طرابلس . وأول مسئول عن هذا الاحتلال . وهو رئيس العصابة التى بنت الشر لطرابلس ومكنت الإيطاليين من الاستيلاء عليها . وهو إيطالى النزعة من صغره . اشتهر بحبه المدنية الإيطالية ومعاشرة الإيطاليين ، ويفضل دائماً التردد على الأندية الإيطالية ، وله علاقة ودية متينة بالسفارة الإيطالية فى الأستانة . وقد حمله حبه للإيطاليين أن يطلب سفارة روما على أثر استقالته من نظارة المعارف ووكالة نظارة الداخلية . وبعد تعيينه سفيراً بروما ازدادت أواصر المحبة بينه وبين الإيطاليين ولما استقال حسين حلى باشا من الصدارة أرسل السنيور نانان اليهودى شيخ مدينة روما إلى جمعية الاتحاد فى سلانيك رسالة برقية يطلب فيها أن ترسل إليه أحد معتمديها ، فأرسلت إليه رضى بك^(١) مبعوث سلانيك ، ولما قابله فى روما طلب إليه أن يبلغ الجمعية رغبته فى تعيين حقى باشا صدراً أعظم . وقد أبلى رضى بك هذه الرغبة إلى الجمعية فقبلت ، واستدعى حقى باشا إلى الأستانة فى ١١ يناير سنة ١٩١١ .

وصدرت الإرادة السنية بتعيينه صدراً أعظم مع الإنعام عليه برتبة الوزارة . وهو الذى عزل إبراهيم باشا والى طرابلس بناء على رغبة السنيور غالى قنصل إيطاليا فيها ، وأمر بنقل السلاح الموجود بها بحجة إصلاح بعضه ، وإبدال ما لا يصح منه بطراز جديد كما أمر بسحب الجنود منها بحجة الحاجة اليهم فى حرب اليمن .

(١) رضى بك هذا صهر حسين باشا والى طرابلس الذى وجدت منه السياسة الإيطالية كل مساعدة وكان من أكبر أنصارها .

ويقول الأمير شكيب : « وكان يوجد في طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع سنيدر فاسترجعتها الحكومة الى الآستانة على وعد أن ترسل بدلا عنها أربعين ألف بندقية موزر ، ولكنها لم ترسل شيئا » .

والحقيقة غير ذلك فانه يريد إخلاء البلاد من معدات الدفاع ليسهل على الإيطاليين احتلالها . وأخلى القلاع من المدافع والحرس ، ولم يبق في كل قلعة سوى ثلاثة من الجنود من غير ضابط بعد أن كان في كل قلعة ١٥ جندياً وضابط . ولم يبق في القطر كله إلا ألفا جندي بعد أن كان فيه نحو عشرين ألفاً .

وقد فعل حق باشا هذا في الوقت الذي يعلم فيه كل الناس أن الطليان يستعدون لاحتلال طرابلس وهم على وشك مهاجمتها .

ولما رجع حق باشا من روما في ١١/١/١٩١١ وكان سفيراً بها ، سأله محمود شوكت باشا : هل هناك خوف من الطليان على طرابلس ؟ ، فأجابه : لاخوف على طرابلس من الطليان ، ويمكنك أن تأخذ من حامية طرابلس لنجدة الين بدون أن تخاف من الطليان أى ضرر . وهذا إخبار من حق باشا بغير الحقيقة ، لأن تحرش الطليان بطرابلس كان أوضح من أن يحمله الرجل العادي في المملكة العثمانية فضلاع عن حق باشا الذي كان سفيراً لدولته بروما . وقد سأل مكاتب الجريدة النمساوية الحرة محمود شوكت باشا^(١) بصفته وزيراً للحربية عن القوة الموجودة في طرابلس فأجابه بقوله : إن « القوة النظامية الموجودة في طرابلس تبلغ ٣٢ ألف جندي ، وقد أرسلت إليها في الأيام الأخيرة إثني عشر ألفاً فيكون المجموع ٤٤ ألفاً » .

ومن الأسف الشديد أن يصدر مثل هذا البيان من رجل مسئول ، وهو لا يتفق مع الحقيقة في شيء . وشوكت باشا يعلم قبل غيره أن القوة النظامية في طرابلس لم تبلغ يوماً من الأيام في تاريخ الترك الطويل فيها ٤٤ ألفاً . والذي نعلمه ويؤيده الواقع أن أقصى ما بلغه الجيش النظامي في طرابلس في زمن رجب باشا هو عشرون ألفاً . وقد نقص هذا العدد قبيل

(١) تولى محمود شوكت باشا نظارة الحربية التركية بعد عزل حق باشا .

الاحتلال حتى وصل إلى ألفين في زمن وزارة حقى باشا ، وهو الذى كان أمر بسحبها بحجة الاستعانة به فى حرب اليمن ، وليس هذا إلا مجرد تمويه ، فإن للحكومة ولايات فى الشرق أقرب إلى اليمن منها إلى طرابلس ، وأغنى منها بكثير ، وفيها من المعدات الحربية أكثر مما فى طرابلس . والحق الذى تؤيده جميع الظواهر ومجارى الأمور أن وزارة حقى باشا كانت مهتدة جميع السبل لاحتلال طرابلس .

فهذا التصريح من شوكت باشا وزير الحربية لا يتفق مع الحقيقة فى شيء^(١) . وإذا ضمنا إليه ما عرف عن أعضاء جمعية الاتحاد والترقى من الآراء المتطرفة بشأن طرابلس ، وما عرف عن حقى باشا من إهمال شأن طرابلس إهمالاً زائداً على كل تقدير اتضح لنا أن الذين يبدؤهم مقاليد الحكم زمن الاحتلال كان بينهم شبه إجماع على تسليم طرابلس . ولما عزل إبراهيم باشا ولم تعين الحكومة بدله احتج نواب طرابلس فى الآستانة على بقاء البلاد على هذا الوضع الشاذ فى هذا الوقت الذى يعد فيه العدو نفسه للهجوم عليها ، فعينت بسكر سامى والياً عليها فى رمضان سنة ١٣٢٩ . سبتمبر سنة ١٩١١ ولم يكن هذا العلاج إلا تسكيناً للعواطف الثائرة على الحكومة بالانتقاد لهذه التصرفات السيئة فى هذه الأوقات العصيبة .

(١) روى الأمير شكيب فى تعليقه على تاريخ ابن خلدون حكاية سمعها من أنور باشا يوم أن كانا معاً فى معسكر عين منصور بالجبل الأخضر ببرقة سنة ١٣١٢ فقال :

« استأذن أنور باشا فى السفر إلى طرابلس ، فقال له شوكت باشا (ناظر الحربية) لا أرى فائدة من سفرك ، وربما يقتلك العرب فى الطريق لأن الطليان يقدر أن يرشوهم بالمال فيقتلوك » ، فقال له أنور : « لقد أهملنا طرابلس إهمالاً فظيلاً ضاقت فيه فسحة العذر ، فيجب علينا أن نعوض نفريطنا فى حقها ، وأن نبذل كل ما نستطيعه فى سبيل الدفاع عنها ، وإذا كان العرب يقتلوننا فيكون الذنب ذنبهم ونعود نحن معذورين » .

ولم أرأت الدولة لإصرار أنور على الجهاد بنفسه فى طرابلس زوده بخمسة آلاف جنيه لا غير لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مروا بمصر متنسكين . وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضباط وما كاد يصل بركة حتى وافته الأخبار بانتصار العرب على الطليان فاشتد عزمه وأخذ فى السفر .

ولم يرسل بكر سامي إلى طرابلس رغمًا على وعد الحكومة بإرساله ومطالبتها به تنفيذًا لرغبة الطليان في بقاء البلاد من غير حاكم لأن وقت الاحتلال قد قرب . وكان في إمكان الحكومة أن تعين واليًا من العثمانيين الموجودين في طرابلس كالنتردار وغيره ، ولكن هكذا شئت حكومة الأستانة لتترك نفسها مندوحة لانتحال ما يشبه أن يكون عذرًا وما هو بعذر ، ولكنه التمويه والأعيب السياسة الضالة .

وكان حق باشا أغلب أوقاته في منزل روبيلان باشا الإيطالي مفتش الجاندرمة يقامر مع بناته ومن يجتمع معهم من الفتيات الإيطاليات إلى ما بعد نصف الليل . وفي ليلة ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ — وهي الليلة السابقة لليوم الذي تسلم فيه حق باشا الإنذار بعزم إيطاليا على احتلال طرابلس — كان حق باشا يقامر مع بنات روبيلان في منزلهن ، فقالت له كبراهن : « يا فخامة الباشا غداً ستنتقل لأمنحة من السفارة الإيطالية » تعني الإنذار بعزم إيطاليا على احتلال طرابلس ، قالت ذلك وقهقهت . وفي هذه القهقهة من السخرية ماخفي على حق باشا فهمه . وفي صبيحة تلك الليلة دخل عليه السفير الإيطالي في الأستانة « ده مارتينو » وسلمه الإنذار الإيطالي .

ولما رجع حسين كاظم باشا السفير العثماني بروما إلى الأستانة ، بعد إعلان إيطاليا الحرب سألته مندوبو الصحف عن المسألة الطرابلسية فقال : « إني كتبت إلى نظارة الخارجية منذ شهر يناير سنة ١٩١١ بأعمال إيطاليا ضد طرابلس ، ونبهتها للخطر الإيطالي الذي يهددها ويهدد الحكومة العثمانية ، ولما رجعت الآن بعد تسعة أشهر وجدت جميع مكاتباتي التي كنت أرسلها إليها لم تفتح .

ويقول الأمير شكيب : « وقد أغفل حق باشا الاطلاع على مثل هذه النوايا من إيطاليا . ومن أجل ذلك استقال ملومًا ، بل مغضوبًا عليه ولم يقدر أن يدافع عن نفسه . وذلك في مجلس عقد — فوق العادة — في القصر السلطاني إثر مطالب خمسة قدمتها إيطاليا إلى الباب العالي وهي :

(١) خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبني غازي ودرنه

(٢) تشكيل جنדרمة فيها تحت قيادة ضباط من الطليان .

(٣) أن تكون إدارة الجمارك بأيدي موظفين من الطليان .

(٤) لا يتعين وال لطرابلس إلا برضا إيطاليا .

ووجه رئيس مجلس الشيوخ « سعيد باشا » لحق باشا كلاماً قال فيه : إن مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند تركيا وأنه سبق لإيطاليا أن قدمت مذكرة في سنة ١٩٠٤ بعد اتفاقها مع إنجلترا وفرنسا^(١) .

وقد توجه اللوم في هذا المجلس الى حقى باشا الخ « ماقال الأمير شكيب ، وقد أجاب الباب العالي برفض مطالب إيطاليا قائلاً لها : « اذا كانت إيطاليا ستصمم على احتلال طرابلس فان الدولة تقوم بالواجب عليها بازاء اعتداء إيطاليا » .

حقيقة :

في اليوم الذى تسلم حتى باشا فيه الإنذار بعزم إيطاليا على احتلال طرابلس دخل عليه سفير فرنسا لحاجة له ، وانجر بهما الحديث إلى إيطاليا وطرابلس ، فقال السفير : فأشرت على حتى باشا بترضية إيطاليا وحل المسألة ودياً ، فقال له حتى : باشا نحن لانبالى إيطاليا ولا يهمنا أمرها .

ويعلم الله وحتى باشا أن هذا تمويه لا أكثر ولا أقل .

وخرج السفير الفرنساوى من عنده فالتقى بسفير إيطاليا ده مارتينو داخل عليه وفي جيبه الإنذار ، وكان قد علم قبل ذلك أنه سيقدم اليوم انذاراً لحقى باشا بشأن احتلال طرابلس ، فانتظره حتى خرج ، فسأله عما جرى بينهما فقال :

« انى أخرجت البلاغ من جيبى وقدمته لحقى باشا طالباً منه أن يقرأه ، فتناوله منى باسمًا وألقاه أمامه وقال : شكوى أخرى لكم يا حضرة السفير ، انى سأنظر فيها وأجيب حضرتكم بعد أيام قليلة . فتبسمت وقلت : « إنها أهم من شكوى عادية . فأرجو أن

تفضلوا بقراءتها الآن لأن حكومتى قد ضربت فيها أجلاً للجواب . ففض الظرف وقرأ ما فيه ، ولما رأيت علامات الاضطراب قد بدت على وجهه ودعته وانصرفت . »

هذا ما يرويه سفير فرنسا فيما يتعلق بكبير وزراء الدولة العثمانية ، وما دار بينه وبين سفير إيطاليا في هذه الفترة العصيبة التى طعن فيها سفير إيطاليا حتى باشا بخنجر فى قلبه ، فلم يألم لذلك ، بل تبسم له ، فنبهه بأن يشعر بالألم فشعر ، فتركه يتلوى ومضى . أفلا يعد هذا حماقة ؟ !

وهذا نص الإنذار :

« يا صاحب الدولة : ما انفكت الحكومة الإيطالية منذ سنين تذكر الباب العالى بضرورة وضع حد لسوء النظام وإهمال الحكومة العثمانية فى طرابلس وبنى غازى ، وإنالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام إفريقيا الشمالية . وهذا التغيير الذى يقتضيه التمدن يجعل المصالح الحيوية بحسب ما تستلزمه مصلحة إيطاليا فى أول درجة بالنظر لقصر المسافة بين تلك البلاد والشواطىء الإيطالية . وبالرغم على حسن مسلك الحكومة الإيطالية التى كانت دائماً موالية ومعاودة لتركيا فى كثير من المسائل السياسية فى العهد الأخير ، وبالرغم على اعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها فى طرابلس ، وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان فى تلك الأصقاع تلاقى دائماً مقاومة مطردة لا تحتمل .

فالحكومة العثمانية هى التى كانت تبدى عداً دائماً نحو الحركة الإيطالية الشرعية فى طرابلس وبنى غازى ، وما زالت كذلك حتى الآن . واقترحت الحكومة للملكية الإيطالية أن تتناهم معها ، وأعلنت أنها مبالاة إلى أن تمنح أى امتياز اقتصادى يتفق مع المعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها . ولكن الحكومة الملكية الإيطالية لا تشعر الآن أنها فى أحوال موافقة للدخول فى المفاوضات بهذا الموضوع : المفاوضات التى برهن الاختبار على عدم نفعها ، وهى لا تشمل على ضمانة للمستقبل ، وإن تكون إلا سبباً للاحتكاك والنزاع .

ومن جهة أخرى فقد وردت الأخبار إلى الحكومة الملكية الإيطالية من قنصلها في طرابلس وبنى غازى تفيد أن الحالة هناك خطيرة جداً بسبب التحريض العام على الرعايا الإيطاليين ، ذلك التحريض الذى قواه الضباط وسائر موظفى الحكومة حتى أصبح خطراً شديداً لا على الإيطاليين بحسب بل على سائر الأجانب أيضاً على اختلاف جنسياتهم . ولما أصبحوا يخشون على حياتهم شرعوا يهجرون البلاد بسرعة .

ثم إن وصول النقالات العسكرية العثمانية إلى طرابلس زاد الحالة خطراً وحرجا ، مع أن الحكومة الملكية الإيطالية نهبت الحكومة العثمانية إلى نتائج السيئة من قبل . ولهذا فالحكومة الملكية مضطرة إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة دفعا للخطر الناجم عنه .

ولما رأت الحكومة الإيطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها قررت أن تحتل طرابلس وبنى غازى احتلالا عسكريا . هذا هو الحل الوحيد الذى تعول عليه إيطاليا .

والحكومة الملكية تنتظر أن تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف إيطاليا فى الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ، ولا تجد صعوبة فى إنفاذ ما تريد إنفاذه ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة .

وقد صدرت الأوامر للسفير الإيطالى فى الآستانة بأن يلتمس جواباً جازماً فى هذه المسألة من الحكومة العثمانية فى مدة أربع وعشرين ساعة من تسليمه هذا البلاغ ، فإذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الإيطالية مضطرة إلى تنفيذ المشروعات المدبرة لضمان الاحتلال ، وترجو أن يبلغ جواب الباب العالى المنتظر فى أربع وعشرين ساعة لنا على يد السفير العثمانى فى رومة .

وزير الخارجية

سان جوليانو

فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١

وقد اضطرب حقى باشا لهذه الكارثة ونهض من فوره إلى مقابلة جلالة السلطان محمد الخامس ليطلع على البلاغ ، ولما قرأه جلالاته ظهرت عليه علامات الغضب والانفعال ووجه حقى باشا توبيخاً شديداً وقال له « لقد خربت الدولة فى سنتين » ثم طرده من حضرته

رد الحكومة العثمانية :

وقد ردت الحكومة العثمانية على هذا الإنذار بما نصه :

« إن طرابلس الغرب ولاية عثمانية لا يتخلى عنها الباب العالي بأى حال من الأحوال والظليان المقيمون بها لا خطر عليهم ألبتة ، ولا لزوم مطلقاً لإرسال جنود إيطالية إليها ، فإن حماية الظليان فيها هي من واجبات الحكومة العثمانية ، كما أنه لا خوف على مصالح الظليان التجارية هناك .

ولما كانت العلائق الودية لا تزال متصلة بين الدولتين فالتجهيزات التي قامت بها إيطاليا في البر والبحر تخالف عواطف الولاء ، وتضاد تلك العلائق ، بل هي تعاكس التأكيدات التي قامت بها حكومة الظليان مؤخراً بتصریحها بلسان وزير خارجيتها باعترافها بسلامة الأراضي العثمانية ، وبأنها لا تنوى احتلال طرابلس الغرب .

وعلى كل حال فالباب العالي مستعد للدخول في المحادثات بشأن مطالب إيطاليا ، وإذا رفضت ذلك فلها متابعة مقاصدها ، وإذ ذاك تقوم الحكومة العثمانية بما يفرض عليها .

وهذا الجواب سلم إلى سفارة إيطاليا في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢٩ من

سبتمبر سنة ١٩١١ .

وقد عثرت على رواية أخرى لهذا الرد ، ولما بينهما من الاختلاف البين أحببت أن أثبتهما معاً ليختار القارئ من مجموع ما شتملتا عليه ما يوافق نص الإنذار ويكون أمس بالموضوع . وهذا نص الرواية الثانية :

« إن سفارة جلالة الملك تعلم حق العلم الأسباب التي دعت ولاية طرابلس وبنى غازي ألا يكون لها من الترقى والمنافع النصيب المروم . وإذا نظر المرء بإنصاف إلى الحقيقة يرى أنه لا يمكن جعل الحكومة الدستورية مسئولة عن حالة هي نتيجة الحكم الماضى . ولكن بالرغم مما تقدم قد بحثت حكومة الباب العالي في أعمال السنوات الخمس الدستورية فلم ترفهها معارضة للأعمال الإيطالية النافعة .

إن اشتراك رؤوس الأموال الإيطالية في ترقية شئون هذه الولاية العمرانية أمر

طبيعى فى نظر الحكومة السلطانية ، فقد قابلت بكل ارتياح المشروعات التى تقدمت لها ، ونظرت بعين الرعاية إلى الأعمال التى أشارت إليها سفارة جلالة الملك ، فهى لم ترجع أبداً عن هذه الأفكار وعن رغبتها فى توثيق حسن الصداقة بين الحكومة فى دائرة الثقة المتبادلة والمودة . والاقتراح الأخير الذى اقترح على السفارة الإيطالية وهو رغبة الحكومة العثمانية فى إعطاء امتيازات للحكومة الإيطالية توسع دائرة حركة إيطاليا الاقتصادية فى الولاية هو أكبر دليل على ذلك . فالحكومة العثمانية التى تعلم حق العلم ما توجبه عليها الاتفاقات الدولية المعقودة مع الحكومات الأخرى ، والتى لا يمكن إلغاؤها بمجرد رغبة أحد المتعاقدين ترى أنها تساهلت كثيراً فى إجابة رغائب الحكومة الإيطالية الاقتصادية ، ودلت على رغبتها فى المسألة .

أما ما يتعلق بالأمن العام فالحكومة السنية تصرح الآن بما صرحت به قبلاً وهو أنه ليس هناك أثر للقلق والهياج على الإطلاق سواء كان ضد الإيطاليين أو ضد الأجانب المقيمين فى طرابلس الغرب وأن البوليس يقوم بواجباته بكل ضبط ودقة . ولا ترى الحكومة فى إرسال الباخرة التى أرسلت قبل ٢٣ الجارى دون أن تحمل عسكرياً ما يدعو إلى القلق والهياج

فيظهر مما تقدم أن الخلاف ينحصر الآن فى عدم إعطاء الضمانات الكافية لرؤوس الأموال الإيطالية فى طرابلس وبنى غازى . فحكومة الباب العالى تبلى الحكومة الإيطالية استعدادها للاتفاق معها ما دامت لا تلجأ إلى الاحتلال العسكرى . وبناء عليه تطلب من الحكومة الإيطالية أن تقدم لأئمة بطليها التى تقبل بلا شك ما دامت لاتمس سيادة الدولة العلية الفعلية على الولاية المذكورة .

ويتكفل الباب العالى ألا يحدث أقل تغيير فى حالة طرابلس الغرب وبنى غازى العسكرية فى أثناء المفاوضات . ويأمل من حكومة جلالة الملك التى تقدر هذه العواطف الودية أن تجيب هذا الاقتراح . »

هذا هو نص رد الحكومة العثمانية على الإنذار الإيطالى . وهو رد فاتر ولغته لغة

الذى ملك الخوف عليه مشاعره فتلجلج لسانه وخارت قواه . وعلى رغم ما فيه من الضعف والمسكنة لم يجد من تهيج الإيطاليين ، بل زاد إغراءهم بالحكومة العثمانية فمضوا فى تنفيذ خطتهم وأرسلوا اليها إنذاراً بإعلان الحرب . وهذا نصه :

« ترابيا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١

» صاحب الدولة :

بناء على أمر حكومة مولاي الملك المعظم يتشرف وكيل أشغال السفارة بأن يبلغكم ما يأتى :

إن المدة التى عينتها حكومة جلالة الملك أخيراً للحكومة السلطانية لتحقيق الوسائل التى أصبحت لازمة قد انقضت دون أن تبلغ حكومة جلالتة رداً مرضياً . وتأخر إعطاء هذا الرد يؤيد عدم إرادة الحكومة أو السلطة المحلية وعجزها اللذين كثرت الدلائل عليهما عن تأييد الحقوق والمصالح الإيطالية فى طرابلس الغرب وبنى غارى . ولذلك ترى حكومة جلالة الملكة نفسها مضطرة إلى اتخاذ الوسائل للمحافظة على حقوقها ومصالحها وصيانة شرف الحكومة واعتبارها . ويجب عد الحوادث التى ستجىء — وإن كانت مؤلمة — نتيجة لسوء المسلك الذى سلكته الحكومة السلطانية منذ زمن بعيد .

ولما كانت صلات الود والسلام قد انقطعت بهذه الصفة بين البلدين لحكومة إيطاليا تعتبر نفسها محاربة منذ الآن للحكومة العثمانية .

لذلك يتشرف موقعه أن يخبر فخامتكم أن أوراق اعتماد وكيل سفارة الدولة فى رومة قد سلمت إليه ، ويلتمس منكم تسليمه أوراق اعتماد بلا تأخر . وقد كلفتنى حكومة جلالة الملك أن أبلغ فخامتكم أن الرعايا العثمانيين يستطيعون البقاء فى البلاد الإيطالية مصونة أملاكهم ، وأشغالهم وأشخاصهم .

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول احتراماتى الخالصة » ج . ده مرتينو

وقد كشفت إيطاليا بهذا الإنذار عما كانت تخفيه من حقد للدولة العثمانية واستهتار بحقوقها ، وعما كانت تعزمه من احتلال طرابلس بقوة الحديد والذار .

وقد وقع هذا الإنذار موقع الاستياء من كثير من فضلاء العثمانيين وفي مقدمتهم جلالة السلطان محمد الخامس ، وظهر استياءؤه في عبارات صرح بها للمبعوثين تدل على ما تركه هذا العدوان الفظيع في نفسه من ألم . فقد اجتمع في أكتوبر سنة ١٩١١ ستون مبعوثاً ثم انتدبوا عنهم وفداً قابل جلالته للتكلم معه بشأن المسألة الطرابلسية . فقال في خطبة ألقاها عليهم : « إنه كان يريد جمع المجلس ، ولكن وزارة حقي باشا حالت دون ذلك » . وزاره وفد آخر من غير المبعوثين للغرض نفسه ، فقال : « إنني أردت أن أجمع مجلس المبعوثان قبل الآن فعارضتني وزارة حقي باشا ، وهذه الوزارة كانت مسيرة بارادة جمعية الاتحاد والترقي . »

وقال جلالته : « إنني كنت أحب أن تكون جميع استحكامات الدولة كالتى رأيتها في أدنة وسلاطيك ، ولكن وزارة حقي باشا أهملت أمر طرابلس ، ومعلوم أن جمعية الاتحاد والترقي أعلنت خطتها منذ عام أو أكثر تجاه طرابلس ، فقالت بضرورة الاقتصاد في نفقاتها الحربية . وحلت الأليات الحديدية التى أنشأها المشير رجب باشا في عهد السلطان عبد الحميد وجردت الأهالى من السلاح . »

فهذا الكلام من جلالته أمام الوفود التى جاءت تظهر استياءها من الاعتداء الإيطالى على طرابلس شهادة منه بسوء نية جمعية الاتحاد والترقي نحو طرابلس ، وأنها كانت التسكأة التى يعتمد عليها حقي باشا في خدمة السياسة الإيطالية لاحتلال طرابلس . وهو صريح في أنه كان يتألم من معارضتها له ولكنه حيل بينه وبين ما يشتهى ، وفي أنه يتبرأ من تبعة وزارة حقي باشا ويستنكر هذا الاعتداء الفظيع . ومما يؤثر عن جلالته بشأن المسألة الطرابلسية أنه قال :

« إنني طالعت تواريخ العالم فلم أر اعتداء على الحقوق أفضع من هذا الاعتداء الذى ارتكبته إيطاليا . »

وقد أرسل جلالته في اليوم الثانى من أكتوبر سنة ١٩١١ تلغرافاً إلى كل من ملك الإنجليز والامبراطور غليوم يطلب اليهما التدخل لإنهاء هذه الحرب .

فأجابه ملك الإنجليز معرباً عن أسفه وأنه لا يستطيع التدخل .
وأجابه غليوم إمبراطور ألمانيا معرباً عن احترامه لشخصه ، وأنه أصدر التعليمات
لسفيره في روما للتوسط . ثم أظهر لجلالته أن أفراد ألمانيا بالتوسط من غير أن توافقها في
ذلك دول أوروبا يجعل هذا التوسط غير مضمون النجاح ، بل يجعله عديم الفائدة .
وقد صرح سفير ألمانيا في الآستانة للصدر الأعظم بأنه لا فائدة من تدخل الإمبراطور .
وهذا نوع من الصراحة السياسية مكسو بثوب من المجاملة يقصد منه إفهام جلالة
السلطان أن ألمانيا لا شأن لها بهذا التدخل .

وقد قدمنا آنفاً أن دول أوروبا — وفي مقدمتها إنجلترا وألمانيا — متفقة على تسليم
طرابلس للطلليان .

ولم تحف جريدة الماتان الفرنسية سرورها باحتلال طرابلس وإعلان الحرب على
الدولة العثمانية . فقد نشرت بتاريخ ٢٦ من مارس سنة ١٩١٢ مانصه : « إن الحرب التي
أعلنتها إيطاليا في طرابلس ليست حرباً خاصة ، ولكنها حرب المدنية على الهدجية ، وصولاً
النصرانية على الإسلام ، ولهاتين العفتين صارت إيطاليا جديرة بعطف الدول الأوربية عليها » .
وقد نشرت الماتان هذا الكلام بعد أن مضى على إيطاليا نحو نصف سنة في طرابلس
ولم تتجاوز أسوار المدينة لتستنهض همم أوروبا لمعاونتها على الحرب الطرابلسية في لهجة
تستفز بها شعور النصرانية لحرب صليبية أخرى .

وهذه هي الحقيقة التي يجب أن نفهمها دائماً من غزو الأوربيين للبلاد الشرقية . وكل
ما جاء على غير هذا النمط من الصراحة إنما هو مجاملات سياسية لا تمت إلى الحقيقة بصلة .
وإن الإنسان ليقراً في ثنايا كلام السلطان محمد وحيد الدين أسف من لا يملك من الأمر
شيئاً ، وتحسر من سلبت إرادته وهضمت حقوقه وقد صرح بملء فيه بما يفهم منه أن
وزارة حتمى باشا هي المسؤولة عن هذا العدوان الفظيع عن طرابلس ، وأن جمعية الاتحاد
هي التي أهملت أمر طرابلس .

ومن العثمانيين الذين أظهروا استياءهم من تهجم الطليان سعادة المشير فؤاد باشا ، فإنه

لما سمع أن الطليان أرسلوا إنذاراً للباب العالي أخرج وسامين كانت حكومة إيطاليا قد أهدتها إليه ، ووضعها في علبة وأرسلها الى سفارة إيطاليا في الأستانة ومعها خطاب قال فيه : « إننى يا حضرة السفير أعيد إليك الوسامين اللذين أخذتهما من حكومتك لأننى أرى من العار على جنـدى عثمانى أن يحمل وسامات دولة تعتدى اعتداء اللصوص كدولة إيطاليا » .

وكثير من العثمانيين يحملون مثل هذا الشعور النبيل ضد إيطاليا . ولكن ماذا يفيد هذا الشعور وقد ملك الأمر علينا وعليهم جمعية الاتحاد والترقى ، وأساءت إلينا في غير أكثرات ولا مبالاة .

ولمناسبة ما أشيع إذ ذاك من قرب اعتداء الطليان على طرابلس تحدث فخرى باشا إلى سعيد باشا رئيس الوزارة المصرية واللورد كتشنر لافتاً نظرهما إلى العواقب الوخيمة التى تلحق مصر من وجود دولة مستعمرة على حدود مصر الغربية . فأجاب اللورد كتشنر بأن انجلترا جعلت هاتين الولايتين العثمانيتين من نصيب إيطاليا . فرد عليه فخرى باشا بأن الدول الكبرى تصرف فيما هو ملك لغيرها . وأن تصرفها هذا لا يفيد طرابلس ولا تركيا ولا مصر ، وهى البلدان التى يهـمها الأمر قبل غيرها .

ولم يفت فخرى باشا أن يتحدث إلى حـقـى باشا مقترحاً عليه أن يتحصل على فرمان سلطانى يولى خديو مصر أمر طرابلس الغرب وبرقة بوصفه ممثلاً للسلطان العثمانى . وأبان له أن الحدود المشتركة والعنصر والدين واللغة والمصلحة والشعور ، كل ذلك يجمع بين الشعبين ، وأن هذا الحل كفيل بأن يساعد على صون مصالح الولايتين مع مصالح مصر وتركيا .

ولكن حـقـى باشا كان فى شغل عن العمل بهذه النصائح . فإن إيطاليا ملكت عليه شعوره وعقله بحيث جعلته لا يسمع إلا ما تقول .

احتجاج

وقد وقف نواب طرابلس وبرقة من أعمال حـقـى باشا موقفاً مشرفاً ، وانتقدوا

سياسته انتقاداً سراً ، وبينوا ما جرت به حماقته على طرابلس من الويلات ، واتهموه بالخيانة العظمى ، وطلبوا محاكمته أمام الديوان العالى ، وقدموا بذلك تقريراً إلى البرلمان التركى ، وانضم إليهم كثير من نواب العرب مشاركة لهم فى شعورهم وإظهاراً للوحدة العربية . ولا يفوتنا أن نسجل هذا التقرير ، وهو من الوثائق التاريخية فى سجل الوطنية مصحوباً بالإعجاب والتقدير . وهذا نصه ^(١) :

« أيها السادة : إن طرابلس الغرب البائسة قد أمست بصولة أعداء العدل والإنسانية عرضة للانفصال عن وطننا الطاهر ، وإذا فقدنا طرابلس الغرب يفقد بها وطننا العزيز المقدس ربع أراضيه ، وتفقد أمتنا المحيطة مليونين من أبنائها ، وتفقد السلطنة العثمانية ما بقى لها من السلطان فى إفريقية . وأخيراً تفقد الخلافة الإسلامية ارتباطها المحسوس بتسعين مليوناً من المسلمين فى القارة الافريقية .

نرى الدنيا تباهى بالمدنية والإنسانية ، ولكن بالرغم من هذه المزاعم الكاذبة لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحق لا يزال للقوة إلا إذا كان مكابراً ولا أثر للاذعان فى قلبه . من أجل ذلك نبكى دماً ، لعلمنا أن القوى العثمانية لا تقدر على الدفاع عن طرابلس الغرب وبنى غازى ، وأن تلك الإيالة المفتقرة إلى قوة بحرية عظمى ، لا تزال منقطعة عن السلطنة العثمانية ، ولا صلة بينها وبين عاصمة العثمانيين .

إن المحافظة على طرابلس الغرب من أعدائها الذين فى جوارها تتوقف على وجود قوة عثمانية تكافئ قوتهم ، وعلى بحرية عثمانية رهيبة تقابل بحريتهم .

نحن لا ننكر إهمال الحكومة السابقة الخائنة لأمر التربية القومية والقوة البحرية العثمانية ليس مما يتلافى فى بضع سنوات ، ولكن الدنيا كلها وضمائر الأمة أجمعها تعتقد أنه كان من الممكن أعداد القوى للدفاع عن هذا الوطن البائس وتأخير الاستيلاء عليه ، أو على الأقل اتخاذ بعض الوسائل السياسية الخارجة عن هذه القوى لصون الشرف العثمانى وكرامة الأمة .

(١) يلاحظ أن هذا التقرير كتب بالتركية ، وقد عثرت على ترجمة أخرى تخالف التى نقلتها فى بعض العبارات ، ولكنها تتفق معها فى المعنى .

ليست القوة البحرية الدولية هي وسائل الاحتفاظ بحقوقنا ومصالحنا في مثل ولاية طرابلس ، بل كان يعوزنا في الوقت نفسه أن تكون لنا سياسة خارجية متينة وواضحة ، وتشكيلات إدارية مالية تتفق ومصلحة البلاد ، وتنظيمات حربية تلائم موقع طرابلس وخصائصها .

ثم إن هذا الوطن العثماني المقدس في حاجة إلى الاتفاق مع دولة تتكفل باستقلاله وبقائه بقوتها الحربية البحرية ، لا بالألفاظ والوعود الكاذبة كما كان شأننا إلى هذا اليوم . أما الوسط الخاص بطرابلس وبنى غازي فيلزم أن تكون له تشكيلات إدارية واقتصادية تلائم وضعه الجغرافي والقومي ، وذلك بأن يكون ذا إدارة ملكية ومالية ، وتشكيلات عسكرية وطنية ، يضمنان بقاءه وحياته منفرداً إلى الأبد ، يخفّق على أرجائه العلم العثماني الجليل .

أجل ، إنه لم يكن من الممكن إكمال أسطولنا بالسرعة التي كانت الأمة ترجوها وتنتظرها ، ولكن ألم يكن من الممكن الشروع في الوسائل الإدارية والمالية والعسكرية التي ذكرناها ؟ .

إننا — يا للأسف — لم نحاول أن نعمل شيئاً ، ولم نحرك ساكناً لإصلاح سياستنا الخارجية والتشكيلات المالية والترقيات العسكرية ، وتركنا طرابلس وبنى غازي عرضة لنتائج سياسة اتفاق الدول عليها ، وخذعنا أنفسنا بأنفسنا ، إذ أعلننا للدنيا ولساسة أوربا الطماعين أننا بسطاء لا شأن لنا إلا بحب السلام .

اخترنا لأنفسنا خطة هي أشبه بالبطالة والجهل ، وهي أسقم الخطط وأسخفها ، فجأهنا اخواننا الطرابلسيين بالنفور منهم وعدم الثقة بهم والاطمئنان اليهم كما فعلنا ذلك مع غيرهم من اخواننا سكان الممالك العثمانية مع أن الطرابلسيين الأبطال هم الذين يسفكون دماءهم اليوم من أجل الوطن المحبوب .

ومن جراء هذه الخطة السخيفة لم نعمل شيئاً ، فظهرت الثورات في بلادنا ، واشتعلت المملكة بالحروب الداخلية فضعف جسم الوطن . وليس ذلك فقط ، بل أهملنا النظر في

إصلاح ماليتنا . وهذا بيت المال يروح تحت أثقال الملايين من الديون ، وتركنا طرابلس الغرب تن من آلام الجوع والبؤس ، ولم نترك في أرجائها إلا جسمًا ضعيفًا عاجزًا ، حتى انتهى الأمر — بإهمالنا وغفلتنا — أن أصبحت طرابلس إلى هذا اليوم خالية من الجيش ومن وسائل الدفاع ، ومن كل أنواع الاستعداد . ولم تقف بنا الحال عند حد الإهمال في الماضي ، بل عزمنا على الاستغناء بتاتا عن اتخاذ شيء من هذه التدابير والوسائل الجدية . لذلك فعلت وزارة حقي باشا التي فاقت حكومة الدور السابق في الإهمال والغفلة والعطالة وعدم التفكير .

من ذلك أنها لم يخطر أبدًا في بالها أن تدخر في طرابلس وبنى غازى مايكفى جيشنا المرباط هناك من الأرزاق والمؤن والذخائر الحربية التي من شأنها أن ترد شكيمة أعدائنا الطامعين في الاستيلاء على بلادنا ، أو تؤخر زمن شروعهم فيما يعللون به نفوسهم . ثم إن هناك من الأغلاط السياسية والإدارية الأخرى التي ارتكبتها وزارة حقي باشا بشأن طرابلس الغرب ما يضطرننا — نحن مبعوثى هذه الولاية — إلى أن نذكرها بكل حزن وأسف .

إنقاص الجيش

فأول ذلك أن طرابلس الغرب — حتى في عهد الإدارة السابقة — كان يوجد فيها دائماً من خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من الجيش النظامى ومن وراء هذا الجيش أربعون إلى خمسين ألف مقاتل من جنود الأليات الحميدية المعلمة تعليماً عسكرياً بحيث يمكن استخدامها في الدفاع عن البلاد في حين الحاجة إليها . أما وزارة حقي باشا فإنها — فضلاً عن عدم اهتمامها بهذه العدة الرهيبة — أهملت أيضاً العمل بما جاء في ميزانية هذه السنة من إقرار استخدام تلك الأليات . وفوق ذلك فإنها سحبت القسم الأكبر من جنود طرابلس النظاميين لقتال أهل اليمن ، ثم لم ترجعهم بعد ذلك ولم ترسل جنوداً بمقدارهم إلى هذه الولاية .

ثم إن جنود الفرسان في طرابلس كانوا بنص ميزانية السنة الماضية الألبان (ثمانى أرب) وهما الألبان السابع والثلاثون والألبان الثامن والثلاثون ، فسحبت وزارة حتى باشا نصف هؤلاء الفرسان من طرابلس ، ولم تبق فيها غير ألبان واحد (أرب أرب^(١)) .

إهمال تجنيد الطرابلسيين :

ثانياً — لما قدمنا إلى هذا المجلس على أثر إعلان الدستور ، صار الشعب الطرابلسي ينتظر بفروغ الصبر أن تعمل الحكومة ما يجعل طرابلس في مأمن من اعتداء العدو الطامع فيها . وكثيراً ما كانوا يرسلون المحاضر يتعجلون بها هذا الإصلاح الواجب . وقد طالما طلب أهالى طرابلس منا أن نستعجل الحكومة بتطبيق نظام التجنيد على أولئك الأهالى ، وكنا نبليغ الحكومة ذلك شفاهاً وتحريراً ، حتى تمكن المجلس في اجتماعه الثانى من تخصيص نفقات للجنة التجنيد التى سترسل إلى طرابلس مؤلفة من قائمقام وكاتب ألبان وأربعة ضباط برتبة يوزباشى ، وثلاثة عشر ضابطاً برتبة ملازم أول ، وواحد وعشرين شاويشاً . وبالرغم على أن هذه النفقات كانت داخلية في ميزانية السنة الماضية لم ترسل اللجنة فى تلك السنة ، بل تأخرت إلى ما قبل أربعة أشهر فقط . وزيد على ذلك بكل أسف أن هذه اللجنة لم تكن بشكل يلائم حالة البلاد وحاجتها ، بدليل أن الذين بلغوا سن التجنيد فى طرابلس الغرب ستة عشر ألف رجل ، ولم تدخل اللجنة منهم فى سجلات الجنديّة غير ثلاثة آلاف وأربعمائة . وعرض الباقون أنفسهم على اللجنة بصفة متطوعين فرفض طلبهم ولم يقبلوا فى الجيش العثمانى . وبهذا أطفئت شعلة الحماس ، وانقطعت رغبة الشعب فى الدخول فى الجنديّة ، كما أهملت الحكومة النظر فى تشكيلات جيش الرديف وهو عدة البلاد فى الساعات الحرجة

(١) بمقتضى النظام التركى يجب أن يكون فى طرابلس ١٧ طابوراً من المشاة وعشرة كوكبات من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء .

إخلاء البلاد من السلاح :

ثالثاً : كانت حكومة العهد السابق عنت كل العناية بادخار أكثر من أربعين ألف بندقية من طراز « مارتين وسنايدر » لتسلح بها جيشاً من الأهالي ، وتؤلف منهم جيشاً وطنياً للدفاع عن البلاد عند مسيس الحاجة . أما وزارة حتى باشا فانها سحبت هذه المقادير من البنادق بحجة أنها تريد استبدالها بأخرى من الطراز الحديث . وكانت النتيجة أن فرغت مخازن طرابلس من هذه البنادق ولم يعوض عنها غيرها .

ثم إن حكومة العهد السابق كانت هدفًا للاعتراضات المتوالية من الأجانب على إرسالها المدافع والأسلحة الضخمة إلى طرابلس ولكنها لم تنفتر عن انتهاز الفرص لإرسال هذه الأسلحة سرًا إلى طرابلس وبكل احتياط . أما في عهد الحكومة الدستورية فمع أن إرسال هذه الأسلحة صار حرًا لا يعترض عليه أحد ، ومع أن مجلس الأمة لم يرض على ميزانية نظارة الحربية بالإذن في صرف كل ما تمس إليه الحاجة للدفاع عن الوطن — مع ذلك ظلت طرابلس الغرب البائسة التي هي مطمح مطامع الأعداء منسية ومهملة ، ولم تر الحكومة حاجة إلى إصلاح حصونها .

إخراج الضباط وخصوصاً ضباط العرب

رابعاً : كان الصبيان — فضلاً عن رجال الوزارة — يعلمون ما تضرره إيطاليا من الأمل في الاستيلاء على طرابلس عاجلاً أو آجلاً . وكان هذا يقضى بالإكثار من عدد الضباط ، خصوصاً الذين يعرفون منهم اللغة العربية وعادات البلاد وأحوالها الطبيعية والعسكرية ، لكي يتسنى لهؤلاء الضباط عند حدوث أقل اعتداء أن يقودوا فرق الأهالي التي تمرنت من قبل على الجندية ، حتى إنه كان يوجد في البلاد بعض من أبنائها الذين تخرجوا في المدرسة الحربية في الآستانة . أما الحكومة الحاضرة فإنها أخرجت من طرابلس كل هؤلاء الضباط الوطنيين وغيرهم من العارفين بلغة البلاد ، ولم يرسل بدلهم إلا عدداً قليلاً

لا يفي بالحاجة ولا يعرف لغة البلاد . ولذلك أصبح رجال طرابلس الغرب الذين تسلحوا الآن لصد هجمات العدو في ضيق شديد ، لأنهم لا يفهمون مقاصد الضباط وأوامرهم الحربية .

القحط والجوع

خامساً : منيت البلاد مدة أربع سنوات متوالية بقحط شديد ، وما زلنا من سنتين نخطب رجال الوزارة ونكاتبهم من أجل تلافى أضراره . وكثيراً ما كان رجال وزارة حق باشا يعترفون لنا بوجاهة مطالبنا ، ولكنهم مع ذلك أهملوا البلاد وتركوا أهلها يتخبطون في أزمة القحط وآلام الجوع .

ولما عدنا بعد انفضاض المجلس إلى طرابلس وجدنا مائتي ألف نسمة من أهلها قد هاجروا إلى تونس وغيرها فراراً من الجوع والقحط ، ورأينا أربعة آلاف شخص من الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى قد لجأوا إلى مذلة السؤال لیسدوا رمقهم وينقذوا حياتهم من مخالب الموت . وكنا علمنا أن خمسمائة وأربعة عشر شخصاً من هؤلاء ماتوا جوعاً من شهر مارس إلى غاية شهر يولييه الماضي ، فقدمنا إلى الصدر الأعظم حق باشا تلغرافاً ورسائل بتاريخ ١٣ يولييه طلبنا فيها من الحكومة أن تصرف في هذا السبيل العشرة الآلاف جنيه التي وضعت في الميزانية باسم التخصصات غير المنظورة بموجب مادة قانونية خاصة ، وافق عليها المجلس في آخر اجتماعه الماضي ، ولكن الحكومة لم تعر هذا الطلب التفاتاً .

وقد قررت الحكومة إرسال ستمائة ألف كيلة إلى طرابلس وتوزيعها على الأهالي بطريق القرض لأجل البذر والأكل ، ووضعت لذلك مادة قانونية خاصة ، ولما عدنا من طرابلس إلى الآستانة ألحنا على الحكومة بطلب الإسراع في إرسال هذه الحبوب . ومع الأسف نقول إن الحكومة تباطأت في الأمر إلى أن أعلنت الحرب ولم يرسل شيء من ذلك . وبهذا أصبح أبطال طرابلس المدافعون بأرواحهم عن حوزة الوطن بين عدوين :

الإيطاليين المعتدين ، والجوع الذى لا يرحم .

الموظفون

سادساً : بما أن العدو فى هذه الولاية مطامع سياسية فإن الحال تقضى بأن يكون الموظفون فيها عارفين لغة البلاد وتقاليدها وأحوالها . وأن يكون كبار الموظفين فى بعض أماكنها من أشرف البلاد وكبارها ليتسنى إدارتها على وجه يتفق مع مصلحة الشعب ومصلحة الحكومة . ولكن وزارة حقى باشا قد أهملت هذا الأمر الخطير ، وجعلت توظف فى البلاد طائفة من المحسوبين والذين يعتمدون على الالتماسات والوسائط وبذلك انقطع أمل الأهالى من ظهور أى إصلاح على يد رجال الإدارة .

عزل إبراهيم باشا

سابعاً : لم يسبق لهذه الولاية أن تبقى قبل الآن يوماً واحداً بدون وال وقائد ، نظراً لأهميتها وحالتها الدقيقة التى لا تحتاج إلى تعريف . ولكن وزارة حقى باشا كانت أسرع ما يكون إجابة لإشارة إيطاليا بعزل إبراهيم باشا والى طرابلس وقائدها ، وأمرته بمغادرة طرابلس قبل أن ترسل والياً وقائداً يحلان محله . وبقيت مترددة فى إرسال والى والقائد مدة شهر ونصف كان الإيطاليون يبذلون فيها كل جهد لإعداد ما يلزم للاستيلاء عليها . وظلت هذه الإيالة تحت إدارة دفتردار ساذج لا يعرف لغة البلاد ولا يعلم شيئاً من أحوالها . وسلمت مقاليد القيادة إلى أميرالاي لا يمتاز عن صاحبه الدفتردار . وكل فى هذا من التأثير السيئ على نفوس أهل الولاية الذين حق لهم أن يصدقوا ما كان أعداؤنا يشيعونه بينهم من أن الحكومة العثمانية فى غنى عن هذه الولاية ، وقد عزمت على بيعها . وكأنما كل هذه الأمور لم تكن كافية فى نظر وزارة حقى باشا ، فسحبت البكباشى وحيد بك قائد الحصون التى هى الوسيلة الوحيدة لمقاومة أسطول إيطاليا ، ولم ترسل قائداً يقوم مقامه . وبذلك قطعت وزارة حقى باشا كل وسائل الرجاء فى مداومة الدفاع .

تقصير حقى باشا

ثامناً : ليس من يجهل ما كانت إيطاليا تضمه منذ سنوات كثيرة من الأمل في الاستيلاء على طرابلس وبنى غازى ، لأن إيطاليا لم تكن تكتم آمالها فيهما ، فكانت تعلن ذلك عند كل فرصة للأمم الغربية ، وللأمة العثمانية نفسها . ثم أخذت هذه الآمال تظهر في السنوات الأخيرة ، وأصبحت إيطاليا تنتهز سنوح الفرص المناسبة . وكان الواجب على حقى باشا لما كان سفيراً في روما أن يعلم ذلك حق العلم وأن يدركه أكثر من غيره . ولكنه تعامى عما كان يشاهده بنفسه ، وأهل تنبيه مجلس المبعوثان له لما كان صدرأ أعظم ، وضرب عرض الحائط بالتقارير الرسمية التي كانت تأتيه من وإلى طرابلس ومن سفير العثمانيين في روما ، ووقف موقف المتفرج من محادثات إيطاليا مع الدول بشأن طرابلس عند ظهور مسألة مراکش ، بل وقف تلك الموقف عند ما كانت إيطاليا ترسل على وطننا أسطولها وتجيش علينا جيوشها . وأغرب من ذلك أنه سمح لسفرائنا الذين في عواصم أوروبا أن يتفرقوا هنا وهناك ، ويتركوا مراكزهم الهامة ، بينما كانت المسألة قد دخلت في شكلها الحاد وأزمته الصعبة .

إهمال طرابلس زمن الحرب

تاسعاً : وبينما كان عدونا يتأهب لمهاجمة طرابلس وغزوها ظلت وزارة حقى باشا على غفلتها ، ولم تزود جيش طرابلس القليل بما يحتاج إليه من وسائل المقاومة ، ولم ترسل إليها شيئاً من النقود التي يتوقف عليها أمر الدفاع ، فسهل بذلك على العدو بلوغ آماله ودخول البلاد .

على هذا النحو من الإهمال سار حقى باشا فترك طرابلس وبنى غازى لقمة سائغة للايطاليين لا جند فيها ولا سلاح ، ولا ذخيرة ، ولا ضباط ، ولا والى ، ولا قائداً : ولا مؤونة ، ولا مال . وعلى هذا النحو سلمت تلك القطعة المباركة التي لم يبق لنا غيرها في القارة الإفريقية . وليس في تاريخ الأمم مثال للإهمال والتفريط والتجرد من حب الوطن أعظم

من هذا المثال .

بناء على ذلك نتقدم — نحن مبعوثى طرابلس باسم الشعب الذى ننوب عنه ونعبر عن رغبته — باتهام حقى باشا وزملائه أمام الأمة كلها ، فانهم هم الذين جروا على العثمانيين هذه السبة المؤلة والكارثة الكبرى .

إن وزارة حقى باشا بهذه الغفلة التى ظهرت منها فى الشؤون الداخلية والخارجية والمالية والحربية قد أخلت بالمادة الأولى من القانون الأساسى العثمانى الذى هو أساس بناء الدولة والدستور . ولا يسعنا إلا أن نرفع الصوت عالياً بدعوة مجلس المبعوثان إلى القيام بواجبه وأداء وظيفته .

وقد بادرننا — نحن مبعوثى طرابلس — إلى استعمال حقنا الذى تخوله لنا المادة (٣١) من القانون الأساسى . وإذا وفقنا إلى إنقاذ الوطن من إهمال مهلك يهدد استقلاله ، وإذا نجحنا فى تقرير مبدأ المسؤولية ومعاقبة المقصرين ، فقد قمنا بما وجب علينا وأدينا حقوق وطننا . »

صادق
محمود ناجى
مبعوث طرابلس



هذا البيان التاريخى الذى أتى على كل الخازى التى ارتكبتها حقى باشا بشأن طرابلس ، والتى خان من أجلها دولته وباع ضميره وشرفه ليقدم طرابلس هدية للظليان نظير مأرب شخصية ، وشهوات تترفع عنها نفوس من يتولون مقاليد الأمم — نقول هذا البيان لم يترك مجالاً للقول لمن يريدون أن ينتحلوا المعاذير لحقى باشا وعصابته .

وهو احتجاج صارخ على خيانة حقى باشا وحكومته ، قام به النواب الطرابلسيون أداء للواجب ، ووفاء لحقوق الوطن وأمانته .

وقد أحال مجلس النواب التركى هذا التقرير إلى لجنة خاصة ألفت للبحث فيما نسب لحقى باشا ووزارته من الخيانة العظمى لمحاكمته ، ولكنها لم تعمل شيئاً ، لأن سياسة حقى باشا ووزارته كانت متمشية مع آراء جمعية الاتحاد والترقى ، التى كانت قابضة على زمام

الأمر في المملكة العثمانية كلها ، وكان من رأيها ألا تتمسك الحكومة العثمانية بطرابلس ،
من غير المعقول أن يحاكم حتى باشا ووزارته مادام ينفذ آراء جمعية الاتحاد وحائزاً لرضاها .



إلى هنا ينتهي الدور السياسي الذي مهد للغارة الطليانية على طرابلس . ومن الأسف
أن ما لدينا من المصادر التاريخية لم نعثر فيه على أكثر من هذه المعلومات . ونعتقد أن
ما خفي عنا كثير ، لأن هذا الدور كان من أفضح الأدوار السياسية التي ارتكبت أغلاطها
في زمن الحكومة العثمانية علانية و بغير مبالاة .

وإلى هنا ينتهي فصل من فصول رواية الاحتلال الإيطالي لطرابلس ، ونسدل الستار
على لغة الكلام ومحاورات المنطق ، ونترك ثعالب السياسة وما يصورونه للناس من مناظر
لا تلبث أن تتكشف عن نتن الخيانة وخبث الضمائر ، فقد انتهوا إلى ما قدمت أيديهم ،
والله يتولى جزاءهم .

وقد انتهى التاريخ مما سجله لهم من عار سيبقى على مدى الأيام سبباً لا تمحى
— نترك هذا ونستمع إلى لغة الحديد والنار ، ولندخل معمعان الحرب وننقب في تلك
الأراضي الطاهرة عن الأجسام الممزقة والأشلاء المبعثرة لنجمع من دماؤها الزكية ما نسجل
به ما وجب لها من فخر ، وما قدمت للوطن من فداء ، أرخصت في ميدانه تلك
النفوس الغالية .

احتلال طرابلس

ظن الطليان أن طرابلس لقمة سائغة ، وأكلة ناضجة لا تلبث أن تبتلع فتهمضم . وقد عبر أحد أركان الحرب الإيطاليين عن الحملة التي ساقوها على طرابلس بأنها نزهة بحرية وقدروا للانهاء من فتحها ١٥ يوماً . وقد سمع اللورد كاتشر الإنجليزي بهذا التقدير فاعتبره تهوراً من الطليان ، وقدر هو لاحتلال طرابلس ثلاثة أشهر . وكان هذا التقدير وذلك على حد قول الشاعر :

* ويقدرّون فتضحكُ الأقدارُ *

وقد استمرت الحرب اثنتي عشرة سنة . ضحى الطرابلسيون فيها بكل مرتخص وغال ، وخاضوا غمارها راضية نفوسهم بما يلاقون من القتل في سبيل الله ، وبما يبذلون من الأرواح الغالية فداء للوطن ، وأخيراً تغلبت القوة وكانت الدولة للغاصبين . كان الأسطول الإيطالي متأهباً للهجوم على طرابلس قبل إعلان الحرب على الدولة العثمانية . وفي يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب . وفي هذا اليوم ظهرت طلائع الأسطول أمام طرابلس ، وضرب نطاقاً حول المدينة من الشرق والشمال ، والغربي ، وسدد مدافعه إلى قلاعها ، وعرف الأبعاد ، وحدد المسافات التي يضرب منها المدينة وبقى ينتظر الأمر بالضرب . وكان الأسطول بقيادة القومندان أدميرال « أوبري » . ولما أيقنت الحكومة العثمانية بأن الطليان سيهاجمون طرابلس في القريب العاجل ، شحنت الباكسة أدرنة بالسلاح والعتاد الحربي وأرسلتها إلى طرابلس . وقد وصلت ميناء طرابلس يوم ٢٧ سبتمبر سنة ٩١١ ، وكانت رافعة العلم الألماني خوفاً من الأسطول الإيطالي الذي كان محاصراً طرابلس ، وكانت تحمل خمسة عشر ألف بندقية من نوع « ماويزر » ومليون خراطوشة ، وأفرغت هذه الشحنة كلها ، ووزعت على الطرابلسيين . وكانت عناية إلهية تلك التي أعمت الأسطول الإيطالي حتى اخترقت الباكسة أدرنة حصاره أمام أفوه مدافعه الموجهة إلى طرابلس .

وقد أرسلت الحكومة الإيطالية مذكرة في ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩١١ تقول فيها :
« وصلت الباخرة أدرنة إلى مياه طرابلس ، وبعد وصول مذكرة إيطاليا للبواب العالي
لا يسمح لأى باخرة عثمانية بالمرور من تلك المياه لأن الأسطول الإيطالى قد ضرب نطاقاً
لمحاصرة السواحل ، ويعتبر إرسال أى مدد للحماية التركية فى طرابلس عملاً عدائياً
ضد إيطاليا » .

وقد شاهدتُ الباخرة أدرنة بعد تفريغ شحناتها وهى جاثمة فى ميناء طرابلس ،
وبقيت حتى نسفها الطليان بعد احتلال المدينة .

ومنذ أن بدت طلائع الأسطول الإيطالى حول طرابلس أمر نشأت بك بالاستعداد
لنقل المهمات الحربية من المدينة . ومن الأسف أنه لا يوجد من وسائل النقل فى طرابلس
إلا الجمال ، وقليل من البغال عند الحكومة .

وكان نشأت بك ينتظر أمر الآستانة فيما يجب عمله ، وعلى ذلك فلم يأمر بالشروع فى
نقل المهمات إلا فى آخر لحظة ، وبعد أن أيقن من قطع التلغراف البحرى الذى كان يربط
مدينة طرابلس بالآستانة ، عند ذلك أمر بنقل ما تركته جمعية الاتحاد والترقى فى طرابلس
من مهمات الحرب وعتادها . وقد بذل العرب جهوداً مشكورة فى النقل على جهلهم وساعدوا
الجنود مساعدة كان لها أكبر الأثر فى إخراج أكبر كمية ممكنة إلى العزيرية وعين زاره
وسوانى بنيادم . ولما ضاق الوقت عن النقل أمر نشأت بك العرب بأخذ ما بقى فى مخازن
الحكومة من السلاح ، فأخذوا كل ما فيها ، كما وزع عليهم كل ما جاءت به الباخرة
أدرنة ، فكان لتوزيع السلاح على العرب أكبر الأثر فى نفوسهم .

وقد سرى خبر ظهور الاسطول الإيطالى أمام المدينة فى البلاد من أقصاها إلى
أقصاها سريان الكهرباء ، وتولى الموظفون وأعيان البلاد فى المراكز حث الناس على
التطوع للجهاد ، فابى الناس هذه الدعوة وجاءوا إلى المدينة من كل صوب ليمتحقوا ماذا
جرى ، وقد بلغ الحماس بالناس منتهاه ، وغصت المدينة بالتطوعين ، وكان هذا فى أول
أكتوبر ، وكان الجيش الإيطالى ما يزال بالأسطول ينتظر الأمر بالنزول . وفى اليوم

الثانى من أكتوبر أرسل قائد الأسطول إلى وكيل الوالى (الدفتردار) الأميرال « فافاريلى » فى بارجة حربية ومعه قنصل إيطاليا فى طرابلس ليطلب منه تسليم المدينة فى الحال ، وإخلاءها من كل ما يعوق الجيش الإيطالى فى نزوله إلى البر ^(١) . وكان نشأت بك ^(٢) - وهو أركان حرب الجيش العثمانى بطرابلس - مع الدفتردار ، فأجاباه بأنهما لم يتلقيا أمراً من الباب العالى بالتسليم ، وأنهما يريان تأخير كل عمل حتى يأتى الأمر من الباب العالى . وما دام يمكن حل المسألة ودياً فلا فائدة من إراقة الدماء . فرفض الأميرال الإيطالى قبول ذلك وقال : « إن مسألة الأسطول والجيش تتعلق بكرامة الأمة الإيطالية ، والأمر الذى صدر لا يمكن مقاومته وسيبدأ الحرب عما قريب » فأجابه وكيل الوالى ونشأت بك بما يأتى « إن جيش طرابلس وسكانها لا يصغون إلى أوامر تصدر إليهم من إيطاليا ، وهم يعرفون كيف يحافظون على وطنهم » . وكانت هذه الكلمة آخر ما قيل فى محاولات دفع الشر ووقاية الأرواح من الموت ، فخرج فافاريلى بدون تحية ^(٣) . وبعد وصوله إلى حيث الأسطول يربط فى عرض البحر وأخبر القائد بما جرى أرسل القائد إلى الدفتردار إنذاراً بضرب المدينة بعد أربع وعشرين ساعة . وأرسل نسخة من هذا الإنذار إلى قناصل الدول الموجودين فى المدينة يعلمهم بذلك ، ويطلب إليهم الالتجاء إلى الأسطول وقد جمع وكيل الوالى رجال الحكومة وأعيان البلاد ، وقرأ عليهم الإنذار

(١) كنت حاضراً أنا وجهور كبير من الطرابلسيين واقفين بقرب دار الحكومة (السراية الحمراء) حينما تقدمت بارجة الأميرال فافاريلى ، ونزل منها وصعد إلى وكيل الوالى . وكنت جثت إلى المدينة مع الذين جاءوا للتطوع فى الجهاد .

(٢) كان نشأت بك وقت الاحتلال الإيطالى رئيس أركان حرب ، وبرتبة أميرالاي ، وكان منير باشا لواء ووكيل كومندان ، فلما مرض منير باشا عين نشأت بك بدلا عنه . ثم جاء الأمر برتبة وال وكومندان نخلت وظيفة رئيس أركان حرب التى كان يشغلها فشغلها فتحى بك الذى كان ملحقاً بالسفارة التركية فى باريس . وقد جاء الأمر بتعيين نشأت بك واليا وكومندانا على طريق تونس ومنها إلى ذهيبية إلى نالوت . وكان الموظف المسئول عن هذه المراسلات فأعقام نالوت الدكتور رأيت بك . وكانت الأخبار تأتى إلى نالوت رأساً فى خط مستقل .

(٣) الخروج بدون تحية معناه فى مثل هذه الظروف انتهاء كل محاولة للسلم ، ولم يبق إلا الشروع فى الحرب .

وقد وقع هذا الإنذار من قناصل الدول موقع الخوف والذعر ، وكان أشدهم قلقاً قنصل أسبانيا ، حتى توهم أن الفرنجة سيذبحون عن آخرهم . وقد سمعوا أن نشأت بك ومن معه من ضباط الترك قرروا الدفاع عن المدينة إلى آخر جندى منهم وسيموتون تحت أنقاضها ولو أدى ذلك إلى فناء جميع من فيها ، فازدادوا خوفاً ، واجتمع وفد منهم وذهب لمقابلة نشأت بك ومن معه من الضباط ، فاجتمعوا بهم في دار القنصلية الألمانية — وتقع في ربض المدينة من الناحية الغربية — ولما تحققوا منهم صحة الخبر توسلوا إليهم بكل ما يمكن التوسل به ، ورجوهم بالإحاح في العدول عن هذا القرار رحمة بالسكان وإبقاء على أرواح النساء والأطفال . وبعد لأي ، وحديث طال للرجاء في أخذ ورد تحصلوا منهم على وعد بالانسحاب من المدينة بدون مقاومة فيها . ففرح القناصل كثيراً وعدوها شهامة من الأتراك ، ومروءة من نشأت بك ورفقائه . وأثبتت جرائدهم على هذا الخلق الكريم من الأتراك . وسجلها لهم مؤلفوهم في كتبهم التي ألفوها في الحرب الطرابلسية مقرونة بالشكر والثناء ، كما اعتبروا طلب قائد الأسطول لتجاءم إليهم في آخر لحظة خطأ في الرأي ، وعدم تقدير لما يجب من الوقت الطويل لنقل عشرات الألوف من السكان ، وقد قرروا البقاء في المدينة ثقة بشهامة الأتراك وبوفائهم بعهدهم ، واعتماداً على نشاط البوليس العثماني في حفظ الأمن . وقد عهد قناصل الدول إلى قنصل أمريكا المستر وود أن يكتب إلى قائد الأسطول بهذا المعنى فكتب ما ترجمته :

« إن القناصل ورعايا دولهم لهم الثقة التامة بالحكومة العثمانية الحامية ، ولذلك فهم قد عزموا على البقاء في المدينة » .

وترجم هذه الرسالة إلى الفرنسية « توبلين فيس » قنصل فرنسا ، ووقعوا عليها كلهم وبعثوا بها إليه .

وكان البوليس العثماني عند ظنهم ، فقد حافظ على النظام بكل شجاعة كما وفي الضباط بوعدهم ولم يعرضوا المدينة والسكان لتدمير القنابل والتهام النيران . وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم الثالث من أكتوبر ذهب القناصل لزيارة

الموظفين العثمانيين وتوديعهم فوجدوا نشأت بك ، والجنرال منير باشا ، والدفتردار ، ومدير الأمور السياسية فأظهروا لهم أسفهم لما حصل ، فقال لهم مدير الأمور السياسية : « إن هذا الاعتداء ربما كان معقولا منذ خمسمائة سنة ، ولكن في القرن العشرين يعد توحشا » . ويقول الذين شاهدوا هذه الحادثة : إن قنصل أمريكا اعتبر هذا الكلام توبيخا للأوربيين عموما ، وكان السبب فيه توحش الإيطاليين واعتداءهم الفظيع .

ضرب المدينة بالمدافع

في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد ظهر اليوم الثالث من أكتوبر سنة ١٩١١ بدأ الأسطول الإيطالي في ضرب مدينة طرابلس . وفي هذا اليوم أتم نشأت بك نقل الجنود منها ، ولم يبق فيها إلا بعض المدفعيين الذين كلفوا باستعمال المدافع الصالحة من القلاع ضد الأسطول ليشغله عن ضرب الجنود المنسحبة ، وقد تم لهم ذلك ، ووصل الجنود سواني بنيادم وعين زاره في سلام .

وقد اشترك في ضرب المدينة ست مدرعات من المدرعات الضخمة ، وكانت القلاع والحصون قد أهملت في وزارة حقي باشا من الإصلاح وأخذ ما فيها من المدافع بحجة إصلاحها أو تغييرها ، وهي معاذير تفتحلها وزارة حقي باشا والاتحاديون . والواقع أن هذه الأعمال كانت تمهيدا للاحتلال الإيطالي . ولم يقاوم من هذه القلاع مقاومة تذكر إلا القلعة السلطانية والقلعة الحميدية ، فتغلب الأسطول على القلعة السلطانية في اليوم الأول ، وتغلب على القلعة الحميدية ، في اليوم الثاني وهو اليوم الرابع من أكتوبر ، وبسقوط القلعة الحميدية انقطعت المقاومة من القلاع وانسحب من بقي حيا من جنودها ولحق ببقية الجنود في سواني بنيادم . وبما أن القلاع كانت مهملة ، ومدافعها كانت من الطراز القديم فلم تبد من المقاومة إلا ما ذكرنا .

ويقول الذين كتبوا في وصفها : إن قذائفها كانت لا تتجاوز خمسة أميال ونصفا بينما كان الأسطول الإيطالي يضربها من مسافة سبعة أميال وبعد أن أثرت عليها ضربات الأسطول تقدمت منها بعض البوارج وضربت من مسافة ثلاثة أميال .

وكانت آخر القلاع دفاعاً للقلعة الحميدية ، فسكتت سكوتها الأخير بعد حياة طويلة كانت فيها مناط آمال الطرابلسيين في الدفاع عن وطنهم في مثل هذه الأيام العصبية^(١) ، وفي اليوم الرابع من أكتوبر ، وعقب انقطاع مقاومة القلاع أنزلت المدرعة غار بالدي أربعة من جنودها ، وكانوا نحو ثلاثمائة بحار ومعهم أربعة مدافع رشاشة لتعطيل ما قد يكون باقياً من المدافع في القلاع بعد أن تحققوا تدميرها وفراغها من الجند ، ثم عادوا إلى الأسطول . وهو أول يوم وطئت فيه أقدام الظفافة أرض الوطن العزيز .

وفي اليوم الخامس من أكتوبر نزل فريق من البحارة ونسفوا الباخرة أدرنة التي جاءت محملة بالسلاح وقد تقدم ذكرها آنفاً . وفي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر نزل فريق من البحارة في القلعة السلطانية ، ونزل فريق آخر منهم بين القلعة والمدينة ، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر رفع العلم الإيطالي على دار الحكومة « السراية الحمراء » وقد حصل كل هذا من غير أن يلقي الطليان أى مقاومة إلا ما ذكرنا من شأن القلاع .

وبينما كانت طرابلس تضرب بمدافع الأسطول الإيطالي كانت وزارة حقي باشا تحتضر وكانت أنفاسها في النزع الأخير . وكانت تحاول الحصول على موافقة بعض رجال الدولة بالاعتراف للطليان بالأمر الواقع ولكنها وجدت معارضة شديدة ، وكان في مقدمة المعارضين صاحب الفضيلة شيخ الإسلام الأستاذ صبرى ، وناظر الداخلية ففشل ، وقدمت استقالتها فقبلت . وسقطت ولسان الدنيا يقول « لالعا^(٢) » وألفت وزارة سعيد باشا يوم ٥ من أكتوبر سنة ١٩١١ وهو اليوم الذى نزلت فيه الجنود الإيطالية في طرابلس .

نزول الطليان في طرابلس

في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٩١١ ، نزلت الجنود الإيطالية في طرابلس ، وكانت الحملة مؤلفة من ثمانية أليات من المشاة ، وألبيين من الجنود الراكبين^(٣) ، وعشرة آلاف من الخيالة والطبجية والمهندسين ، وجملتها نحو أربعة وأربعين ألفاً ، وتولى قيادتها

(١) الذى نعرفه من هذه القلاع : القلعة السلطانية . والقلعة الحميدية : و برج الشعاب : و برج الغرب : و قلعه قرقرش . (٢) كلمة يقال لمن وقع . ومعناها : لا قام من وقته . (٣) المحمولة على الآلات الميكانيكية .

الجنرال كنيفا . وقد تتابع إنزالها من يوم ٥ أكتوبر إلى يوم ٢٣ منه ، ونزل معظمها يوم ١٧ منه .

وقد أصاب الطرابلسيين شبه ذهول في أيام الاحتلال الأولى ، كما أن الطليان شغلوا بترتيب شئونهم في هذه المدة ، فلا العرب هاجمهم في المدينة ، ولا هم قاموا بأعمال حربية خارجها .

وفي أثناء هذا الفتور وزع القائد الأعلى للجيش الإيطالي «كارلو كنيفا» منشوراً على العرب يدعوهم فيه إلى الخضوع والتسليم بالأمر الواقع ، وإلى عدم معاونة الترك ، ويتهددهم فيه بالفناء إذا هم لم يستجيبوا لقوله . وهذا نص المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

بأمر ملك إيطاليا المعظم فيكتور عمانوئيل الثالث نصره الله وزاد مجده .

أنا الجنرال كارلو كنيفا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليها بحو الحكومة التركية من طرابلس والقيروان ، والمقاطعات التابعة لها . فبناء عليه أعلن الشعوب جميعهم القاطنين في المقاطعات المنوه عنها من شاطئ البحر إلى آخر الحدود الداخلية ، الذين يملكون بيوتاً في المدن وبساتين وحقولاً ومراعى حول المدن نفسها أو بعيداً عنها مايلي :

إن العساكر الخاضعة لأمرى لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا — حماه الله — لإضعاف واستعباد سكان طرابلس والقيروان وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها التي توجد الآن تحت سيادة الأتراك ، بل لتعيد إليهم حقوقهم وتقتص من المعتدين عليهم ، سواء كان الأتراك أو أى شخص كان يريد استرقاقهم . وعليه فأنتم يا سكان طرابلس والقيروان وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عملاً بقوله تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامى حرسه الله .

واعلموا أنه سيقى الشرائع الدينية والمدنية محترمة ، ويحترم الأشخاص والأملاك

والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأما كن العبادة والبر ، لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهى تحسين حالتكم والعمل على استئجاب راحتكم ، ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغراء والسنة المحمدية السمحاء . وسيفضى بينكم بالعدل طبقاً للشريعة وحسب أوامرها بواسطة قضاة قد اشتهروا بتفقههم فى الشرع ذوى استقامة وسيرة حميدة كما أنه لا نغض الطرف عن يظلم من الرؤساء ، ولا نفتقر غشاً أو خداعاً من أحد القضاة فالكتاب والشريعة والسنة فقط تقضى وتحكم بينكم .

واعلموا جيداً أنه لا يدعى أحد منكم للخدمة العسكرية بالرغم عن إرادته ، وإنما يقبل للدخول فيها أولئك الذين يرغبون الانضمام تحت اللواء الطليانى باختيارهم ، لأجل حماية النفوس والأموال ، ولكي يكفوا للبلاد السلم والنجاح ، وأما الآخرون فيبقون فى بيوتهم ، وعاكفين على العمل فى حقولهم ورعاية المواشى أو معاطاة التجارة والصناعة والحرف الضرورية لقيام الحياة المدنية .

وعلى هذا فكل امرئ يمكنه أن يقيم الصلاة فى معبده (الجامع) حسب تعاليم دينه . ويلزمكم أن تتضرعوا إلى الله عز وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالى ومجد ملكه لأنه أخذكم تحت حمايته .

والإيطاليون يرومون أن يكون اسمهم مهاباً من جميع أعدائكم ، وأما منكم فيكون محبوباً ومباركاً فقط .

وبناء عليه ، وحسبما خولنى جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته ، أعلنكم بما تقدم ، وسيجرى مفعوله من هذا اليوم من شهر شوال سنة ١٣٢٩ ليقبى كأساس للعلاقات المستقبلية التى ستوجد بين الحامية والحميمين ، وبين الإيطالى وسكان هذه البلاد وإنى واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبى لأنه سيكون قانوناً يجب أن يحفظ بأمانة واستقامة ضمير وشهامة من كلا الطرفين .

وإذا وجد من لا يحترم الشرائع ، أولاً يعتبر الأشخاص ، أو يمس حرية النساء ، أو يخترق حرمة الملك ، أو يقاوم ، أو يشور على إرادة العناية الإلهية التى أرسات

إيطاليا إلى هذه البلاد ، وباسمها صدرت لى هذه الأوامر وقبلتها ممن يملك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيما ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعمدتي بنهراس العدل والحق .

فياسكان طرابلس والقبروان والمقاطعات التابعة لها اذكروا أن الله قد قال فى كتابه العزيز : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » وقد جاء أيضاً : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » وجاء أيضاً : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » أى الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل وال عمران . وجاء أيضاً : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » أى إن تفسدوا فى الأرض إن توليتم أمور الناس ويقاتل بعضكم بعضاً ، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمهم ويعمى أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم . وجاء أيضاً : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » . وجاء أيضاً : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » فأرادة الله ومشيتته سبحانه قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلاد لأنه لايجرى فى ملكه إلا ما يريد ، فهو مالك الملك وهو على كل شىء قدير . فمن أراد أن يظهر فى السكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين ، المنفرد بتصرفاته فى ملكه الذى لا شريك له فيه ، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين .

وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

فإيطاليا تريد السلام ، وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وماسكها المعظم ويحقق فوقها العلم المثلث الألوان : أبيض وأحمر وأخضر ، إشارة إلى الحبة والإيمان والعشم فى وجه الله » .

هذا منشور الجنرال كنيفا الذى ظن أنه خاتمة « النزعة البحرية » التى عبر بها عن

احتلال طرابلس . وقد تخيل أن انضواء الطرابلسيين تحت علمه المثلث لا يحتاج إلا إلى مثل هذه الثروة ثم يهرعون إليه أفواجا . وهذا من جهل الطليان بنفسية الشعوب ، وعدم دراستهم البديهة الطرابلسية ، وعدم معرفتهم ما تنطوى عليه نفس المسلم العربي .

وكانوا يعتمدون في معلوماتهم عن الطرابلسيين على سماسة الاستعمار الذين لا يهتمهم إلا ملء جيوبهم ، يضاف إلى هذا ما كانوا يشاهدونه بأنفسهم من عدم المعارف في طرابلس وخلوها من أسباب الحضارة الحديثة ، فخيّل اليهم أن هذا هو كل ما يجب أن يتوفر من الأسباب لاحتلال شعب عربي مسلم وكسر شوكرته واستعباده . وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الذي يخون وطنه ويدل العدو على عوراتهِ ، ويمكنه من مقاتله ، هو أشد خيانة لغيره ، فهو لا يتورع عن أن يخترع من المعلومات الباطلة ما يوصله إلى ملء جيوبه . ويجب عليهم كذلك أن يعرفوا ما تنطوى عليه نفس الشعب الطرابلسي من الإباء وعزة النفس التي هي من أخص صفات الشعوب العربية ، وما كانت متأثرة به نفسه من التعاليم الإسلامية التي تحرم عليه الخضوع لمن لا يدين بدينه ، وتوجب عليه قتاله لأجل التخلص من سلطانه ، وهو فائز في كلتا الحالتين بإحدى الحسنيين : إما حياة العزة وسعادة النصر والظفر ، وإما جزاء الشهادة ورضوان الله في جنته .

وقد دلّتهم تجارب ثلاثين سنة على أن الذي حمل الطرابلسيين على قتال الطليان عشرين سنة إنما هو عزة النفس وإباؤُها ، وتأثر نفوسهم بالتعاليم الإسلامية إلى أبعد حد . ولو درسوا نفوس الطرابلسيين من هاتين الناحيتين قبل إقدامهم على احتلال طرابلس لأراحوا أنفسهم من هذا العناء ، ولكن من الأسف لم يعلموا هذا إلا بعد أن فاتهم القطار . وقد أخطأ كنيها التقدير في تأثير هذا المنشور على نفوس الطرابلسيين ، فإنه لم يطلع عليه أحد غير تلك الأيدي المأجورة التي كتبه ، فضلا عن كونه يؤثر على الطرابلسيين أو يغير من موقفهم إزاء محاربة الطليان والوقوف في وجوههم .

وإن القارئ لا يكاد ينتهي من قراءة هذا المنشور حتى يوقن بأنه من صنع أولئك الذين غضب عليهم الوطن من صنائع بنك دي روما فابتلاه الله بقلّة الحياء وموت الضمير .

وفي الحديث : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .
وفي يوم ٢٩ من شوال سنة ١٣٢٩ الموافق ١١ من أكتوبر سنة ١٩١١ أصدر روفائيل
بوبريحي والى طرابلس منشوراً يذكر فيه قوة إيطاليا ويدعو فيه العرب إلى الخضوع
والترحيب بالجنود الإيطالية ، وهذا نصه :

« أيها الأهالي المحترمون لا يخفى عليكم أنه وصل اليوم القسم الأول من عساكر برية
إيطاليا ، وسيصل عما قريب ألوف كثيرة من هذه العساكر فاحتفوا إذاً ورحبوا بهم
وأكرموا مشواهم ، فإنهم ما وطئوا هذه الديار إلا بمواطف المؤاخاة ، وبأشد ما يمكنهم
من الرغبة للدفاع عن حقوقكم ، والذب والحفاظة عن دينكم المقدس ، وصيانة عرضكم
ونابوسكم ، وفضلاً عن ذلك فإنهم قد تلقوا من الحكومة الإيطالية أوامر شديدة في
هذا الشأن .

واعلموا أيها الأهالي أن هذه العساكر قدمت وستقدم إلى هذه البلاد لكي ينجروكم
وإيانا ويكفوا عنكم وعنا عدوكم وعدونا . لتتحى إيطاليا ليحيى الملك ؟
طرابلس في ١١ من أكتوبر سنة ١٩١١ - ٢٩ من شوال سنة ١٣٢٩

والى طرابلس وما يجاورها

روفائيل بوبريحي

. قلنا آنفاً أنه أصاب البلاد شبه ذهول في أيام الاحتلال الأولى ، ولكن هذا الذهول
الذى شمل البلاد من أقصاها إلى أقصاها لم يطل ، وحصل اتصال بين أعيان البلاد ،
وتبادلوا الرأي فيما يجب عمله ، وكان الرأي الراجح في جانب الحرب .
وقبل مواجهة الطليان بفكرة الحرب أحب الأعيان أن يتصلوا بقواد الأتراك ليكونوا
على بينة من رأيهم ، فألفوا وفداً كان من بين أعضائه محمد بك فرحات الزاوى ، والشيخ
على بن تفتوش ، وذهبوا إلى نشأت بك في العزيزية ، وتشاوروا معه فيما يجب عمله .
ومن أغرب ما يتصور أن الترك كانوا غير واثقين من إخلاص العرب كما أن العرب غير
واثقين من إخلاص الترك ، وهذا دليل على فساد سياسة الترك وجهلهم بما يجب على الحاكم

من تعرف ميول الناس والامتزاج بهم .

ومن أسوأ ما وقع من تصرفات الترك أنه كان يوجد نحو خمسة آلاف جندي وطني فتآمر الترك على طردهم وحاولوا نزع سلاحهم . وقد تمكن كثير منهم من الهرب بسلاحه . وبناء على ما عند نشأت بك من تعليمات سرية بعدم الحرب كتب هو ومن معه من ضباط الأتراك عرائض بتوقيعاتهم يطلبون فيها من الطرابلسيين الموافقة على عدم الحرب في طرابلس . ولما دعوا إلى توقيعها بعض ضباط العرب ومن بينهم على أشرف أفندي المزوغى^(١) (من ترهونة) ملازم أول . وصنعى أفندي الترهوني يوزباشى — امتنعوا وهددوهم بالثورة عليهم إذا لم يوافقوا على الحرب .

والحقيقة أن الحاكم التركي شديد التمسك بمظهر الحاكمية أمام العرب ولا يوجد في جوانب نفسه ما يتسع للامتزاج بالعربي والاتصال به في نقطة تنتج عنها مصلحة عامة . وهو شديد التمسك بإصدار أوامره في شيء كثير من المعجزة والكبرياء . وكانت أكبر صلة بين الطرابلسيين والترك هي مسألة الديانة لا أكثر ولا أقل . وهي الناحية الوحيدة التي كانت تسلى الطرابلسيين عما يقاسونه من صعوبة أخلاق الترك وجفائهم ، لذلك كان كل من الفريقين يجهل الآخر ، حتى في أخرج الأوقات كانوا مضطرين للتفاهم عما يجب عمله لمصلحة الجميع .

ولما اجتمع الوفد بنشأت بك وأبدى له فكرة الجهاد التي هي فكرة الشعب أبدى بعض التردد معتذراً عن ذلك بقلة الجند ، وهذا العذر إنما هو مجرد التخلّص ، والحقيقة أنه لا يثق في العرب لأنه يجهل نواياهم وأنه يحاول أن ينفذ التعليمات السرية التي تلقاها من جمعية الاتحاد والترقي بعدم الحرب . ولكن الوفد أفهمه أنه لا بد من الجهاد ، وإذا تردد الجيش في الاشتراك في الحرب فقد لا تحمد عاقبة هذا التردد .

(١) استشهد في معارك عين زارة الأولى .

نشأت بك في الميدان

وإزاء هذا الإلحاح المشوب بالتهديد لم ير نشأت بك والضباط الأتراك بدءاً من الموافقة على الحرب ، فقررروا الجهاد ، وأرسلوا بهذا القرار إلى عموم القبائل الطرابلسية في شرقي البلاد وغربيها ، فقبول من سكان القطر جميعاً بالسمع والطاعة ، ونفر الناس خفافاً وثقالاً للجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وأخذ نشأت بك يعد جيشه للقاء العدو ، واتخذ العزيزة مركزاً لقيادته ، وكان مقر الجند في عين زارة وسوانى بنيادم ، ونقلت بعض الأشياء الثقيلة إلى غريان . وقصد المجاهدون مراكز الجند والتفوا حوله ، وانضم فرحات بك ومن معه من الأعيان إلى نشأت بك لتدبير أمور الجهاد والمجاهدين .

وعين نشأت بك موظفين إداريين : فعين محمد بك شلابي قائمقاماً في الزاوية بعد أمين المهدي ، وعين الهادي بك كعبار قائمقاماً في غريان ، وموسى بك قرادة قائمقاماً في الجبل (يفرن) .

وكان في مقدمة المجاهدين سكان السواحل : زوارة ، والزاوية ، وورشفانة ، والنواحي الأربعة ، وترهونة ، وزليطن ، ومصراته ، وغريان . وحضر من أولاد أبي سيف السيد محمد بن عبدالله ومعه جماعة منهم ، ثم تلاحق الناس من كل جهة ، واجتمعوا في المنطقة التي تبتدىء من ترينة غرباً وتمتد إلى حدود ترهونة شرقاً . واجتمع من المجاهدين خلق كثير ، ومعهم جماعة من النساء يتولين بعض أمور المجاهدين ويحرسن الأمتعة وقت الهجوم مع من يبقى معهن ممن لاقدرة لهم على الحرب .

وأذكر أنه كان من بين هؤلاء النسوة امرأتان من نساء بلادنا « الحرشا » : اسم إحداها غيثية ، وهي زوجة أبي بكر بن محمد ، من أشرف أولاد أبي حميرة وأصلها من أولاد « بو عيسى » سكان الصابرية ، مات عنها زوجها وبقيت تربي أولادها . وكان سنّها إذ ذاك حوالي خمس وأربعين سنة . واسم الأخرى « عائشة » بنت ميلاد زوجة الأسطى حميده الجربى الحداد ، وهي من الجنس الأسمر مات عنها زوجها كذلك وبقيت تربي أولادها . وسنّها في مستوي صاحبته . وقد نفشت الحمي في المجاهدين فكاتباً تقومون

بشئون المرضى وتواسيائهم . ولم أنس بعد أنهما كانتا ليلة الهجوم على الهانى تشجعان الناس بالزغاريد وتدعوان لهم بالسلام والنصر .

وفى مدة انتظار المجاهدين فى سوانى بنيادم وما حولها كان الضباط الأتراك مهتمين بتعليم المجاهدين الحركات العسكرية النظامية ، فكانوا يجمعوننا فى أوقات مخصوصة ويمرنوننا على النظام العسكرى ، وقد تناول هذا النظام الفرسان منا والمشاة . وكان الوقت ضيقاً لا يتسع لأكثر مما كان حاصلًا . وهى محاولات كانت من قبيل « مالا يدرك كله لا يترك كله » .

وقد بقى المجاهدون فى انتظار الهجوم على الطليان إلى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١١ وفى ليلة ٢٦ منه توجهنا إلى قصر الهانى لمهاجمة العدو .

أول اصطدام فى بومليانة

يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩١١

نرجع بالقارىء قليلاً إلى اليوم العاشر من أكتوبر ، فقد شغلنا عنه بمفاوضات الزعماء مع نشأت بك ، ودعوة الناس إلى الجهاد واجتماعهم له .

وأول اصطدام بالطليان كان فى بومليانة يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩١١ وهى أول مرة أطلق فيها الطرابلسيون رصاص بنادقهم على الطليان ، وكانت الحد الفاصل بين استعداد الفريقين للحرب ومباشرتها ، وكان ما أطلق فيها من الرصاص أول هاتف يبذل الفداء لحماية الوطن .

وسبب هذا الاصطدام أن المجاهدين لم يكتفوا بمراقبة العدو من بعيد ، فقرروا أن يقتحموا عليه معاقله ، فألفوا جماعة من الطرابلسيين ^(١) بقيادة ضابط تركى ، وتسلكوا تحت جنح الليل فاقتحموا عليه أسوار المدينة لاكتشاف أعماله حتى وصلوا إلى بومليانة ، وهناك انتهزوا منه غرة وأطلقوا عليه رصاص بنادقهم إيذاناً له بأنهم فى أعقابهم إذا أدبر ، وفى انتظاره إذا أقبل ، وقد أطلقت عليهم النار من جميع الجهات ، ورماهم الأسطول بمدافعه الضخمة ، وظن الطليان أن قيامتهم قد قامت . وفى الصباح وجدوا ثلاثة شهداء وجريحاً

(١) يقول المسير « ريحنال » المكاتب الحربى الفرنساوى : « ولم يزد عددهم على ١٥ رجلاً » .

واحدًا . كلهم مصابون برصاص البنادق ، وذهبت أعمال الأسطول عبثًا . وهؤلاء الثلاثة أول جماعة تشرفوا بالشهادة في الجهاد الطرابلسي — على ما نعلم — في حادثة أطلق فيها الرصاص من الجانبين .

احتلال مدينة الخمس

٢٠ من أكتوبر سنة ١٩١١ .

اقتصرت أعمال الطليان في الخمسة عشر يوماً التي تلت احتلال مدينة طرابلس على ترتيب جيوشهم فيها ، وبناء الاستحكامات وحفر الخنادق . وكان الأسطول في البحر يراقب الشواطئ ، ويختار أسهل النقاط وأضعفها لإنزال جنوده في بقية المدن الساحلية التي تقضى الخطط الحربية بسرعة احتلالها .

وفي يوم ٢٠ من أكتوبر داهم الأسطول مدينة الخمس وأطلق عليها مدافعه ، ولكنه لم يجد فيها مقاومة لأنه لم تكن فيها حامية ، فنزلت جنوده فيها واحتلوها بدون مقاومة بعد أن انسحب منها عسس المجاهدين .

ومدينة الخمس تقع على ساحل البحر شرق مدينة طرابلس على مسافة ١٢٠ كم . وهي مدينة صغيرة قائمة على جزء من أنقاض لبد — المدينة الأثرية المشهورة — وكانت دائماً مركزاً لمتصرف الجهة الشرقية ^(١) .

وحينما ضرب الأسطول الإيطالي الحصار على مدينة طرابلس ، وقبل أن تقطع أسلاك التلغراف البحري أرسل أهل مدينة الخمس تلغرافاً إلى الآستانة احتجاجاً على أعمال الطليان واستنجاداً بحكومتها . وهذا نصه بعد الديباجة :

« إن طرابلس الغرب تربط الحكومة العثمانية بإفريقية ، فالتفريط فيها عمل تأباه الوطنية العثمانية . وإن أهلها ليفاخرون بانتسابهم إلى الخلافة والسلطنة العثمانية ، فارتباطها هذا هو فخرهم الأعظم ، ولئن كانت جزءاً صغيراً من السلطنة فإن سكانها على اختلاف

(١) كلمة « متصرف » : لقب حكومي مدني يطلق على حاكم المنطقة ، وهي تساوي نائب مدير في ألغاب الحكومة المصرية .

مشاربهم يبلغون حكومة الآستانة أنهم أقاموا اجتماعات كثيرة ، وقرروا أن يسفكوا آخر قطرة من دماءهم فداء للوطن . فلينعيم الباب العالي والأمة العثمانية وصحافتها بالآ ، وليهدأ روعها فإن وطنهم لا يباع إلا بالدم .

لقد أهملت بلادنا في السابق إهمالاً مرّاً ، فلتسرل إلينا المؤمن والذخائر والعدد الحربية على جناح السرعة لنزدود عنها ونرفع رؤسنا بوطنيتنا . وإننا نرجو من حكومتنا ألا تجيب الإيطاليين إلى مطلب ، ولا تعطيتهم امتيازاً في بلادنا ولو امتيازاً اقتصادياً على الإطلاق . وإنا ننصح للحكومة ألا تحملنا على عدم مقاطعة الإيطاليين الذين صاروا في نظرنا أعداء الدولة . فهذه الحرب الاقتصادية تعود عليهم بخسارة فادحة لنعالهم كيف يكون الاعتداء . وليعلم جميع العثمانيين أننا نستقبل الموت باسمي الثغور مهللين . فحياتنا نبذلها رخيصة غير آسفين في سبيل شرف الدولة ، ولا نقبل أن يكون شبر أرض من بلادنا مهدداً من الأجانب ، فسيموحننا وشبابنا متفقون على استقبال الموت بقلوب لا تهاب المنايا ، فذلك خير من استبداد الأجنبي بهم .

هذا ما نعرضه وجوعنا واقفة في مكتب التلغراف وفي خارجه ، نطلب إمدادنا لنقوم بالواجب علينا » . وبأدنى تأمل في هذا التلغراف يتصور القارىء ما عليه الروح الطرابلسية من تحمس لملاقاة العدو ، ويدرك إلى أى حد وصل الاستياء والتهيج بالشعب . وكان قائد منطقة الخمس خليل بك عم أنور باشا ، وهو الذى تولى الدفاع عنها بمن انضم إليه من المجاهدين ^(١) .

وقد انحاز خليل بك ومن معه من المجاهدين إلى المرقب ، وهوربوة شاذخة تشرف على مدينة الخمس من الناحية الجنوبية الشمالية ، وأقاموا حوله خط دفاع ، وتحصنوا وراء هذه الربوة ، وأخذوا على العدو مسالك البلد ، فما من أحد من الطليان يحاول الخروج من

(١) خليل بك ، رقى بعد ذلك إلى رتبة باشا ، وفى الحرب العامة سنة ١٩١٤ التحق بالعراق ووقعت له فيها حروب مع الانجليز هزمهم فيها شر هزيمة . وكان قائداً محمكاً ، وشجاعاً تملأ مهابته قلوب الأعداء .

مدينة الخمس أو الإتيان بأى حركة إلا كان عرضة لرصاص المجاهدين .
وقد ضاقت الحال بالعدو فجمع جيوشاً جريئة وهاجم بها المجاهدين عدة مرات محاولاً
بذلك إجلاءهم عن المرقب واحتلاله حتى يفك عن نفسه هذا الحصار الذى طال أمده .
ومرت به فترة لم يتمكن من تحقيق هذه الأمنية . وسنرجع إلى الموضوع فى حوادث سنة ١٩١٢

واقعة المنشية

٢٣ من أكتوبر سنة ١٩١١

لم يرق المجاهدين ما حصل لهم فى بومليانة ، فقرروا أن يكيلوا للطلليان كيلاً بكيل
خصوصاً وأنهم فى واقعة بومليانة إنما جاءوا للاستطلاع لا للهجوم . وقد اتهمزوا غرة من
الإيطاليين فأنقضوا عليهم فى فجر يوم ٢٣ من أكتوبر ، فانتقموا منهم وثاروا لأنفسهم مما وقع
لهم فى بومليانة .

قام المجاهدون بهذا الهجوم على طول خط القتال من قرقارش غرباً إلى ساحل المدينة
الشرقى ، وهو خط يسكون شبه هلال من ناحيتى الغرب والجنوب . وكان قلب الجيش
موجهاً إلى المنشية وهى مركز الهجوم ، أما الجناحان من ناحية قرقارش ومن ناحية ساحل
المدينة الشرقى فكان مقصوداً بهما المناورة لتضليل القيادة الإيطالية وصرف نظرها عن
مراكز الهجوم . وقد بدأ الهجوم عند انبثاق الفجر ، وانطلقت الحملة على القائد الإيطالى
وظن أن الهجوم عام فوزع قوته على طول الخط . ولما اشتدت المعركة انضم الجناحان إلى
القلب تنفيذاً للخطة المرسومة ، فظن الطليان أن هذا الانسحاب تقهقر من المجاهدين ، ولكنه
على رأى المثل العربى : « أمر دبر ليل » . وحى وطيس المعركة فى المنشية ، وثار أهلها
على الطليان وضربوهم ضرباً لا هوادة فيه ، واستمر القتل فى الطليان ، وفتك المجاهدون بهم
فتكاً ذريعاً حتى ملئت بجثثهم أحاديث الأرض وآبار البساتين^(١) . ولم يلبث قائد الجيش

(١) بعد ما استتب الأمر لطلليان اعتصموا ببساتين المنشية وبيوتها التى وقعت فيها هذه المعركة ، وبنوا
فيها نصباً تذكاريّاً سموه « تذكّار الجنود البرسالايرى » . وقد أنزلوا فى إحدى الآبار من كانت قد ملئت
فى هذه المعركة بجثث الطليان مصابيح كهربائية ، وصاروا ينبرونها فى أوقات مخصوصة تذكراً لمن
ألقيت جثثهم فيها .

الإيطالي حتى جاءه الخبر بأن جيوشه هزمت ، فحاول أن يتدارك الأمر ولكنه أفلت منه . وقد استشهد كثير من المجاهدين ، نظراً لضيق المنطقة ، واضطرارهم لمطاردة الطليان في بعض الشوارع .

ويرجع الفضل في هذا النصر المؤزر الذي أحرزه المجاهدون في المنشية : أولاً إلى إحكام خطة الهجوم ، وثانياً إلى ثورة أهل المنشية وصدق بلائهم في الطليان ، ذلك البلاء الذي كتبوه على صفحات التاريخ بدمائهم الطاهرة ، فإنه ما كاد أهل المنشية يسمعون بهجوم إخوانهم المجاهدين حتى ثاروا على الطليان وأثخنوهم قتلاً . وكانت ثورتهم مما جعل بهزيمة الطليان .

والتجأ قائد الحملة الإيطالية « بريتش » ومعه بعض الجنود إلى أحد بيوت العرب فتحصنوا فيه ، لكن العرب تسوروه عليهم وقتلوه ، ولم ينج منهم إلا اثنان التحقوا بمن بقي من فلول جيشهم .

وكان الجيش الإيطالي في هذه الواقعة مكوناً من الأورطتين الرابعة والخامسة ، وفرقة البرساليري الحادية عشرة . وقد قال المستر فرانسز ماكولا يصف بعض ماحل بالطليان من هزيمة في هذه المعركة : « إن العرب أوشكوا أن يفنوا كل فرد من جنود الأورطتين : الرابعة والخامسة ، وفرقة البرساليري الحادية عشرة » .

واقعة شارع الشط

كما تسمى هذه الواقعة واقعة المنشية تسمى واقعة شارع الشط ، وذلك أن فرقة البرساليري وضعت في الناحية الشرقية لتحمي ميسرة الفرقتين الرابعة والخامسة ، فهاجمها المجاهدون من الشرق فاضطرت إلى الانسحاب ، فافتنوا أثرها وأرغموها على القتال والتحموا معها في مقتلة بقرب شارع الشط ، فاضطرب نظام الجيش الإيطالي وبدأت عليه الهزيمة ، واشتدت عليه ضربات المجاهدين من كل ناحية ، فكانت الدائرة عليه . وكانت هزيمة فرقة البرساليري فيما حول شارع الشط من البساتين ، فلذلك سميت واقعة شارع الشط .

وبعد انجلاء المعركة رجع المجاهدون إلى أماكنهم ، ورجع معهم بعض أهل المنشية ، الذين ثاروا على الطليان ، وبقي أناس منهم مع كثير من النساء والأطفال . وقد جن جنون الطليان لهذا الاندحار الفظيع الذي أصابهم في أول معركة استمعد فيها كل من الطرفين للقاء الآخر ، فعاثوا في سكان المنشية قتلا ، وثأروا لأنفسهم من النساء والأطفال ، ومثلوا بهم تمثيلاً يباه شرف الجندى الذي يحترم نفسه ، والقائد الذي يمثل شرف القيادة . وكان الأجدر بالجندى الإيطالى أن يثأر لنفسه من الذين نازلوه في الميدان وجهاً لوجه ، وجعلوه أضحوكة أمام الجيوش الأوربية ، ولكنها عادة اتبعها في الحرب الطرابلسية ، فما من معركة تحصل ويكون في طريقه جماعة من النساء والأطفال إلا مثل بهم سواء أكان منتصراً أم منهزماً .

وقد كتب مراسل انجليزى شهد الواقعة بنفسه في مجلة بلاكوو في ديسمبر سنة ١٩١١ مانصه : « صدرت الأوامر بإخلاء الواحة ^(١) في الحال ، وأن يقتل كل عربى معه سلاح ، أو يوجد مايدل على أنه اشترك في الثورة » .

وقال مكاتب التيمس : « إن الشدة التى استعملها الجيش الطليانى فى الانتقام من العرب الذين ثاروا يوم الاثنين يضح أن يقال عنها انها كانت عمل قتل إجمالى بدون تفریق ، وقد فتحت أبواب سفك الدماء ، وفى أكثر الأحيان تجاوز الطليان كل حد ومثلوا بالأبرياء » .

ونشرت الديلى كرونكل ما نصه : « ظل الجيش الطليانى ثلاثة أيام يطاق الرصاص على كل من يلقاه فى طريقه بدون محاكمة ، فقتلوا البرىء والجرم على السواء ، وقتل عدد كثير من النساء والأطفال . وقد بلغ مجموع من قتلوه من العرب من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة أربعة آلاف عربى ، وصدرت الأوامر بإعدام كل عربى يوجد فى الواحة — يعنى المنشية — وأن يدخلوا المنازل واحداً واحداً » .

ويقول غيره : « إن جثث الشيوخ والنساء والأطفال كانت أكواماً مكيدة . وكان

(١) يقصد المنشية .

ما ارتكبه الطليان في المنشية والساحل من أفظع ماشوهد في تاريخ البشر^(١) . وكانت صدمة المنشية شديدة على الطليان فنبهتهم إلى خطئهم في تقدير الطرابلسيين ، وحولت مجرى تفكيرهم في هذه الحرب التي أقدموا عليها ، ووضعت أيديهم على ما لعرب من قوة العزيمة وشدة الشوق إلى لقاء العدو ، والاستهانة بالموت في سبيل الدفاع عن وطنهم ، وأدركوا لذلك أن ما أتوا به من قوة لن يقوى على مقاومة العرب ، وأنهم إذا أحيط بهم مرتين في مثل واقعة المنشية فلن يكون أمامهم إلا الجلاء عن طرابلس . وكانت واقعة المنشية من الوقائع التي رفعت من شأن الطرابلسيين في حروبهم مع الطليان .

واقعة الهاني

٢٦ من أكتوبر سنة ١٩١١

كان النصر الذي أحرزه المجاهدون في واقعة المنشية مما حجب إليهم لقاء العدو وأطلعهم على بعض مواضع الضعف فيه . وما بلغهم من تشكيل العدو بإخوانهم سكان الساحل والمنشية حافزاً لهم على التفكير في اتخاذ خطة سريعة لإنقاذ من بقى منهم . وقد أجمع رأيهم على القيام بهجوم سريع قبل أن يجمع العدو شمله ويزيد في تحصين مراكزه . فاتفق الرأي على أن يكون هذا الهجوم يوم الخميس ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩١١ . وقد انقضى يوم الثلاثاء والأربعاء ٢٤ و ٢٥ منه في مناورات على طول الخط لعجم عود العدو ومعرفة مواضع الضعف منه ، وفي يوم الأربعاء أعطيت الأوامر للمجاهدين بالاستعداد للهجوم على قصر الهاني . وكان المجاهدون مجتمعين في سواني بنيادم . وما حولها ونظراً لما بين مجتمع المجاهدين وقصر الهاني من مسافة ، فقد صدرت التعليمات بالسير من المغرب حتى نصبح العدو مع بزوغ الفجر ، وهذا ما حصل .

وكانت عندنا عقيدة أنا وكثير ممن عرفتهم من المجاهدين أن رصاص المدفع الرشاش

(١) كثيراً ما ننقل عن مراسلى الصحف الأجانب الذين كانوا يرافقون الجيش الإيطالي في طرابلس ، ليطعن القارئ إلى صحة ما نكتبه من هذه الفظائع المؤلمة ، والتي لفعايتها قد لا تستريح النفس للتصديق بها . ولو سمحت لنفسى أن أقول غير الحق لما أمكن للخيال أن يتصور أفظع مما ينقله هؤلاء المكاتبون وهم شهود عيان مع الجيش الإيطالي ، ومن بنى جنسه ودينه . والحج ما شهدت به الأصدقاء .

لا يخترق الجسم ، وكل ماله من أثر أنه يصطدم به ، ثم يسقط في الأرض . وقد توجهنا إلى المهجوم على العدو ونحن على هذه العقيدة . وهى وإن كانت لا تتفق مع الواقع ولكنها شجعت كثيراً من المجاهدين على الإقدام ، ومنشؤها الدعاية لتحويل أمر الطليان .

وقصر الهانى يقع شرقى ساحل طرابلس على مسافة ١٥ كم تقريباً وهو الذى كان فى مواجهة أهل الزاوية وزوارة وورشفانة . واشترك فى المعركة كذلك النواحي الأربعة ومصراته وترهونة وغيرهم كثير . وسار مجاهدو الزاوية ومن انضم إليهم فى صفوف طويلة تعب الضباط الأتراك فى تنظيمها . واعترضنا فى طريقنا بعض الأراضى الرملية حتى أحسنا بالإعياء . وكانت الأنوار السكاشفة تنير أمامنا الأراضى للاستكشاف ما بين حين وآخر فكنا نؤمر بالوقوف حتى تطفئ لأن الحركة مما يعين على تبين الأشخاص .

وعند انبثاق الفجر ، وفى لحظة لا تزيد على بضع ثوان خشت الأصوات ، وحبت الأنفاس ، وإذا بلغة الحديد والنار تملأ ضوضاؤها ما بين السماء والأرض ، وإذا بالمجاهدين يندفعون كالسيل المنهمر إلى الأمام يخاطب بعضهم بعضاً : « تقدموا فإن رصاص المتراليوز لا يقتل » ويمنون بالمتراليوز المدفع الرشاش وأسرف الطليان فى إطلاق المدافع من الأسطول ، والأبراج البرية ، والمدافع السيارة ، وكان صوت المدافع الرشاشة يملأ الفضاء فى ضجة لا تنقطع ، والجنود الإيطاليون يطلقون الرصاص فى غير روية . وبالرغم على هذه الضجة النارية لا يلبث الإنسان أن يسمع صوت المجاهدين يأمر بعضهم بعضاً بالتقدم فى شجاعة وحماس ، وخرج الأمر من أيدي الضباط الذين حرصوا كثيراً على أن يكون المهجوم نظامياً ، ولكنهم كانوا قلة بحيث لم يمكنهم ضبط حماس المجاهدين . واندفع المجاهدون تحت هذا الستار من النار فاخترقوا خطوط العدو وشاركوه فى البلاد ، وتترسوا بأسوار البسانين وجذوع النخل ، واستمروا فى تقدمهم إلى أن أشرفوا على المدينة ، وسمعت فيها أصوات التهليل والتكبير ، فاشتعلت الحمية فى صدور بعض الناس فركض جواده فى أحد شوارعها ونادى بأعلى صوته « الجهاد فى سبيل الله » . واستمرت المعركة فى شدتها إلى ما يقارب الظهر والمجاهدون فى أتون من الجحيم لا تسمع إلا الأصوات

الرصاص وزجاجة المدافع ، ثم خف إطلاق النار وأخذت المعركة تنجلي شيئاً فشيئاً ، وإذا بها تسفر عن كثير من الشهداء ، ودفع المجاهدون أغلى ما يدفع في سبيل الله لإنقاذ الوطن . وكانت الخسارة فادحة من الطرفين في هذا اليوم المشهود في الحرب الطرابلسية . وكان معي اثنان من أبناء عمي : علي بن عبد الله ، وإبراهيم بن محمد ، فاستشهد إبراهيم ، ورجعت أنا وعلى .

وما أنس لا أنس أستاذي الجليل الشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتي ونحن في طريقنا إلى لقاء العدو ، وهو راكب فرسه يتنقل في صفوف المجاهدين يميناً وشمالاً يأمرنا بالصبر عند لقاء العدو ، ويشجعنا بقوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم » و « قاتلهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم » وغير ذلك من الألفاظ التي تشق طريقها إلى قلوب المجاهدين المؤمنين . كما أني لم أنس الشيخ محمد سوف شيخ الحاميين في عصره ، وهو راكب على جواده يؤانس المجاهدين بعد رجوعهم من المعركة ، ويثبت قلوبهم ، ويحرضهم على الاستمرار في الجهاد ، ويقول لهم : « لا يصح أن نصدر عن البئر قبل أن نشرب » ، ومعناه : يجب علينا أن نصبر على ملاقات العدو ، ولا نترك الجهاد حتى نطرده من بلادنا . وقد مهدت واقعة الهاني الطريق للمجاهدين لمزاحمة الطليان حول المدينة ، وتخفيف الضغط على سكان الساحل والمنشية الذي حصل لهم بسبب واقعة يوم الاثنين ، وسهلت للكثيرين منهم الانضمام إلى المجاهدين الذين اقتحموا على العدو مواقعه بالساحل والمنشية ، ونازعوه فيها مواضع أقدامه .

وفي يوم ٢٧ أكتوبر - وهو اليوم التالي للمعركة - ثم انسحاب الطليان إلى الناحية الغربية مما يسامت مكتب الزراعة وسيدى المصرى من الناحية الشمالية فيما بينها وبين المدينة . واتخذ المجاهدون من بيت السيد بركة الشريف مركزاً لهم ، ونصبوا مدفعاً في « قوز الزناتي »^(١) وصارت قذائفه تقع في سوق الثلاث داخل أسوار المدينة وحول دور الحكومة . وأحس الطليان بخطر هذا المدفع عليهم فبيتوه ، وصوبوا نحوه مدافعهم من

(١) القوز في اللغة الطرابلسية الدارجة يطلق على السكيت من الرمل .

البر والبحر حتى « جرحوه » على حد تعبير المجاهدين ، يعنى كسروا عجلة العربى التى كانت تجره ، فتعذر إصلاحه كما تعذر استعماله ونقله ، وسكت فى غير جبن ، وفقد المجاهدون معونته .

ونشط المجاهدون فى مضايقة الطليان فى كل مكان ، حتى قال أحد الطليان : « وأصبح العرب يخرجون إلينا من كل مكان كأن الأرض تنبتهم » .

وقد علم المجاهدون أن جماعة من ضباط الطليان اتخذوا بيتاً بسانية الباشا^(١) بالمنشية محلاً للهجوم ويأتون إليه ببعض المومسات ، فانقضوا عليهم ذات ليلة فقتلوه عن آخرهم ، ووجدوا فى البيت « بيانو » فأخذوه معهم ورجعوا إلى معانهم .

وفى الأسبوع الأول من نوفمبر سنة ٩١١ حاولت قوة كبيرة من الطليان استرداد الساحل والمنشية ولكنها لم تغلح . واستمر المجاهدون فى أمكانهم ، كما استمر الطليان فى هذه الحال المزعجة إلى أول ديسمبر سنة ٩١١ حيث أخذوا يستعدون لاحتلال عين زاره .

وقد ذكر المستر فرانسز ماكولا^(٢) فيما كتبه عن واقعة الهانى أنها واقعة « رمى فيها الجيش الإيطالى سلاحه وركن إلى الفرار » . ثم قال : « وبلغ من فشل القوم — يعنى الطليان — أن أرجعوا معسكرهم فى اليوم الثانى ميلاً إلى الوراء حتى تمكن العدو — يعنى الطرابلسيين — من الدنو إلى المدينة ، ورمى قنابله فأصاب منزل القائد العام بالذات » .

وقال المستر أرنست بانيت^(٣) فيما كتبه عن هذه الواقعة : « وقد أثرت حوادث

(١) سانية الباشا هى سانية حمد راسم باشا . ولفظ السانية يطلق فى اللغة على الحيوان الذى يستعمل لإخراج الماء من الآبار ، وتوسع الطرابلسيون فى إطلاقه على البستان .

(٢) فرانسز ماكولا صحفى انجليزى مع الجيش الإيطالى يكتب الجرائد الانجليزية والأمريكية . وقد جمع ما شاهده فى حروب الطرابلسيين مع الطليان فى كتاب ، وترجمه إلى العربية يوسف أفندى سركيس ، ونشر فصولاً منه فى جريدة المؤيد فى سنتى ١١ و ١٢ .

(٣) نائب من نواب الانجليز فى مجلس العموم ، وكان مع الجيش العثمانى فى العزيزية يكتب الجرائد الانجليزية ، وكتب ما شاهده فى الحرب الطرابلسية وسماه « مع العثمانيين فى طراباس » وقد ترجم هذا الكتاب سليم أفندى سركيس إلى العربية ، ونشر فصولاً منه فى جريدة المؤيد فى سنتى ٩١١ و ٩١٢ .

٢٦ أكتوبر على الجنرال كنيغا وأركان حرب جيشه حتى أنهم قرروا رسمياً التقهقر بمراكزهم إلى الورا لناحية المدينة » وقد جاءت رواية هذين الرجلين مطابقة لما شاهدناه ورويناه .

أثر واقعة الهاني في نفوس الطليان

هذه هي الصدمة الثانية التي اصطدم بها الطليان مع الطرابلسيين في الحرب الطرابلسية وقد كانوا يعتقدون أن احتلال طرابلس نزهة بحرية ، ولكنهم وجدوا في طريق هذه النزهة من الشوك ما جعلهم يتحسسون مواضع أقدامهم ، ومن أسود العرب مامنع عنهم الطريق وردمهم على أعقابهم مدحورين .

وقد كان من أثر هذه الواقعة عليهم أن فقدوا توازن أعصابهم . وملكت روح الانتقام عليهم مشاعرهم ، فأطلقوا يد الجند في النساء والأطفال ، بل وفي المرضى والعجزة من سكان المدينة والمنشية والساحل ، فصاروا يقتلون بقتل هؤلاء كما يقتل الصياد بصيده .

وقد وصف مكاتبو الجرائد الأوربية الجيش الإيطالي بكل نقيصة ، وجردوه من كل إنسانية وكرامة لما ارتكبه من الفظائع التي لا يرتكبها إنسان . والتي تخالف المروءة وقواعد الإنسانية العامة . وخرج عن كل تقليد مدني وأتى كل ما تحرمه القوانين الدولية .

ويظهر أن الطليان أول من سن قتل الإنسان بطريق الذبح . فكان المجاهدون يدخلون بيوت المنشية بعد واقعة يوم الإثنين ، فيجدون أفراد الأسرة بأكملها : نساءها ورجالها وأطفالها مشدودين بالحبال ومذبوحين ذبح الخراف . وهي حقيقة أجمع المجاهدون على رؤيتها ، كما أجمع مكاتبو الصحف الإفرنج على روايتها .

وقد أضرم الطليان بهذه الوحشية نار الحقد في صدور الطرابلسيين ولكنهم - رغماً على هذا - كانوا يترفعون عن كل نوع من أنواع التمثيل ، فكانوا إذا تقابلوا مع الإيطاليين لا يفعلون بهم غير القتل بالرصاص ، أو بالخناجر والسيوف إن اختلطوا بهم . وكانوا في كل حال من الأحوال - يترفعون عن قتل النساء والأطفال والعاجزين عن القتال من الرجال .

وقد استباح الطليان القتل في مدينة طرابلس بشكل لم يرو التاريخ مثله ، واشترك في هذه القسوة الضباط والجنود ، وجماعة الصليب الأحمر ، حتى القساوسة الذين يدعون التشبه بالمسيح . وسنفرد لهذه الفظائع فصلاً خاصاً إن شاء الله .

ضم طرابلس إلى أملاك روما

كان الطليان حريصين على الظهور أمام الأوربيين بمظهر المنتصر الظافر ، بالرغم على ما يعانونه من الصعاب في طرابلس ، وعلى انكسارات جيشهم القتالية . وكانوا يشوهون الحقائق وينشرون ما يفيد انتصار جيشهم ، وإن كان هو المنهزم المغلوب . وقد أرادوا أن يفهموا العالم أنهم غير مكترئين لما يجري في طرابلس فاستصدروا أمراً ملكياً بتاريخ ٥ من نوفمبر سنة ١٩١١ بإلحاق طرابلس بأملاك روما . وحول هذا الأمر في ٢٥ من فبراير سنة ١٩١٢ إلى قانون رقم ٨٣ من قوانين الدولة واجب التنفيذ . وقد فعلوا هذا في الوقت الذي كان رصاص المجاهدين يصل إلى دور الحكومة بمدينة طرابلس .

واقعة عين زارة واحتلالها

٨ من ديسمبر ١٩١١

إن الحوادث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويهيء بعضها لبعض . فما من واقعة إلا وتمتّ للتي بعدها بأسباب لا تلبث أن تخرج في قوة تختلف باختلاف قوة هذه الأسباب وضعفها : فقد هيأت حادثة بومليانة لواقعة المنشية ، ونشأت عن واقعة المنشية واقعة الهاني ، وما نحن أولاء نرى واقعة الهاني تمت إلى واقعة عين زارة بأقوى الأسباب ، وتدفعها إلى الظهور دفعاً في عجلة تقتضيها ظروف الطليان الحرجة وتهديد مركزهم في مدينة طرابلس استمر المجاهدون في الساحل والمنشية نحو الأربعين يوماً يضايقون الطليان ويقضون مضاجعهم : يضرّبونهم في كل شارع من شوارع الساحل والمنشية ، وفي كل بستان ومنزل من بساتينهما التي أجذبت إلا من الرصاص ، ومنازلهما التي خلت إلا من جثث القتلى والمذبوحين .

ولم يجد الطليان مخرجاً من هذا المأزق الحرج إلا بإجلاء المجاهدين من الساحل والمنشية . واحتلال عين زاره من أهم العوامل التي تسهل الاستيلاء عليهما . ولا يمكن الوصول إلى عين زاره إلا بقوة عظيمة تحتاج من الوقت والنفقات والتفكير ما يكفل لها النجاح . وقد جمع الطليان ما يمكن جمعه ، وطلبوا نجدة من سير كوزه فجاءت على وجه السرعة . ويقول مكاتبو الافرنج : إنه تهيأ للطليان جمع خمسة عشر ألف جندي مجهزين بأحدث آلات الحرب وأكملها . ويقول المجاهدون : إن الإنسان إذا نظر إلى هذا الجيش لا يرى إلا أجساماً بشرية تتحرك في مسافة من الأرض تبتدىء من قرقارش وتلأ ما بين جنزور والمنشية مارة بالقرود وقاصدة إلى الجنوب . وعلى كل حال فإن وصف المجاهدين لهذا الجيش كان مطابقاً لوصف مكاتب الصحف الافرنجية فيما يتعلق بكثرتة واستعداده .

كان المجاهدون يربطون في سوانى بنيادم وعين زاره وما حولهما . وهذا الخط يمتد جنوبى سيدى المصرى ومكتب الزراعة وقصر الهانى ، التي كانت يحتلها الطليان ، وينحني من عين زاره إلى الشمال ويدخل إلى الساحل والمنشية . وكانت طلائع المجاهدين تصل إلى جنزور وسيدى بلال على شط البحر لاكتشاف حركات العدو . وكان الطليان شبه محصورين في الهانى والمصرى ومكتب الزراعة لأن طلائع المجاهدين كانت تمنعهم من الإتيان بأى حركة ، وكان تجول المجاهدين فى الساحل والمنشية يقطع الصلة بينهم وبين وصول المدد إليهم من مدينة طرابلس .

والوضع الحربى على هذا الشكل يقتضى الطليان الهجوم من الجهة الغربية على طريق قرقارش والقرود^(١) فيما بين جنزور والمنشية ، لأن هذه الجهة هى التي تواجه قيادة المجاهدين من الناحية الشرقية الشمالية ، وهذا ما حصل .

وفى أوائل ديسمبر سنة ١٩١١ كثرت طلائع الطليان للكشف والاستطلاع بشكل لفت نظر قيادة المجاهدين وأحست أن فى الأمر شيئاً ، فأرسلت مدافع كبيرة كان

(١) تطلق كلمة « القروء » فى لغة الطرابلسيين الدارجة على الأرض التي تخالط تربتها الحجارة الصغيرة وتكون فى العادة قليلة الخصب .

الجيش التركي أخرجها في انسحابه من المدينة ، ونصبت في أمكنتها اللائقة بها ، استعداداً لما عساه يحصل نتيجة لهذه الحركات غير العادية .

وفي اليوم الرابع من ديسمبر شرع الأسطول يمهّد للهجوم فشرع في ضرب عين زاره وما حولها من مواقع المجاهدين ضرباً لا ينقطع . وكثر تردد الطائرات على خطوط المجاهدين وضربهم بالقنابل . وابتدأ زحف الجيش الإيطالي على المنشية بثلاث أربط واستمر القتال النهار بطوله ، وفي المساء رجع الجيش الزاحف على المنشية إلى مراكزه ، وفي اليوم التالي أعاد الكرة في الهجوم على الساحل والمنشية ، وهجم ألف وخمسمائة على ميمنة المجاهدين في عين زارة لأنهم رأوا أنها أضعف نقطة يمكن اقتحامها . وبينما المعركة على شدتها في المنشية وعين زارة والمجاهدون صامدون للعدو جاءت الأخبار إلى نشأت بك بخروج العدو من ناحية قرقارش والقروء بقوة عظيمة ليضرب ميسرة المجاهدين ويحيط بهم من الجنوب والغرب وهذا الوضع يمكنه من فك الحصار على المصرى ومكتب الزراعة والهافى ، فرأى مما لا مناص منه أن يأمر المجاهدين بالانسحاب إلى الورا لأن العدو أحاط بهم من اليمين والشمال وخرج في مواجهتهم من الأمام ، فأصدر أمره إلى من في المنشية والساحل بالتأخر وكانوا لا يعلمون بخروج المجاهدين من ناحية قرقارش ، فكبر عليهم الانسحاب ، وكادوا يترددون في الأمر لأنهم كانوا في مركز يمكنهم من الثبات أمام العدو . ولكنهم لما علموا الحقيقة امتثلوا وانسحبوا إلى عين زاره . وقد تكاثرت جيوش العدو ، واكتشف الأسطول محل المدافع التي كانت تقوم بقسطها في المعركة ، فاتخذ منها هدفاً لصواعقه المدمرة ، وثبت المجاهدون ما أمكن الثبات ، ولكن القوة الهائلة اضطرتهم إلى الانسحاب فأخلوا عين زارة وانسحبوا على مهل — كما يقول مكاتبو الجرائد الأفرنج — إلى سوانى بونغجة وما حولها لا يخشون حصاراً ولا مطاردة . واضطروا لترك المدافع لأنها ثقيلة من عيار ١٥ ، وكل مدفع منها يحتاج في جره إلى ١٩ بغلاً ، ولا يوجد هذا العدد من البغال ، فضلاً على أن الأرض رملية لا يمكن جر هذه المدافع فيها في وقت انسحاب المجاهدين ، وهو ظرف يقتضى كثيراً من السرعة ، وقد تركوها غير صالحة للعمل . وتم استيلاء العدو على عين زاره

في اليوم الثامن من ديسمبر سنة ١٩١١ بعد معركة دامت أربعة أيام بدون انقطاع . وجرح في هذه المعركة رمضان السويحلي .

جمعية

طبل الطليان وزمروا لاحتلال عين زاره . ولا شك أن القوة غير متكافئة لافي العدد ولا في العدد ، فإن عماد حرب المجاهدين على البندقية ، بخلاف الطليان فإن سلاحهم من أحدث طراز الأسلحة من جميع أنواعها . وعندهم الأسطول الذي لا يمكنهم أن يفارقوا معاقلم طرفة عين إلا في حماية مدافعه .

ومن المبالغة غير المقبولة أن يقال إن عدد المجاهدين بلغ أربعة آلاف مجاهد فضلا عن ثمانية آلاف التي ذكرها العدو في بلاغه عن احتلال عين زارة . أما الجيش الإيطالي فكان مؤلفاً من ١٥ ألفاً غير الاحتياطي .

ولنذكر هنا ما ذكره المستر « أر نست بانيت » بصدد التهمك بالجيش الإيطالي في هذه المعركة قال : « والغريب في تصرف الطليان أن جيشهم الهاجم — وعدده خمسة عشر ألف مقاتل — أباح للأتراك الانسحاب بكل سكينه ولم يعترضهم ، ولا أدري ما كان يصنع فرسانهم ؟ وهل يخطر لعقل أن أي جيش أوربي غير إيطالي يسمح لعدد قليل من أعدائه بالانسحاب بدون أن يبدي أقل معارضة ؟! وبدلاً من عمل هذا الواجب فإن تلك الألوف الطليانية اقتحمت المعسكر الفارغ واستولت على المدافع المعطلة » .

وقد ذكر صاحب كتاب « في بلاد الناس » تعقيماً على ما كتبه مراسلو الجرائد الأوربية تهكماً بالجيش الإيطالي فقال : « بلغ عدد الجنود الإيطالية في الثاني من شهر ديسمبر سنة ٩١١ مائة وعشرين ألف جندي : منه سبعون ألفاً في مدينة طرابلس و ٢٥ ألفاً في بني غازي ، و ١٥ ألفاً في درنه و ٥٠٠٠ ألف في كل من ثغرى الخمس وطبرق » . وإذا نظرنا إلى مركز الطليان الحرج وما يتطلبه منهم الموقف الحربي من توسيع خطوطهم وفك هذا الحصار عنهم رأينا أن تقدير الجيش الإيطالي بخمسة عشر ألفاً فيه كثير من تحري الحقيقة .

وقد ذكر الطليان أنهم تغلبوا على جيش للعرب مؤلف من ثمانية آلاف مقاتل .
ونرد عليهم بما كتبه أيضاً « المستر أرنست بانيت » الانجليزى فقال : « كما أنه غير صحيح
قولهم إنهم هزموا ثمانية آلاف من العرب وأجلوهم عن عين زارة والحقيقة أنه لو تيسر وجود
أربعة آلاف عربى — لثمانية آلاف — لقاتلوا بالنصر والابتهاج ١٥ ألفاً من الطليان » .
هذا بعض ما كتبه الأوربيون — مراسلو الجرائد الأوربية — عن الجيش الإيطالى
فى هذه المعركة .

ومهما قلبت النظر فى هذه الواقعة سواء من ناحية قلة الجيش وكثرته ، أو من ناحية
العتاد الحربى وآلات الدفاع ، أو من ناحية حسن القيادة والانتباه إلى خدع العدو ، فلا
يمكنك أن تجد فيها ما يشين سمعة المجاهدين أو يقلل من شجاعتهم .

مناورة

أراد الطليان أن يصرفوا نظر قيادة المجاهدين إلى الاهتمام بغير الذى هو بين يديها أو
على مقربة منها ، فذهبت مدرعتان من أسطولهم فى ١٥ ديسمبر سنة ٩١١ إلى ناحية زواره
وأنزلتا بعض بحارتهما فى مكان يقرب منها ، وكان قائد تلك المنطقة موسى بك اليمنى برتبة
« قومندان » وسرعان ما عطن لهم سكان تلك الناحية فحضرُوا وطرَدُوا البحارة الذين نزلوا .
ولما رجع البحارة إلى المدرعتين أطلقتا المدافع على المجاهدين ، ولم يصب أحد بسوء . وقد
حاولوا أن يفعلوا مثل هذا فى يوم ١٦ منه ، ففى نحو الساعة الخامسة صباحاً جاء طرادان إلى
نفس المكان الذى وقفت فيه المدرعتان فى اليوم الأول وأنزلا نحو ١٥٠ بحاراً ، وكان
العرب قد فطنوا لهم فكننوا لهم بأمر موسى بك ، ولم يلبثوا أن انتصوا عليهم فقتلوا
ضابطهم وبعض الجنود ، وفروا وتركوا بعض البنادق وكثيراً من الخرطوش ، فخبطت هذه
المناورة ورجع الطليان خائبين .

الهجوم على جنزور

في ١٧ من ديسمبر سنة ١٩١١

بعد أن احتل الطليان عين زارة أنفصح أمامهم مجال العمل قليلا ، وأصبح جنوبي المدينة كله في أيديهم . وقد أنشأوا حصناً في الرأس الأحمر وهو ربوة عظيمة بالقرب من عين زارة من الناحية الشمالية ، ووضعوا فيه ١٤ ألف جندي . وأنشأوا من قبل احتلالها حصناً في الهاني ، وحصناً في المصري ، وحصناً في مكتب الزراعة ، عدا الحصون التي أنشأوها في قرقارش . وانحاز المجاهدون بعد احتلال عين زاره إلى سواني بوعنجة ، وقسم منهم إلى سواني بنيادم والعزيرية ، وامتدوا في جنوبي جنزور إلى ترينة ممابلي الزاوية . وقد اطمأن الطليان إلى الحصون التي أنشأوها بعد أن عززوها بالمدافع ، وملأوها بالجنود لتقوى على رد الهجوم على المدينة فيما إذا حصل هجوم عليها من المجاهدين : وجمعوا جيشاً لاحتلال جنزور ، وكان الجيش مؤلفاً من أربع أرط من الفرسان ، وقسم من أورطة ٧٣ ، وقسم من أرطة خمسين ، ومن أرطة مدفعية على البغال . وقد علمت قيادة المجاهدين بهذا الاستعداد فاحتاطت للأمر . وفي اليوم السابع عشر من ديسمبر سنة ١٩١١ خرج هذا الجيش عن طريق قرقارش قاصداً جنزور ، وصادف أنه لم يكن فيها إلا أربعة من الفرسان من المجاهدين . ولما رأوا جيش العدو قادماً أخلوا له الطريق ودخل جنزور بدون مقاومة ، وهدم مبنى التلغرافات وقطع أسلاكه . وقد التحق الفرسان الأربعة بإخوانهم في جنوبي جنزور ، وأرسلوا نذيراً إلى العزيرية يخبر القيادة باحتلال العدو جنزور ، وقد تقدم العدو إلى جنوبي البلدة فالتقى بتسعة عشر مجاهداً فأطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم ، فظن أن قوة كامنة له وراء الآكام فأطلق ساقه للريح ورجع من حيث أتى ، ولم يبت إلا في المدينة وقرقارش تحت حماية الأسطول .

ويقول الذين كتبوا على هذه الحادثة : « إن العدو أطلق مائتي مدفع من البر والبحر تمهيداً لهذا الهجوم الفاشل » .

واقعة طبراز^(١)

في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١١

لما فشل الطليان في هجومهم على جنزور أرادوا أن يجربوا حظهم مرة ثانية ، فانفق رأيهم على أن يهاجموا المجاهدين في سوانى بوغمجة ، وهى جنوبى عين زارة ، بقوة كبيرة مؤلفة من ثلاث أرب من المشاة ، وأرطة من الفرسان ، وثلاثة مدافع على البغال ، وبضعة مدافع مكسيم وبعض المشاة من فرقة البرسلىرى الحادية عشرة . وكان هذا الجيش بقيادة الكولونيل فارا .

ولا يخفى على من له إلمام بأعمال الجيش الإيطالى فى طرابلس أن سوء الطالع ما انفك ملازماً له ، فهو على رغم ما يعده من كثرة الجند ومختلف الأسلحة النارية ، فإن الهزيمة لا تفارقه ، وإذا نجح فى الغالب إنما ينجح من قبيل الصدف .

وبينا هوسائر فى طريقه إلى سوانى بوغمجة التقى بعسس المجاهدين فى طبراز فاعترضوا طريقه وقاوموه ، وكانوا نفرأ قليلا ، ولم يلبثوا أن جاءتهم نجدة وانقلبت المقاومة إلى معركة . وقد حصل اختلال فى صفوف الجيش الايطالى بسبب المصاولة التى كانت بينه وبين المجاهدين ، فضل الطريق واتجه إلى غير قصده . وكان المجاهدون يبذلون جهد المستطاع لتضليله والحيولة بينه وبين قصده ، وقد حاول أن يهتدى فشغله الدفاع عن الاهتداء وحاول أن يجد فى الدفاع عن نفسه فأنهكه التعب وخارت قوته المعنوية لهذا المركز الحرج الذى وجد نفسه فيه . ومما زاد فى حيرته أنه حينما توجه وجد أمامه المجاهدين ، وظل المجاهدون طول النهار يضربون وجوهه وأدباره ، ويقلبونه ذات اليمين وذات الشمال وهو لا يدري أين يتوجه ، فى حيرة مأسكت عليه شعوره ، وموقف حرج لم يجد فيه مجالا للتفكير فى أمره . وقبيل المغرب أمكنه الاتجاه إلى الشمال . وقد اشتدت مضايقة المجاهدين له ، وصار الرصاص يتخطفه من كل ناحية ، وبقيت قتلاه مبعثرة فى كل منخفض من الأرض ، وعلى كل رابية . وقد أزعجه تكبير المجاهدين وزاد فى فشله ، فكلما دنوا منه صاحوا به : « الله أكبر » وأطلقوا عليه الرصاص فلم يزد ذلك إلا ارتباكاً . واختلط عليه

الأمر فأخطأ في تقدير الزمان والمكان . فلما جن عليه الليل ازدادت حيرته ، فأمر القائد الجيش بالنزول لأخذ قسط من الراحة ، فنزل في جوار « سدره الجلابة » ونصب حوله المدافع والرشاشات وحفر الخنادق ، فما زاد ذلك إلا شدة في حصاره . وتجمع المجاهدون حوله وأصلوه ناراً حامية ، فأمر القائد الجيش بالرحيل فرحل ، وسار بقية الليل وهو في شك بأن وجهته عين زاره . وبعد لأي ، وفي وضح النهار الثاني وصل خبره الى عين زارة فجاءته نجدة وأدركت من بقي منه على قيد الحياة .

وقد كتب المستر « أرنت بانيت » يصف هذه المعركة فقال : « أما خسائر الطليان في هذه الواقعة فمئات من القتلى . وقد جمع العرب نحو مائتي بندقية وكمية وافرة من الذخيرة . وعرضت في اليوم الثاني كميات كبيرة من أحذية الطليان وبرانيتهم للبيع . أما خسائر المجاهدين فكانت أحد عشر قتيلاً وأربعين جريحاً . ومما لا ريب فيه أن الذي أبقى على بقية جيش الكولنيل فارا وحال دون قتلهم جميعاً هو قلة الخراطيش لدى العرب . فما رأيت أمة في الأرض تسرف في إطلاق بنادقها مثل هؤلاء العرب » .

وكتب جندي إيطالي من خط القتال إلى شقيقه يقول له : « إنني آسف لهزيمة البرسليري في بئر طبراز ، بعد أن قتل منهم أكثر من مائة وجرح مايربو على مائة وخمسين » . والقارئ يرى فيما يكتبه الأجانب مما شاهدوه من الجيش الإيطالي تلك الحقيقة الناصعة التي ترونها عن كبار المجاهدون ورؤسائهم ممن خبرناهم وعرفنا مبالغ صدقهم .

ضد ملك إيطاليا

كان في إيطاليا حزب اشتراكي يرأسه « ماتيوقي » يخطب الحكومة الطليانية في إعلانها الحرب الطرابلسية . وفي بعض أعضائه جرأة دونها جرأة الفوضويين والفدائيين . وقد شاهدنا منهم السنيور مرتيني في طرابلس سنة ١٩١٩ و٩٢٠ يكتب في الجرائد الطرابلسية يطالب حكومته بإعطاء الطرابلسيين حقوقهم كاملة .

وكان فيها حزب جمهوري متطرف يكره الملكية الإيطالية ويعمل ضدها في وضح

النهار وعلى رؤوس الأشهاد .

ومن أعضائه المتطرفين السنيور « امليكار سبرياني » العضو الجمهوري في مجلس نواب إيطاليا . وكان هذا العضو من أشد أعداء الحكومة ومعارضيهما في إقدامها على الحرب في طرابلس .

وقد كتب مقالا في جريدة الأومانيته الفرنسية في أول يناير سنة ١٩١٢ يسفه فيه آراء الملكية الإيطالية ، ويلصق بها أقبح النقائص وأحقر الصفات . وهذا نص تعريب ما جاء في مقاله :

« إننا لو شئنا أن نسرد في هذا المقام سائر الجرائم التي ارتكبتها الملكية المدنسة التي فضحتنا أمام الملأ ، ودهورتنا في حضيض المهانة منذ وطئت بقدميها ثرى طرابلس الغرب لما انتهينا من إحصائها .

أما أنا فلن أبرح ممسكا بتلابيبها لأنها لا تنقضي لحظة بدون أن تقيم الدليل على أنها لم تمنح اسمي من صفحة ذاكرتها ولقد جرأ هذا الملك الفظ الدعي على أن يذيع بواسطة أعوانه المحقرين أن ميوله منصرفه نحو الاشتراكيين وحقيقة الواقع أنه لا يميل إلى الحزب الاشتراكي وإنما كل ميوله وتمطقاته منصرفه نحو القسوس والجندمة والسفاكين ، والمشائخ التي رفمها بواسطة أعوانه لرفع أعلام المدنية ، وللإشارة إلى ما يريده بالطرابلسيين من الحضارة والعمران .

وملك إيطاليا مثل حي لوالده من وجوه الانعطاف على الخونة . وإنه لفي استطاعتي أن أذكر هنا أسماء ستة من رؤساء الوزارات الذين لم يعهد إليهم بالرياسة إلا بعد أن قدموا البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على أنهم خانوا الحزب الجمهوري .. إلى أن قل : تلك هي المدنية التي تريد الملكية المجرمة من « سافويا » وضع غراسها في طرابلس الغرب^(١) . وعلى أثر ما صادف الجيش الإيطالي من هزائم منكرة في طرابلس سرت روح

(١) نشرت تعريب هذا المقال جريدة المؤيد بعدها الصادر يوم ٢٠ / ١ / ١٩١٢ وقد نقلناه بدون زيادة ولا نقص فيما نقلناه . وحذفنا بعضه لما اشتمل عليه من ألفاظ لا تسمح الظروف بنشرها .

من التذمر في إيطاليا لم تقتصر على الأحزاب المعارضة بل شملت كل الغيورين على شرف إيطاليا العسكرية حتى اضطر بعض النواب الإيطاليين الى التصريح بقوله : « إن إيطاليا في هذه الحرب الطرابلسية أكلت ضربة هائلة في اسمها العسكري » فمثل هذا التصريح وهذا المقال نتيجة لما يحس به الشعب الإيطالي من الهزائم التي لحقتهم في الحرب الطرابلسية . وفي هذا التذمر الساري في طبقات الشعب الإيطالي ، وفي هذه المعارضة الشديدة للحكومة ، وفي ما يكتبه مكاتبو الصحف الأجنبية بين كل حين وآخر دليل واضح وشاهد صدق على انتصار الطرابلسيين وحسن بلائهم .

في مدينة الخمس :

نعود بالقارئ الى مدينة الخمس لنضع يده على ما وقع فيها من أحداث حربية ، وما قام به خليل بك من أدوار سياسية في الاتصال برؤساء القبائل لإقناعهم بفكرة الجهاد والدفاع عن الوطن .

سيف النصر

كانت مدينة الخمس في التقسيم التركي الإداري مركز المتصرفية ، ويدخل تحت نفودها مركز سرت . وكان سيف النصر رئيس قبيلة أولاد سليمان من أعيان منطقة سرت . وكان بينه وبين حكومة الترك ثار قديم لأنها قتلت عبد الجليل وسيف النصر ^(١) في ثورة عبد الجليل عليها سنة ١٢٥٨ هـ . وطاردته هو في عدة مناسبات لإخضاعه لحكمها فاعتصم منها بالصحرَاء ، لهذا لم يسرع في المشاركة في حرب الطليان . ومر نحو ثلاثة أشهر والحرب قائمة ولم يبد حراكا .

وقد أراد خليل بك أن يأخذه بالحكمة فأرسل اليه وفداً من الأعيان مؤلفاً من : الحاج فرحات القاضي ، والحاج فرج بن ابراهيم من مسلاته . ومحمد نوري أفندي السعداوي من مصراته . ومحمد بن عامر رئيس بلدية سرت . وعلى فائق مسيك الغرياني من ضباط الجيش . ولما اجتمع به شرح له الظروف الحرجة والخطر المحدق بالبلاد . وأعضاء كل التأكيدات بأن

الحكومة لاتنوى له إلا الخير . ولكنه اعتذر فيئس الوفد من إقناعه ورجع واستمر سيف النصر بعيداً عن حركة الجهاد الى أن احتل الطليان الجفرة سنة ١٩١٣ . وله بقية خبر ستأتى هناك .

واقعة قرقارش

٢٢ من يناير ٩١٢

كانت خيمة الطليان في الهجوم على سوانى بوغمجة مؤلفة . وكان السبب المؤثر فيها خطأ القيادة الإيطالية في تقدير الرمان الصالح لخروج الجيش والطريق الذى يسلكه ، وقد رجعت فلول جيوشهم من الهجوم عليها في حالة من الخيبة قليلة النظير .

وكان لهم في هذه الحادثة من دروس العبرة ما جعلهم يفكرون في إعداد ما يواجهون به هذا العدو الخفى الذى كان يفاجئهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . وقد أصابهم شبه ذهول فمكثوا مدة لا يقومون بهجوم . واتهمز المجاهدون هذه الفرصة وشنوا الغارة عليهم في ناحية قرقارش عدة مرات حتى قلق الطليان وفكروا في مواجهة هذا الغزو المتكرر ، فجماعوا بنجدة من إيطاليا يوم ١٢ من يناير ٩١٢ قوامها ثلاثون ألف مقاتل ، استعداداً للرد على المجاهدين بمثل أعمالهم . وفي يوم ١٩ منه أغار المجاهدون على الطليان في قرقارش فأجلوهم عنها إلى الحماجي^(١) والمدينة ، ثم رجعوا إلى مراكزهم لأنهم لا يمكنهم البقاء فيها نظراً لقربها من الأسطول وثكنات الجيش .

وكانت الخطة المتبعة عند المجاهدين في الحرب الهجوم أو المناوشة وأخذ ما يمكن أخذه من غنيمة وأسرى ، ويقعحاشون الدخول مع العدو في معارك فاصلة نظراً لكثرة جنده وقتلهم . فلما جلا الطليان عن قرقارش أخذ المجاهدون ما وجدوا من أسلحتهم ورجعوا إلى مراكزهم في جنزور . وقد اكتشف الطليان يوم ٢١ من يناير أن قرقارش خالية من المجاهدين فرجعوا إليها وأشاعوا أنهم احتلوها ، والحقيقة ما ذكرناه .

وفي يوم ٢٢ منه خرجوا بقوة عظيمة مؤلفة من الألى من المشاة وبلوك من الفرسان ،

(١) مكان يتصل بمدينة طرابلس من الجهة الغربية . وكان فيه بعض النخيل وقليل من البيوت . ولما

بنى الطليان سوراً حول مدينة طرابلس أصبح داخل السور .

وبطارية مدافع لاحتلال جنزور ، فاعترضهم المجاهدون بمالديهم من قوة ومنعومهم من التقدم الى جنزور واضطروهم الى الرجوع الى المدينة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وقتل وجرح من المجاهدين ما يقارب الخمسين .

شجاعة

هناك في بلاد الدفاع^(١) ، وتحت سمع التاريخ وبصره ، يمثل البطولة العربية في الدفاع عن النفس والكرامة شعب من شعوب العرب البواسل ، ويشترك في ميدان القتال رجاله ونساؤه : يدافع الرجل عن عرضه ووطنه ، وتحذره المرأة العار وقبح الأحداث ، فيتفانى في الدفاع . وقد تضطر المرأة مهمتها في التحريض وتقديم المساعدة للرجل الى الاقتراب من العدو فتكون عرضة لرصاصه وشظايا قنابله .

جاندارك الثانية

وقد لفتت حادثة من هذا النوع نظر مكاتب جريدة (باري جرنال) — وكان مع الجيش التركي بطرابلس — فكتب فيما وصف به الطرابلسيين من الشجاعة يقول : « إن فتاة عربية هجمت على المواقع الإيطالية في قرقارش في نفر من بني جلدتها تشجعهم على النزال والكفاح ، وهي مجردة من السلاح ممتطية جواداً أسود متشحة برداء أسمر ، وقد أصابتها شظايا قنبلة جرحت ذراعها اليسرى . ولم يتمتعها ماحل بها من حث قومها على اقتفاء أثر الإيطاليين وتمزيق شملهم ، بينما كانت مدافع الإيطاليين تقذف من أفواهها النيران المميتة »

ولشدة إعجاب الكاتب بهذه العربية الباسلة سماها « جاندارك الثانية » وهو معذور في هذه التسمية ، لأنه لا يعرف مثلاً أعلا في البطولة النسائية غير جاندارك الفرنسية . ولو تتبع التاريخ العربي لوجد الكثير من أمثال هذه الفتاة . وقد وصلت أخبارها إلى تركيا فأنت عليها الأديبة التركية « فاطمة عليّة » بنت جودت باشا في مقال نشرته جريدة صباح . ومن الأسف أنى لم أوفق الى معرفة اسمها ونسبها ، بالرغم على ما بذلته من جهد في السؤال عنها .

وأحر بهذه الفتاة أن تسمى « خولة بنت الأزور » الثانية كما سميتها جريدة المؤيد ، وهي من النساء العربيات اللاتي اشتهرن بالشجاعة .
وخولة هذه هي خولة بنت الأزور أخت ضرار بن الأزور الصحابي المشهور ، التي برزت في الشجاعة أيام الفتح الإسلامي في الشام .

في الخمس

أراد الطليان أن يجرؤوا حظهم في الخمس فهجموا بعشرة آلاف جندي على مجاهدي منطقة الخمس في ٢٧ من يناير ١٩١٢ لإجلالهم عن مرتفعات المرقب فثبتوا لهم ، وكان القتال وجهاً لوجه ، واستعمل فيه السلاح الأبيض ، وانتهى الأمر بارتداد الطليان .

جبن

في الوقت الذي تتجلى فيه الشجاعة العربية في طرابلس ، ويدافع الطرابلسيون عن وطنهم دفاعاً شريفاً ، وتتجلى في دفاعهم خصال المروءة والترفع عن قتل من لا يحملون السلاح من الإيطاليين — كانت نذالة الطليان تدفعهم إلى قتل النساء وذبح الأطفال والشيوخ من الطرابلسيين ، وأسر من لا يقدرّون على حمل السلاح . وكان جبنهم وحقارة نفوسهم يحملانهم على إتيان ما ترفع عنه نفس الجندي الباسل والإنسان المؤدب .

وقد شاهد المكاتبون الأجانب من فطائع الطليان في طرابلس ماضقت نفوسهم عن تحمل رؤيته ، وبلغ بهم الاستياء إلى حد لم يمكنهم معه أن يملكوا شعورهم ويخفوا سخطهم على أعمال الطليان . وقد رأوا من أكبر العار على أوروبا والدين المسيحي أن تنسب هذه الفطائع الإيطالية إلى دولة أوربية مسيحية . وفي وسط هذا التذمر الشائع أوجس الطليان في نفوسهم خيفة من تسرب هذا التذمر إلى الخارج ، فشددوا الرقابة على الأخبار ، ومنعوا المراسلين من نشر الحقائق . وبالرغم على ما اتخذوه من الاحتياطات فقد تمكن بعض هؤلاء المراسلين الذين كانوا مع الجيش الإيطالي من إرسال بعض مشاهداتهم إلى جرائدهم . ومن هؤلاء المراسلين مكاتب جريدة « لندن إكسبريس » المخصوص في طرابلس ،

فقد بعث برسالة إلى جريدته في ٢٩ صفر سنة ١٣٣٠ يناير سنة ١٩١٢ يقول فيها :

« هل ماتت المسيحية في أوروبا ؟ أم ضاع الإنصاف والعدل ؟ . تشددت إيطاليا في المراقبة على الأخبار حتى لا تصل إلى أوروبا ، فلم يعد يسمع عن تلك البلاد أخبار بعد ما افتضح أمر الطليان في المجزرة البشرية والمذبحة الهائلة التي ذهبت فيها النساء والأطفال بيد النذالة ، إلا أن هذه المذبحة التي عرف العالم أمرها لم تكن الوحيدة التي خرقت بها إيطاليا القوانين الدولية ، وتعدت بعملها حدود المدنية ، بل هناك عشرات من أمثالها أخفيت أخبارها » .

وجاء فيها : « والحق يقال إن فرائص الطليان ترتعد من العربي ، والسبب في ذلك تلك الغلظة التي ارتكبوها من ذبح الرجال العزل من السلاح والنساء والأطفال .

بأى ذنب رُميت بالرصاص

وجاء فيها أيضاً : « وقد زرت صباح يوم مستشفى الهلال الأحمر ، وفيه مرضى وجرحى كثيرون . فوجدت في إحدى خيامه بئراً عربية تتقيؤ وإلى جانبها الطبيب ، فأراني في جنبها جرحاً كبيراً من رصاصة اخترقته ، فسألتها : ما سبب هذه الضربة ؟ فقالت : دخلت العساكر الإيطالية بيتنا فقتلت أبي وأمي وأختي ، وكنت قريبة من باب الدار فهربت ، فانطلق جندي في أثرى ورماني برصاصة كانت السبب فيما ترى .

فبأى ذنب رُميت هذه الطفلة بالرصاص ؟ وأي نفس لا تشمئز من التكنيل بهذه الطفلة البريئة الساذجة ؟ » .

الكونت سفورزا في الأسر

أشرنا في صدر الكتاب إلى بعثة الكونت سفورزا العسكرية ، وقد بقيت هذه البعثة تتجول في داخل طرابلس إلى أن قامت الحرب الإيطالية ، وقبض عليها في صفر سنة ١٣٣٠ يناير سنة ١٩١٢ . وعلى رغم ما عرف عنها من الأغراض السيئة التي كانت تخفيها تحت ستار اللقب العلمي الذي انتحلته لنفسها فإن العربابسين قد عاملوها بأحسن

مانعاً من التعامل به البعثات العلمية ، و بقيت في يفرن إلى أن سلمت إلى الطليان بعد صلح أوشي في نوفمبر سنة ١٩١٢ .

فشل السياسة الإيطالية

فكرت السياسة الإيطالية — عقب هذه الهزائم المنكرة — في أن تجد لها مخرجاً من هذا المأزق الذي سقط فيه شرفها العسكري إلى الحضيض ، وأصبح جيشها أضحوكة بين جيوش دول أوربا . وقد مر على جيشها أكثر من ثلاثة أشهر وهو لا يستطيع القرار في غير حماية الأسطول ، وما يزال محصوراً في مدينتي طرابلس والخمس . ولا تريد أبعد نقطة احتلها أمام مدينة طرابلس — وهي عين زارة — على ١٥ كيلومتراً .

وقد ثبت لدى الجهات العليا في إيطاليا ، أن سبب هذا الخذلان هو ما تسرب إلى الجنود من الخوف ، وما أصاب روحهم المعنوية من الخور . وقد أدركوا ذلك عن التجربة في عدة معارك كانوا يحشدون فيها الألوف منهم ، ولكنها لم تأت بالفائدة التي كان يجب الحصول عليها من هذا الجيش الكثير السلاح بأحدث وسائل الحرب وآلات الدفاع . وقد تمرد بعضهم على الأوامر وامتنع عن خوض المعارك ، وانتحر بعضهم ، وأصيب بعضهم بالجنون من شدة ما أصيبوا به من هزائم .

وقد رأوا علاجاً للموقف أن يدخلوا على الجندية الإيطالية عنصراً أجنبياً طلباً للسكرتة ولتحسين الموقف ، فجاءوا بجنود من مصوع ، ووصلت أول فرقة منهم إلى طرابلس في يناير سنة ١٩١٢ وكان الطليان يقدمونهم في معامع الحرب ليكونوا وقاية لمن وراءهم من الإيطاليين ، وكان لهم جلد على تحمل السير في الجبال خفاة ، وقد قامت ضجة إذ ذاك في الجرائد المصرية احتجاجاً على أعمال الطليان في مصوع وتجنيد سكانها ، بحجة أنها بلاد مصرية وتابعة للدولة العثمانية .

رأى القائد الأعلى الإيطالي

ولا بد لعلاج هذا الموقف من أخذ رأي القائد العام للجيش الإيطالية في طرابلس وهو كارلو كنيغا ، فاستدعته حكومة روما في منتصف فبراير سنة ١٩١٢ لسؤاله عن

أسباب فشله : وقد سأله « هل أنت في مركز جيد مع ما حصلت عليه من الوسائط ، لأن ما حصلت عليه من حكومتك يجعل لإيطاليا الظفر المبين في طرابلس حتى إذا وضعت شروط الصلح مع تركيا كان الصلح قطعياً بتنازلها عن تلك الولاية » .
فأجاب كنيفا بلا تردد : « ليس لدى هذا المركز » .

وقال في آخر حديثه : « إن كل ما أستطيع الإجابة عنه هو التدرج في الاستيلاء على كل قطعة من أرض طرابلس وإذا أردتم نصراً باهراً فإما أن تبحثوا عن قائد غيرى أو اطلبوه بعيداً عن صحراء طرابلس ، لأن حرباً استعمارية كهذه لا يقدر جيش فيها على الحصول على فوز باهر لا في يوم ولا في شهر ولا في سنة ، بل ولا إلى مدة طويلة (١) .
إن خسائرتنا في الشهور الخمسة الأولى تجاوزت ملياراً ونصفاً من الفرنكات » .

ثم سئل : « ولم لم تنتهز فرصة احتلال عين زارة وتتعقب العدو ؟ » . فقال : « إن تعقب العدو لا يجدى نظراً لسرعة حركته وتنقله ، وإن كل تقدم إلى الأمام إن لم يكن حاسماً فإنه يعرض الجنود بلا فائدة إلى المشاق ، ولا يكون له إلا أثر سيء ، لأن عودة الجنود إلى معسكراتها تعد تقهقراً ، فلذلك لا أوافق على الزحف إلى الأمام في الحال أوفى القريب العاجل » .

إلحاق طرابلس بروما

٢٥ فبراير سنة ١٩١٢

سياسية الأمر الواقع

وفي هذا التاريخ حوّل « المرسوم الملكي » الصادر بتاريخ ٥ من نوفمبر سنة ١٩١١ بضم طرابلس إلى أملاك روما إلى قانون من قوانين الدولة ، ويظهر أن الغرض منه إرضاء رأى العام الإيطالي ، وظهور الحكومة أمامه بشيء من مظاهر الحزم والنشاط ، ويقصدون من وراء هذا العمل أيضاً صرف نظر الترك عن التشبث بحقوقهم في طرابلس فيما سيحدث من مفاوضات حيث إنها أصبحت جزءاً من روما . وكثيراً ما يتشبث المستعمرون في اغتصاب

(١) صرح هذا القائد بأن احتلال طرابلس نزهة بحرية .

الحقوق من أهلها بسياسة الأمر الواقع ، وذلك بأن يسلكوا من الطرق الملتوية ما يجعلون به صاحب الحق أمام حقيقة واقعة : إما باستصدار أمر يحتم عليهم القانون تنفيذه ولو بالقوة كالمراسيم الملكية ، أو وضع اليد من طريق القوة فيضطر صاحب الحق إلى التسليم أو مقابلة القوة بالقوة إذا كان قادراً .

مغامرة

كانت الحكومة العثمانية تود بكل وسيلة — أن تقوى المقاومة في طرابلس لأن انشغال القوات الإيطالية فيها يخفف عنها ضغط السياسة الإيطالية في الأناضول والبلاد التركية ، ولكن يقظة الأسطول الإيطالي في البحر الأبيض المتوسط كانت تحول دون وصول أى مدد إلى طرابلس . وقد أرادت أن تجرب — مع اليأس من النجاح — فأرسلت باخرة تقل ٢٥٠٠ طن من الأدوات الحربية لإزالتها في أى نقطة من السواحل الطرابلسية . وقد أسرها الأسطول الإيطالي في مياه صقلية يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩١٢ .

احتلال المرقب

٢٨ فبراير سنة ١٩١٢

المرقب ربوه صخرية عالية تقع جنوبى مدينة الخمس إلى الغرب بقليل ، والذي يستولى عليها يكون له تمام السيطرة على المدينة . وكان الطليان قبل احتلاله لا يمكنهم الإتيان بأى حركة إلا كانوا عرضة لرصاص المجاهدين الذين كانوا يحتلونه . وقد ضاقوا بهذه الحال ذرعاً وأرادوا التخلص منها بأى ثمن ، فجهزوا جيشاً كبيراً وهاجموا المجاهدين فيه يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩١٢ ، ودافع المجاهدون دفاعاً مشرفاً . ودام القتال النهار بطوله ، ثم اضطر وا إلى الانسحاب واحتله العدو ، واستشهد في هذه المعركة كثير منهم . ومن حينذاك أصبح مركز المجاهدين مهدداً لما للمرقب من الإشراف ، على ما حواليه من الأرض إلى مسافات بعيدة

وقد حصنه الطليان تحصيناً هائلاً ، ونحتوا في صخوره معازل ووضعوا فيها من المدافع الثقيلة والرشاشة وفرق الجند ما حمله من أمنع الحصون وأقواها في طرابلس .

طرد الطليان من عين زارة

ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢

منذ أن احتل الطليان عين زارة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١١ وهم في قلق مستمر من غارات المجاهدين عليهم في الليل والنهار ، وفي الصباح والمساء ، حتى في أوقات الأكل وساعات اللعب ، وهي بطبيعة موقعها وانفصالها عن المدينة عرضة لغزوات المجاهدين ومحاصرتهم . وتبعد عن المدينة إلى الجنوب بنحو ١٥ كيلو مترا . وقد وصلها الطليان بالمدينة بسكة حديد ضيقة . وكانوا يؤملون أن يقيموا فيها خط دفاع أمامي لأن أرضها سبخة ومنكشفة ، وكل ما فيها مما يمكن استعماله في الأغراض الحربية ، ربوة عالية في جهتها الشمالية تسمى « الرأس الأحمر » ، نصب الطليان عليها مدافع ، وبنوا حولها ثكنات للجيش .

وقد فكروا فيما يقيمهم شر هذه الغارات التي لا تنقطع ، وهذا الرصاص الذي يطلقه عليهم المجاهدون في كل لحظة ، فأحاطوا أنفسهم بسور من الأسلاك الشائكة حول الرأس الأحمر ، ونصبوا فيما تركوه من فتحات في هذا السور فخاخاً من حديد توارى في الأرض بحيث لا يميز مكانها من بقية الأرض ، وأوصلوا بها أجراساً كهر بائية تنبه العسس لما يقع فيها ، فإذا ما وقعت فيها رجل إنسان أمسكت به وتحرك الجرس بحركتها فيتنبه العسس ويقبض على من وقع فيها .

ومما احتال به الطليان لاتقاء مضايقة المجاهدين ، أن نصبوا آلة لها صوت كنباح الكلاب ، اعتقدوا أن العرب إذا سمعوا صوتها ظنوا أنها كلاب تنبحهم فيبتعدون عنهم . وسرعان ما فطن العرب لذلك وأيقنوا أنها خدعة عملت للتلبيس عليهم ، وذلك لأن صوتها كان متواصلاً وبدون انقطاع بخلاف نباح الكلاب الذي لا يخلو من تقطع وفترات سكوت . ولم تغن هذه التحصينات عن الطليان شيئاً ، من إزعاج المجاهدين إياهم وإفلاق راحتهم . وما زالوا بهم حتى أمكنتهم الفرصة فهجموا عليهم ، وكان هجوماً موفقاً صحبهم فيه التفويق وأخرجوهم من عين زارة في ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وقتلوا منهم

كثيراً ، وغنموا غنائم لا تحصى ومنها آلات تلغرافية وتليفونية .

وفي هذه المعركة ظهر الضعف والخور على الجنود الإيطاليين وسرت فيهم روح التردد على الأوامر ، ولولا ما أبدته الفرقة التي جاءوا بها من مصوِّع من المقاومة الشديدة لكانت هزيمتهم منكراً ، ولأخذوا عن بكرة أبيهم .

احتلال زوارة

في ١١ أبريل سنة ١٩١٢

كان طرد الطليان من عين زارة نذير شؤم عليهم لأنه أول هزيمة اصطدموا بها بعد أن قووا جيشهم وعدلوا خططهم ، على ضوء ما لاقوه من صعاب في محاربة الطرابلسيين ، ولكنهم لم ييأسوا ، فاتجه تفكيرهم لاحتلال زوارة ، وكانت إذ ذاك لم تحتل بعد وقد دخلت الحرب في شهرها السابع .

وكانوا يؤملون من وراء هذا الاحتلال أن يتسع الميدان الحربي فيضطر المجاهدون إلى توزيع جيوشهم ، وبذلك تضعف قوتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فكانوا يؤملون أن يقطعوا طريق الإعانات التي كانت ترسل إلى الطرابلسيين على طريق تونس . وقد قلنا في صدر الكتاب إن حركة الجهاد في طرابلس امتازت بصبغة عربية شرقية ، وذلك لأنها كانت باكورة النهضة العربية العامة المسلحة فكان الحماس لها شديداً والعطف عليها شاملاً ، وكان لهذه الصبغة أثرها الملموس في الإعانات التي كانت تتدفق عليها من تونس . وكانت هذه الإعانات من أكبر العوامل في ثبات الطرابلسيين وتشجيعهم على مداومة القتال . وكما أن تونس كانت تمدنا بالإعانات كذلك كانت طريقها مفتوحة لحجاء الضباط ومراسلي الصحف الأوربيين .

ولا يوجد من وسائل النقل في طرابلس غير الإبل ، فكانت الأرزاق تنقل من « بنقردان » إلى العزيزية ومرآكز المجاهدين في كل ناحية . ومادام العربي يجد سلاحه ، ويكفل قوته وقوت عياله فأخبر به أن يخلص في جهاده وأن يؤدي الواجب .

وقد أدرك الطليان هذا ، فأرادوا أن يقطعوا طريق الإعانات عن المجاهدين ولا يكون ذلك إلا باحتلال زوارة .

مناورة

أراد الطليان أن يُورّوا بغير قصدهم فهاجموا المجاهدين في جنزور عدة مرات بينما كان الاستعداد على قدم وساق لاحتلال زوارة ، وقد كشفت قيادة المجاهدين القصد من هذه المناورة فأمدت ناحية زوارة بما يلزم من المجاهدين واستعدوا لمواجهة هذا الغزو الجديد . وكانت جيوش المجاهدين تسكّون هلالاً مفتوحاً نحو المدينة يبتدىء بمحدود ترهونة شرقاً وينتهى بساحل البحر في مواجهة جنزور غرباً .

وقد أعد الطليان قوة كبيرة بقيادة الجنرال « جار يوني » تتألف من اثني عشر ألف جندي مجهزين بأكل العدد والآلات الحربية لتنفيذ هذه الخطة ، وحمل الأسطول هذه القوة من طرابلس . وفي صبيحة يوم ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ الموافق ١١ من إبريل سنة ١٩١٢ أطلقت المدمرات الإيطالية مدافعها على زوارة حتى كادت البلاد تنسف ، وتمت هذه الصواعق المحرقة تمكنت الجيوش الإيطالية من النزول في زوارة وتم احتلالها .

وقد أصبح ميدان زوارة الميدان الثالث في طرابلس ، أما الميدان الأول والثاني فهما ميدان العزيزية وهو الميدان الرئيسي ، وميدان الخمس .

وفي يوم احتلال زوارة احتل الطليان شبه « جزيرة الخباز » قرب قصر بوكش وهي جزيرة فروة ، وكانت تسمى رأس الخبز . وقد هجم المجاهدون على هذه الجزيرة يوم ٦ من جمادى الأولى محاولين استردادها فلم يوفقوا .

وكان لميدان زوارة أهمية كبرى لأنه يعرض طريق الإعانات إلى الخطر ، ولذلك عني بشأنه عناية خاصة ، وجمع له المجاهدون من كل ناحية ، فاجتمع فيه مجاهدو زوارة وخويلد والسعفات والنوايل ، وكلهم من سكان تلك المنطقة ، وانضم إليهم فريق كبير من مجاهدي العجيلات والزاوية ، واختير له من رؤساء المجاهدين الشيخ محمد سوف ، والسيد عبد الرحمن أفندي العروسي ، والبنباشي محمود أفندي القلاي الزاوي . وعلى رأس هؤلاء

جميعاً قائد المنطقة العام موسى بك البني^(١) ، وهو مشهود له بالحنكة والنبوغ في الفنون العسكرية . وقد قيل فيما كتب عنه : « إنه طبق في حرب طرابلس كل ما يمكن تطبيقه من النظريات العسكرية الحديثة . وكان فظناً لكل ما يمكن أن يعمل ، ووقف للإيطاليين بالمرصاد مدة بقائه في الحرب » . ١٥ .

وكان محترماً عند الطرابلسيين أيما احترام . وقد وجد من صدق عزيمة الطرابلسيين في القتال ما شجعه على بذل جهوده وإظهار مقدرته .

وفي هذا الشهر حصل هجوم من المجاهدين على قصر بوكاش ولم ينجحوا في استرداده . وفي ٢٣ منه هجم الطليان على سواني بوغجة ولم يتمكنوا من احتلالها . ثم أعادوا عليها المحجم في ٢٧ منه فاحتلوها وبقى المجاهدون حولها يحاصرونها .

وفي ٣ مايو ٩١٢ خرجوا منها بقوة كبيرة بقيادة الجنرال غارياني لإقصاء المجاهدين عن أماكنهم . ودارت معركة كبيرة ولم ينل الإيطاليون بغيتهم ، فأعاد المجاهدون عليهم الكرة في صبيحة اليوم الرابع منه ، وفي اليوم الخامس هجم المجاهدون على بلدة . وكرر العدو ضغطه على المجاهدين في الميادين الثلاثة ، فكانوا يقفون منه تارة موقف المدافع ، وتارة يهاجمونه في اليوم التالي لهجومه عليهم . وكان قصد العدو من هذه الشدة في الهجوم إنزال ما يمكن من الخسائر بالمجاهدين ، ومعرفة محل الضعف منهم لينزل بهم أشد ضربة يمكنه إنزالها بهم ، ولكنهم كانوا فطنين لما يراد بهم ، فكانت شيمتهم الصبر ورأبهم النصر .

احتلال جنزور

في ٩ يونية ٩١٢

نحن الآن نكتب في حوادث الشهر التاسع من ابتداء نشوب الحرب في طرابلس ،

(١) كان أيام نزول الطليان قومندان طابور برتبة بنباشي وبعد صالح أوشى سافرمع نشأت إلى الآستانة . وفي سنة ١٩١٥ رجع مع نوري بك إلى برقة . وبعد فشل الهجوم التركي على حدود مصر بقي في برقة ، ثم نفاه السيد ادريس السنوسي إلى الكفرة ، كما أخرج من برقة كل من كان يشايح السياسة التركية .

والطليان لم يحتلوا جنزور بعد ، وهي لاتبعد عن طرابلس أكثر من ١٦ كيلومترا .
وعجز الطليان عن احتلال جنزور في كل هذه المدة ، دليل على عجزهم عن مصارعة
الطرابلسيين ، وعلى ما يبدونه من شدة المقاومة وحسن البلاء .
ومهما حاول الطليان انتحال المآذير لما أصابهم من النكبات في الحرب الطرابلسية
فلن يجدوا في أساليب الكلام ما يعتذرون به عن حصرهم هذه المدة كلها فيما حوالى مدينة
طرابلس والخمس وزوارة ، ولما وسعهم إلا الاعتراف بالعجز إن كان لديهم بقية من إنصاف
لم يأت احتلال زوارة بالفائدة المرجوة منه وهي قطع طريق الإعانات التى كانت تأتى
من تونس . وكانت في جنزور قوة كبيرة من المجاهدين نظراً لقربها من مركز القيادة العامة
للمجاهدين وهو العزيزية ، واحتلالها يهدد مركز القيادة تهديداً مباشراً ، فكانوا يطمنون
أن يظفروا باحتلالها مهما ضحوا في سبيلها . وقد أجمعوا أمرهم على أن يقوموا بهذه التجربة
فجمعوا جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً بكامل عدده . وفي صبيحة اليوم التاسع من يونيه سنة ٩١٢
ابتدأ هذا الجيش العرمرم زحفه على جنزور ، وانبثق الفجر على دوى المدافع يصم الآذان
من البر والبحر . وضجيج الرصاص من البنادق والمدافع الرشاشة يملأ الفضاء . ورفض
المجاهدون في متاريسهم ينتظرون دنو الطليان منهم ، حتى إذا ما أصبحوا على مرمى
رصاص بنادقهم أصلوهم ناراً حامية ، واشتد وطيس المعركة ، والتف المجاهدون على
ميسرة العدو من ناحية قرقارش . واستمرت المعركة طول النهار . وقد استعانت فيها
المدافع من البر والبحر بكثرة لانظير لها ثم انجملت عن احتلال جنزور .

الهجوم على المرقب

في ١٢ يونيه ١٩١٢

منذ أن احتل الطليان المرقب في ٢٨ فبراير سنة ٩١٢ والمجاهدون يحاولون استرداده
وقد هاجموا عدة مرات لسبر ما أودع الطليان فيه من قوة . وكانت فكرة استرداده من
العدو الشغل الشاغل لقائد منطقة الخمس خليل بك .
وقد ثبت لديه من أخبار السرايا التى كانت تهاجمه أنه محصن تحصيناً قوياً أن يوجد

نظيره فيما أحدثه الطليان في طرابلس من حصون : فقد أنشئ عليه حصنان قويان ، وأحيطا بثمان مناطق من الأسلاك الشائكة ، وجهازا بما يكفي للدفاع عنهما من المدافع الثقيلة والرشاشات والجنود ، وشقت في صحوره طرق توصل بينه وبين مدينة الخمس ، تمر فيها قوافل المؤن والذخائر ولا تتعرض لأى خطر من الخارج . كل هذا لم يمنع خليل بك من مهاجمته لأسباب كان يستند إليها في إمكان القيام بهذه المهمة . فجمع من خيرة المجاهدين نحو ألف ، ووكل قيادتهم إلى ضباط ذوى كفاية . وجهزت جماعة من المجاهدين بمقتصات أعدت لقص الأسلاك الشائكة ، وفتح طرق لدخول المجاهدين منها .

وفي ليلة ١٢ يونيه سنة ٩١٢ ابتدأ الزحف على هذه الكتلة من الحديد والنار . وتمكنت جماعة المقتصات من فتح ثغرات في مناطق الأسلاك الشائكة ، فتدفق منها المجاهدون يبغون الوصول إلى ما وراءها ، واقتحموا على الطليان حصونهم ، ونازعوهم فيها مواضع أقدامهم ، وقتلوا من فيها إلا من اعتصم بالفرار ، واستولوا على ما فيها من سلاح ومتاع .

وبينما كان المجاهدون يستولون على الحصنين ، كان فريق منهم يتقدم إلى ساحل البحر تحت وابل من نيران المدافع والأساطيل ، حتى وصلوا إلى معسكر الطليان الاحتياطي الخيم في البساتين بين أشجار النخيل ، فأعملوا فيه رصاصهم وقتلوا كثيراً ممن فيه . وقد أحدث هذا التوسع من المجاهدين عدم تماسك بين صفوفهم . وقد أدرك الطليان هذا فجمع قوة كبيرة للحيولة بين جماعات المجاهدين وصوبت المدافع نيرانها إليهم من المرقب وسيدى بارق ، ومدينة الخمس وبعض مرتفعات لبدة ، ومن الأسطول بشدة لا مثيل لها ، فكثرت القتل في المجاهدين ، فرأوا أن بقاءهم على هذه الحالة المزعجة يسبب لهم خسارة كبيرة نظراً لتوسعهم في الهجوم ، وكثرة الجيوش الإيطالية التي تخللت صفوفهم . ولم يمكنهم نقل ما استولوا عليه في الحصون فأضرموا فيه النيران ، وعاد من بقي منهم إلى معسكرهم ، وما كاد يبلغه إلا بشق الأنفس .

وجاء في البلاغ العثماني أنه : « قتل من الطليان في هذه المعركة سبعة عشر ضابطاً ،

ونحو ألف جندي ، واستشهد من المجاهدين نحو مائة وجرح نحو المائتين .
والذي سمعته ممن شهدوا المعركة في وصفها الفظيع يدل على أن العدد الذي ذكر من
شهداء المجاهدين أقل من الحقيقة .

على فائق امسيك

وكان من بين الذين تشرفوا بالشهادة في هذه الملحمة الضابط النقيب على فائق أفندي
امسيك الغرياني ، وقد كسرت ذراعه في المعركة ، فدافع بمسدسه حتى كسرت الثانية ، ثم
قتل عليه رحمة الله .

احتلال سيدى سعيد

في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٢

كان يوم احتلال سيدى سعيد يوماً مشهوداً ، أبلى فيه المجاهدون بلاءً حسناً بقيادة
البنباشى محمود أفندي القلالى الزاوى . وعقل بعض المجاهدين رجليه خوف أن تحدّثه
نفسه بالفرار ، وقد استشهد كثير من المجاهدين يوم ذاك وهو على هذه الحال . وقد كتب
الله الشهادة في هذا اليوم لنحو أربعين مجاهداً من الزاوية فقط ، أذكر من بينهم العربى
ابن رحومة بن حمد ، وسالم ، بن حمد بن سالم وكلاهما من قبيلة أولاد أبى حميرة سكان الحرشا .
وفي مقدمة هؤلاء الشهداء رئيس مجاهدى الزاوية حضرة السيد عبدالرحمن أفندي العروسى
من أعيان الأباش ورجالات الزاوية المشهورين ، وكانت سنه إذ ذاك حوالى خمسة
وأربعين سنة ، رحمه الله وشكر له . وتعرف هذه المعركة بمعركة السكّومة . وجملة من استشهدوا
في هذه المعركة نحو مائتى مجاهد .

وقد بقي الطليان محصورين في منطقة زاورة وسيدى سعيد إلى ما بعد الصلح ، لم
تمكنهم جيوشهم وأساطيلهم وطائراتهم من التقدم خارج حماية الأسطول قيد شبر ،
وبقيت طرق الإعانات محفوفة بفضل ما بذله المجاهدون من الجهود في الدفاع عنها .

احتلال مصراتة

٩ يولييه سنة ٩١٢

مرت تسعة أشهر على احتلال الطليان طرابلس وهم محصورون في ثلاث مدن من المدن الساحلية ، وهي : الخمس ، طرابلس — العاصمة — وزوارة . وكلما فتحوا لهم ميداناً من هذه الميادين الثلاثة على أمل أن يتسع لهم المجال في إرهاب المجاهدين خاب أملهم ، وازدادوا حرقاً على ضياع أموالهم وفقد رجالهم قبل الحصول على نتيجة أو ما يشبه أن يكون نتيجة . ولم يبق أمامهم إلا مدينة مصراتة ، التي بقيت هذه المدة كلها محروسة بعناية الله وهمة أبناءها من شرور الطليان ومصائبهم . ولم يقتصر أبناءها على الدفاع عنها فقط ، بل كان لهم جيش في ناحية العزيزية يربط مع المرابطين ويجهد مع المجاهدين . وقد اصطدموا بالطليان يوم ٢٥ أكتوبر سنة ٩١١ وهو اليوم السابق ليوم معركة الهاني كان لهم فيه موقف حميد ، وفقدوا فيه من خيرة رجالهم نحو الأربعين رجلاً ، حفظ لهم التاريخ في صحائفه ما يستوجب الشكر .

كان الطليان يعتقدون أن الحلقة المفقودة من سلسلة مدن السواحل هي مدينة مصراتة فأعدوا أنفسهم لاحتلالها ، وجهبزوا لها جيشاً جراراً وأسطولاً عظيماً . وفي اليوم التاسع من يولييه سنة ١٩١٢ ظهرت على سواحلها تلك الجزر العائمة من الأسطول الإيطالي ، وأخذت ترميها من مدافعها بقذائف تدك الجبال دكا ، ونزلت الجيوش في حماية نيران مدافع الأسطول المتقدمة . ولم يكن أمام هذه المدافع إلا بنادق تحتية وراء آكام الرمال ، فلم يتمكن المجاهدون من جرد هذا التيار الجارف فاحتلوا قصر حمد وتقدموا منه إلى « المواطنين » عاصمة مصراتة وفي إحدى هذه المعارك جرح رمضان السويحلي في بطنه جرحاً بليغاً كاد يؤدي بحياته ، وانتقل السكان إلى الغيران ، وأحاط الطليان المواطنين بسور من التراب ، وجعلوا فيه أبراجاً ونصبوا عليها مدافع واضطر مجاهدوا مصراتة إلى الانسحاب من الميادين الغربية للدفاع عن مصراتة . وقد أصبحت مصراتة الميدان الرابع .

وبقيت مصراتة تحت الاحتلال إلى أن خرج الطليان منها بعد واقعة القرصائية التي سيأتي خبرها مفصلاً في محله .

استرداد جنزور

٢٥ من نوفمبر سنة ١٩١٢

لابد للذى يهيمه أن يسيطر على مدخل مدينة طرابلس الغربى أن يحتل جنزور ، ويمكنه - باحتلالها - أن يتحكم فى طريق المواصلات بين الزاوية والعزيرية من ناحية ترينة ، بل ويهدد العزيرية نفسها . وكان هذا أمل الطليان من احتلالهم جنزور يوم ٩ يونية سنة ١٩١٢ ، ولكن الطليان لم يوفقوا لهذا الغرض لما كان يبيده المجاهدون من شدة المقاومة . وبقوا محصورين فى جنزور .

وقد رأت قيادة المجاهدين أن تحتل جنزور لتعيد سيطرتها على مدخل المدينة الغربى ، وهو مما يزيد فى حصر الطليان ويضيقهم ، فجمعت نحو ألف وخمسمائة مجاهد ، وابتدأ الزحف صبيحة يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٢ ، وحصلت معركة هائلة دامت سبع ساعات كان النصر فيها للمجاهدين ، وتم طرد الطليان من جنزور يوم ٢٥ منه و بقيت تحت تصرف المجاهدين إلى أن حصل صلح أوشى فى أكتوبر سنة ١٩١٢ .

إشاعات الصلح^(١)

كان مما التجأت إليه إيطاليا لإضعاف المقاومة فى طرابلس ، حملها الدول الأوروبية على التوسط فى الصلح بينها وبين تركيا لتتفق معها على صلح تشترط عليها فيه أن تسحب جنودها من طرابلس ، وبذلك تضعف المقاومة فيها ويضطر العرب للتسليم . وكانت الدول الأوروبية راغبة فى حمل الحكومة العثمانية على الصلح مع التسهل ، لكن الحكومة العثمانية كانت تقابل هذه الرغبة بشيء من الصلابة فى التمسك بحقوقها فى طرابلس ، حتى اعتبرت الحكومات الأوروبية هذا التمسك رداً لوساطتها . وفى أوئل سنة ١٩١٢ كثرت إشاعات الصلح حتى وصلت إلى المجاهدين فى طرابلس

(١) لم نراع فى هذا الموضوع ترتيبه الزمني مع ما قبله من الحوادث لتكون سلسلة الكلام فيه متصلة

بعضها ببعض .

وكانت الحرب على قدم وساق ، وبالرغم على أن هذه الإشاعات لم تؤيد بما ثبتت صحتها عند رؤساء المجاهدين ، فقد كانت لها في نفوسهم أسوأ الأثر ، واحتجوا عليها لدى مجلس المبعوثان بتلغراف أرسلوه إلى الآستانة في ١٥ من المحرم سنة ١٢٣٠ هـ ديسمبر سنة ١٩١١ ووقعه عنهم الشيخ سليمان الباروني . وهذا نصه بعد الديباجة :

« لا نرضى بصلح يخل بعثمانيتنا ويجعل للعدو أى مدخل فى بلادنا ولو أبرمته الدولة ورضيه الخليفة . ونحن إلى الآن نحارب باسم العثمانيين والطرابلسيين ، فإذا أبرم الصالح على ما لا يرضينا أمكننا مداومة الحرب باسم الطرابلسيين فقط إلى آخر قطرة من دماننا . ولا يوجد بيننا متقاعد عن الحرب أو ميال إلى العدو أو مسالم له قط . وقد أوجبتنا الحرب على كل قادر بدون استثناء . ولا دخل فى ذلك للترك أصلاً . وسنجلب ما يلزمنا من المدافع الموجودة فى غريان إلى خط الحرب إذا تجاوز العدو خط النخيل . وما دامت الدول العظمى ملتزمة الحياد فإننا نحارب باسم دولتنا ووطننا ، ومتى ظهر منها الوقوف فى طريق انتصاراتنا وقوفاً غير مشروع فإننا نعد ذلك منها تعصباً وإذا سنحارب باسم الدين فقط .

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمْ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمَ »

والذى حمل الطرابلسيين على هذا الاحتجاج هو أن مساعى الصلح كانت تجرى بين الترك والإيطاليين بدون أن يكون للطرابلسيين فيها دخل . وليس من مصلحة الطرابلسيين أن يسكتوا على مثل هذا التصرف لأنهم هم الذين ستعود عليهم نتائج هذا الصلح إن خيراً أو شراً . كما أنه كان من واجب الترك ألا يبرموه بدون أخذ رأى الطرابلسيين فيه .

وقد تضمن احتجاج الطرابلسيين تهديداً للدول الأوربية بالحرب باسم الدين إذا هم لم تكف عن التدخل فى شئون الطرابلسيين بغير المصلحة . والحرب باسم الدين مما يخشاه الأوربيون دائماً ويقض مضاجعهم ، لأنهم يعتقدون أن المسلم أشد ما يكون قتالاً لهم إذا كان يقاتل باسم الدين .

الضغط على الحكومة العثمانية

وقد رأى الطليان من الوسائل التي تحمل الحكومة العثمانية على طاب الصالح تهديد سواحلها وضرب ثغورها ، واحتلال جزرها .

ولم ترق هذه السياسة نظر الدول الأوربية ، خوفاً على مصالحها في المدن والثغور الساحلية العثمانية ، وخوفاً من توسع إيطاليا الاستعماري . وكانت حجبتهم في هذه المعارضة أن الاتفاق الذي حصل بينها وبين إيطاليا قاصر على الإذن بالأعمال الحربية في طرابلس ، وقد بذل الطليان مساعي كبيرة لدى الدول الأوربية ، وأعطوا ضمانات بقصر الأعمال الحربية على المنشآت العثمانية فقط ، وعدم المساس بأي مصلحة من مصالح دول أوربا ، وعندئذ أُذِنَ لهم بالقيام بممارات على الثغور والسواحل العثمانية ، فضرب أسطولهم القنفذة يوم ١٢ من يناير سنة ١٩١٢ . وأمدوا السيد محمد الإدريسي بالمال والسلاح للقيام بالثورة على الدولة العثمانية ، فحاصر أبها قاعدة عسير وكانت تابعة لها .

وعندما كانت إيطاليا تقوم بهذه المناورات ، كانت دول أوربا تسعى لحمل الحكومة العثمانية على عقد صلح مع الطليان ، فقد ذهب سفراء انجلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا والنمسا في روما ، إلى المريكز سان جوليانو وزير الخارجية الإيطالية إذ ذاك في الأسبوع الأول من شهر مارس سنة ١٩١٢ ، وطلبوا منه أن يطلعهم على الشروط التي تشترطها إيطاليا للصلح مع تركيا بشأن طرابلس ، فأبلغهم في اليوم العاشر منه مذكرة تحتوي على ما يأتي :

١ - « اعتراف تركيا بضم طرابلس إلى إيطاليا وملكيتهما لها واسترجاع جنودها منها .
٢ - إذا قبلت تركيا هذا الشرط — وهو أساسي — فإن إيطاليا مستعدة للتساهل في الأمور الدينية والمالية ، وإعلان غفوع عن الأهالي ، وفي وضع التعريفة الجمركية ، وإلغاء الامتيازات القنصلية في السلطنة العثمانية » .

وقابل سفراء الدول الخمسة في الآستانة محمد عاصم بك وزير الخارجية التركية ، وسلموه اقتراحات إيطاليا ، وطلبوا منه الرد مع استعمال اللين وشيء من التساهل للوصول إلى نتيجة . وفي اليوم الثامن من إبريل ، سلمهم مذكرة مشتملة على كثير من الاعتدال والمجاملة ،

وعلى شكر الدولة لتوسطها في الصلح . وقد جاء في المذكرة : « إنه لا يسع الدولة العثمانية قبول اقتراحات إيطاليا مطلقاً . » واشتملت المذكرة على شروط هذا نصها :

١ — المحافظة على حقوق ملكية السلطان لطرابلس وبرقة محافظة حقيقية .

٢ — جلاء الإيطاليين عنهما عسكرياً .

٣ — منح إيطاليا امتيازات اقتصادية في تلك البلاد .

وجاء في المذكرة :

« إنه لا يسع الدولة قبول صلح على غير هذا الأساس وإلا ساد الاضطراب السلطنة كلها . »
وكما رفضت تركية شروط إيطاليا كذلك رفضت إيطاليا شروط تركية ، ورجعت الحال الى ما كانت عليه قبل تقديم المذكرات .

ولم يرض تمسك تركية بحقها الدول الأوربية ، واعتبرته رفضاً لوساطتها ، فأغرت إيطاليا بضرب السواحل التركية على البحر المتوسط ، فجاءت أسطولا ضخماً وهاجمت ساموس ورودس في أواسط شهر ابريل سنة ٩١٢ . وفي ١٩ منه هاجمت مدخل الدردنيل بتسع وثلاثين بارجة ، وأطلقت عليه مائة وثمانين قنبلة ، فقابلتها القلاع بالمثل ، فأغرقت إحدى البوارج وانهزم الأسول الإيطالي .

و بعد خمسة أيام من حادثة الدردنيل ظهرت قطع من الأسطول أمام جزر الدوديكانيز واحتل بعضها يوم ٢٣ من ابريل . واحتلت عاصمة الجزر يوم ٥ مايو . ولم يأت يوم ١٣ منه حتى احتل الطليان ثلاث عشرة جزيرة من جزر الدوديكانيز . وكل هذا لم يثن من عزم حكومة الآستانة في تمسكها بطرابلس .

وكان مما شجع الحكومة العثمانية على التمسك بحقوقها في طرابلس مؤازرة الشعب التركي لها ، وتحمسه لعدم الاعتراف بأى حق للطليان في طرابلس .

وكان للبرنس يوسف عز الدين ولى عهد المملكة العثمانية ، رأى مشرف بشأن الصلح مع الطليان ، فقد جاء فيما صرح به في هذا الشأن : « إن الصلح لا يتفق مع مصلحة الدولة العثمانية ، لا مادياً : لأن النصر ما زال حليفنا ؛ والطليان على كثرتهم وقوتهم لم يتجاوزوا

الساحل . ولا أديباً : لأنه لا يعقل أن يسلم الخليفة في أمة مسلمة تدين له بالطاعة إلى أمة مسيحية اعتدت عليها . كما أنه ليس من المعقول أن ننزل عن حقوقنا الشرعية في طرابلس وما زال النصر حليفنا » .

وجاء أيضاً على لسان الصدر الأعظم قوله :

« ونحن عاقدو العزيمة على عدم إبرام الصلح إلا على قاعدة الاعتراف بحقوق ملكية السلطان الحقيقية والفعلية على طرابلس الغرب . أما القول بأننا سنعطى حق السيادة الدينية على هذه البلاد ، فإنه خداع ومغالطة ، لأن هذه السيادة موجودة على كل مسلم » . وعلى هذا الطراز من الإحساس الشريف ، كان الإحساس العام في تركيا .

وليت هذا الإحساس وهذا التمسك بطرابلس كان وقت أن أهل شأنها ، ونقلت جيوشها ومدافعها إلى اليمن ، وأعرضت عن إصلاحها وزارة حق باشا بإيعاز من الاتحاديين ، وسلمت لقمة سائغة للطلليان على مرأى ومسمع من هؤلاء جميعاً .

أما القيام بمثل هذه الحركة الآن فقد جاء بعد أن « فات القطار » وأقل ما يقال فيها إنها ليست من أجل طرابلس فقط ، بل لأجل تخفيف الضغط الإيطالي عن تركيا أيضاً ، لأنه كلما اشتدت المقاومة في طرابلس كلما شغلت أكبر عدد ممكن من الجيوش الإيطالية . وفي مثل هذا يقال : « الصيف ضيّعتِ اللبنة »

وقد توالى الفتن بعد ذلك ، وكثرت المؤامرات الحزبية والطائفية ، واشتد النزاع بين الاتحاديين والانتلافيين ، واندلع لهيب الثورة الداخلية في ألبانيا ، واضطرب الرأي العام في الآستانة ، فرأت حكومة سعيد باشا أن تدخل في مفاوضات مع الطليان لتصل إلى نتيجة ، تهدي من هذا الاضطراب الذي أصبح يهدد المملكة العثمانية بالفوضى ثم بالزوال

بدء المفاوضات

ابتدأت المفاوضات أيام وزارة سعيد باشا ، في جو مضطرب ، وفتن تسكاد تفتاح المملكة العثمانية كلها .

وأول جلسة عقدت بين المتفاوضين كانت في لوزان (سويسرا) يوم ١٢ يوليه سنة ١٩١٢. وكان يمثل الحكومة العثمانية محمد ناني بك سفيرها في بلغراد، وغزالدين بك سفيرها في الجبل الأسود. ويمثل إيطاليا السنيور فوزيناتو، والسنيور بيرتوليني، والسكونت فولبي. وقد اشتدت الأزمة السياسية في الآستانة، فاستقالت وزارة سعيد باشا يوم ٢٧ يوليه، سنة ١٩١٢، وخلفته في الحكم وزارة مختار باشا فرأت أن تستمر في المفاوضات. فاستمرت بقية شهر يوليه، وشهر أغسطس ونصف شهر سبتمبر، وكل من الطرفين يقترح ما لا يرضى صاحبه فيرد عليه اقتراحه، ويقترح الثاني بدوره فيرد عليه الأول، وهكذا دواليك. وكانت العقبة التي لا تلتقي فيها الآراء هي الاعتراف بالخاق طرابلس بروما فالظليان يصرون على الاعتراف من الترك بهذا الإخلاق، والترك يصرون على عدم الاعتراف به.

مؤامرة

في ١٣ مارس سنة ١٩١٢ تحالفت حكومتا الصرب والبلغار ضد تركيا مدة ست سنوات. وفي ٢٩ منه تحالفت البلغار واليونان ضدها أيضاً مدة ثلاث سنوات. وفي ٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ أعلن أمير الجبل الأسود الحرب على تركيا. وفي ١٣ منه طالبت اليونان والصرب والبلغار تركيا بالإصلاحات في الرومللي، وطلبت توزيع العساكر العثمانية المرباطة في الرومللي. وكانت مذكرة هذه الدول شديدة في لهجتها، فلم يبق أمام تركيا إلا إعلان الحرب.

وكان لهذه المؤامرة الإجماعية من دول البلقان أثر كبير في الضغط على تركيا حتى اضطرت إلى إبرام الصلح مع إيطاليا.

وفي مدة المفاوضات كانت الدعاية الإيطالية تتغلغل في قلب الأناضول وتحرض على الثورة. وتمد الألبان وغيرهم من الثوار بالسلاح والأموال اللازمة. وكثرة الأخذ والرد في المفاوضات لم تزد الحالة في المملكة العثمانية إلا سوءاً، فأعزمت وزارة مختار باشا أن تصل بالمفاوضات إلى نتيجة لتتفرغ لمعالجة هذه الفوضى التي كادت تعم المملكة كلها، فانتدبت رشيد باشا وزير الزراعة وزودته بسلطة واسعة، فسافر إلى لوزان يوم ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١٢

للاشتراك في المفاوضات ، وبمجرد وصوله استؤنفت بحضوره واستمرت إلى أوائل أكتوبر سنة ١٩١٢ حيث اتفق الطرفان على شروط رأى فيها كل منهما ما يصلح أن يكون نهاية لهذه المفاوضات وإن كان الترك يرون أنهم لم يصلوا إلى غرضهم ولكنهم رضوا بهذه النتيجة على مضض بعد أن أرهقتهم الثورة الداخلية ، وبعد أن بذلوا كل ما في وسعهم للحصول على ما يمكن الحصول عليه . وفي ٩ منه سافر رشيد باشا إلى أوشى لتوقيع المعاهدة مع الطليان .

معاهدة أوشى (١)

الملاحق — الاتفاق السرى

نص معاهدة أوشى

لما كان جلالة ملك إيطاليا و جلالة سلطان العثمانيين يرغبان كل منهما كآخري إيقاف الحرب الدائرة بين الدولتين فقد عينا مندوبيهما : فعين جلالة ملك إيطاليا المسيو بييترو برتوليني الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، ونیشان القديسين : موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو في مجلس النواب . والمسيو جويدو فوزينانو الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ونشان القديسين : موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو في مجلس النواب وفي مجلس الدولة . والمسيو جيسب فولني الحامل نشان القديسين : موريس ولازار من الدرجة الثالثة ونشان تاج إيطاليا من الدرجة الثالثة .

وعين جلالة سلطان العثمانيين عطوفة محمد نابي بك الحامل للنشان العثماني من الدرجة الأولى والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض . وسعادة روم أوغلو خضر الدين بك الحامل النشان المجيدى من الدرجة الثانية ، والنشان العثماني من الدرجة الثالثة والمندوب فوق العادة والمندوب المفوض . وقد تبادل أولئك المفوضون شخص أوراق اعتمادهم فوجدوها

(١) اطلعت على نص ثان لهذه المعاهدة يختلف قليلا على هذا النص في ألفاظه ويتفق معه في المعنى . وسبب الاختلاف في الالفاظ الاختلاف في الترجمة .

صحيحة قانونية واتفقوا على المواد الآتية :

المادة الأولى — تتكفل الدولتان أن تتخذتا — حالما تمضى المعاهدة — الإجراءات الضرورية لوقف ربحي الحرب حالا . وسيبرسل معتمدون خصوصيون إلى مساحة الحرب لتنفيذ ذلك .

المادة الثانية — تتكفل الحكومة العثمانية وحكومة إيطاليا أن تصدرا الأوامر حالا بعد إمضاء هذه المعاهدة باستقدام ضباطهما وجيوشهما وموظفيهما المملوكين ، الأولى من طرابلس الغرب وبرقة ، والثانية من الجزر التي احتلتها في بحر إيجة .

ويجلبو الضباط والجيوش والموظفون المملوكون الإيطاليون فعلا عن الجزر المذكورة بعد جلاء الضباط والجيوش والموظفين العثمانيين عن طرابلس وبرقة .

المادة الثالثة — تتبادل الحكومتان الأسرى والرهائن بأسرع ما يمكن .

المادة الرابعة — تتكفل الحكومتان بإصدار عفو عام تام : فتمفوا حكومة إيطاليا عن سكان طرابلس وبرقة ، والحكومة العثمانية عن سكان جزر بحر إيجة التابعين للسلطنة العثمانية الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أسندت اليهم بعض التهم بسببها ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لا يمكن محاكمة أى شخص من أى طبقة أو من أى فئة كانت ، ولا من شخصه أو أملاكه أو حقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التي أبدأها في مدة الحرب . ويطلق في الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الخامسة — يعمل حالا بجميع المعاهدات والاتفاقات والعقود التي عقدت أو كانت نافذة بين الفريقين المتعاقدين قبل إعلان الحرب مهما يكن جنسها أو نوعها والغاية منها . وتعود حالة الحكومتين ورعاياهما إزاء بعضهما الى مثل ما كانت عليه قبيل وقوع الحرب .

المادة السادسة — تتكفل إيطاليا بأن تعقد مع الدولة العثمانية حينما تجدد معاهدتها التجارية مع الدول الأخرى . معاهدة تجارية على قاعدة الحق العام الأوربي ، بمعنى

أن تترك للدولة العثمانية كل استغلالها الاقتصادي ، وحق السير في أمورها التجارية والحركية على خطط الدول الأوربية من دون أن تغل يدها الامتيازات القنصلية والمعاهدات الأخرى المعمول بها الآن . ولا يعمل بهذه المعاهدة التجارية إلا حينما يعمل بالمعاهدات التجارية التي تعقدها الدولة العثمانية على هذه القاعدة مع الدول الأخرى . ثم إن إيطاليا تقبل من جهة أخرى رفع رسوم الجمرک النسبية عن البضائع في السلطنة العثمانية من ١١ الى ١٥ في المائة باحتكار الأصناف الخمسة الآتية ، أو بزيادة الرسوم على ما يستهلك منها ، وهي البترول ، وورق السيجارة ، وثقاب السكريت ، والسكرول ، وورق اللعب ، على شرط أن تشمل هذه المعاملة جميع واردات البلاد الأخرى في آن واحد ، وبلا تمييز ولا تفريق . وتكون إدارة هذه الاحتكارات لازمة بأخذ قسم من هذه الأصناف من الواردات الإيطالية بحيث يمين مقدار هذا القسم على قاعدة الوارد السنوى منها . ويكون ثمنها مطابقاً لحالة السوق حين شرائها ، مع مراعاة جنس البضائع ومتوسط ثمنها في السنوات الثلاث السابقة لسنة إعلان الحرب .

فإذا رأت الدولة العثمانية أن تستعيز عن احتكار هذه الأصناف بفرض ضريبة إضافية على ما يستهلك منها ، وجب لفرض هذه الضريبة على الأصناف المذكورة الإيطالية أن تفرض أيضاً على حاصلات الدولة العثمانية والأمم الأخرى من هذه الأصناف .

المادة السابعة — تتكفل الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في السلطنة العثمانة حالما تلغى الدول التي لها مثل هذه المكاتب في بلاد الدولة العثمانية مكاتبها .

المادة الثامنة — لما كانت الدولة العلية تنوى مفاوضة الدول في مؤتمرات وبطريقة أخرى في إبطال الامتيازات القنصلية من السلطنة العثمانية واستبدالها بنظام الحق الدولى ، فإيطاليا تعلن من الآن رغبتها في تعضيدها في ذلك تعضيداً صادقاً ، وامتداف بأحقية مقاصدها من هذا القبيل .

المادة التاسعة — تعلن الدولة العثمانية أنها مستعدة أن تعيد الرعايا الإيطاليين الموظفين في مصالحها والذين اضطرت أن تفصلهم عنها حين إعلان الحرب إلى وظائفهم

إظهاراً لرضاها عن خدماتهم الصادقة لها ، وأن تدفع لهم رواتب الاستيداع عن الأشهر التي قضوها خارج وظائفهم ولا يضر هذا الانقطاع عن الخدمة أقل ضرر بالمستخدمين الذين يستحقون معاشاً .

ثم تتكفل الحكومة العثمانية أيضاً أن تتوسط لدى المصالح التي لها علاقة بها مثل صندوق الديون العمومية وشركات السكك الحديدية والبنوك وغير ذلك ، حتى تعامل الرعايا الإيطاليين الذين كانوا في خدمتها نفس هذه المعاملة .

المادة العاشرة — تتكفل حكومة إيطاليا أن تدفع سنوياً إلى صندوق الديون العمومية العثمانية لحساب حكومة جلالة السلطان مبلغاً معادلاً لمتوسط المبلغ الذي خص في السنوات الثلاث السابقة لإعلان الحرب من إيرادات ولايتي طرابلس و برقة لصندوق الديون العمومية العثمانية ، ويعين مقدار هذا المال السنوي معتمدان ، تعين أحدهما حكومة إيطاليا والآخر الحكومة العثمانية ، فإذا وقع خلاف بين المعتمدين يرفع الأمر إلى مجلس تحكيم يرأسه مرجح يعين باتفاق الفريقين ، فإذا لم يتم الاتفاق على ذلك عين كل فريق من الفريقين دولة وعينت الدولتان مرجحاً . ويحق لكل من حكومة إيطاليا وصندوق الديون العمومية العثمانية — بواسطة الحكومة السلطانية — أن يطلب استبدال هذا المال السنوي بمبلغ تكون فائدته موازية للمال السنوي المذكور بمعدل ٤ ٪ .

وتعترف حكومة إيطاليا من الآن أن هذا المال السنوي لا يكون في حال من الأحوال أقل من مليوني فرنك إيطالي ، وهي مستعدة أن تدفع إلى صندوق الديون العمومية العثمانية رأس المال كله دفعة واحدة حالما يطلب منها ذلك .

المادة الحادية عشرة — يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ إمضاءها .

ولهذه المعاهدة ملاحق ثلاثة نذكرها تباعاً :

الملحق رقم ١

منشور جلالة السلطان إلى سكان طرابلس و برقة :

« لما كانت حكومتنا السنية في حالة يستحيل معها عليها أن تسديكم المساعدات التي تحتاجون اليها للدفاع عن وطنكم ، ولما كانت من الناحية الأخرى مهمة بضمان راحتكم وهنائكم حاضراً ومستقبلاً ، فرغبة منا في اتقاء مواصلة حرب مدمرة لكم ولعائلاتكم ، وذات خطر على إمبراطوريتنا ، وفي إدخال الهناء والسلام إلى وطنكم قد منحتكم استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً بمال من حقوق السيادة عليكم ، وستدار بلادكم بموجب قوانين جديدة وأنظمة خاصة ، يشترك رجالكم في إعدادها لكي تأتي مطابقة لحاجاتكم وعاداتكم . ولقد عينت شمس الدين بك المعروف بصدق الخدمة ممثلاً لي عنكم ، ومنحته لقب نائب السلطان ، وعهدت إليه بحماية المصالح العثمانية في بلادكم ، وذلك لمدة خمس سنوات مع احتفاظي بحق تجديدها أو تعيين غيره .

ولما كانت أمنيته المحافظة على بقاء الأحكام الشرعية قائمة بينكم ، فقد احتفظنا بحق تعيين القاضي الذي يتولى تعيين نواب عنه من العلماء أبناء البلاد فيقضون بينكم طبقاً لما تقضى به الشريعة .

وستدفع رواتب القاضي من جانبنا ، ومثل ذلك راتب نائب السلطان . أما الموظفون الشرعيون الآخرون فتدفع رواتبهم من دخل البلاد » .

الملحق رقم ٢

وهو منشور من ملك إيطاليا إلى سكان طرابلس و برقة : « عملاً بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ والذي يجعل طرابلس الغرب و برقة خاضعتين خضوعاً تاماً مطلقاً للسيادة الملكية الإيطالية ، ورغبة في التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ، وبناء على اقتراح مجلس الوزراء أصدرنا المرسوم الآتي :

المادة الأولى — منح العفو التام العام للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض التهم بسببها ، ماعدا الجرائم المختصة بالحق العام ، بحيث لا يمكن

محاكمة أى شخص من أى طبقة أو أى فئة كانت ولا مسّ شخصه أو أملاكه وحقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التى أبدّاها مدة الحرب ، ويطلق فى الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الثانية — يظل أهالى طرابلس وبرقة متممين بتمام الحرية فى إقامة شعائر الدين الإسلامى كما كانوا فى الماضى ويواظبون على ذكر اسم جلالته السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين فى الصلوات العامة ، ويعترف بالنيابة عنه للشخص الذى يعينه جلالته لذلك ، ويدفع راتب هذا النائب من الإيرادات المحلية ، وتحترم حقوق المصالح الدينية « الأوقاف » كما كانت فى الماضى . ولا يوضع أقل عائق فى سبيل علائق المسلمين بقاضى القضاة رئيسهم الأمين الذى يعنيه شيخ الإسلام ، والنواب الذين يعينهم هو والذين تدفع رواتبهم من الإيرادات المحلية .

المادة الثالثة — ويعترف أيضاً لنائب السلطان المذكور بحماية مصالح السلطنة العثمانية والرعايا العثمانيين ، حسب ما صارت إليه فى الولايتين المذكورتين بعد إصدار قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ .

المادة الرابعة — تعين بمرسوم ملكى لجنة يكون من أعضائها بعض أعضاء البلاد تقترح وضع الأنظمة المدنية والإدارية للولايتين ، على أن يستمد من المبادئ الحرة ويقوموا على احترام أخلاق البلاد وعوائدها .

الملحق رقم ٣

هذا الملحق خاص بما يجب عمله مع سكان جزائر بحر إيجه ، وليس فيه ما يتعلق بطرابلس لامن قريب ولا من بعيد لذلك رأينا عدم ذكره .

الاتفاق السرى

وقد وضع اتفاق سرى لهذه المعاهدة ، وهذا نصه :

المادة الأولى — تتعهد حكومة الامبراطورية العثمانية بأن تصدر فى خلال ثلاثة أيام

(١) جاء فى الملحق رقم ١ أن نائب السلطان والقاضى تدفع رواتبهما الحكومة العثمانية .

من توقيع هذا الاتفاق على الأكثر فرماناً موجهاً إلى الشعب الطرابلسي والبرقاوى يطابق الملحق رقم ١ .

المادة الثانية - يجب أن توافق الحكومة الملكية الإيطالية مقدماً على تعيين نائب السلطان والرؤساء الديفين ، وأن تحدد رواتب هؤلاء الرؤساء ونائب السلطان باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين وتدفع رواتبهم من الدخل الخلى ، ماعد راتب القاضى فإن الحكومة العثمانية هى التى تدفعه ، ويجب ألا يزيد عدد هؤلاء الرؤساء على ما كان عليه عند إعلان الحرب .

المادة الثالثة - تتعهد الحكومة الإيطالية الملكية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى مرسوماً ملكياً مطابقاً لنص الملحق رقم ٢ .

المادة الرابعة - تتعهد الحكومة العثمانية بأن تصدر فى خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكى المنصوص عليه فى المادة الأولى إرادة ملكية طبقاً لنص الملحق رقم ٣^(١) .

المادة الخامسة - عقب نشر المراسيم الثلاثة ذات الطرف الواحد المنصوص عليها فى ماتقدم يوقع الفريقان المتعاقدان معاهدة عامة طبقاً لنص الملحق رقم ٤ .

المادة السادسة - ومن المتفق عليه طبعاً والمفهوم من هذا الاتفاق أن حكومة الامبراطورية العثمانية تتعهد بأن لا ترسل ولا تسمح بإرسال سلاح من تركيا إلى طرابلس الغرب وورقة أو ذخائر أو أسلحة أو ضباط أو جنود .

المادة السابعة - لانتداب حكومة من الحكومتين المتعاقدتين الأخرى بما أنفقته من نفقات على إطعام أسرى الحرب وإيوائهم .

المادة الثامنة - يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بإبقاء هذا الاتفاق سرياً ، على أن

(١) الملحق رقم ٣ لادخل له فيما يتعلق بطرابلس وبرقة .

يكون لكل حكومة حق الخيار في إعلانه عند تقديم المعاهدة المنصوص عليها في الملحق الرابع إلى برلمانها .

يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ يوم توقيعه .
المادة التاسعة — ومن المتفق عليه أن الملاحق المنصوص عليها في هذا الاتفاق تعد جزءاً متمماً له .

كتب في لوزان بنسختين يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢
بيروير توليني . جويدوفوريناو . جيسب فولبي

محمد نابي . روم أوغلوخر الدين
وتنفيذاً لمساواة في الاتفاق السري المذكور آنفاً ، فقد وضعت نصوص المعاهدة ،
ووقع عليها مندوبو الحكومتين في الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر يوم ١٨ من أكتوبر
سنة ١٩١٢^(١) .

تعليق

هذه معاهدة أوشى وملاحقها . والمتأمل في هذه النصوص يرى أن أهم ما جاء فيها مما يتعلق بطرابلس هو ما جاء في المادتين الأولى والثانية من مواد المعاهدة مما يتعلق بوقف القتال وسحب الجنود والضباط الأتراك من ميدان القتال في طرابلس وبرقة ، وهو أهم ما يصبو إليه الطليان . وما جاء في الملحق رقم ١ وهو المنشور الذي صرح فيه جلالة السلطان محمد الخامس بتنازله عن حقوقه في طرابلس وبرقة لأهلها ، ومنحهم استقلالاً داخلياً مطلقاً تاماً ، ولم ينسب إليه في مواد المعاهدة ولا في ملاحقها ما يقيد هذا الاستقلال

(١) كانت الدولة العلية أثناء المفاوضات في أخرج الأوقات . فقد أعلنت الحرب على دول البلقان في الساعة الثانية والدقيقة الأربعين من مساء اليوم السابع عشر من أكتوبر سنة ١٩١٢ وهو اليوم السابق ليوم توقيع المعاهدة . وفي الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين من صباح يوم توقيع المعاهدة هجمت الجيوش العثمانية على بلغاريا والصرب .

أو ينقصه . وهو بما له من حقوق السيادة في هاتين المقاطعتين له أن يمنح هذا الحق ، وقد منحه لأهله .

أما بقية المواد فبعضها يتعلق بالتجارة ، وبعضها بالأموال المالية أو الامتيازات القنصلية أو غير ذلك مما ترغب إيطاليا الحصول عليه أو إعطائه في مقابلة ما هو خير منه . وقد أصر جلالة السلطان على أن يكون هذا الاستقلال تاماً ، ولكن الطليان أبوا أن يوافقوا على ذلك . ولذلك ترى نصوص المعاهدة خلواً من التعرض لحق السيادة على طرابلس ووضعت الملاحق لتفسير وجهة نظر كل فيما يتعلق بهذه السيادة .

وكان تنازل جلالة السلطان على حق سيادته على طرابلس وبرقة لأهلها تقديراً منه لجهود هذا الشعب الأبى ومكافأته على إخلاصه لعرش آل عثمان إلى آخر لحظة من لحظات المقدرة والإمكان .

وقد نقض الطليان كل ما في هذه المعاهدة ، وغدروا بالترك والطرابلسيين على السواء وأثروا في الحرب الطرابلسية بما يورث العار والشنار . وقد تولى الله جزاءهم ، فرماهم بداهية الدواهي ، وأدال منهم بأكثر مما أدالوا من غيرهم ، وقد قتل موسوليني بأيدٍ إيطالية واحتلت عاصمتهم « روما » بجيوش الخلفاء وأصبحوا أذلاء صاغرين .

بعد المعاهدة

نشر القائد الإيطالي في طرابلس خبر هذا الصلح يوم ٢١ من أكتوبر سنة ٩١٢ ، وأبلغه إلى نشأت بك القائد الأعلى للمجاهدين .

وقد استغرق هذا الكفاح بين الحق والباطل من يوم نزول الطليان في طرابلس إلى يوم إبلاغ خبر الصلح لنشأت بك اثني عشر شهراً وستة عشر يوماً .

وقد وقعت في هذه المدة وقائع دامية يمجدها القارىء مدونة في مواضعها من كتابنا هذا . وكان لحق الطرابلسيين في هذه المعارك جولات على باطل الإيطاليين رفع من شأن العرب كلهم بمقدار ما حط من شرف الجيش الإيطالي .

وقد تمكن الطليان في هذه المدة كلها من احتلال أربع مدن فقط من المدن

الساحلية . مدينة طرابلس « العاصمة » وقد أحاطوها بسور من الحجر وبقوا محصورين فيما حواه السور . ومدينة الخمس ، وبقوا محصورين فيها فقط . ومدينة زوارة وبقوا محصورين فيها إلى أن احتلوا سيدي عبد الصمد ، وسيدي سعيد ، فوسعوا دائرة احتلالهم في دائرة قطرها نحو ١٠ ك . ومدينة مصراتة ، وبقوا محصورين فيها من قصر حمد إلى المواطنين ، في محيط قطر دائرته مسافة نحو ١٠ ك .

وبهذه المعاهدة ينتهى الشطر الأكبر من الدور الأول من الحرب الطرابلسية ، وهو الشطر الذى يشرف نشأت بك على أعماله الإدارية والحربية بوصفه ممثلاً للحكومة العثمانية ووالياً على طرابلس . ومع نشأت بك محمد فرحات الزاوى ، والشيخ سليمان البارونى ، والهادى كعبار ، وأحمد المريض ، وعلى بن تنتوش . ويوجد عساكر من بقايا الجيش العثمانى فى طرابلس قبل الاحتلال يبلغ عددهم ١٥٠٠ تقريباً .

وكان هذا الشطر من الدور الأول يعتمد فى عتاده الحربى على ما كان للدولة العثمانية فى طرابلس من البنادق وبعض المدافع . وعلى قليل من البنادق التى غنمها المجاهدون من الطليان فى المعارك التى دارت بينهم لأن الغنائم لم تكسر إذ ذاك .

وأرغمت الدولة على هذا الصلح إرغاماً ، وبذلت أقصى جهدها فى الاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من الحقوق التى تفسح أمام الطرابلسيين المجال للمطالبة بحقوقهم والدفاع عن استقلالهم فجاء استقلالاً ناقصاً يحتاج إلى تكملة ، وبذل جهود لإقناع الطليان بالاعتراف به . وقد حاول الطرابلسيون الوصول إلى تكملة هذا النقص من طريق المفاوضات تارة ، ومن طريق الحرب أخرى ، ولكنهم لم يفلحوا .

وقد اشتمل هذا الصلح على خطأين كبيرين كان لهما أثر سىء فى فشل مداومة الطرابلسيين على الجهاد :

الخطأ الأول : أنه وقع من غير مشورة الطرابلسيين ، بل وبدون أن يعلموا عنه شيئاً ، وهذا أمد على حقوقهم وتدخل فى أخص اختصاصاتهم لأنهم أدركوا بما تقتضيه الحال القائمة

إذ ذاك . وهم الذين سيقعون تحت عبء هذه الشروط ويتحملون تبعاتها وتبعتها ما ينشأ من ضغط الطلبان على الحكومة العثمانية . فاستشارتهم تمسكهم من التفكير في مصيرهم ، وتعطى للأتراك الحجة عليهم فيما يختارون لأنفسهم من مصير .

الخطأ الثانى : أن القوة المعنوية للحرب كانت تعتمد على وجود الترك والعرب متساندين ، وآمال الناس ما تزال متعلقة بالدولة العثمانية ، ومارالت الصلة بذلك الماضى القريب تذكر الناس بدولة آل عثمان . ووجود الضباط والجنود الأتراك الذين يشاركون الطرابلسيين محنتهم عنوان على بقاء صلة الطرابلسيين بدولة آل عثمان ، صلة المحكوم بالحاكم . فمباغطة الطرابلسيين بمثل هذا الصلح الذى عقد لوقف الحرب من شأنه أن يحل العزائم ويثبط الهمم ، وهو ما حصل . فاشتراك الطرابلسيين فى هذا الصلح أمر من البدهاء بحيث لا يجهل ولا ينسى . ومع ذلك فقد بقى أمر الصلح سراً مكتوماً عن الطرابلسيين حتى انتهى كل شىء ، وصدرت الأوامر إلى نشأت بك بالانسحاب هو ومن معه من طرابلس وترك الطرابلسيين فى مواجهة الطلبان يختارون لأنفسهم ما شاءوا فى وقت لا يتسع للاختيار (١) .

وقد أذاع حاكم طرابلس منشوراً بشأن الصلح فى مدينة طرابلس هذا نصه : « لما كان الأمر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ قد وضع طرابلس والقيروان تحت سلطة المملكة الإيطالية ، والآن لأجل ترقية هاتين الولايتين وتأييد الأمن فيهما تقرر ما يأتى :

١ - يمنح عفواً عاماً جميع أهالى طرابلس والقيروان الذين اشتركوا فى الحرب أو الذين اجترموا جرائم مختلفة فى مدة الحرب . ولا يسوغ اضطهاد أحد من الأهالى أو التداخل فى أموره الشخصية أو المادية ، أو منعه من التمتع بجميع حقوقه ، لأجل أى عمل عمله

(١) قد يقال إن للحصر البحرى المضروب على طرابلس دخلا فى صرف نظر العثمانيين عن إستشارة الطرابلسيين ولكن كان من الميسور الاتصال بهم على طريق مصر . ونحن لانكر أن البلاد كانت تابعة للدولة العثمانية ولكن نرى أنه كان يحسن بجلالة السلطان — وهو يعتزم التنازل عن البلاد — أن يأخذ رأى أهلها ليعدوا أنفسهم لهذا المستقبل الجديد . ولم يكن لاحتجاج الطرابلسيين على عدم إشراكهم فى المفاوضات أى أثر ، واستمر المفاوضات الأتراك فى مهمتهم حتى انتهوا فيها إلى ما ذكرنا .

في الماضي سواء كان العمل عسكرياً أو سياسياً أو غير ذلك . وكل من سجن أو أسر لأجل ذلك يطلق سراحه حالا .

٢ - إن سكان طرابلس يبقون كما كانوا في الماضي أحراراً ، في ممارسة فروضهم الدينية ، وأن جلالة السلطان الخليفة الأعظم يجب أن يذكر كالعادة في الصلوات الإسلامية . وسيمثله نائب يعينه جلالتة . وتدفع ماهية النائب من إيرادات الحكومة المحلية . ويجب أن تبقى حقوق الأوقاف محترمة كما كانت في الماضي ، والألتقوم أية عقبة في سبيل العلائق التي بين المسلمين ورئيسهم الديني - أي القاضي الذي يعينه شيخ الإسلام - والتي بينهم وبين نوابه الذين يعينهم القاضي نفسه . وأما ماهيات القاضي ونوابه فتدفع من الإيرادات المحلية .

٣ - النائب السلطاني المذكور أعلاه تكون وظيفته المحافظة على مصالح الدولة العثمانية والرعايا العثمانيين التي لايمسها الأمر العالي الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ .

٤ - سيصدر أمر عال آخر بتعيين لجنة يكون جانب منها من أعيان الأهالي لكي تسن قوانين ونظامات للإدارة المحلية في الولايتين بحسب مبادئ الحرية بحيث تحترم بموجبها العادات المحلية « ١ هـ .

والأمر العالي المشار إليه في ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ هو قرار ضم طرابلس وبرقة إلى إيطاليا ، وقد وقع عليه الملك وجوليتي رئيس الوزارة ، وجوليانو وزير الخارجية ، وبقية الوزراء .

الاعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطلين

ذكرنا في صدر الكتاب أن دول أوربا كلها كانت موافقة على احتلال الطليان لطرابلس . وما كادت توقع معاهدة أوشي بين الطليان وتركية حتى تسابقت دول أوربا إلى الاعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطلين . وهي رغبة كانت تنتظر لإعلانها أي مناسبة ، فاعترفت إنجلترا بسيادة الطليان على طرابلس في ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٢ . وفي ٢١ منه اعترفت فرنسا بهذه السيادة . وفي ٢٣ منه اعترفت بها رومانيا .

وفي ٢٣ منه ابتدأ القواد الإيطاليون في طرابلس يفاوضون نشأت بك ومن معه من كبار الضباط في سفر الجنود العثمانيين طبقاً لشروط الصلح .

ولم تحترم هذه الدول اعتراف جلالة السلطان بتنأزله عن حقوقه الشرعية في طرابلس للطرابلسيين ، ولم تعترف بحق الطرابلسيين في بلادهم الذي جاهدوا من أجله ولم يتنازلوا عن شيء منه ، وذهبت تتسابق إلى الاعتراف بحق إيطاليا في طرابلس إرضاء لها . وهي مبادلات معروفة بين دول الاستعمار : تعترف الواحدة منهن بأحقية غيرها في اغتصاب حقوق الشعوب الضعيفة ، لتعترف لها هي الأخرى بأحقيتها في مثل هذا الاغتصاب .

وفي ٢٠ منه أرسلت الحكومة العثمانية إلى جميع الولاة في مملكتها تخبرهم بعقد الصلح . كما أرسلت وزارة الحربية العثمانية إلى نشأت بك تعلمه بذلك وتأمره بالانسحاب هو ومن معه من الأتراك من ميدان القتال ، وأن يسلموا أنفسهم إلى الطليان ليأثروا بهم إلى الآستانة .

مفاجأة

عقب وصول الخبر إلى نشأت بك جمع رؤساء المجاهدين والضباط الطرابلسيين وأعيان البلاد والوجهاء وأبلغهم الخبر ، فوقع عليهم وقوع الصاعقة . وسرعان ما عاودت الناس تلك الشكوك التي ساورتهم في أول الاحتلال ، من إهمال الترك لبلادهم ، والتفريط في حقوقهم ، ووقع في روع بعضهم أن هذه حلقة سقطت من الدور الذي مثلته وزارة حقي باشا ، جاءوا بها الآن لإتمام الفصل وسدل الستارة على بقية الرواية .

وكانت هذه المفاجأة سبباً في حل عزائم المجاهدين ، وتسرب اليأس إلى النفوس ، وذهب كثير من المجاهدين إلى بيوتهم تعلق وجوههم السكابة والحزن .

كل هذا سببه عدم أخذ رأي الطرابلسيين في هذا الصلح ، ولو استشيروا لأعدوا أنفسهم للأمر على كلا الوجهين ، واختاروا في سعة من الوقت ما يرون في أنفسهم الكفاية له ، وما تساعدهم ظروفهم الوطنية والمالية على القيام به ، ولوقع من نفوسهم الموقع المعد له . ولكنه شيء حصل لم يكن لهم فيه رأي ، فباءوا بغرمه واستأثر غيرهم بغممه .

بين السلم والحرب

جاء خبر الصلح والجهاد قائم ، والطلبيان محصورون في المدن الساحلية ، والمجاهدون يتقدمون حماساً للقاء العدو ومنازلته ، فنزل ذلك الخبر على حماس المجاهدين برداً . وعلى أثر ذلك عقد قواد الجيش ورؤساء المجاهدين وأعيان البلاد اجتماعاً تبادلوا فيه الرأي فيما يجب عمله إزاء هذا التحول الجديد وكان في مقدمة المجتمعين نشأت بك وفتحى بك والشيخ سليمان الباروني ، ومختار كعبار ، والهادي كعبار ، وأحمد المريّض ، وعلي بن تنتوش ، وفرحات الزاوي . وانفقوا مبدئياً على مطالبة الطليان بالاعتراف بالاستقلال الذي منحهم إياه جلالة السلطان ، والدخول معهم في مفاوضة لتكميل ما عساه أن يكون في معاهدة أو شئ من نقص . وانتخبت هيئة للمفاوضة من الهادي كعبار ، وعلي بن تنتوش وفرحات الزاوي . غير أن نشأت بك كان يضرر رأياً آخر لم يصارح به المجتمعين ، ذلك أنه كان يميل إلى جمعية الاتحاد ، ويريد مواصلة الحرب باسمها .

وهي مناورة سياسية ينطبق عليها المثل العربي « الصيف ضيعت اللين » فإن موقف الاتحاديين من طرابلس غير مجهول . وقد يكون نشأت بك مقتنعاً بعدم فائدتها . ولكنها محاولة ، فإن نجحت نسب فخرها إليه ، وإن فشلت كان غرمها على غيره . وأفضى نشأت بك إلى الشيخ سليمان الباروني بهذه المهمة فوجد منه ميلاً وتعهد بالقيام بها . ومن هنا نشأت فكرتان : فكرة تميل إلى السلم والتقدم إلى الطليان بطلب تنفيذ المعاهدة ، وبالمفاوضة في تكميل ما عساه أن يكون فيها من نقص ، وأنصارها من ذكرنا آنفاً ، وجميع أعيان الزاوية وورشفانة وغريان إلى مصراته يجذبونها . وحجتهم في ذلك أن ما لديهم من العتاد الحربي لا يكفي لمقاومة دولة من أكبر دول أوربا ، والأقوات في البلاد قليلة ، والإعانة التي كانت تأتي من تركيا وقدرها مائة ألف حنيه في الشهر قد انقطعت ، والإعانة التي تأتي من تونس مورد غير ثابت ، وقد يؤدي تغلب العدو إلى قطعها ، فنكون بذلك قد عرضنا أنفسنا ومستقبل بلادنا إلى الخطر ، فقبول الأمر الواقع على أساس الاعتراف به وتكميل نقصه أولى ، ثم نبذل كل جهودنا لإقناع الطليان بمقوقنا

وفكرة تميل إلى الحرب ، وأنصارها الشيخ سليمان الباروني وانضم إليه الشيخ سوف والسيد محمد بن عبد الله البوسيني . وغرض أصحاب هذه الفكرة تهديد الطليان بالقوة لإرغامهم على الاعتراف بالاستقلال الذي اعترف لهم به جلالة السلطان . وترغم هذه الجماعة الشيخ سليمان الباروني وسلمه نشأت بك النقود التي كانت عنده ، وقدرها ألفا ليرة عثمانية ذهباً ، وسلم إليه سلفاً بأربعة عشر ألف شوال من الأرزاق يتسلمها من بنقردان ^(١)

سفر نشأت بك

توجه نشأت بك ومن رغب السفر معه إلى الزاوية ، ثم منها إلى مدينة طرابلس للسفر منها إلى الآستانة وكان ذلك في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٢ وكان يوم دخول نشأت بك مدينة طرابلس للسفر منها إلى الآستانة يوم حزن شامل . ومن يصدق أن نشأت بك تكرهه الأوامر العسكرية على تسليم نفسه إلى عدوه الذي طالما جرع جنوده كؤوس الموت وأوردها الهلكة ، ويركب في بوارجه التي طالما رمته بقنابلها لتحمله إلى الآستانة تنفيذاً لما أملاه القوى على الضعيف .

ولما سافر نشأت بك من العزيزية أخذ معه سفورزا وبقية أعضاء البعثة الإيطالية الذين كانوا معه وسلمهم لوالى طرابلس . وقد لقيت هذه البعثة معاملة حسنة من الباروني فأرسل إليه وكيل الوالى خطاب شكر هذا نصه .

« إلى حضرة الفاضل الأديب سليمان بك الباروني جازاه الله . اننا لسنا متيقنين هل تسلمت خطابي المحرر تاريخ ٢٤ أكتوبر . وعلى كل حال فقد وصل اليوم هنا أعضاء البعثة العلمية الإيطالية فسمعنا منهم مشافهة ما أفضتم عليهم من اللطف وما سعيتم لهم من المساعي فكان ذلك تأكيذاً كاملاً لما كان قد بلغنا قبلاً . ولا شك أن مسلسلكم هذا مع وجود التعاون الصريح بيننا هو من المكرمات ، بل دليل لامتاع على شرف نفسيتمكم ، وجميل عواطفكم .

(١) ذكر الأمير شكيب في تعليقه على ابن خلدون أن تركية كانت تصرف على الحرب الطرابلسية مائة ألف جنيه في الشهر .

إن المستقبل بيد الله تعالى ، ولكن مهما كان سير الحوادث فيه يجوز لي أن أؤكد لكم أن حكومتنا ستعتبر خلوص نياتكم في أعمالكم عند سنوح فرصة ذلك ، كما أنها قد قدرت من زمان قدر ما تحصلتم عليه من التأثير المستحق في قلوب العرب » .

حرر في طرابلس الغرب في ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٢

الجنرال تومازوني
وكيل الوالي

الجنرال أمير الجيوش الإيطالية
في ولايتي طرابلس وبنغازي

نوري بك (١)

كان نوري بك أخوانور باشا مع نشأت بك في العزيزية . ولما سافر نشأت تخلف نوري عن السفر معه وذهب الى سرت للالتحاق بالجهاديين في برقة تبع السيد أحمد الشريف . ويظهر أن هذه حلقة من سياسة الاتحاديين أراد نوري أن يقوم بها في سرت ولكنها لم تفلح . ولما وصل الى سرت تراءى له أن يقيم فيها بضعة أيام ، وصار يشجع الناس على المضي في الجهاد وعدم التسليم ، وكان الحاكم في سرت إذ ذاك عبد الله بن مليطان من جهة الترك فوجد منه تشجيعاً ومناصرة . ومن حسن الصدف أن جاءت مركب تحمل السلاح مبعوثة من الآستانة قبل الصلح ، ولكنها لم تقدر على الدنو من السواحل الطرابلسية خوفاً من الأسطول الإيطالي ، فانتهزت غفلة ورسى شرق سرت وأُنزلت مافيها من السلاح وتسلمه نوري ووزعه على الناس في سرت ، فأوجدت هذه الحركة التي جاءت من قبيل الصدف شيئاً من النشاط .

احتلال سرت

علم الطليان بحركة نوري في سرت وخافوا أن يستفحل أمرها فجاءوا معهم بقوة إلى سرت فاحتلوها في أوائل سنة ١٩١٣ وجاءوا معهم بعمر المنتصر وعينوه

(١) رجع الى مصراته في سنة ١٩١٦ وستأتي أخباره هناك .

قائماً عليها ، ولم يلبث أن قبض على عبد الله بن مليطان ، وأرسل في أثر نوري من يطلبه للقبض عليه ، وقد أدركه الطلب قبل حدود برقة ، فخماه عبد العاطى الجرم وهدد الذين ذهبوا في أثره بالقتل إن لم يرجعوا ، فرجعوا ، ونجا نوري إلى برقة ثم سافر إلى الآستانة .

بعد سفر نشأت بك

اجتمع أنصار المفاوضات وتقدموا إلى الطليان برغباتهم ، ودخلوا معهم في المفاوضات وقد رأوا من المصلحة أن تتم المفاوضات في مدينة طرابلس فانتقلوا إليها . وقد ساور المجاهدين الشك في نية الطليان نحو المفاوضات ، ولكنهم ما لبثوا أن تحققوا حسن نيتهم . وأن المفاوضات لا خوف عليهم . وقد جعلوا أساس مفاوضاتهم ١٤ مادة ، رأوا أن معاهدة أوشى لاتتم إلا بإضافة هذه المواد إليها ^(١) .

واجتمع الشيخ سليمان البارونى ومن انضم إليه من أنصار فكرة الحرب وأعلنوا الطليان برغبتهم في إتمام الصلح والموافقة على المعاهدة على شرط الاعتراف باستقلال طرابلس الذى اعترفت به الحكومة التركية العثمانية بدون مفاوضات ، وإلا فهم مصممون على الاستمرار على الحرب ^(٢) ، وامتنع الطليان عن مشاركتهم هذه الرغبة .

وانحاز كل فريق إلى رأيه ، ورأى الطليان في قوتهم ما شجعهم على التمسك برأيهم ، وكانت النتيجة وقوع الحرب ، فتأثرت بها المفاوضات الجارية وفشلت .

من هذا يفهم أن الفكرة كانت متحدة وهى مطالبة الطليان بالاستقلال ، ولكن اختلفت وجهة النظر في تنفيذها : فأنصار المفاوضات رأوا أن يطالبوا بالحجة والإقناع المنطقي ، وأخذ ما يمكن أخذه والمطالبة بما بقى ، ورأوا أن الالتجاء إلى الحرب غير مجد للأسباب التى ذكرناها آنفاً . أما البارونى ومن انضم إليه فرأوا أن يطالبوا الطليان بالموافقة

(١) لم نثر على نصوص هذه المواد .

(٢) يظهر من كتاب البارونى الآتى للوالى أنهم لم يتأفوا رداً على هذا البلاغ .

على معاهدة أوشي ، والاعتراف باستقلال البلاد وهم على أهبة الحرب ، حتى إذا راوغوا نازلوهم الحرب .

حقيقة

ثبت من حوادث التاريخ ، ومادلت عليه التجارب في معاملات الأوربيين للشرقيين أنهم لا يعطون ما أخذوا ، ولا يرجعون عما صمموا على اغتصابه إلا بالقوة . والقوة في هذه المواقف هي الحجة الدامغة والحاكم النافذ الحكم ، فما رأينا في التاريخ دولة أوربية دخلت بلداً إسلامياً وخرجت منه إلا وهي تخوض في دماء أبنائه ، فتلك الأندلس ، وهذه الجزائر وتونس . وكثير من بلاد العرب ما زالت ترسف في قيود الاستعمار ، وقد طالب الكثير منها بحقوقه بالحجة فلم يصنع لما يقول . والتجأ بعضها إلى القوة وبذل الكثير من أرواح أبنائه فلم يصل إلى ما يرضيه ، وداهمته القوة فكان القول الفصل لها وحدها . وحوادث التاريخ حافلة بأن النتيجة المفهومة هي ما جاءت من طريق مقدمات الحديد والنار لذلك نرى أنه كان من الواجب على الطرابلسيين أن يفكروا قبل الإقدام على الحرب فيما يضمن لهم دوام الحرب ؛ فإذا ما ضمنوا ذلك وجب عليهم أن يحاربوا ، وكانت الحرب هي الطريق الموصل إلى النجاح .

الباروني في يفرن

انصرف الباروني ومن معه لترتيب أعمالهم ، فاختروا « يفرن » مركزاً لهم ، ونقلوا إليها ماسلحه إليهم نشأت في العزيزية من أرزاق وغيرها ، وأنشئت ترتيبات إدارية وكلت أمورها إلى موظفين بقدر ما اقتضته ضرورة الحال القائمة إذ ذاك . واتخذوا الرابطة محلاً لإقامة المجاهدين .

وقد انضم إلى الباروني وصحبه جماعة من العالقة والعجيلات وزوارة والنوائل وأولاد أبي سيف والصيعان وسكان الجبل ، مع ما يوجد من رؤوس الفتنة المطاطئة خوفاً ، وهي تتسمع الأخبار وتنتهز الفرص للتخلص من الباروني وإخوانه ، خصوصاً بعد أن اتسعت شقة

الخلاف عليهم وأصبحت جهودهم لا تكفي لما تتطلبه الحال ، وأصبح ينطبق عليهم المثل القائل :
 تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد
 ورجع الشيخ سوف إلى منطقة زوارة لمباشرة أعماله هناك ، وبمجرد وصوله هاجم
 الطليان في العجيلات ، وقتل في هذه المعركة الشيخ شليق رئيس بلدية العجيلات .
 وزحفت جيوش الطليان فاحتلت العزيزية ، وجنزور ، والزاوية ، وغريان ، وترهونة
 وما بعدها من جهة الشرق إلى مصراتة بدون مقاومة ولا معارضة ، وأمكنهم الفرصة من
 حصر المجاهدين في محيط ضيق يبتدىء من حدود غريان الغربية ويمر شمالاً إلى مايقارب
 العزيزية من الجنوب ، ثم يغرب ماراً بجنوبي جنزور والزاوية إلى محاذاة صرمان من
 الجنوب ، ثم ينزل شمالاً إلى صرمان ، لأنها كانت هي والعجيلات مشمولة بإدارة المجاهدين
 تتبع منطقة زوارة .

وكان عبد النبي بن خير — من رؤساء أرفلة — ممن انضموا إلى الباروني وإخوانه
 في فكرة الحرب ، فترك بعض المجاهدين من أرفلة في الرابطة وذهب إلى بني وليد
 مركز أرفلة ، بحجة أنه سيجتمع المجاهدين ويرسلهم إلى خط القتال . والواقع أنه فعل هذا
 ليكون له حجة عند الطليان بأنه لم ينضم إلى المحاربين ، وكان يحاول أن يضرب عصافورين
 بحجر ، فصار يكاتب الطليان يستجاب ودّهم ويعتذر لهم عن عدم حضوره لديهم بما يراه
 يؤدي إلى هذا الغرض . ويكاتب الباروني في يفرن ويطلب منه الأرزاق باعتبار أنه من
 أنصاره ، ولم يخف على الباروني هذا التلاعب من عبد النبي ، ولكنه كان يصانعه طمعاً في
 انقاء شره ، وبناء على هذه المصانعة لعبد النبي جاء في بعض كتابات الباروني : « أن خط
 حربنا يبتدىء من أرفلة » والواقع أنه كان لا يتجاوز حدود غريان الغربية شرقاً .

جباية الزكاة

ولم يكن ما تركه نشأت بك من المال يقوم بحاجة المجاهدين . يضاف إلى ذلك ما أحدثه
 الخلاف من الوهن والفتور في العزائم وأخذ ما يبيد الباروني في النفاذ ، وتأخرت مرتبات
 الموظفين وأجور الحمالين الذين كانوا ينفقون الأرزاق من بنقردان إلى يفرن . وبدأت الحاجة

إلى كل شيء ، وظهر النقص في كل شيء ، فاضطر الباروني إلى جباية الزكاة ، فأرسل حاسبين لحصر الحيوانات لجباية زكاتها ، وكانت الزراعة لم تنضج بعد فأعد العدة لجباية زكاتها أيضاً ، ولكن النفقات كانت أكثر مما في استطاعته جمعه من المال . وألحت الحاجة إلى درجة أنه لا يمكن انتظار نضوج الزراعة . أضف إلى ذلك تقدم العدو في كل ناحية ، وضيق المناطق التي بقيت في أيدي المجاهدين التي يمكنهم جباية زكاتها .

وبقى الباروني وصحبه يقيسون الصعوبات ، ويحاولون تذليل بعضها ، واستمرت هذه الحال من أكتوبر سنة ١٩١٢ إلى أول مارس سنة ١٩١٣ ، وفي هذه المدة وقعت بينهم وبين الطليان مناقشات كانت أشبه بمناوشات الاختبار .

وقد علم الطليان أن مايبيد الباروني من الأرزاق نفد أو كاد ، ولا يجملون قلة مايبده من العتاد الحربي ، فأخذوا يعدون العدة لمعركة فاصلة يكون فيها القضاء على المجاهدين وبالقضاء عليهم يقضى على آمال وفد المفاوضة . فجهزوا جيشاً عظيماً بقيادة الجنرال لكويوا ، واتخذوا له مركزاً في العزيزية ومركزاً في غريان ، وكانت خطة الطليان الإطباق على المجاهدين من الشمال والشرق والجنوب .

مكاتبة

في أثناء ما كان الباروني في يفرن كتب إليه القائد الإيطالي كتاباً ينبره فيه ببعض الألقاب التي لا تتفق مع الواقع^(١) ، فرأى فيها الباروني مساساً بكرامته ، فرد عليه بما ينفي هذا الافتراء . وهذا نص كتاب الباروني :

« حمداً وصلاة

إلى حضرة جناب الهمام قائد جيش ووالى الدولة الإيطالية بمدينة طرابلس أرشده الله السلام على حضرتم . ليسكن في علمكم أنى لست متقلباً ولا غداراً ولا محباً للمال ولا معادياً للإصلاح والمدنية ، وأسألو عني الرؤساء والحاربين يتضح لكم الحق . ولكنى رجل عرفت قيمة الوطن ومعنى الدين ولذة الحرية وفضيلة الشرف ، فأنا أكثر الناس شوقاً إلى رؤية

(١) نفهم تلك الألفاظ من نص كتاب الباروني .

بلادنا رافلة في حلق الترقى ، منتشرة فيها المعارف العصرية والإصلاحات المدنية ، على شرط حفظ كرامة سكانها وبقاء استقلالها المشروع .

أنا لا أكره التعاون مع الأوربيين والاستفادة مما أودعه الله من الخيرات في بطون أودية بلادنا ورؤوس جبالها ، وتعلم الجاهل من العالم ، ولكن أكره أن أرى الوطنى عبداً مملوكاً لغيره ، بحيث لا يملك شيئاً من دينه وعرضه ، فإن الموت أسهل وألذ طعاماً عندى من ذلك .

وقد أدركت بالتجربة والسياسة في بلاد الله قيمة الاستقلال ولذة حياته الهنيئة ، وتحققت مرارة الاستعباد والرقية ، وعرفت ما هى المدنية ، وإنى أستسهل في جنب حرية النفس كل صعب ، وهأنذا الآن آكل من الطعام أخشنه ، وأنام على الأرض متوسداً سرج جوادى ، وأشرب الماء المالح تارة والمرّ أخرى ، وأسير في الليل المظلم الممطر ، وفي هاجرة النهار ، ولا أرى هذا إلا ألد من الشهد ، ولا يزيد بدننى إلا قوة ، ولا جأشى إلا ثباتاً ، وإن نفسى لتتوق إلى الشهوات ولكن على شرط حفظ الكرامة ، فحافظوا يا حضرة الوالى على شرفنا وشرفكم ، وأشيروا على دولتكم بالموافقة على استقلالنا حسب فرمان السلطانى وتعالوا نستعين بكم على تعمير هذه البلاد حيث قضى الله بمجاورتنا كما كان أجدادنا من قبل . لا يغرنك يا حضرة الوالى أقوال الذين لا يقدرון المصلحة فترمى بدولتك في حرب جديدة معنا لا تدري عاقبتها ، فإن النصر بيد الله يؤتیه من يشاء . « كم من فته قليلة غلبت فته كثيرة يا ذن الله » .

أجبتكم عن جوابكم الأول بما قررناه وأعلنناه ، وطلبنا منكم الجواب ، ولكن من الأسف رددتم الرسول بدون جواب . ولعلكم تظنون أننا لا نحارب إلا بالترك وتريدون التجربة ولو بمحاربة واحدة . فإن كان كذلك فإن أهاليينا يعتقدون أيضاً أن عساكرهم ماوقفت أمامهم إلا بحماية الأسطول وأبراج المدافع الكبيرة ، فهم جازمون بالانتصار في المواطن البعيدة عن البحر ، ويتمنون أن يجربوا أنفسهم فيما بين غريان وسوانى بنيادم ولكن هل يصح لى ولحكم أن نتلاعب بدماء أبناء طراباس وإيطاليا لمجرد التجربة ؟ اللهم

إن هذا مما تمجده العقول المتفورة والأذواق السليمة . وإن أيتّم إلا ذلك فنحن حاضرون للدفاع والله والناس معنا .

هذا ما اقتضى المقام بيانه من قبيل النصيحة وحققنا للدماء ودمتم سالمين »
حرر في مركز الجبل ٢٠ المحرم سنة ١٣٣١
سليمان الباروني
معركة جندوبة

بقيت الجيوش الإيطالية من أوائل مارس إلى ٢٢ منه تستكمل ، عدتها وتستعد للقضاء على الباروني وأنصاره . وقد علم المجاهدون بهذا الاستعداد ، فزودوا نفوسهم بالصبر ، ووطنوها على الموت في سبيل الله ، واعتمدوا على الله في لقاء هذا الجيش ، وهم يعتقدون أنهم سيفوزون بإحدى الحسنيين : إما الشهادة في سبيل الله ، وإما التغلب على العدو .
وفي صبيحة يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ زحفت هذه الجيوش على المجاهدين ، فقابلوها بالثبات والصبر ، وبادلوا إطلاق الرصاص ، وقامت الحرب على ساقها ، وظهرت بشاعتها في تلك الأشلاء الممزقة والأعضاء المتناثرة ، بعضها يدافع عن نفسه ووطنه ، وبعضها ينتصر لباطله وقوته . وأخذ الطليان يقذفون بجيوشهم الهائلة كما في صف من صفوفهم جاءوا بغيره وثبت المجاهدون لهذه الجيوش المنهزمة . وبقيت المعركة طول النهار لا تسمع إلا أصوات الرصاص ودوى المدافع . وقد أظهر أولاد أبي سيف بطولة نادرة في هذه المعركة من ناحية الرابطة ، وأقبل الليل بظلامه وقد رجحت كفة المجاهدين في الرابطة وكفة العدو في جندوبة ، ولم يبق لدى المجاهدين من الخرطوش ما يكفي لمحاربة ساعة ، فاضطروا إلى الانسحاب تحت جناح الظلام . وباتوا الليل بطوله مشغولين بدفن شهدائهم ، ونقل جرحاهم إلى يفرن . ولم يمهلهم العدو ، فاقفنى أثرهم إلى يفرن وصبحهم بجيوشه ، وقد أنهك التعب قواهم مع نفاق ما بأيديهم من الخرطوش فانسحبوا مكرهين من يفرن ، وقصد من بقي منهم إلى نالوت للانتجاع إلى الأراضي التونسية .

وكانت هذه آخر معركة قام بها الباروني وإخوانه للدفاع عن الشرف والوطن ، وطير الخبر إلى الشيخ سوف بناحية زوارة الواقعة ، فانسحب المجاهدون من هناك للانتجاع

إلى الحدود التونسية . وغادر المجاهدون وطنهم بعد أن دافعوا عنه إلى آخر سهم وآخر ما في الإمكان ، وفضلوا الجلاء على التسليم للعدو . ففازوا بشواب المجاهدين وأجر المهاجرين ، وليسوا بأول من غلبتهم القوة . والنصر بيد الله يؤتیه من يشاء .

بعد انتهاء المقاومة في الجبل

كان الشيخ سوف ، والشيخ سليمان الباروني ، والشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي أكبر الرؤساء الذين قاموا بالحرب بعد سفر نشأت بك . ولما انتهت مقاومتهم بعد واقعة جندوبة اختار الشيخ سوف والشيخ سليمان الباروني ومن معهم الالتجاء إلى الحدود التونسية . ومنها سافر الباروني إلى لندن ثم إلى الآستانة . وهاجر الشيخ سوف ومن معه إلى حلب « الشام » واختار السيد محمد بن عبد الله ومن معه الالتجاء إلى فزان ، واعتصموا هناك في انتظار الطليان مرة ثانية .

ولقد كان للسيد محمد بن عبد الله ومن معه جولة في حروب فزان ، كتبت لهم فيها السعادة والشهادة في خبر سنذكره مقروناً بما وجب لهم من الشكر والثناء كما أن للباروني وسوف أخباراً ستأتى مفصلة في محلها إن شاء الله .

مناسبة

بمناسبة ما دار من مكاتبات بين الشيخ سليمان الباروني والهادي كعبار ، حينما كانت جيوش الباروني تغير على غريان ، ولما أشيع عن الهادي عقب هذه المكاتبات من أخبار يحتاج المنصف إلى تمحيصها ، رأيت أن أجمل سيرة الهادي كعبار في الجهاد الطرابلسي من يوم أن احتل الطليان طرابلس إلى أن توفي عليه رحمة الله ، ليمكن من يحب إنصاف الناس الوصول إلى الحقيقة ، ومعرفة ماله وما عليه من غير تحيز ولا مبالغة .

الهادي كعبار



هو من أعيان غريان وساداتها ، وفي مقدمة النابهين والمثقفين فيها . وأصله من الكول أوغلية من شراكسة الزاوية . ولد سنة ١٣٩٤ هـ وتعلم في المدارس التركية ، وتقلب في وظائف الحكومة هو وأبأؤه . وقد ورث ما كان فيه من نعمة وشهرة عن أصول كانوا في مثل ذلك . وكان سريع الملاحظة ، قوى الذاكرة ، قوى الحجة . معتدّاً برأيه إلى أبعد حد .

ولما وقعت الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ كان في مقدمة الأعيان الذين دعوا

للجهاد وقاموا به . وكان معدوداً في طبقة المفكرين ممن يحترم الناس آراءهم ، ويقفون عند حدود ما يرسمون . ولما تولى نشأت بك إدارة شئون الحرب كان الهادي في طليعة من يعتمد عليهم من أعيان طرابلس ، وعينه قائماً على غريان .

ولما تنحى الترك عن إدارة الحرب في طرابلس بمقتضى معاهدة أوشي وانتخب الطرابلسيون هيئة من الأعيان لمفاوضة الطليان في إتمام ما ينقص هذه المعاهدة اختير الهادي عضواً في هذه الهيئة . ولما وقع الانقلاب بعد القرضابية كان في مقدمة الثائرين على الطليان والمحاربين لهم . ولما وقع صاوح بنيادم في سنة ١٩١٩ انتخب في هيئة المفاوضة . وكل مجال يحتاج فيه إلى قوة الحجة وطلاقة اللسان كان الهادي كعبار أول من يدعى إليه ، لا يمارى في ذلك أحد .

ولو تتبعنا أدوار القضية الطرابلسية كلها من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩٢٢ لانجد مجالا من مجالات القول أو العمل إلا والهادي كعبار يشغل منه مركزاً يليق بمقدرته ومكانته . هذا عرض بسيط لحياة هذا الرجل الذي تناولته السنة الناس — إن صدقاً وإن كذباً — بما يحيط من قدره ويخدش كرامته . وليت ما قيل فيه من قبيل ما يمكن أن يتساهل فيه ولكن من نوع لا تستسيغه النفوس ، هو الخيانة العظمى . خيانة الوطن ، وبيع المواطنين لمن يدوس كرامتهم ويستذل رقابهم ، خيانة الوطن التي لا جزاء لها عند الله ، وعند القانون وعند الناس إلا القتل على أعواد المشانق .

فهل يكون من المسلم به أن رجلاً يتمتع بمثل هذه المكانة بين مواطنيه ينقلب بين عشية وضحاها إلى خائن لوطنه ، منبوذ من مواطنيه ، تتقزز النفوس لسماع اسمه . وهل يصح — إذا كنا منصفين — أن نخوض في عرض هذا الرجل بدون أن نبحث عن الدوافع التي سببت له هذه التهم ؟ لاشك أن هذا ليس من الإنصاف في شيء .

وأول تهمة نسبت إليه كان سببها خلافه مع الباروني حينما أجمع زعماء البلاد على مفاوضة الطليان ، وخالف الباروني واختار الحرب بناء على اتفاقه مع نشأت بك في مداومة الحرب تنفيذاً لفكرة جمعية الاتحاد والترقي . والهادي لم يكن بدعاً في مخالفته للباروني . بل شأنه

شأن الأكثرية المطلقة ، فلم يخالف فكرة المفاوضات إلا البارونى وتبعه فى ذلك السيد محمد بن عبد الله البوسيفى ، وانضم إليهما الشيخ سوف ، ولكن الهادى لم يطبق صبراً على مخالفة البارونى فصارحه بما فى نفسه بلهجة أفهمه بها أنه غير راض على مخالفة ما أجمع عليه الزعماء ، ومن هنا نفهم أنه خلاف فى رأى على ما تقتضيه المصلحة لا أكثر ولا أقل .

وجاء دور الحرب ، وحاصرت جيوش البارونى غريان لأنها كانت محتلة بالإيطاليين مثلها فى ذلك مثل جميع البلاد الطرابلسية ، وصار جيش البارونى يغزو بلدان غريان الغربية ، فطلب أهالى غريان إلى الهادى اتخاذ طريق لتأمين أموالهم وأرواحهم ، فكتب الهادى كعبار الشيخ سليمان البارونى فى الكف عن غزو بلاد غريان ، فلم تفد الكتابة شيئاً ، ونسب الهادى إلى الطليعة والانحياز للعدو . وكان به البارونى بما يؤكد ذلك ، فرد الهادى بما يدفع عنه هذه التهم . ويفهم من كتاب البارونى الذى اطلعنا عليه أن هناك مكاتبات تبودلت بينه وبين الهادى حسب ما تقتضيه الحال . ولو كان جيش البارونى على حدود ترهونة أو مصراته أو غيرها من البلاد المحتلة لكان موقفها شابهاً لموقف غريان من جميع الوجوه . ومن هذا الوقت بدأت إشاعات السوء تنشر ضد الهادى بين أنصار البارونى ، وتسربت منهم إلى غيرهم ، وفسرها من لا يدركون فهم الخلاف فى رأى بمخالفته لمصلحة الوطن . وانتقلوا من هذا إلى رمية بالخيانة العظمى وهى بيع الوطن والانحياز إلى عدوه . ولو جاز لنا أن نقول هذا فى الهادى كعبار لجاز لنا أن نقوله فى غيره من الزعماء من زوارة إلى مصراته ، لأنهم كلهم متفقون على مفاوضة الطليان ومخالفة البارونى فى فكرة الحرب . فالصاق هذه التهمة الشنيعة بالهادى وحده — ولم يكن لها من سبب إلا مصارحة البارونى وأنصاره برأيه الذى يشاركه فيه جميع الزعماء — لا يتفق مع المنطق والإصاف ، وليس من ذنب الهادى أن يصارح برأيه ويسكت غيره . وقد عُرِف بصراحته واعتزازه برأيه .

وقد انتهى هذا الدور بفشل البارونى فى مارس سنة ١٩١٣ وسافر إلى الآستانة . ولما عاد منها إلى طرابلس سنة ١٩١٦ وجد الهادى كعبار يحتل مكاتته بين الزعماء

المناهضين للطلليان .

هذا سبب التهمة الأولى كما وقعت مع ملابساتها وظروفها .

أما التهمة الثانية فهي شبيهة بهذه في وقوف الهادى عند رأيه ودفاعه عما يراه حقاً . وذلك أنه بعد حرب البربر والزنتان ضعفت المقاومة الوطنية ، وجلا سكان السواحل إلى الجبل ، وكان من الصدف أن اختارت هيئة الإصلاح المركزية غريان مقراً لها ، مما اضطر الطليان أن يجعلها هدفاً للقضاء على الحركة الوطنية . وكان من رأى الهادى أن يفرض عدد من المجاهدين على البلاد المحيطة بغريان التابعة لنفوذ الهيئة - وفي مقدمتها ترهونة - وقد تعهد على نفسه أن يأتى بمجاهدين من غريان يساوون عدد مجاهدى ترهونة مهما كثر عددهم وما يتجمع من المجاهدين يكون منهم جيش على طول خط الجبل توكل إليه مهمة الدفاع ، ووافقت الهيئة على ذلك ، وكان الطليان يبذلون كل جهودهم للاتصال بالجبل عن طريق الوطنية ، وحصل فتور في جمع المجاهدين ، وألح الهادى في التنفيذ نظراً لنشاط الطليان المتواصل ، وقرب الخطر من الجبل ولم تنفذ الهيئة ما وافقت عليه ، وواجه الهادى أعضاء الهيئة ورئيسها بلهجة شديدة ، وحذرهم من الخطر المحدق بهم ، ولكنهم لم يجمعوا من المجاهدين ما يكفي لرد الخطر الداهم ، فأفهمهم بأن غريان أول بلاد معرضة للخطر وإذا لم ينفذوا ما اتفقوا عليه فسيضطر إلى مكتابة الطليان دفعاً للخطر المحدق بغريان ، فلم يبد رئيس الهيئة أى نشاط في التنفيذ ، واحتل الطليان الجبل من ناحية يفرن وأخذت طلائعه في التقدم من ناحية العزيزية ، فأقدم الهادى مرغماً على مكاتبتهم ليؤمن غريان من شرهم ، وهو موقن بما في هذا العمل من خطر على حياته ، وتقدم الطليان فاحتلوها وقبضوا عليه وجرت الأمور على ما كان يتوقعه ، وذهب ضخمة اقتناعه برأيه ، وعدم تنفيذ الهيئة ما أجمعت عليه . وعادت الذكرة بسبب الظن واتباع كل ناعق إلى تلك الإشاعات ، فكان لهم فيها ما كان لهم في التهمة السابقة .

هذه أقوى أسباب التهمة الثانية ، التي تلتصق بالهادى بكعبار ، أشد الشناعات ،

وأفزع الموبقات .

ولو أخذنا بإشاعات من لا يدركون الأمور لما وجدنا مبرراً لوساطة البارونى بين الطليان وبين خليفة بن عسكر . وكثير من الناس لا يحسن الظن بمن لا يدرك عقله آراءهم ، فيخيّل إليه — من طريق الجهل وقصر النظر — أنهم خائنون فيتناولهم بما هم منه براء ، وهم في تقديرهم للوطن ومحافظتهم على كرامته فوق مستوى عقول هؤلاء ، وفوق ما يدركون . ولعل فيما ذكرنا وسيلة لمن يريد أن يصل إلى حقائق الأمور ، ويعلم أعداء الناس فيما يختارونه لأنفسهم من آراء قد لا يفهمها ، وقد تكون أسبابها مجهولة لديه .

البارونى وسوف فى تونس^(١)

التجأ الشيخ سوف ومن معه من المجاهدين الذين كانوا فى منطقة زوارة إلى حدود تونس ، وعلى أثرهم جاء الشيخ سليمان البارونى ومن معه من المجاهدين ، ومعه من أعيان الجبل ساسى خزام ويوسف خريش ، واجتمع الجميع فى الأراضى التونسية ، فطلبت منهم فرنسا تسليم سلاحهم قبل كل شىء ، فأجابوا الطلب بعد أن يحتازوا الحدود بمسافة يأمنون فيها عن أنفسهم من الطليان . وبعد أن تسلمت جميع أسلحتهم قالت لهم : إن الأراضى التونسية لا تتسع لغير أهلها ، وخيرتهم بين أن تختار لهم الحكومة مكاناً يقيمون فيه مجتمعين أو يختاروا لأنفسهم بلداً آخر يذهبون إليه ، فاختر بعضهم الرجوع إلى طرابلس ، والتحق بعضهم بالسيد محمد بن عبد الله فى فزان . واختار البارونى الذهاب إلى الآستانة ، واختار سوف الهجرة إلى الشام ، واستعمل حكومة فرنسا ريثما يهيئون لأنفسهم الوسائل الكافية لنقلهم ، فأمهلتهم .

وسلم البارونى الأرزاق الموجودة فى بنقردان باسم المجاهدين إلى يوسف خريش ، وسافر هو وساسى خزام إلى تونس .

الكونت سفورزا

كان فى البعثة العسكرية التى أسرت فى الجبل فى يناير سنة ١٩١٢ وكانت بينه وبين

(١) للكلام هنا شعبتان : شعبة تتعلق بسوف والبارونى وسببتىء بها ، وشعبة تتعلق بالطليان وما انتهوا إليه ، وسنذكرها بعد ذلك .

الشيخ سليمان الباروني معرفة شخصية . ولما سلم العرب البعثة إلى الطليان في نوفمبر سنة ١٩١٢ رجع سفورزا إلى روما ، ولمناسبة معرفته بالباروني كلفته حكومته بالتوسط لدى الباروني في ترك الحرب والدخول في المفاوضات مع المفاوضين ، ولأجل هذا جاء إلى تونس للاتصال بالباروني وقبل اتصاله به تغلب الطليان على الباروني وجلى عن الجبل إلى تونس والتقى به سفورزا . وعدل عن التحدث معه في المفاوضات إلى أن ينصح الناس بالرجوع إلى طرابلس . وكان الحديث بين سفورزا والباروني وساسى خزام بمعرفة الحاكم الفرنسي . ثم استدعى محمد سوف إلى الاشتراك في الحديث ، فحضر ومعه سعد حلبودة مدير الصيعان ، والشيخ ضو العلاقي ، فأصروا على عدم رجوع المهاجرين إلى طرابلس ، وانتهى الحديث بينهم وبين سفورزا ، ورجع إلى إيطاليا ، وبقي المجاهدون في تونس إلى أن يأتيهم الإذن بالهجرة إلى الشام .

وطنية

في أثناء الحديث مع الكونت سفورزا بدرت منه كلمات رأى فيها الشيخ سوف مساساً بكرامة العرب ، فقال له : « إن طرابلس أمنا حملتنا وولدتنا وأرضعتنا : أما حق الحمل والولادة فقد أديناه حرباً ، وأما حق الرضاع فلها علينا ألا ندخلها وأنتم فيها » .

سفر الباروني إلى لندن

سافر الباروني من تونس إلى لندن ليذهب إلى الأستانة . وقد أشاعت بعض الجرائد عنه بمناسبة تركه الحرب أخباراً غير حقيقية ، اتهمته فيها بالخيانة وأخذ الرشوة . وهى إشاعات لا تركز على أساس من الصحة . وأسبابها الأخبار السكاذبة وإشاعات سوء . فرأى في هذه الإشاعات مساساً بكرامته فاضطر إلى الرد عليها . وقد اجتمع بصاحب مجلة التيمس الإفريقية في ١٤ من شوال سنة ١٣٣١ فأفصى إليه بحديث طويل تقتطف منه ما يتعلق بالرد على هذه التهم الباطلة مع المحافظة على نصه وعدم التصرف فيه . قال الباروني :

« إن حكومة إيطاليا تحققت نزاهتي وعفتي من زمن الحرب التركية فلم تتجاسر على مخاطبتي في شأن الرشوة ، لأنها لما أشارت الى ذلك في بعض مكاتباتها الأولى أجبتها بأني أنا ورجالي لانرضى إلا بالموافقة على الاستقلال الذي تفضل به علينا السلطان .. » ثم قال : « إني ما التجأت الى تونس إلا بعد نفاذ كل ما بيدي من لوازم الحرب ، ... ثم سلمت سلاحى إلى مأمورى فرنسا ليقبلوا دخولى للأراضى التونسية ، ففى مقابلة أى شىء تعطينى إيطاليا أموالها ؟ وبأى وسيلة أطلب أنا منها المال حيث إني لم أترك للصالح مجالاً ، ودافعتها الى أن أخذت منى البلاد بقوة المدافع وكثرة الجنود . ولو سأل مخابرو تلك الجرائد بعض رؤساء الحكومة الإيطالية لأخبروهم بأسماء الذين قبلوا الرشوة ، ومدوا أيديهم الحقيرة مطأطئ رؤوسهم لتناول الرشوة ثمناً لثرفهم . أما أنا فلا يجدون اسمى إلا فى صدور دفاتر الوقائع المشهورة ، والهجوم الشديد فى الليل والنهار على الحصون والاستحكامات ، من يوم الهجوم على الهانى إلى يوم دخولى تونس . »

هذا ما نقلناه بنصه من حديثه لمحرر مجلة التيمس الإفريقية وهو واضح فيما قصد اليه من رد تلك التهم الباطلة .

ثم سافر البارونى من لندن الى الآستانة ، فأكرم السلطان محمد الخامس وفادته ، وأنعم عليه برتبة الباشوية .

وله عودة إلى الجهاد فى طرابلس ، وسنذكر أخباره فى محلها إن شاء الله .

هجرة سوف ومن معه إلى الشرق

أرسل الشيخ سوف ابنه عوناً إلى الآستانة للاتصال بذوى الشأن فيها لتيسير أسباب الهجرة للمجاهدين ، فسافر من تونس فى ذى الحجة سنة ١٣٣١ وأرسل معه كتاباً خاصاً إلى أنور باشا وكان إذ ذاك وزير الحربية - يستنهض همته فى تسهيل أمور الهجرة للمجاهدين - فوافق على ذلك ، وخصص لهم باخرة للاتيان بهم جميعاً إلى الآستانة . وفى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٢ ركب الشيخ عون الباخرة وجاء بها إلى قابس ، حيث كان المجاهدون فى انتظاره وكانوا نحو ١٥٠٠ .

وكان مع الشيخ سوف من أعيان المهاجرين الشيخ سعد حلبوده مدير الصيعمان .
والشيخ ضوبن الحاج العلاقي . والشيخ على كله فركبوها جميعاً من مرسا قابس وقفلت بهم إلى
الآستانة . وقد تراءى للحكومة العثمانية أن يقيم المهاجرون الطرابلسيون في حلب لأن أراضيها
واسعة ، وسكانها عرب ، يتفقون في كثير من عاداتهم مع عادات الطرابلسيين . فنزلوا
في الاسكندرونة ، ومنها انتقلوا إلى حلب حيث استقر بهم المقام في ضيافة إخوانهم الشاميين ،
وكانت النخوة العربية تدفع العرب إلى الاحتفاء بإخوانهم والقيام بواجب الضيافة .
ولم يطل المقام بالشيخ سوف في حلب حتى قامت الحرب الكبرى في اليوم الثاني من
شهر أغسطس سنة ١٩١٤ فاستدعته الحكومة العثمانية لترسله إلى طرابلس للقيام بالثورة فيها
على الطليان ، فأجاب طلبها وسافر . وسفدكر خبره في محله .

عبد النبي بن خير

قلنا آنفاً إن عبد النبي بن خير ممن انضموا — في الظاهر — إلى الباروني وإخوانه
في محاربة الطليان . وقد ترك بعض مجاهدي أرفلة مع المجاهدين في الرابطة ، فكان هذا
برهاناً عملياً على تأييده فكرة الحرب . ولكنه فيما بينه وبين نفسه لا يؤمن بنجاح هذه
الفكرة وإنما هي يد اتخذها عند الباروني ورفقائه ليحفظ مكانته عندهم ، وإينال قسطه من
أرزاق المجاهدين ، وذهب إلى بني وليد مركز أرفلة ليبلو أخبار أهلها ويعرف ميولهم عن كثب ،
فاتضح له أن كثيراً منهم يؤيد فكرة الحرب ، وكان الهادي بن قطنش وأنصاره يؤيدون
فكرة المفاوضات . وكان الطليان يتوهمون في سيف النصر غول الصحراء ويرغبون
أن لو اتفق معهم ، فوعدوا عبد النبي بما يرضيه إذا هو حقق لهم هذه الرغبة . وذهب عبد النبي
إلى سيف النصر في هون وذكر له من عدالة الطليان وحسن نيتهم نحوه ما جعله يصدق ،
وجاء معه إلى بني وليد . فوجدوا الطليان احتلوها بواسطة عبد الهادي ابن قطنش
فنزلوا في شميخ . وقام عبد النبي بدور الوسيط بين الطليان وسيف النصر . واجتمعوا بالحاكم
الإيطالي في شعبة السكرمة بوادي بني وليد وانفقوا على أن يكون سيف النصر متصرفاً على
الحفرة . وسافر عبد النبي إلى طرابلس وعين مستشاراً للطليان . وذهب سيف النصر إلى سوكنة .

واستمرت هذه المفاوضات بين الطليان وعبد النبي وسيف النصر من مارس إلى ديسمبر سنة ١٩١٣ .



إلى هنا انتهينا من ذكر الحوادث التي وقعت في الدور الأول فيما بين سرت وحدود تونس ، وما بين الساحل وأرقله سواء منها ما كان قبل سفر نشأت بك أو بعده ، وأجلنا بعض ما يتعلق بالأعيب عبد النبي . وكل ذلك حسب المستطاع ، وحسب ما رويناه عن أوثق المصادر ممن شاهدوه .

وبقيت بقية وقعت حوادثها فيما بين أرقله وفزان وكان بطلها من أنصار الطليان عبد النبي بن خير ، ومن أنصار الوطن جماعة من المجاهدين وعلى رأسها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي عليه رحمة الله .

وفي أثناء وجود سيف النصر في سوكنة أرسل إليه السيد محمد بن عبد الله يلومه على عدم محاربتة للطليان ، ويذكره بما أشاعه هو وعبد النبي من أنهم اتفقوا على محاربتهم ، فرد عليهم بأنه لا ينضم إلى الطليان ضدهم ، ولا يأتهم لا محارباً ولا مسالماً . وهي مراوغة منه ، لأن المجاهدين كانوا في حاجة إلى معاونته .

ولوحلت الهداية قلوب عبد النبي وأنصاره من المنشقين وانضموا إلى إخوانهم لسان موقف الطرابلسيين أقوى ونهايته أسلم .

وبعد احتلال بنى وليد أصبح أهم البلاد وأغناها في يد الطليان ، ودخل تحت نفوذهم من سرت إلى حدود تونس ولم يبق إلا فزان والجفرة وما حواليهما من الناحية الجنوبية . وأراد الطليان أن يجهزوا على البقية الباقية ، ورأوا أن فيما حصلوا عليه من موافقة عبد النبي وملاينة سيف النصر فرصة تمكنهم من أغراضهم ، فألفوا جيشاً برياسة السكلونيل امياني مكوناً من بتاليوني^(١) من عساكر الحبشة ، وثلاث كومبانيات^(٢) من غيرهم ،

(١) البتاليوني يحتوي على ألف محارب ، ويساوي الفوج .

(٢) الكومبانية : يتراوح عددها بين ٢٠٠ و ٢٥٠ وتساوي السكتيبة .

وفصيلتين من الطوبجية الجبلية مع ما يلزم لهذه الحملة من المعدات . وسار الجيش الى سوكنة حيث يقيم سيف النصر واحتلها بدون مقاومة منه ولا من أتباعه . وأخذ الطليان يرسلون جواسيسهم الى فزان لاستطلاع أحوال السيد محمد بن عبد الله وأتباعه ، وتجمع لديهم من المعلومات ما أغرام بالهجوم عليهم .

وعرضوا الأمر على عبد النبي ، على أن يكون مع الجيش الذي سيذهب لإخضاعهم فوافق على شرط ألا يبقى سيف النصر في سوكنة ، وأن يعين هو بدله ، فوافق الطليان على ذلك . وشرع عبد النبي يكتب أولاد أبي سيف والمقارحة والزنتان وغيرهم من سكان الجنوب ، محاولاً إقناعهم باستسلامهم إلى الطليان ، ويؤكد لهم أنه سيكفل لهم كل أنواع الراحة مع الطليان .

وبعد أن تم استعداد الطليان للهجوم على السيد محمد أخبروا عبد النبي بأنهم سيقبضون على سيف النصر ، وكلفوه بالذهاب إلى سوكنة ليحل محله ، وليذهب مع الجيش الذي سيهاجم السيد محمد في فزان .

سفر عبد النبي

سافر عبد النبي إلى سوكنة . ومضى في طريقه « بالوديان »^(١) منازل أولاد أبي سيف . وهناك اجتمع بالسيد محمد بن بشير . وكان هذا الاجتماع صدفة . وقد حاول عبد النبي أن يقنع السيد محمد بضرورة خضوع أولاد أبي سيف للطليان ، وأعطاه عهداً بأنه يكفل لهم راحتهم لديهم . ولكن السيد محمد لم يصل معه إلى نتيجة وذهب عبد النبي إلى وجهه ، وبقى السيد محمد في الوديان مع أولاد أبي سيف . ولم يكن مقيماً هناك وإنما كان يقيم في سرت ، وجاء في مهمة سندها قريماً .

(١) الوديان : محل جنوبي مزده وهي مواطن أولاد أبي سيف ومرابعهم . وكثيراً ما نازعهم في ملكيتها الزنتان ، ووقعت بينهم معارك هائلة بسببها . ومن أشهر هذه المعارك معركة « تجمل » حوالى سنة ١٩١٠ أو ١٩١١ وقد تغلب فيها الزنتان على أولاد أبي سيف فخلوا عن أوطانهم ، واختار السيد محمد بن بشير واختوته : - على وعبد الرحمن ومحمد - الجلاء إلى أرض سرت ونزلوا في الوادي الأحمر .

اعتقال سيف النصر وأولاده

وقبل وصول عبد النبي إلى سوكنة بيومين قبض الطليان على سيف النصر وأولاده : أحمد ، وعمر ، ومحمد ، وسليمان ، وعبد الجليل ، وذهبوا بهم إلى زوارة . وتولى عبد النبي مكانه ، وأسندت إليه متصرفية الجفرة . وابتدأ الطليان أعمالهم الحربية على السيد محمد ابن عبد الله ، وكان عبد النبي في مقدمة الحملة .

وفي يوم ٦ من ديسمبر سنة ١٩١٣ تحرك الجيش الطلياني من سوكنة قاصداً براك لحاربة السيد محمد بن عبد الله البوسيفي ومن معه من المجاهدين ، والاستيلاء على فزان . وقد وقعت من يوم ٦ ديسمبر إلى يوم ٢٢ منه معارك شديدة في « الشب » و « أشكدة »^(١) نال فيها كلا الفريقين من صاحبه .

واقعة المحروقة (٢)

٢٣ من ديسمبر سنة ١٩١٣

وفي اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١٣ حصلت واقعة المحروقة ، وقد أبلى المجاهدون فيها بلاء حسناً ، واستشهد فيها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي وجمع من أصحابه المخلصين الذين طالما عرضوا أرواحهم للموت في سبيل الله ، وقد لاقوا مصارعهم جميعاً فداء للوطن فذهبوا مشكورين مأجورين .

وقد حضر السيد محمد بن عبد الله الحزب من أولها . ولم أنس أنى التقيت به مع المجاهدين قبل واقعة الهاني ، وعليه من هيبة الرجولة وجلال الطلعة ما يملأ النفوس مهابة وإجلالا ، وبقي ملازماً خطوط القتال حتى وقع الصلاح ، ثم انضم إلى صف المجاهدين . وقد أبلى في واقعة جندوبة هو وإخوانه أولاد أبي سيف بلاء ما زلنا نحفظه لهم ، ثم انتقل إلى فزان وحارب العدو حتى لقي ربه شهيداً مضر جاً بدمائه في سبيل الله والوطن . رحمه الله وشكر له .

(١) الشب ، وأشكدة : مكانان بقرب براك ، يوجد في الأول معدن الشب . وقتل من الشهورين في معركة أشكدة الشيخ أبو القاسم بن عثمان البدي من أولاد أبي سيف .
(٢) المحروقة : بلدة بوادي الشاطيء من أعمال فزان .

احتلال فزان

٣ من مارس سنة ١٩١٤

بعد مقتل السيد محمد

وقد حاول من بقي من أصحاب السيد محمد بن عبد الله بعد مقتله أن يقوموا بواجبهم كما لو كان موجوداً بينهم . ومن كبارهم الشيخ سالم بن عبد النبي الزنتاني . وقد احتفظوا بمراكزهم على قدر ما مكنتهم جهودهم ، واشتدت وطأة الظليان عليهم ، وواجههم عبد النبي مع صفوف الظليان ، فكانوا يجدون في مقاومة الجميع عناء أي عناء . وبقيت مزرقة في أيديهم لم يحتلها العدو إلى أوائل مارس سنة ١٩١٤ وفي اليوم الثالث منه احتلها العدو ، وباحتلالها انتهت المقاومة المركزة ^(١) في طرابلس كلها من الساحل إلى فزان . والتحق بزواوية العقر في سرت بعض من بقي من المجاهدين وكثير من أولاد أبي سيف والمقارحة والزنتان ، والطبول من أرفلة ، واستقر بهم المقام هناك منتظرين فرصة أخرى للجهاد . وإلى هنا انتهى الدور الأول من الجهاد الوطني في طرابلس ، وامتد نفوذ الظليان من سرت إلى حدود تونس ومن فزان إلى البحر الأبيض . والدنيا دول ، والله يؤتي مملكه من يشاء .

خاتمة الدور الأول

كثير من الناس تلتوى عليهم طرق الحياة فيطلبون السعادة من طريق يخيّل اليهم أنها تؤدي إليها ، ولكنها لا تؤدي إلا إلى الشقاء ، ويسلكون إلى الرفعة طريق الضعة والخسة فيسيرون إلى غيائهم من طرق لا توصل إلا إلى تقيضها . وهكذا كان شأن عبد النبي بن خير ، فقد استعمل حذقه ، وحصر تفكيره فيما يستميل به الظليان ويرضيه عنه ، غير حاسب لشيء آخر حساباً كائناً ما كان ، ولو أدى ذلك إلى القضاء على مواطنيه ونكبة الوطن .

(١) المقاومة المركزة : هي التي يتخذ فيها المحاربون مكاناً معيناً يأوون إليه ، وتقيم فيه جماعة منهم تدبر شئونهم .

ولو وفق كل ذى حذق إلى استعمال مواهبه في سعادة وطنه لما وجد المستعمرون سبيلا إلى أغراضهم . ولكن الحذق مالم يصحبه علو النفس فهو شر على صاحبه من البله والغفلة . وقد خيل إلى عبد النبي أن استجابة الطليان لمطالبه في مثل تلك الظروف السيئة إخلاص منهم له ، ومكافأة لأعماله معهم التي تراءى له أنها في محل الرضا لديهم . وقد فاته أن المستعمرين يعتبرون هذه المساعدات منه ومن أمثاله دليلا على الخيانة والتهاون بالمصالح الوطنية لا تقابل عندهم إلا بعزة النفس والوقوف من هؤلاء موقف السيد المعطى .

وقد دلت التجارب على أن المستعمرين يعطون أمثال عبد النبي ويقرّبونهم ، للاحترام والمكافأة ، بل للتحقير والإهانة .

وأول ما يأخذونه من أمثال هؤلاء ضمايرهم وذمهم ، ثم لا يهمهم بعد ذلك ما فاتهم ، وهم يعتقدون أن صفقتهم رابحة ، وهو الحق الذي لامراء فيه .

ولم يرض الطليان من عبد النبي برأيه ومشورته ، بل كفوه بحرب مواطنيه فلم يدمه إلا الإجابة . وخرج محارباً في صفوفهم يستظل براية تحمل الصليب ، وأنصارها أنصار الصليب ، وسمحت له نفسه أن يوجه رصاص بندقيته إلى صدور مواطنيه الذين يدافعون عن دينهم ووطنهم .

ومن يدري ماذا كان يحتلج في نفس عبد النبي وهو يسدد الضربة إلى مواطنيه؟! فهل كانت تؤنبه من أجل هذا العمل المستكره؟! ، لاشك أن نفسه كانت تؤنبه ، ولكن سبق السيف العذل . فقد باع نفسه لمن لا يتساهل في قتلها ، ولبئسما شرى به نفسه . وبعد احتلال فزان رجع عبد النبي إلى طرابلس يحمل بين كتفيه ذلك الرأس الذي فكر في محاربة المسلمين ، وفي القضاء على الحركة الوطنية ، وبقى مستشاراً للطليان فيما يبيتونه من السكيد للوطن ، إلى أن كانت حملة القرصانية فخرج رئيساً على جيش أرفلة .

وكما يحفظ التاريخ للرجال حسناتهم ، كذلك يحصى عليهم سيئاتهم ، فهو الصديق الوفي ، والعدو الذي لا يرحم . وفي التاريخ عبر لا يعقلها إلا العالمون .

رحلة أولاد أبي سيف إلى سرت^(١)

لما كان السيد محمد بن عبد الله البوسيفي محاصراً في فزان وانتهت المقاومة في جميع أنحاء البلاد أصبح أولاد أبي سيف محاطين بالطليان من جميع الجهات ، ورأوا أن في بقائهم على هذا الوضع خطراً عليهم ، خصوصاً وأنه لم يبق لهم منفذ إلا إلى سرت .

ولما كان السيد محمد بن بشير يقيم فيها — وكان من وجهائهم وأصحاب الرأي فيهم — أرسلوا إليه يخبرونه بالأمر ليسعى لهم في مخرج من هذا المأزق ، فذهب إليهم في الوديان — حيث التقى بعبد النبي كما قدمنا آنفاً — ليتفاوض معهم فيما يجب عمله في مرورهم إلى سرت ، ثم رجع إلى سرت للسعى في هذا الأمر ، فرأى أن يوسط لهم عمر بن المنتصر قائم مقام سرت إذ ذاك ، وفتح في الأمر ، ورجاه أن يتوسط لأولاد أبي سيف لدى الطليان ليسمحوا لهم بالمرور إلى جهة سرت للإقامة هناك على شروط :

(١) أن يبقوا بسلاحهم .

(٢) وأن تفتح لهم الأسواق للميرة وقضاء مصالحهم .

(٣) وألا يتعرض لهم الطليان بسوء ولا يتعرضون لهم .

فقبلت وساطته ووافق الطليان على ذلك .

فأرسل السيد محمد إلى أولاد أبي سيف بأن الأمر قد تم ووافق الطليان على دخولكم إلى سرت على الشروط الثلاثة ، فانتقلوا هم ومن معهم بقضهم وقضيضهم إلى سرت وكانوا عدداً كبيراً ، وكانوا مسلحين ومعهم كثير من الإبل محملة بالسلاح .

وقد رأى الطليان في كثرتهم ما أوجس في نفوسهم خيفة منهم . وقد ترتب على خوف الطليان من كثرة أولاد أبي سيف أن احتلوا النوفلية . ووقعت بينهم وبين المغاربة معركة

(١) وقعت هذه الرحلة فيما بين إبريل وأكتوبر سنة ١٩١٤ وقد ذكرناها مرتبة حسباً رويناهما

عن الثقات الذين شاهدوها ، واجتمعوا بأعيان أولاد أبي سيف .

كبيرة استشهد فيها الشيخ عبد الله الأبطوش رئيس المغاربة وجماعة كثيرة من أعيانهم .
وبمجرد وصول أولاد أبي سيف ذهبوا إلى سوق سرت فباعوا من حيواناتهم وأمتعتهم ما هم
في غنى عنه ، واشتروا ما هم في حاجة إليه من الأثاث والمتاع ورجعوا إلى رحالهم .
وكان في أمل الطليان أنهم بمجرد وصولهم يذهبون إليهم متهاوتين ولكنهم لم يفعلوا
وأبت عليهم نفوسهم أن يتقدموا إليهم . وقد زاد هذا في مخاوفهم ، فطلبوا إلى عمر المنتصر
أن يجمعهم برؤسائهم ، فرفضوا ، وأراد الطليان أن يخضعوهم من طريق القوة ، فخرجوا
عليهم في جيش كبير فالتقوا به في النوفلية وحاربوه حتى ارتد على أعقابهم إلى سرت .

خبر

في أواخر سنة ١٩١٤ أرسل محمد العابد السنوسي - وكان في واو - إلى عمر المنتصر
كتاباً يرجوه فيه أن يتوسط له لدى الطليان في إعانة . وقد أرسلوا إليه هدايا كثيرة مع الذي
جاء بالجواب (١) .

وهذا أول خبر ترويه فيما يتعلق بمحمد العابد . وله أخبار أخرى سيأتي بعضها قريباً .

سيف النصر

بعد أن فشل الطليان في استمالة أولاد أبي سيف من طريق عمر المنتصر ، وفي
إخضاعهم من طريق القوة ، التجأوا إلى سيف النصر - وكان معتقلاً في زوارة ، فأثروا به
من منفاه ليتخذوه وسيطاً بينهم وبين العرب القاطنين في سرت وما وراءها ، ووعدوه بالقيام
بكل ما يضمن راحة الناس . وقد انتهز هذه الفرصة لخروجه من الاعتقال . وحينئذ به هو
وابنه أحمد إلى سرت ليقوم بمهمة الوسيط ، وخرج هو إلى زاوية العقر حيث يقيم المغاربة
وأولاد أبي سيف وأخبرهم برغبة الطليان في تهدئة الحالة ، وبتعهدهم بكل ما يكفل لهم الراحة
فلم يجد من الناس إلا إغراضاً ، وأخبروه بأنهم سيحاربون الطليان إلى النهاية . فاعتزم البقاء
معههم ولم يمد إلى الطليان . ولحق به ابنه أحمد وانضم إلى المجاهدين . وكان له شأن محمود
في واقعة القرضابية .

(١) الذي جاء بالجواب هو علي بن محمد الزادمة من أولاد سليمان .

حرب العصابات

مقدمة

ابتدأ الدور الثاني بحرب العصابات ، وذلك أنه باحتلال فزان انتهت المقاومة المركزية ، وانتشر الطليان في طول البلاد وعرضها ، وعزل إليهم أن الأمر قد تم . فالتجأوا لهم مراكز للحكم في بني وليد ، ومردة ، وسيناون ، وغدامس ، وبرنجيم ، والقريات ، وسرت . وكما كان بعض هذه المراكز الصحراوية مراكز للحكم ، كانت كلها مراكز للاتصال بين الشمال والجنوب ، ونكس

الدور الثاني

وكانت هذه التوسعات في فزان ، والواحات ، وأرقة وغيرهم . وقد سهل بعد ما بين مراكز الطليان لهذه القبائل التحول والاتصال بعضهم ببعض في كثير من الطوائف من الجهاد الطرابلسي كل مناسبة ، ومن هنا نشأت فكرة حرب العصابات .

وقد انضم كثير من القبائل التي ذكرناها إلى زاوية المقر^(١) ليستندوا إلى حركة الجهاد في برقة التي كان يقوم بها إذ ذاك السيد أحمد الشريف ، ولشكون برقة ملجأ لهم إذا اضطروا إلى الغلاء مرة أخرى ، كما أنهم يكونون بتقاربهم بعضهم من بعض كثيرة يستفيدون منها في مناوراتهم الطليان . وقد كان هؤلاء المجاهدون في نقطة من الجنوب الشرق من سرت تقع فيما بين التوفلية شمالا ، وزاوة جنوبا ، ومردة شرقا .

وإنه ليس بولن لا يعرف جغرافية طرابلس ، أنه باحتلال فزان يستتب للطليان الأمر ويستولون على جميع طرابلس . ولكن لأدنى تأمل في الوضع الجغرافي ، وفي طبيعة سكان مناطق الجنوب يدرك أن النتيجة ستأتي عكسية لا محالة . ذلك أن الطليان باحتلالهم فزان ومادونها من الصحراء إلى أرقة انقطع قلب جيشهم عن مؤخرته ، وبعدت هيئته عن ميسرته ، فأصبح قلبه في فزان ومؤخرته في طرابلس ، وميسرته في غدامس وميسرته

(١) قال لها زاوية المقر ، وزاوية التوفلية . ومن زاوية التوفلية بيت في مكان شرق سرت قالوا لها زاوية المقر ، وفيه بلد قال لها التوفلية ، والزاوية بيت في كل من

كبيرة استشهد فيها الشيخ عبد الله الأيطوش رئيس الغاربة وجاعة كثيرة من أهلهم -
ومجرد وصول أولاد أبي سيف ذهبوا إلى سوق سرت فباعوا من سيوفهم وأمتعتهم ما هم
في غنى عنه ، واشتروا ما هم في حاجة إليه من الأثاث والتباع ورجعوا إلى رحلمهم .
وكان في أمل الطليان أنهم بمجرد وصولهم يذمبون إليهم متهاذلين ولكنهم لم يفعلوا
وأيت عليهم نفوسهم أن يتقدموا إليهم . وقد زاد هذا في مخاوفهم ، فطلبوا إلى عمر للتصبر
أن يحضرهم برؤسهم ، فرفضوا ، وأراد الطليان أن يعضوهم من طريق القوة ، فخرجوا
عليهم في جيش كبير فالتقوا به في التوقاية وخاروه حتى ارتد على أعقابهم إلى سرت .

خير

في ثلثاء سنة ١٩١٤

في أواخر سنة ١٩١٤ في عهد السيد الداعي - وكان في زاو - إلى عمر للتصبر
كتاباً يرجوه فيه أن يتوسط له لدى الطليان في إعادة . وقد أرسلوا إليه هدايا كثيرة مع الذي
بالحجاب (١) .
وهذا أول خبر نروره فيما يتعلق بحمد العابد . وله أخبار أخرى سيأتي بعضها قريباً .

سيف النصر

بعد أن فشل الطليان في استمالة أولاد أبي سيف من طريق عمر للتصبر ، وفي
إحصاءهم من طريق القوة ، التجأوا إلى سيف النصر - وكان معتقلاً في زوارة ، فأثروا به
من منافع ليتخذوه وسيطاً بينهم وبين العرب القاطنين في سرت وماوراءها ، ووعدوه بالقيام
بكل ما يصمن راحة الناس . وقد اتهم هذه الفرصة لخروجه من الاعتقال . وحين به هو
وابنه أحمد إلى سرت ليقوم بحمة الوسيط ، وخرج هو إلى زاوية المقر حيث يقم للغاربة
وأولاد أبي سيف وأجبرهم برغبة الطليان في هذه الحالة ، ويصلهم بكل ما يكفل لهم الراحة
لم يخدم من الناس إلا إعراساً ، وأخبروه بأنهم سيعارون الطليان إلى النهاية . فاعترم اليقاع
سهم ولم يند إلى الطليان . ولحق به ابنه أحمد وانضم إلى المجاهدين . وكان لشأن محمود
في راحة القرضاية .

(١) الذي جاء بالحجاب هو علي بن محمد القرضاية من أولاد سليمان .

حرب العصابات

مقدمة

ابتدأ الدور الثاني بحرب العصابات . وذلك أنه باحتلال فزان انتهت المقاومة المركزة ، وانتشر الطليان في طول البلاد وعرضها ، وخيل إليهم أن الأمر قد تم . فاتخذوا لهم مراكز للحكم في بنى وايد ، ومزدة ، وسيناون ، وغدامس ، وبونجيم ، والقريات ، وسرت . وكما كان بعض هذه المراكز الصحراوية مراكز للحكم ، كانت كلها مراكز للاتصال بين الشمال والجنوب ، وثكنات للجيش .

وكانت هذه النواحي لأولاد أبي سيف ، والمقارحة ، والزنتان ، وأرقله وغيرهم . وقد سهّل بُعد ما بين مراكز الطليان لهذه القبائل التجول والاتصال بعضهم ببعض في كثير من الأماكن ، كما سهّل عليهم الغزو على قوافل الطليان ، وقطع الطرق عليهم في كل مناسبة ، ومن هنا نشأت فكرة حرب العصابات .

وقد انضم كثير من القبائل التي ذكرناها إلى زاوية العقر^(١) ليستندوا إلى حركة الجهاد في برقة التي كان يقوم بها إذ ذاك السيد أحمد الشريف ، ولتكون برقة مآجاً لهم إذا اضطروا إلى الجلاء مرة أخرى ، كما أنهم يكوّنون بتقاربهم بعضهم من بعض كثرة يستفيدون منها في مناوأتهم الطليان . وقد كان هؤلاء المجاهدون في نقطة من الجنوب الشرقى من سرت تقع فيما بين النوفلية شمالاً ، وزلة جنوباً ، ومرادة شرقاً .

وإنه ليبدو لمن لا يعرف جغرافية طرابلس ، أنه باحتلال فزان يستتب للطليان الأمر ويستولون على جميع طرابلس . ولكن لأدنى تأمل في الوضع الجغرافى ، وفي طبيعة سكان مناطق الجنوب يدرك أن النتيجة ستأتى عكسية للاحالة . ذلك أن الطليان باحتلالهم فزان ومادونها من الصحراء إلى أرقله انقطع قلب جيشهم عن مؤخرته ، وبعدت ميمنته عن ميسرته ، فأصبح قلبه في فزان ومؤخرته في طرابلس ، وميمنته في غدامس وميسرته

(١) يقال لها زاوية العقر ، وزاوية النوفلية . وهى زاوية السنوسية بنيت في مكان شرقى سرت يقال له وادي العقر ، وفيه يترى يقال لها النوفلية ، والزاوية تنسب الى كل منها .

فى سرت . وصار موزعاً فى محيط قطر دائرته من الشمال إلى الجنوب نحو ١٠٠٠ كم . يضاف إلى هذا قلة مراكز الاتصال وُبعد ما بينها ، وصعوبة الطرق التى لاتعدو أن تكون جبلية تارة ورملية أخرى ، ويضاف إليه كذلك أن سكان هذه المناطق كلهم من العرب الرحل ، لايحلو لهم المقام إلا حيث يسقط المطر وينبت الربيع ، وقد أصبحوا جميعاً مسلحين . نجش هذه طبيعة الأرض التى يحتلها ، وهذه حياة السكان الذين يريد أن يخضعهم بالقوة ليس من مصلحته الإيفال فى مثل هذه الصحارى دفعة واحدة ، فإن ذلك مما يمرضه لقطع مواصلاته ، والإغارة على مراكز تموينه وقوافل نقله ، كما حصل ذلك له بالفعل . فإن سكان البادية الذين انحازوا إلى زاوية العقير ألفوا عصابات مسلحة ، وركبوا إبلهم وخيلهم وصاروا يغيرون عليه فى بونجيم ، ومزدة ، والقريات ، بل وفى غدامس وفزان ، فضلاً عن سرت ومصراتة وبنى وليد ، وما جاورها .

وقد بذل الجيش الإيطالى آخر ما فى وسعه للاحتفاظ بمراكزه ، والمحافظة على طرق مواصلاته و تموينه فى تلك الصحراء المترامية الأطراف ، ولكنه لم يستتب له الأمر فى فزان إلا تسعة أشهر ، من يوم ٣ من مارس سنة ١٩١٤ وهو اليوم الذى استولوا فيه على مرزق عاصمة فزان ، إلى يوم ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤ وهو اليوم الذى سقطت فيه سببة والقاهرة .

إعلان الحرب العامة

وفى هذه المدة التى امتلك الطليان فيها فزان أعلنت الحرب العامة فى ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ فكان إعلانها مما زاد فى ارتباك الطليان وجعلهم ينظرون من خلال الحوادث إلى ما ينتظرهم من جهود مضنية قد تشغلهم عن مواجهة الحوادث فى طرابلس بما يجب لها من الاهتمام .

وقد لاقى الجيش الإيطالى فى هذه المدة صعوبات حمة فلم يقو على مقاومتها ، فخارت قواه واقتطعت أطرافه ، وانهار فى تلك الصحراء فابتلته وأصبح أثراً بعد عين . واعترف الجنرال جرازيانى فى كتابه « نحو الفزان » بهذه الصعوبات ، واعتبر بُعد

مراكز الطليان بعضها عن بعض ، وبقاء القبائل العربية مسلحة من أقوى الأسباب التي حالت دون استمرار سيطرة الطليان على القسم الجنوبي من طرابلس .

الغزو على الطليان

بعد أن اتسع الخرق على الطليان ، وفجرت الصحراء فاهها لا ابتلاع جنودهم ووسائل نقلهم ومعدات أسفارهم . وكلما وضعوا في جوانبها من جيوش ووسائل المواصلات وظنوا أنها امتلأت قالت هل من مزيد — بعد هذا ركب المجاهدون إبلهم . وضربت عصابتهم في طول الصحراء وعرضها نجاءوا من الطليان بالأسلاب والغنائم ، وحالفهم النصر والسلامة في كثير من غزواتهم ، فشد هذا النصر عزائمهم ، وقوى نفوسهم على مهاجمة الطليان في مراكزهم ، وأوقعوا بالطليان في غزواتهم عليهم ما تسرد بعضه قريباً .

أهم الغزوات

ومن أهم الغزوات التي قامت بها عصابت المجاهدين على الطليان في الفترة من مارس الى نوفمبر سنة ١٩١٤ غزوة « الزيدن »^(١) وقد غنموا فيها من الطليان خمسمائة جمل محملة أمتعة وبضائع مختلفة ، وقتل فيها كثير من الطليان .

وغزوة « الفاتية »^(٢) وقد قتل فيها كل من في الحملة ، وغنم فيها المجاهدون اثني عشر بغلاً محملة بنقود الذهب والفضة وأوراق البنكنوت الإيطالية . وكان الغزاة فيها ثمانين رجلاً من المقارحة وأولاد سايمان ، والمغاربة وأرقله ، وكان رئيس الغزاة أبا بكر الهليب من قبيلة العوامرة .

وغزوة « بونجم » وكانت يوم الخميس ، وهو اليوم الذي وقعت فيه واقعة بوهادي الأولى ، أغار المجاهدون على قافلة للطليان ، واستاقوا منها نحو ثلاثمائة جمل ، وقتل كثير من الأحباش . وغزوة الشويرف .

وأول غزوة قامت بها عصابت المجاهدين على مراكز الطليان بعد أن قويت شوكتها هي غزوة القاهرة . فكانت فاتحة الدور الثاني من الجهاد في طرابلس .

(١) بئر في وادي بني حدود سرت تبع القذاذفة .

(٢) بئر في وادي بني في أرض المقارحة واستشهد فيها الشيخ أحمد بن الحاج أبي القاسم التايب الحمودي .

غزوة القاهرة

في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤

القاهرة ربوة عالية في سببة ، وفي رأسها قصر قديم وفيه بئر ، ويقال إنها كانت في التاريخ القديم مقر بن جهيم وابن المنتصر .

وسببة تتكون من ثلاث قرى : إحداها القاهرة ، وقد اتخذ الطليان منها حصناً بعد احتلال فزان للدفاع عن سببة ، وأحاطوها بسيياج من المدافع والأسلاك الشائكة حتى أصبحت جد منيعة ، واتخذوها مستودعاً حربياً ، وكان رئيس الغزاة عليهما الشيخ سالم ابن عبد النبي ، وكان مع السيد محمد بن عبد الله ، وبعد موته التجأ هو ومن معه من الزنتان إلى نواحي الرملة الغربية ، وبقوا ينتقلون هناك إلى أن منحت لهم الفرصة وهاجموا القاهرة وطردها منها الطليان وغنموا فيها أسلحة وأرزاقاً كثيرة . وقد صبحوا القاهرة يوم ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤ . وكان يوماً أغرّ هبت فيه ريح النصر على جماعة من الطرابلسيين ، فاقبلوا منها جذور الطليان ، وكانت لهم فيها جولة مازلنا نذكرها لهم بالفخر والإعجاب ، وكان محمد العابد السنوسي موجوداً في ناحية فزان ، فالتصل بالجهادين بواسطة المهدي السني ، وأخذ منهم بعض الغنائم .

ومن هذا الوقت ظهر محمد العابد في فزان ، والتحق به كلب السيد . وستأتى أخبارهم إن شاء الله .

أثر سقوط القاهرة

كان لسقوط القاهرة أثر حميد في نفوس سكان المناطق الجنوبية . ورأوا في اقتراب إخوانهم منهم واستيلائهم على القاهرة مشجعاً على الثورة ، وسرى هذا الخبر في جميع أنحاء فزان فثار كل من أمكنته الثورة ، وحاصروا مراكز الطليان . وابتدأ الدور الثاني من الجهاد يشق طريقه إلى أم الوطن وما حواليلها لاستئناف حلقة ثانية كان سببها هذا النصر المؤزر الذي أحرزته تلك العصاة المباركة — عصاة سالم بن عبد النبي ومن معه — من

بقية أنصار السيد محمد بن عبد الله البوسيفي عليه رحمة الله . وقد التجأت هذه العصاة إلى الرملة وصارت مأوى لكل محب للجهاد حتى كثروا ، وكان لهم هذا الأثر المحمود .

الثورة

بعد سقوط القاهرة سقطت أوباري ، واندلعت الثورة في فزان ، وأحيط بالطليان في مراكزم ، وعجزت القيادة الإيطالية عن إخمادها ، فلم يبق أمام الكولونيل إمياني — وهو القائد الأعلى للجيش الإيطالية في الجنوب — إلا الانسحاب . ولكن كيف يكون ذلك وبينه وبين محل النجاة نحو ألف كيلو متر ؟ ولكنه أولى من الاستسلام للموت ، ونجاة بعض الجيش خير من تعريضه للقناء كله .

وكان إمياني يقيم في مرزق عاصمة فزان ، فانسحب هو وبض الضباط في يوم ١٠ من ديسمبر سنة ١٩١٤ « في ست سيارات » ، وحمل معه فيها ماخف حمله وغلامنه . وقد انضم الطليان الذين كانوا معه إلى سوكنة ليتقوّوا بإخوانهم هناك . ودخل هو الصحراء ناجياً بنفسه مع من معه لا يلقى على شيء تاركاً وراءه كل شيء ، حتى وصل مصراته يوم ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩١٤ . وخرج الطليان من غات وتركوا كل ما فيها . وخرجوا من الجفرة في ٢٧ من يناير سنة ١٩١٥ . وبخروجهم من الجفرة خلت الجهات الجنوبية كلها منهم ، وبقيت مراكزم في سرت ، وبونجيم ، وبنى وليد ، ومزدة ، وما دونها من المراكز الشمالية إلى طرابلس . وبقوا كذلك في الجبل ، ونالوت ، وسينان ، وغدامس .

المجاهدون في سرت

عقب انهزام إمياني من فزان في ديسمبر سنة ١٩١٤ نشطت الثورة ، وبلغت أخبارها إلى برقة . وكانت الحرب قائمة فيها برياسة السيد أحمد الشريف . وبما أن أراضي سرت على حدود برقة عين السيد أحمد الشريف أخاه صفي الدين نائباً عنه لتنشيطها . وقد حضر أحمد التواتي وكيلاً عن صفي الدين فوجد فيها جماعات كثيرة من أولاد أبي سيف وغيرهم .

وانضم إليهم كثير من مصراته وسكان السواحل وكانوا يغيرون على الطليان في مصراته وأرفلة ، ويقلقون راحتهم ويقطعون عليهم السبل . وقد توسع المجاهدون في الإغارة فلم يفرقوا بين الطليان وغيرهم ، فأصيب كثير من الناس في حيواناتهم ، فضج الناس من هذه الحال وكرت شكاياتهم ، وانضم كثير منهم إلى المجاهدين . فأدرك الطليان أن الخطر يستفحل شيئاً فشيئاً ، وأن الثورة تسرع إليهم بخطى واسعة ، وعماً قريب تقتحم عليهم حصونهم ، وقد شكى أرباب الحيوانات المنهوبة إلى رمضان فتقدم إلى الطليان ، ورفع إليهم شكايات هؤلاء الناس الذين أغبر على إبلهم تحت سماع الحكومة وبصرها . وأفهمهم أن أول واجب الحكومة أن تحمي السكان من هذه الإغارات وتعطيهم سلاحاً ليدافعوا به عن أنفسهم . وأظهر لهم استعدادهم للذهاب إلى المجاهدين في سرت لمفاوضتهم في رد الإبل ، ومعرفة ما يقصدون من وراء هذا الغزو ، وهل لهم مطالب يريدون أن يتقدموا بها إلى الحكومة أولاً ؟ .

رد المنهوبات

أذن الطليان لرمضان بالذهاب إلى سرت لمقابلة المجاهدين وطلب منهم أن يعطوه سلاحاً هو ومن يريد الذهاب معه ، فأعطوه ، وذهب في نحو أربعين فارساً من مصراته لمقابلة المجاهدين في سرت ومعه أخوه أحمد .

وكان الناس قبل أن ينشط المجاهدون في سرت ، وفي المدة التي ساد فيها الحكم الإيطالي ، شتموا معايشة الطليان واشتأزت نفوسهم من أحكامهم ، ووجدوا من معاملتهم غير ذلك النوع الذي وعدوهم به ، وغير تلك السهولة التي كانوا يظهرونها قبل أن يتم لهم الأمر ، فلما رأوا أن رمضان السويحلي خرج إلى المجاهدين ليفاوضهم في رد الإبل قوى أملمهم في الثورة ، والتحق كثير منهم بالمجاهدين في سرت ، وتجراً كثير منهم على طلب السلاح من الطليان بحجة المحافظة على أموالهم من هؤلاء المغيرين ، فأعطوا القليل منهم ، وصاروا ينظرون إلى قرب يوم الخلاص بعين الأمل . وهكذا كان خروج رمضان إلى المجاهدين سبباً في تحمس الناس ضد الطليان وتهيئة نفوسهم للثورة .

وقد وصل رمضان السويحلي إلى المجاهدين في وادي « التلال » واجتمع بأحمد التواتي وهو إذ ذاك وكيل عن رئيس المجاهدين من قبل السنوسية — وتذاكر معه في شأن الإبل المنهوبة ، وأفهمه أن ردها يحدث لهم دعاية طيبة ويرغب الناس في الالتحاق بهم . وقد وجد رمضان أصدقاء له حبذوا فكرته ، وأقنعوا التواتي بصواب رأيه . وقد اقتنع التواتي وأمر بإحضار الموجود من الإبل وعدم التصرف في الغائب منها .

وقد أحس الطليان بعد سفر رمضان بنشاط في الناس غير عادي ، وبتزايد التحاق الناس بالمجاهدين ، فأدركوا أنهم أخطأوا في الإذن لرمضان بالذهاب إلى المجاهدين ، ولكن الأمر أصبح حقيقة واقعة ، فماذا يصنعون ؟

وأكد لهم خطأهم أن الأخبار التي وصلت إليهم كلها مجمعة على أن الناس أصبحوا في حالة نفسية تنتظر الثورة في القريب العاجل ، فرأوا — علاجاً لخطئهم — أن يهاجموا المجاهدين في سرت ، فإذا وفقوا في التغلب عليهم فقد قضوا وطرم وأمنوا هذا الجانب ، وإن كانت الثانية كان هذا الهجوم بمثابة اختبار قوة المجاهدين . وعجم عودهم ليمدوا لهم القوة السكانية . فهاجمهم في قصر بوهادي بعد وصول رمضان إليهم بنحو ثلاثة أيام ، فصمدوا لهم ، واشترك في المعركة رمضان ومن معه ، ودامت نحو سبع ساعات ، ثم انجلت عن انتصار المجاهدين وارتداد الطليان إلى قصر سرت ، وغنم المجاهدون كثيراً من السلاح ومات وجرح بعض من كان مع رمضان ، وكان من بين الجرحى أخوه أحمد بك السويحلي . وكان اشتراك رمضان في المعركة دليلاً عملياً على إخلاصه للمجاهدين ، وانتظار الفرص للانضمام إليهم .

رأى رمضان في جماعة التواتي

كان رمضان يخيل إليه أن القوأتي وجماعته على شيء من النظام وحسن الترتيب ، بحيث يكونون أساساً لإنشاء جيش تعتمد عليه ثورة تنتظم البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، ولما اتصل بهم ورأى ما هم عليه من النظام ، وما تدمر به رياستهم من الآراء ، وكيفية

الاتصال بينهم وبين ما يسمونه رئاسة وجد الأمر على خلاف ما كان يؤمل ، فكان يعوزهم النظام ، والتوجيه الصالح لما يجب عمله لمصلحة الوطن ، وحسن النية فيما يقومون به من أعمال لا يقصد منها إلا الكسب الدنيوى ، ولم يمنعه هذا من إظهار شعوره معهم . وكان يريد أن يطيل المقام معهم ليعرف من أمرهم أكثر مما عرفه فى هذه المدة القصيرة ، ولكن حصول المعركة فى وجوده - خصوصاً وقد جرح فيها أخوه أحمد بك - جعله يتعجل الرجوع إلى مصراته خوفاً أن يعلم الطليان حضوره للمعركة فينتقموا منه ومن أهله . وقد وعد جماعة التوائى باتخاذ ما يلزم لمساعدتهم وتسهيل انضمام الناس إليهم ، ورجع إلى مصراته هو وبعض رفاقه ، ومعهم بعض الإبل التى ذهبوا لاستردادها وبقي بعض رفاقه فى سرت مع المجاهدين ومنهم أخوه أحمد لأنه كان جريحاً . وقد بر بوعده وأمد جماعة التوائى ببعض ما كانوا فى حاجة إليه .

وسبقه الخبر إلى مصراته ، وعلمت الحكومة أنه حضر المعركة وحارب مع المجاهدين ، وأن أخاه أحمد جرح فى المعركة .

ولما وصل إلى مصراته سأله الطليان عن بقية رفاقه ، وبقية الإبل المنهوبة ، وحضوره المعركة ، فأجاب بأن رفاقه تأخروا لجمع الإبل لأنها وزعت ، أما المعركة فلم يحضرها لأنها وقعت قبل وصوله . فسألوه عن المجاهدين فأخبرهم بأنهم كثيرون ، وأنهم هم الذين فازوا فى المعركة ، وقد أصبح لديهم سلاح كثير .

وسواء اقتنع الطليان بجوابه أو لم يقتنعوا ، فإنهم لم يسيثوا إليه . رفعت هذه الحادثة من شأن رمضان ، واسترعت نظر الحكومة إليه بنوع خاص ، ووقعت عند مواطنيه موقع القبول والتقدير ، لأنها كانت وطنية فى الصميم . وكان الناس فى حاجة إلى من يفتح لهم هذا الباب من الأعمال الوطنية .

ولم يكن رمضان قبل الآن من أرباب الوظائف أو المقربين من الحكومة ، وإنما كان معروفاً بين الناس بالإقدام والشجاعة ، مهيباً بين القوم ، محمى الجانب بما عرف عن أمرته من البأس وعزة النفس . وقد عرف فيه الطليان رجلاً من غير ذلك الطراز الذى

يعتمد في حياته على التقرب من الحكومة لسكسب الشهرة كيفما اتفق ، راضياً من العمل بالفخر بما للآباء والجدود من مكانة .

وقد أصبح الناس فيه فريقين : صديقاً مناصراً ، وقد وجد من اهتمام الحكومة بشأنه مشجعاً على التمسك بمناصرته ، وعدواً كارهاً أكل الحسد صدره ، وكلا الفريقين مشغول به من حيث يشعر أو لا يشعر .

ولا يسر الطليان أن يوجد في الطرابلسيين من تقفز به أعماله الجيدة إلى حيث لم يصل إليه من عرفوا بالتقدم منذ مئات السنين ، فالاستعمار لا يتفق مع وجود هذا النوع الذي يمثله رمضان السويحلي ، ويراه شوكة في طريقه يجب خضدها . ولكنهم أكرهوا على مصانعته لأن موقفهم إذ ذاك كان مضطرباً . وقد كانت هذه الواقعة سبباً في اختياره في جيش القرضابية .

جيش لاحتلال فزان

تحيل السكولونيل إيماني أن هزيمته في فزان وضعت يده على محل النقص في سياستهم فاعتقد أن سببها الوحيد هو قلة الجيوش اللازمة لحفظ الأمن والواصلات . والحقيقة أن هناك عاملاً آخر أقوى من هذا وألزم منه لامتلاك الصحراء وهو الثاني وعدم الطفرة . وكانت الطفرة من أقوى أسباب انكسار جيشي القرضابية ومرسيط ، لأن إيماني أراد أن يصل بجيشه إلى فزان وسرت بدون أن يؤمن ما خلفه ، ويتخذ العدة اللازمة لتأمين السكان والحيولة بينهم وبين الثورة والقائمين بها . فما وقع له بعد القرضابية هو ما وقع له في فزان وغيرها . وإنما يزيد عليه بكثرة الجيوش التي كانت سبباً في فداحة الفكبة .

وما كاد يستقر به المقام في طرابلس بعد مجيئه من فزان منهزماً حتى تقدم لحكومته بمشروع حربي هائل ، يحتفظ فيه لنفسه بسلطة مطلقة تمكنه من اتخاذ ما يراه كفيلاً بنجاح هذا المشروع ، وقد شجعه على هذه الفكرة ما رآه من نشاط الروح المعنوية في الناس بعد سفر رمضان إلى سرت ولم تجد حكومته بداً من إجابته لما طلب نظراً لما أصابها

من الهزيمة المنكرة ، ولأنه رجل درس شؤون الصحراء أكثر من غيره ، وتلقى فيها دروساً عملية بتلك الهزيمة التي أصابته في فزان .

وكان من ضمن برنامجه أن يؤلف جيشين كبيرين يتوجه أحدهما إلى الجنوب على طريق غريان ومزدة والقريات ثم إلى فزان ، ويتوجه الثاني إلى سرت ومنها إلى الجفرة ، ويجند أكبر عدد ممكن من العرب في هذين الجيشين برياسة جماعة من رؤساء القبائل وأعيانهم ، علماً منه أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، وأبناء العرب أدرى بطبيعة بلادهم ، وأقدر على مقارعة بعضهم لبعض . وقد استشار في هذا الرأي كثيراً ممن لهم صلة بالحكومة الإيطالية ، كعبد النبي بن خير وغيره ، فخبذوه له ووافقوه عليه .

استدعاء رمضان إلى طرابلس

كان الطليان قد انتهوا إلى العزم على إعداد الجيشين اللذين تقدم ذكرهما ، وجاء دور التنفيذ وجمع رؤساء القبائل للذهاب معها .

وقد حضر رمضان إلى طرابلس بناء على دعوة من حكومتها ، وسألته عما جرى في ذهابه إلى سرت ، فأخبر بما أخبر به حكومة مصراته .

وكان عبد النبي بن خير إذ ذاك مستشاراً للطليان في طرابلس ، فيقال إنه هو الذي أشار على الطليان باستدعاء رمضان لتكليفه برياسة قسم مصراته بدلا من غيره . وقد خيره الطليان بين ثلاث : إما أن يعقد مع الثوار في سرت صلحاً يريح الطرفين ، وإما أن يحاربهم والحكومة مستعدة لتجهيزه بما يطلبه ، وإما أن ينفي إلى إيطاليا . وكل من الأمور الثلاثة صعب تحمله ، فنفس رمضان لا تسمح بمحاربة إخوانه ومواطنيه ، لأنه أمر يحرمه الدين وتآباه الكرامة ، ولا تسمح أن يسلم نفسه للطليان من غير أن يحاول الإفلات منهم ، وقد اختار أن يقوم بدور الوسيط في الصلح بين المجاهدين والطليان ، فر بما أتيحت له فرصة الخروج من هذا المأزق ، فاشترطوا عليه أن يذهب مع جيش الحكومة ، حتى إذا لم تنجح وساطته حاربهم مع بقية الجيش ، فأدرك رمضان لساعته أنها خدعة ، وأن فكرة

الصلح إن هي إلا ستار اتخذوه لتنفيذ أغراضهم ، وأنهم مصممون على الحرب لا محالة .
على أن هذا التخيير الذي عرضوه على رمضان لم يعرضوه على بقية الرؤساء ، مما يدل
على أنهم يقصدون إلى توريط رمضان لما أدركوه من ميله إلى جهة المجاهدين .

وكانت الفرصة سانحة للقبض على رمضان ، والتخلص منه ، ومما يتوقعون له من
مستقبل يعتقدون أنه في غير صالحهم . ولأمر مالم ينتهزوا هذه الفرصة ، وكلفوا رمضان
كما كلفوا غيره بالمشاركة في هذه الحملة .

وقد اعتبر جراز ياني عدم القبض على رمضان ونفيه ضعفاً من الحكومة ،
وعدم معرفة منها بحقائق الرجال وتقدير الأمور . وأن مآر كوا من أجله هذه الفرصة خيال
لا يمكن تحقيقه ، وآمال لا يمكن الوصول إليها^(١) .

وكانت فكرة ذهاب رمضان مع الجيش عقبة وضعت أمامه ، إذ لولا وجود الجيش
لكان مجال العمل أمامه أوسع ، ولو مانع في فكرة الجيش لتحققت مخاوف الطليان منه ،
وحينذاك لا يتأخرون في القبض عليه ونفيه إلى حيث لا يعود . وقد أدرك رمضان هذا فرأى
من الحكمة أن يختار مصاحبة الجيش . ومن هنا ابتداء تفكيره في الانقضاء على الجيش
الإيطالي إذا لم يوافق المجاهدون على الصلح .

إعداد الجيشين

كان الناس عزلاً من السلاح ، وكان الطليان في حاجة إلى جيش عظيم للوصول إلى
فزان والجفرة على أن يكون قادراً على إبادة من يعترضه في طريقه من جماعات الثوار التي
ما تزال تملأ الصحراء ، ولكنهم كانوا عاجزين عن تأليف هذا الجيش من أبناء جلدتهم ،
لأنهم في حاجة إليهم لتقوية جيوشهم في أوروبا للقيام بنصيبهم في الحرب العظمى ، لأنها

(١) ذكر هذا المعنى في ص ٢٨ من كتاب جراز ياني (نحو الفزان) ولم يذكر العلة في عدم القبض
على رمضان . ويظهر أنهم كانوا ينوون استعمال رمضان في محاربة المجاهدين ثم يقبضون عليه فيكونون قد
ضربوا عصفورين بحجر ، وسواء وفقوا أو لم يوفقوا فإن ذلك سيكون سبة في سمعة رمضان بين مواطنيه
ولكن الله أراد غير ذلك وكتب له النصر والفخر .

ما تزال قائمة إذ ذاك . ومن ناحية أخرى ، فرما انكسر الجيش فتكون خسارتهم في مواطنهم فادحة . وسواء عليهم أنجحوا أم لم ينجحوا ، فإن الخسارة في كلتا الحالتين واقعة على الطرابلسيين . فعمدوا إلى تجنيد الطرابلسيين ، وأجبروا كل قبيلة على إحضار عدد من الرجال برياسة واحد من أعيانها ، وجعلوا معهم قسماً كبيراً من الأحباش والإيطاليين ، فكان الجيش مؤلفاً من هذه الأجناس الثلاثة . وكان الطرابلسيون مكرهين على هذا العمل ، ونفوسهم متدمرة ، مما سهل على رمضان وأصحابه الانتفاض على الطليان في القرضابية ، وأوقعوا بهم تلك الكارثة المشهورة . وقد جهز الطليان هذا الجيش بالسلاح والمؤن وما يلزم لنقل أثقاله من الإبل والسيارات .

تقسيم الجيش

قسم الجيش إلى قسمين : قسم ذهب إلى جهة الجنوب قاصداً فزان على طريق غريان ومزدة والقريات . وبينما هو سائر في طريقه التقى بجماعة من المجاهدين في وادي مرسيت ، والتحموا معه في معركة حامية انتهت بانكساره ، وغنموا جميع ما معه من معدات حربية ومتاع ، ونجا منه نفر قليل . وكان ذلك يوم الأربعاء ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣ الموافق ٧ من أبريل سنة ١٩١٥ . وإلى هنا انتهى خبره وغنا أثره .

وذهب القسم الثاني إلى الجفرة ، على طريق سرت ، وهو جيش القرضابية ، وسيأتي خبره قريباً .

واقعة القرضائية^(١)

مقدمتها

كانت واقعة القرضائية مبدأ لدور مهم وطني بحت ، و فاتحة عهد سلسلة من الهزائم المريعة التي لحقت بالجيش الإيطالي ، تتصل حلقاتها بما تقدمها من الهزائم في طول البلاد وعرضها ، لاقى فيها الجيش الإيطالي من النكبات المروعة شر ما لاقى جيش في العالم من الهزيمة والفناء .

وقد هيأت لها ظروف الوضع السياسي بأسباب كانت في أكثرها طبيعية ومعقولة . ذلك لأن وجود جماعة من المجاهدين في سرت يغيرون على المراكز الإيطالية في كل مكان وهم في ازدياد مطرد بمن ينضم إليهم من المتسربين بالحكم الإيطالي في كل يوم ، وهزيمة إمياني في فزان ، والفتك بالجيش الإيطالي في الشويرف ، والفايتة ، وبونجيم ، وإفلاق سكان المراكز الإيطالية القريبة من السواحل — كل هذا يحتم على الطليان أن يقضوا على أسباب هذه الحركة قبل أن تشتد ، وأن يحافظوا على مراكزهم القريبة من السواحل لئلا تستفحل الثورة فتلتهم ما بقي من البلاد .

على أن الطليان لم ينسوا ما لحق بهم من العار من تلك الهزائم المنكرة ، التي لاقوها في فزان ، فهم يودون أن ينتقموا لأنفسهم من الطرابلسيين ، إذا فلم يسكن للطليان بد من الاصطدام بالطرابلسيين في معركة فاصلة ، مثل واقعة القرضائية ، ليحققوا هذه الأغراض أو بعضها .

ولم يكن في حساب الطليان أن تسرع إليهم الهزيمة في فزان بعد احتلالها بتسعة أشهر فقط ، لأنهم أخطأوا التقدير فيما تقتضيه الصحراء من قوة هائلة لحفظ الأمن والحفاظ على

(١) القرضائية بترقع شرق قصر سرت على مسافة قريبة منه ، وقصر بوهادي أطلال قصر قديم يسمى بهذا الاسم ، ويقع في الجنوب الغربي من قصر سرت . وبما أن الجيوش المتحاربة كانت تشغل المسافة التي بين القرضائية وقصر بوهادي وقت المعركة نسبت المعركة إلى كل منهما ، وبما أن المعركة حى وطيسها في القرضائية ، واستحر فيها القتل أكثر من ناحية بوهادي اشتهرت بنسبتها إلى القرضائية أكثر .

طرق مواصلاتهم الطويلة الصعبة . فجاءت هزيمتهم في فزان نتيجة محتمة لجهلهم بسياسة الصحراء وسكانها ، ولأعمال الطفرة التي نشأت عن حبهم الاستعمار قبل أن يعدوا أنفسهم له .

جيش القرصانية

هذا هو القسم الثاني من الجيش الكبير الذي أعده الطليان لغزو الجنوب . واسترداد فزان عن طريق سرت والجفرة . وكان مؤلفاً من أربعة عشر ألفاً . ولسوء نية الطليان بالعرب جعلوا المدافع والرشاشات في حوزة الطليان دائماً وتحت رعايتهم . وكان مع هذا الجيش من الرؤساء : الساعدي بن سلطان من ترهونة ، ورمضان السويحلي من مصراتة ، ومحمود عزيز من ظليطن ومحمد القاضي من مسلاتة ، ومحمد بن مسعود من قماطة ، وعمر العوراني من الساحل ، وعبد النبي بن خير من أرفلة . وكل واحد من هؤلاء رئيس على جماعة من قبيلته . واتفقوا على أن يجتمع الجيش كله على بنعيزار . وكان الرئيس الأعلى لهذا الجيش السكولونيل إيماني .

أثر الجيش على النفوس

وقد أحدث هذا الجيش رجة عظيمة في البلاد ، وأصبح الناس بين حزين لما سيحل بإخوانه المجاهدين من هذا الجيش العظيم وهم في تلك القلة ، وبين شامت وهم الذين تربوا على موائد الطليان ، وبين مؤمل خيراً وهم الذين يحسنون الظن بإخوانهم رؤساء الجيش ، ولهم فيهم أمل أن يتداركوا الأمور بما يدفع الشر عن الوطن ويحفظ له كرامته .

اجتماع الجيش على بنعيزار

اجتمع الجيش على بنعيزار في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣ ابريل سنة ١٩١٥ ، ثم سار إلى وجهه يملاً الفضاء ، فلا يتوارى عن البصر فوج منه حتى يقع على فوج آخر ، وكانت تلك الصحراء — وهو يسير فيها — بجزراً تتلاطم أمواجه بالبشر .

وقد تشاءم كثير من تربوا على موائد الطليان بوجود رمضان السويحلي مع الجيش على

رأس جماعة كبيرة من مصراته ، لما يعرفونه من كراهته للطلليان وحببه الثورة ، كما تفاهل أنصار الثورة بوجرده ، واعتقد كل من الفريقين وقوع الحرب لا محالة : هذا من طريق تفاؤله ، وذلك من طريق تشاؤمه ، وكأن الله أهمهم ما سيكون .

وقد تواترت الأخبار عن لهم صلة بـرمضان بأنه كان يعتزم الانقلاب على الجيش ، الإيطالي إن لم يوافق المجاهدون على الصلح . وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له — والجيش على أهبة الخروج من مصراته — كيف تحارب إخوانك المسلمين؟ فقال له رمضان : أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح ، فإن امتنعوا فسأقلب معهم على الطليان . واعتزم رمضان الانقلاب على الطليان لا يشك فيه إلا مكابر .

ولا نستبعد أن يكون باقي الرؤساء فكروا في هذا الانقلاب ، ولعل مارأوه من كثرة جيش العدو منعهم من تنفيذ الفكرة .

وتخلف عبد النبي وجماعة أرفلة من بنعيزار بحجة أنهم يخافون على أرفلة من أحمد . سيف النصر .

وقد اتخذ رمضان لسيده ميمنة الجيش ، وكان الكاونيل اميانى يسير في القلب ، وبقية الجيش تسير في الديرسة والمؤخرة .

وكان حمد سيف النصر ، ينزل بالسداة^(١) على ثمد أبى خطوة ، وفي أثناء سير الجيش كتب إليه رمضان بأن يتجنب طريق الجيش ويقترح عليه أن يلتحق بالمجاهدين في سرت ، حتى إذا حصلت مذاكرة في الصلح كان معهم فأبى ، وبقي يطارح الجيش في طريقه من الناحية الغربية ، ويباغته كلما عنت له الفرصة .

وبينما كان الجيش في طريقه إلى سرت ، كانت الرسل تروح وتغدو بين رمضان والمجاهدين للاتفاق على خطة بينهم . وآخر رسالة أرسل بها رمضان إلى المجاهدين في سرت رسالة حملها عمر أبو دبوس في عشرين فارساً ، وكانت تحتوي على رجاء المجاهدين في عقد صلح ولو مؤقتاً ، حتى يتمكن الناس من إخراج أهلهم من تحت الطليان ، ويدبروا

(١) قطعة من جبل حجرى تقع على مدخل وادى نغد من ناحية الشمال والشرق .

من شئونهم ما يمكنهم من اللحاق بهم ، فإن لم يمكن هذا فلا أقل من الابتعاد قليلاً من طريق الجيش حتى يصل بو هادي ، لأن خطتهم تقضى بالوصول إليه ، وقد يكون في هذا اقتناع لهم بأنهم نفذوا خطتهم ، وقد يتوغلون في الجنوب ، وفي هذه الحال يمكن الإطباق على الجيش من كل ناحية ، وأخذ في الصحراء كما أخذ غيره من قبل . وهذا الشق الثاني من معنى الرسالة ، لا يترك شكاً في أن رمضان كان ينوى العمل مع المجاهدين ولمصلحتهم كيما كانت النتيجة . وأكد عمر أبو دبوس لأحمد التواتي أن رمضان مصمم على الانتقاض على الطليان لا محالة ، ولكنه يريد أن تكون الفرصة مواتية للعمل المشترك ، فلما علم التواتي بهذا التصميم من رمضان صمم على عدم الانتقال . وقد رأى رمضان من قوة جيش الطليان وكثرة عديده ما جعله قريباً من الاقتناع بأن المجاهدين لا قبل لهم به ، فكان يقترح هذه الحلول ليتمكنوا جميعاً من تدبير الخطة اللازمة للقضاء على هذا الجيش في كثرة من العدد وسعة من الوقت . ولكن المجاهدين رفضوا كلا الاقتراحين ، وكانت هذه المسكبات تجري سراً بين رمضان والمجاهدين في سرت لا يعلمها أحد إلا السكلونيل امياني .

وصول الجيش إلى سرت

لما رفض المجاهدون الصلح والانتقال من مكانهم وصمموا على الحرب مهما كان الأمر ، بقي الوفد معهم ، ورجع الخبر إلى رمضان بما صمموا عليه ، وبعد أن وصل الجيش إلى سرت سأل السكلونيل امياني رمضان عما تم في شأن الصلح ، فأخبره بأنهم رفضوا الصلح وصمموا على الحرب .

وكان امياني يميل إلى الحرب لما يراه من كثرة جيشه وآلاته الحربية ، وقلّة المجاهدين ، وجهل أن النصر بيد الله يؤتاه من يشاء ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فأمر بترتيب الجيش وتجهيزه للقتال ، فكان هو والطليان الحر في مؤخرة القلب والأحباش في المقدمة ، ومصراته ومن معهم في الميمنة وترهونة وبقية الجيش في الميسرة والمؤخرة . وركب امياني سيارته ومعه رمضان والساعدي بن سلطان .

الهجوم

وفي صبيحة يوم الخميس ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣ الموافق ٢٩ إبريل سنة ١٩١٥ صدر الأمر بالهجوم بعد أن رتب الجيش على النحو الذي ذكرنا ، وتوجه من سرت إلى حيث تلك الفئة القليلة من المجاهدين ، وقد انساب في تلك البسائط يغطى وجه الأرض سواده ، وثار نفعه إلى عنان السماء . وما هي إلا لحظات حتى التقت طلائمه بالمجاهدين ، فابتدروهم بالرصاص ، وتدفعت سيوله عليهم من كل جهة ، وفجرت المدافع أفواها ترميهم بحمما ، واختلط صوت البنادق بصوت المدافع ، وخلا الميدان من كل شيء إلا صوت الحديد والنار ، وحى وطيس المعركة فاستشهد من المجاهدين لأول وهلة نحو ٤٠٠ شهيد ، واشتد الكرب على المسلمين ، ففرح امياني بذلك وبرق السرور في عينيه . كل هذا وجماعة رمضان السويحلي لم يشتركوا في المعركة فلما رأهم امياني على هذه الحال استنهم من رمضان على هذا الموقف فقال له : هم ينتظرون قدومي إليهم ، فأذن له فذهب إليهم ، وكان حمد سيف النصر قد أغار بخيله على ميمنة المقدمة فتوقفت قليلا . وصادف مجيء رمضان وقت إغارة حمد سيف النصر فأمر من معه بإطلاق النار على الطليان فأطلقوها عليهم من الخلف فكانت بداية النهاية ، فخاص الجيش في بعضه حيصة الحجر ، ورجعت أولاه على أخراه ، واختلطت خيله برجله ، وارتكس بعضه في بعض طلباً للفرار ولافرار ، وركب العرب أفتيتهم واشتدت الضربة على العدو ، وأنزل الله ساعة النصر ، فتمزق ذلك الجيش ولم ينبج منه إلا ٥٠٠ جندي^(١) ، ونجا الكولونيل امياني إلى سرت مجروحاً مع من بقى من الجيش ، وبقي في مكان المعركة كل ما كان مع الجيش من معدات الحرب وعتاها : من إبل وخيل وبنادق ومدافع ورشاشات .

وكان أفضع ما يقع عليه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البشرية . وبمجرد وصول امياني إلى سرت جرد جميع العرب من الأسلحة وعقد مجلساً عسكرياً وحكم بالإعدام على كثير من السكان ومن أبناء العرب الذين التجأوا إلى سرت وفي مقدمتهم من الأعيان

(١) ذكر هذا العدد الأمير شكيب في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٥٠ .

والرؤساء الحاج محمد القاضي من مسالطة ، والحاج محمد بن مسعود من قماطة . وحسونة بن سلطان ، وأبو بكر النعاس ، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة ، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة ، وأصدر أمراً بالقتل العام ، فصار الجند يقتلون الناس في الشوارع وعلى أبواب البيوت ، ويربطون العشرة والعشرين في حبل واحد ثم يقتلونهم ، ورمى كثير من الناس بأنفسهم في البحر فراراً من التمثيل بهم ، فكان منظراً مريعاً ، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسير أكثرهم من السكان والحمالين الذين استأجروا جملهم .

خيبة أمل

كان الكلونيل امياني في الذروة إذا عد القواد الإيطاليون ، وفي مقدمة النابغين منهم في الفنون العسكرية .

ولمرة الثانية ينكسر الجيش الإيطالي بقيادته شرانكسار ، لو قيس بانكسار الجيوش التي هزمت في الحروب المشهورة في التاريخ لوجد في مقدمتها . وقد أراد أن يغسل مآلحه من العار في انكسار جيشه الأول في فزان ، ولكنه باء بفشل أمر وخذلان أظف . وقد جاء هذا الخذلان المزدوج محققاً لما قاله الأمير شكيب أرسلان عن شجاعة الطليان : « إذا ذكرت الشجاعة في الدنيا ، وأدات كل أمة بحجتها في هذا الباب جاء الطليان يكدحون في أخريات صفوف الأمم . وإن التاريخ لا يذكر لهم يوماً أغر في سود الوقائع بل يحدها مشحونة بهزائمهم » .

بعد انتهاء المعركة

وبعد انتهاء المعركة طير خبرها باللاسلكي إلى مصراتة وأرغلة وترهونة ، فسكنم الطليان الخبر . وفي اليوم الثاني للمعركة بدت عليهم علامات الشدة والانتقام ففهم الناس أن المعركة انتهت في غير مصلحتهم .

وكانت معاملة الطليان لأهل مصراتة قاسية جداً ، فقد جمعوا الأعيان والوجهاء والنساء والأطفال في مكان واحد ، وحشروهم حشراً فظيعاً مريعاً ، لم يحترموا الكبير

لسنه ، ولا الصغير لضعفه ، ولا المرأة لهيبتها وجلالها ، وطاؤهم الأرض ، وغطاؤهم السماء ، وأحاطوهم بالأسلاك الشائكة ، وفر كثير من الناس ناجياً بنفسه تاركاً كل ما يملك . وكل من علم الطليان بخروجه من مصراته حرقوا بيته وصادروا أملاكه .

وكان من بين المقبوض عليهم صديقنا الفاضل التهامي بك قليصة وحرمة وبعض أقاربه ، وأحمد بك السويحلي . وبقوا في مصراته مدة وهم على هذه الحال المزرية ، ولا يزداد الطليان عليهم إلا قسوة .

ولما اشتد حصار المجاهدين على مصراته ، وخاف الطليان أن يقتحموها عليهم أخذوا بعض هؤلاء المساجين إلى إيطاليا أسرى ومنهم صديقنا التهامي بك قليصة ، ونقلوا بعضهم إلى مدينة طرابلس مسجونين ، ومنهم أحمد بك السويحلي ، وبقى مسجوناً فيها أربع سنوات ونصفاً ، كما بقى أكثرهم في السجن والأسر نحو أربع سنوات حتى استبدلوا بأسرى إيطاليين في منتصف سنة ١٩١٩ .

رجوع رمضان إلى مصراته

لم يخف على رمضان أن الطليان سيعيشون في الناس قتلاً عقب وصول خبر انسكاس الجيش مباشرة ، فأراد الرجوع إلى مصراته ليعمل على إنقاذ أهلها من كيد الإيطاليين . وبعد ستة أيام من انتهاء المعركة سافر إلى مصراته ومعه جماعة من قومه مسلحين بما أخذوه من الغنائم ومعهم مدفع . وبمجرد وصولهم إليها شرعوا في حصارها .

ولترك رمضان السويحلي يحاصر مصراته ونذهب إلى أرفلة لننظر ماذا جرى فيها .

في أرفلة

وصل خبر المعركة إلى بني وليد في أول يوم بواسطة التلغراف ، وكان وقعه أليماً على نفوس الطليان ولكنهم كتموه . وأراد الحاكم الإيطالي أن يحتبر عبد النبي بحيلة يستطلع بها ميوله نحو الطليان فدعاه إليه واجتمع به يوم الأحد — وهو اليوم الرابع للمعركة وسأله عما يختاره أعيان أرفلة فيما لو فكرت الحكومة في الانسحاب من بني وليد ، أينسحبون

مع الحكومة ؟ أم يبقون في بني وليد وينضمون إلى المجاهدين ؟ وعرض مثل هذا الأمر في مثل تلك الظروف لا يخفى على عبد النبي ، فأدرك في الحال أن نتيجة معركة سرت في غير مصلحة الطليان ، فقال إن الأعيان لا يمكنهم البقاء هنا بعد الحكومة لأن علم الناس بميولهم للحكومة يجعل بقاءهم بعدها خطراً عليهم ، ولا يمكن لعبد النبي أن يجيب بغير ذلك لأنه في قبضة الطليان ، والجند محيطون به من كل ناحية . ثم قال عبد النبي : فإذا فكرت الحكومة فيما تقول فعليها أن تأتي بسيارات لنقل عائلات الأعيان إلى طرابلس . فقال الحاكم الإيطالي : إذا سنفكر في الموضوع وغداً نعرفك ، وانصرف عبد النبي راجعاً إلى بيته . وقد ظهر للطليان أن يقبضوا عليه فأرسلوا في إثره فلم يجدوه في بيته فأخذوا ما فيه وأحرقوه . وخرج من بني وليد كل من أمكنه الخروج . وفي اليوم الخامس لمعركة القرضابية خرج الطليان في قوة كبيرة لطاردة المجاهدين فاعترضوهم ، فرجموا منهزمين إلى قصر الحكومة وتحصنوا فيه ، وأحاطوه بالأسوار والخنادق ووضعوا عليها المدافع .

وفي أثناء هذا الحصار حضر الشيخ سوف ومعه جماعة من المجاهدين ، واشترك في الحصار نحو أسبوع ثم ذهب إلى غريان لمحاصرتها . وبعد نحو شهر من ابتداء الحصار جاء أحمد سيف النصر نائباً عن صفى الدين ومعه جماعة من الذين حضروا القرضابية ونزلوا في مدينة ابن تليس في الجهة الشرقية من المكان المحاصر واشتركوا في حصار الطليان .

طلب الهدنة من العرب

طال حصار الطليان في أرفلة نحو خمسين يوماً ، وضيق عليهم المجاهدون الخناق ، ولم ينقطع طول هذه المدة إطلاق الرصاص والمدافع من الطرفين . وفي أثناء مدة الحصار أرسلت حكومة طرابلس إلى هؤلاء المحصورين بأن الحكومة لا يمكنها إمدادهم بشيء فعليهم أن يدبروا أمرهم . وقد قارب الفساد ما عندهم من الأرزاق والعتاد الحربي فلم يسعهم — إزاء هذه الظروف السيئة — إلا أن يطلبوا هدنة من العرب ، فأرسلوا سالم قرحي — وكان ممن انحاز معهم في الحصار — إلى عبد النبي وأحمد سيف النصر للتفاهم معهم في كف إطلاق النار لعمل هدنة ، فوافق كل منهما ، وعين الزمان والمكان . وانتخب العرب لمفاوضة الطليان

أربعة : السيد محمد العيسوي بوخنجر^(١) ، وعثمان بن خليفة السكبي ، ومفتاح التايب الحصني وسالم الأصيبي . وجاء من الطليان ثمانية ضباط ، واجتمع الكل بقرب قصر الحكومة من ناحية قرية الصرارة ، فعرض العرب على الطليان أن يسلموا أنفسهم وما معهم من السلاح والحيوانات والأرزاق ، ولهم عهد الأمان على أنفسهم وعدم التعرض لحياتهم ، وضمان راحتهم حتى يفصل في الحرب . وعرض الطليان أن يتركوا وشأنهم بما معهم من الأرزاق والحيوانات والسلاح ليلتحقوا بمدينة طرابلس ، وهددوا بأنهم إذا تعرض لهم أحد جعلوا من معهم من العرب في المقدمة ليكونوا عرضة للرصاص ، فلم يقبل العرب ذلك وأصرروا على رأيهم ، فوعد الطليان بإعطاء النتيجة في اليوم الثاني . واجتمع المتفاوضون في اليوم الثاني ، ورضى الطليان بالتسليم على ما اشترط العرب . واجتمعوا في اليوم الثالث على أن يتم التسليم . وكان مع الطليان جماعة من العرب أبوا أن يسلموا أنفسهم وخرجوا بسلاحهم ولكنهم أذعنوا آخر الأمر ، ومن الأسف أنه حصل خلاف بين المجاهدين على الجهة التي يتسلمهم ، فحمد سيف النصر يريد أن يتسلمهم لأنه نائب عن صفى الدين الذى يدعى لنفسه صفة الحاكمية . وعبد النبي يريد أن يتسلمهم لأنه رئيس أرفلة والحادث في بلده فلا يصح أن يتولاه غيره ، وأيضاً فهو لا يعترف بحكومة صفى الدين . وكان مع بعض هؤلاء الأسرى نساؤهم ، فاستاءوا من هذا الموقف الذى هم فيه كالتخفاف المعروضة للبيع وأطلقوا النار على المتخاصمين عليهم ، واشتبك الفريقان في معركة أسفرت عن نحو ألف قتيل وأسر الباقون . أما الطليان الأصليون فلم يشتركوا في هذه المعركة . وخير من بقي من الأسرى بين البقاء مع المجاهدين أو رجوعهم إلى بلادهم فاخترأ أكثرهم الرجوع إلى بلادهم وكانت هذه المعركة في يونيه سنة ١٩١٥ .

(١) السيد محمد العيسوي بوخنجر من أعيان أرفلة ووجهائها ، عربى فى الصميم ، وشريف ينتمى لآل محمد . نابتة النسبين فى طرابلس والعالمين بأيام العرب فيها . يقص عليك من أنباء ما تسأله عنه فكأنك تشاهد ما يقصه عليك ويروى لك من أخبار طرابلس وقبائلها مالا تجد فى غير ذاكرته . تتقف فى المدارس التركية فى طرابلس ، وتولى من وظائف الحكومة ما هيأته له ثقافته . قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، أديب بطبعه وروحه . سائر الجهاد الطرابلسى منذ نشأته الأولى . وكان عضواً فى مؤتمر غريان وهاجر الى مصر مع المهاجرين وسعى فيها للقضية مع الساهين . ورجع الى طرابلس حوالى سنة ١٩٤٥ وعمره يناهز السبعين سنة .

استسلام حامية أرفلة

ودامت المفاوضات بين العرب والطلّيان فيما بين ١٥ و ٢٠ من يونيه سنة ١٩١٥ ، وانتهت بتسليم الطّليان أنفسهم للعرب على ما اشترطوه لهم ، وانتهت المقاومة في أرفلة بعد حصار دام نحو خمسين يوماً . وكان الجيش الإيطالي فيها يقارب ألفين وخمسمائة ، منهم ٧٣٠ إيطالياً بين ضابط وجندي ، ونحو مائتي حبشي .

وسلم الطّليان جميع ما معهم من السلاح بعد أن أفسدوا الكثير منه . وساءوا أربعة مدافع وأربعة رشاشات ، وخمسين بغلا ، وثمان سيارات كبيرة ، وخمسين ألف فرنك من النقود ، وتركوا لهم ما عندهم من الأرزاق والمساكولات . وبقوا في أمان . وكان من بين الأسرى مع الطّليان زكي امقيق^(١) .

صفي الدين في أرفلة

جاء صفي الدين إلى أرفلة بعد أن سلم الطّليان أنفسهم في يولية سنة ١٩١٥ ، وكان يرى لنفسه صفة الحاكمية ، لذلك يحاول أتباعه دائماً أن يستولوا على جميع الغنائم التي يتركها الطّليان في البلدان التي يحلبهم أهلها عنها ، ولو لم يحضروها .

وفي أثناء محاصرة الطّليان في أرفلة استولوا على كثير من أموال التجار وبضائعهم ، فأخذها أنصار صفي الدين باعتبار أنها غنائم ، فاستاء المجاهدون لذلك . واتهم عبد النبي بتدبير الحركة ، فحاول حمد سيف النصر أن يقبض عليه فلم يقدر ، فأمر بضرب بيته بالمسدع فحضر .

وفي هذه الأثناء جاءت الأخبار بأن رمضان السويحلي أجلى الطّليان عن مصراتة ،

(١) زكي امقيق من قول أوغلية الزاوية ، وتخرج في المدارس التركية برتبة ضابط . وكان من المجاهدين المخلصين في بداية أمره ، ثم انضم إلى الطّليان سنة ١٩١٣ في المدة التي وصلوا فيها إلى فزان ، ثم انضم إلى الفاتحين بالحركة الوطنية في سنتي ١٩١٨ ، ١٩١٩ . واعتبر الطّليان هذا الانضمام مخالفاً لرغبتهم حفظها له ، ولما تغلبوا في سنة ١٩٢٢ حاول أن يحسن علاقته بهم بالانضمام إليهم فلم يفلح ، وشنقوه سنة ١٩٢٢ .

وأخذ كل ما كان عند الطليان من سلاح ومتاع . فذهب صفى الدين إليها ليستولى على هذه الغنائم .

وقد ذهب عبد النبي إلى مصراتة ليشكو إلى صفى الدين اضطهاد حمد سيف النصر له ، فوجد الدور الذى مثل فى أرفلة يمثل فى مصراتة ، فرجع إلى أرفلة وسنفصل ذلك قريباً .
وبقى أسرى الطليان فى أرفلة مدة طويلة لاقوا فيها صعوبات كثيرة من الجوع والعري إلى أن نقلوهم إلى مصراتة فى أواخر سنة ١٩١٧ ، واستخدموهم هم وأسرى مصراتة فى مختلف الصنائع ، وبقوا فيها منعمين إلى أن سلموهم إلى الطليان جميعاً بعد صلح بنيادم .
سقوط مزدة

كانت الحامية الإيطالية الموجودة فى مزدة تستند إلى القوة الموجودة فى أرفلة من جهة الشرق ، فلما سقطت أرفلة أصبحت عرضة للخطر من جهة الشرق والجنوب ، فاضطرت إلى الانسحاب منها فى يونية سنة ١٩١٥ .

فى ترهونة

تسربت أخبار الهزيمة الفادحة التى حلت بالجيش الإيطالى فى القرضابية إلى البويرات^(١) مركز ترهونة كما تسربت إلى مصراتة وأرفلة . وقد أرسل حاكم ترهونة القبطان «موريقى» إلى الشيخ عبد الصمد النعاس والصغير المريض - من أعيان ترهونة - فلما جاء إليه أخبرهما أن الجيش الذى ذهب إلى سرت انكسر فى القرضابية ، بسبب خيانة العرب للحكومة ، وقد غدروا بالجيش وضربوه من الخلف فانهمز شمر هزيمة ، واحتفظ بهما رهينة عنده خوف انتفاض ترهونة على من فيها من الطليان ، واحتال جماعة الصغير المريض لإخراجه وجاءوا بدله بانه عبد السلام ، وبقي هو والشيخ عبد الصمد النعاس تحت يد الطليان .
وأدرك الطليان مافى نفوس العرب من القدر ، فجاءوا بأربعة آلاف جندى إلى ترهونة ليقبضوا مركزهم فيها ، وكان فيها قبل ذلك ٥٠٠ جندى فأصبح فيها ٤٥٠٠ جندى ، ثم

(١) جمع بئر مصفرة ، مكان فى ترهونة عرف بهذا الاسم .

وصلت أخبار أخرى بأن الطليان انتقموا من العرب الذين معهم من المكارين أصحاب الإبل وغيرهم بعد انتهاء المعركة وقتلهم في سرت شر قتلة ، وقتلوا من أعيان ترهونة حسونة ابن سلطان ، وأبا بكر الفعاس ، وأحمد بن عبد الرحمن ، فاشتد حنق الناس على الطليان وبيتوا لهم الشر ، وصاروا يتربصون بهم . وأحس الناس بقرب الثورة فأخذوا يبتعدون عن مراكز الحكومة .

بدء الثورة

وفي ذات يوم كان جماعة من ترهونة يسوقون أغنامهم إلى حيث تكون في مأمن فيما لو حصلت حرب مع الطليان ، فرآهم السكر بنير^(١) فأرادوا إرجاعهم فأبوا ، فأطلقوا عليهم الرصاص فقابلوهم بالمثل وقتل خمسة من السكر بنير ، وتسامع الناس وقامت ترهونة قومة رجل واحد ، وحاصروا البويرات — وهي مركز الحكومة إذذاك — وكان يوجد فيها ٤٥٠٠ جندي إيطالي .

وفي الوقت الذي ابتدأت فيه الثورة في ترهونة كانت أورفلة في حالة ثورة ومحاصرة لما فيها من الطليان . وكان رمضان السويحلي يحاصر مصراتة . إذاً فالقسم الشرقي كله من البلاد في حالة ثورة على الطليان .

وكان الطليان يستندون في دفاعهم عن ترهونة على العزيزية لأنها حصن منيع وقريبة من المدينة . وقد فكر الطليان في إنقاذ المحصورين في ترهونة ، فاتفقوا معهم — على طريق الإشارة الضوئية — على أنه ستخرج لنجدتهم قوة من العزيزية على طريق بوعرقوب ، وقوة من مسلاته على طريق الداوون ، وعلى أن يكون خروج القوتين في يوم الخميس ١٧ من يونيو سنة ٩١٥ .

(١) البوليس الإيطالي .

واقعة بوعرقوب وواقعة المسيد

يوم الخميس ٤ من شعبان ١٣٣٣ - ١٧ من يونيو سنة ١٩١٥

أراد الله أن يصدق على الطليان قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » فأخطأوا فهم اليوم المتفق عليه : ففهم المحاصرون أنه يوم الجمعة فلم يخرجوا يوم الخميس ، وفهمت القوة التي في بوعرقوب ومسلاتة أنه يوم الخميس فخرجت بخيائها ورجلها تجر من آلات الحديد والنار ما أمكنها أن تحمله . وقد تصدى للقوة التي خرجت من مسلاتة جماعة ترهونة الشرقيين فردوها على أعقابها . ويقال لهذه الواقعة « واقعة المسيد » لأنها وقعت في مكان يقال له وادي المسيد .

والتقت القوة التي خرجت من العزيزية بمجاهدى النواحي الأربعة وترهونة الغربيين من الدراهيبي وغيرهم برياسة المبروك المنتصر ، وحصلت بينهم معركة من كبريات المعارك التي حصلت في طرابلس ففنى فيها الجيش الإيطالى عن آخره ، وحاول جماعة من الضباط الهرب في سيارة فلاحق بهم سبعة فرسان من الدراهيبي فقتلوهم ، وقتل اثنان من الفرسان السبعة .

واقعة بوعرقوب هذه من الوقائع المشهورة في الحرب الطرابلسية ، التي تعد مشيائتها على الأصابع ، وكان الفضل فيها للنواحي الأربعة وترهونة ، وغنم فيها المجاهدون من السلاح والعتاد الحربى شيئاً لا يحصى . ودامت المعركة من الصباح إلى العصر ، وبعد انتهائها انصرف المجاهدون لشأنهم ودفن شهدائهم وتضميد جراح الجرحى منهم .

واقعة ترهونة

يوم الجمعة ٥ من شعبان سنة ١٣٣٣ - ١٨ من يونيو سنة ١٩١٥

وجاء دور الطليان المحاصرين في البويرات ، فخرجوا مبكرين في صبيحة يوم الجمعة على اعتبار أنه اليوم المتفق عليه ، بعد حصار طويل دام نحو أربعين يوماً ، نفذ فيه زادهم ، وأكلوا أكثر ما معهم من البغال والخيول ، وأخرجوا معهم الشيخ عبد الصمد النعاس

وعبد السلام المريّض . وهم كالجراد المنتشر في طريقهم إلى العزيزية فأحاط بهم المجاهدون في وادي الشقيقة^(١) ، واشتبكوا معهم في معركة حامية .

واعترضهم الشيخ المبروك المنتصر ومن معه من المجاهدين من الأمام في دفع وادي ملّغة ، وأصبحوا محصورين من كل جهة ، ولم يأت الظهر حتى قضى على جميع الشاة بين قتيل وأسير . وبقي الفرسان ومعهم السكّبتن موريتي وعبد السلام المريّض والشيخ عبد الصمد النعاس ، فخرج حصان عبد السلام المريّض فوقع به ، وألهمهم عنه الحرب فنجوا من شرهم ، وهرب الشيخ عبد الصمد على جواده فأنجاه الله ، وقضى على بقية الجيش من الفرسان ، ولم ينبج منه إلا السكّبتن موريتي في قليل من الخيل نحو العشرة ، فوصلوا العزيزية بعد أن جثم الموت على صدورهم مراراً .

وقد قضى فئة من الطرابلسيين على جيشين عظيمين في يومين متتابعين ، فكان نصراً باهراً للطرابلسيين ، وهزيمة منكرة للطلّيان .

وقد أخذ المجاهدون يوم الجمعة كل ما في البويرات من معدات الحرب وآلاتها ، كما أخذوا يوم الخميس كل مخلفات الجيش الذي انكسر في بو عرقوب والسيد ، وكثير السلاح ونشط الناس لملاقاة الطّليان . وكان اختلاف الجيشين في تعيين اليوم المحدد للخروج سبباً لانكسارهما ، ومصدّقاً لقوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » .

كانت واقعتا بو عرقوب والبويرات من الوقائع المشهورة في الحرب الطرابلسية التي برّز فيها الطرابلسيون في ميدان الجهاد والفتك بالعدو . وكانت نتيجة لانكسار جيش الطّليان في القرضابية . وكان بينهما وبين القرضابية ٤٨ يوماً ، ومما دهش له الطّليان أن تنتقل الثورة في هذه المدة القصيرة من سرت إلى بو عرقوب على أبواب مدينة طرابلس . وأيقنوا أن إخمادها غير ممكن فأصدروا أوامره بسحب جيوشهم من المراكز التي مازالوا فيها .

(١) من أراضي ترهونة شرق وادي ملّغة .

براقة ابن غشير^(١)

لم يطل المقام بالمجاهدين بعد واقعتى بوعرقوب والبويرات حتى استعدوا للهجوم على حصن آخر من أهم الحصون التي يعتمد عليها الطليان وهو « براكة ابن غشير » وكانت هذه البراقة مقامة على قطعة من الأرض متسعة جدا ، وكانت تنافح العزيرية من الناحية الشمالية اتخذها الطليان مركزاً للجيش وحصناً يحمون به العزيرية ، فعسكروا حوالها يوم ٤ من رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ١٦ من يولييه سنة ١٩١٥ وكانوا غنموا مدفعا في معركة بوعرقوب فنصبوه على « هنشير بنت خلف » لضرب البراقة . وفي يوم ٢٠ منه الموافق أول أغسطس سنة ١٩١٥ أحاطوا بها وأطلقوا عليها مدفعهم فأصابها إصابات محكمة ، وضيقوا على من فيها ودافعوا دفاع اليائس وكانوا نحو ١٥٠٠ ، وجاءتهم نجدة من سوانى بنيادم فردها المجاهدون واستولوا على البراقة يوم ٢٦ من رمضان سنة ١٣٣٣ ، الموافق ٧ من أغسطس ١٩١٥ بعد أن هرب من بقى فيها حيا تحت جنح الظلام إلى جنزور ، وأخذ المجاهدون ما فيها من سلاح وأرزاق وملابس .

(١) البراقة كلمة لإطالية معناها بيت من الخشب ، وكانت هذه البراقة كبيرة جداً اتخذها الطليان مسكنة للجيش ، وأحاطوها بسور من التراب ومن ورائه الأسلاك الشائكة . ويحيط بها من الشرق والغرب والجنوب سهل من الأرض نحو كيلومتر من كل ناحية ، فسكن من رأى في هذه المسافة ربي بالرصاص .

سوف يعود إلى الجهاد

سوف يعود إلى الجهاد

فمنها ما يوجب الموت والدمار في الدنيا والآخرة



محمد بك سوف المحمودي

عليه السلام

محمد سوف بك المحمودى

هو ابن الحاج محمد اللافى المحمودى ، وحفيد الشيخ غومة بن خليفة من قبيلة الحاميد المشهورة فى طرابلس الغرب .

ولد رحمه الله فى وادى سوف بأرض الجزائر سنة ١٢٧٤ هـ أثناء هجرة جده الشيخ غومة حينما كان ثائراً على الحكومة التركية لجور الحكام وفساد النظام .
تربى فى بيت العز والفروسية والكرم ، فكان عزيز الجانب ، فارساً مغواراً ، كريماً إلى أبعد حدود الكرم .

عرفته البداء ، والليل والليل ، وألفته معامع الحروب وميادين القتال ، فكانت له فيها جولات حفظها له التاريخ فى صحائف من عرفوا فى العرب بالبطولة .

حارب الطليان من أكتوبر سنة ١٩١١ إلى مارس سنة ١٩١٣ ، ثم هاجر إلى الشام سنة ٩١٣ . وفى مارس سنة ١٩١٤ رجع إلى طرابلس لمحاربة الطليان مرة ثانية . وكان له فى هذا الدور من الأثر ما يحده القارىء مذكوراً فى مواضعه من هذا الكتاب .

وكان عصمة الأراذل ومأوى اليتامى والمعوزين ، سمح النفس ، كريم الأخلاق ، وسيم الطلعة ، متواضعاً حتى ينسبك أن هذا هو الرجل الذى تهاب الشجعان منازلته ، عليه من جلال الهيبة ومهابة الرجولة ما يحبه إليك وتأنس به نفسك .

وكان خصب الخيال ، قوى الذاكرة ، ومن نوابغ شعراء البادية وأفصحهم ، يعطى إعطاء من لا يخاف الفقر ، ولا يبقى فى بيته شيئاً وفى جواره معوز . يقدر العلم والعلماء ، ويعرف الفضل لأهل الفضل .

ولا أتحدث عما له فى رئاسة الجيوش والإدارة ، فقد ذكرناه فى مناسباته مفصلاً فى هذا الكتاب . ولما تغلب الطليان فى سنة ١٩٢٢ هاجر إلى مصر ، وبقى فيها مرموقاً بعين الإجلال من سادات العرب وكبرائهم .

وقد كان الأجل يدفع عنه الموت فى جميع ما حضر من زحوف الحرب ومعامها .

ولا يوجد في جسمه موضع شبر إلا وفيه أثر ضرب بسيف أو جرح برصاصة .
ولما بلغ الكتاب أجله حضرته الوفاة وهو على سريره يوم ١٥ يولييه سنة ١٩٣٠ بقرية
المتراس بجوار مدينة الاسكندرية ، ودفن بها . رحمه الله وشكر له .

وقفنا في أخبار سوف في الدور الأول من الحرب الطرابلسية عند انتهاء أخباره بهجرته
إلى حلب . ولكن لم يستقر به المقام في حلب حتى قامت الحرب العالمية في ٢ أغسطس
سنة ١٩١٤ وكانت حكومة الآستانة قد انضمت إلى ألمانيا ، فرأت في قيام الحرب فرصة
لتجديد الثورة على الطليان في طرابلس ، وتغذيتها بكل ما يمكن . وقد رأت أن تمدها
بأكبر بطل من أبطالها وهو الشيخ محمد سوف بك المحمودي ، فاستدعته من حلب إلى
الآستانة ، وعرضت عليه الذهاب إلى طرابلس للتحريض على الثورة قبل . وزودته بما
يحتاج اليه من الأوامر والتعليمات ، وأرفعت معه خليفة الدعيك — الذي عرف أخيراً بخليفة
الزاوي — ومحمد فريشك وهما من الضباط الوطنيين من الزاوية الذين تخرجوا في مدارس
الحكومة التركية . وتوجه من حلب إلى طرابلس على طريق الاسكندرية ، وكان الإنجليز
إذ ذاك حلفاء لإيطاليا فاهتموا لأمره ، وحاولوا القبض عليه هو ومن معه بكل وسيلة ،
ولكن الله سلمه ، وفشل كل ما اتخذوه من الوسائل للقبض عليه . وقد كلف « انجرام »
الإنجليزي على بن عبد العظيم الأرفلي وغيثا الصايغ من سكان عزبة باشا بالاسكندرية
بالقبض عليه ووعدهما بإعطاء ٥٠٠ جنيه ذهبا . ولكنهما لم يتعرضا له وأنكرا وجوده .

ومر سوف ببرقة وكان فيها السيد أحمد الشريف واجتمع به ولم ندر ما دار بينهما من
الحديث . وكان السيد أحمد إذ ذاك يحمل لقب « نائب السلطان » فأعطى محمد بك سوف
رتبة « وكيل وال » ووجد الشيخ سوف كثيراً من أهل طرابلس مهاجرين ببرقة فأخذهم معه
وسافروا جميعاً إلى جهة طرابلس .

ووصل سوف إلى سرت في جمادى الأولى سنة ١٣٣٣ الموافق مارس سنة ١٩١٥
قبيل واقعة القرضابية بقليل ، فوجد المجاهدين يشنون الغارات في طول البلاد وعرضها
وحالة الطليان تزداد سوءاً ، فلم يطل المقام في سرت ، وذهب مغرباً قاصداً ناحية غريان .

ووقعت معركة القرضابية قبل أن يصل إلى أرفلة .
ولما مر بأرفلة وجدها محاصرة فاشترك في حصارها ، وبقى مع المجاهدين حتى أخذت ،
ثم ذهب إلى غريان ، وقد سبقته أخبار القرضابية ، وأخذ مركز الطليان يتزعزع يوماً بعد
يوم ، فأحدث مجيئه نشاطاً في بعض الوطنيين ولحق به الشيخ محمد شطبية وكثير من الناس
وحاصروا غريان ، وذهب جماعة من المجاهدين وأخرجوا كثيراً من سكان وادي القواسم
ومن بينهم أسرة شطبية . وخرجت قوة من الطليان لمحاربة سوف ومن معه فالتقوا بهم في
كور ، ووقعت بينهم معركة شديدة انتصر فيها سوف ومن معه انتصاراً باهراً ، وأخذوا
من الطليان غنائم كثيرة . واستشهد فيها الشيخ محمد الواعر من أولاد بريك
ولما انهزم الطليان في بو عرقوب وترهونة تلك الهزيمة المنكرة ، وحاصر المجاهدون
البركة ترك سوف جماعة من الذين معه يحاصرون غريان والتحق بمجاهدي ترهونة والنواحي
واشترك معهم في حصار البركة وأخذوا منها غنائم كثيرة تقوى بها هو ومن معه .

يأس الطليان من إخماد الثورة

بعد واقعتي بو عرقوب وترهونة وسقوط أرفلة والبويرات يأس الطليان من قمع الثورة ،
وأصبحوا يفسكرون في سحب جنودهم من بقية المراكز .
وقد أصدروا أوامره في يوم ٥ من يولييه سنة ١٩١٥ بالانسحاب من جميع المراكز ،
ولكن الثورة سبقتهم وحوصرت جيوشهم في كل جهة ، فهوجوا في سيناون يوم ٥ من يوليو
سنة ١٩١٥ وبعد كل مشقة خرجت حاميتها ، ووصلت إلى نالوت . وتمكنت القوة
التي في يفرن من الوصول إلى الزاوية سالمة . وحاولت الحامية التي في جادو (فساطو)
من الهرب إلى الساحل ، ولكن المجاهدين أحاطوا بها في الطريق ولم ينج منها إلا قليل .
وخرج من في نالوت من الطليان مع من انضم إليهم ممن كانوا في سيناون قاصدين إلى زوارة
فأدركهم المجاهدون في الطريق فالتجأوا إلى الحدود التونسية الفرنسية . وكان بغريان
٤٤٠٠ من الجنود الإيطاليين تمكنوا من الالتحاق بطرابلس على طريق العزيزية بدون
ضرر كبير ووصلوها يوم ٩ يولييه سنة ١٩١٥ . وفي ١٥ من يولييه سقطت العزيزية وسرت .

وفي ١٧ منه سقطت الزاوية وزوارة . وفي ٥ من أغسطس سقطت مصراتة . وبعدها بقليل سقطت غدامس والتجأت حاميتها إلى الحدود التونسية الفرنسية . وهكذا تم جلاء الطليان عن القطر كله في مدة وجيزة تبتدىء من يوم ٢٩ إبريل - وهو يوم القرصائية - إلى منتصف أغسطس سنة ١٩١٥ ، ولم يبق لهم أثر إلا في مدينتي طرابلس والخمس ، وشملت الثورة البلاد كلها ، وتولى قيادتها رمضان السويحلي في مصراتة ، ورؤساء ترهونة في ترهونة والشيخ سوف في العزيزية وما حوالها إلى زوارة . وامتدت جبهة القتال من مصراتة إلى زوارة ، وكانت العزيزية مركز القيادة العامة برياسة الشيخ سوف .

غنائم العرب من الطليان

وقد استولى العرب على مقادير هائلة مما تركه الطليان من المؤن والأسلحة والعتاد الحربي وذكر جرازاني في كتابه « نحو القرآن » مقادير هذه الأسلحة فقال : « وقد استطاع العرب الاستيلاء على مقادير كبيرة من لأسلحة والذخيرة التي كانت موجودة في مخازننا في شتى المراكز حيث رجعت قواتنا منها بسرعة دون أن يمكثها نقل ما معها . وقد قدر ما استولى عليه العصاة^(١) بنحو أربعين ألف بندقية حربية ، ونحو مائة رشاشة ونحو ثلاثين مدفعا ، وزد عليها مقداراً كبيراً من الأسلحة التي دخلت وقت الحرب العظمى » . هذه ترجمة ما كتبه جرازاني بهذا الصدد ، ولعله غير مبالغ فيما يقول فإن الطرابلسيين كانوا كلهم مسلحين بالأسلحة الإيطالية ، واستمرت الحرب الطرابلسية نحو إحدى وعشرين سنة كان نحو ٩٥ في المائة من المجاهدين يحملون السلاح الإيطالي .

سوف في العزيزية

اتخذ الشيخ سوف العزيزية مركزاً له بصفته وكيل وأل المنطقة الغربية ، وعين هيئة إدارية برياسته ، وكان من أعضائها : عبدة الحجوبى من صرمان . والشيخ المبروك المنتصر من ترهونة ، والصويحي الخيتوني من النواحي الأربعة . والفيكتورى الرمالى من ورشفانة ،

(١) يعنى العرب .

وعين حكام مناطق ، منهم : عوف بن الحاج - من الحاميد - قائمقاماً في الجوش ،
وأبو القاسم خيشة - من الحاميد - رئيساً على المجاهدين ، وأحمد الباشا - من الحاميد -
متصرفاً في يفرن . ومحمد بن أبي القاسم - من الحاميد - قائمقاماً على النوايل ، وعيسى
أبو سهمين من زاوره - قائمقاماً عليها ، وشطبية في غريان .

وكان لهذا التعيين أثر سيئ على نفوس بعض الناس ، فكان سلطان بن شعبان يرى
نفسه أحق بالرياسة في زاوره . لأنه أكبر شأنًا وأكثر شهرة من عيسى أبو سهمين . وكان
حرب النابلي - وهو من رؤساء قبيلة النوايل - يرى نفسه أولى برياسة قبيلته من محمد
ابن أبي القاسم الحمودى . وكذلك الأمر مع ساسى خزام في يفرن فإنه يرى نفسه أولى
بحكمها من أحمد الباشا لأنها من أشهر بلاد البربر وهو من أعيانهم .

وقد تدارك الشيخ سوف الأمر فيما يتعلق بيفرن ، فعزل أحمد الباشا وعين بدله ساسى
خزام متصرفاً . وبقيت الحال في غيرها كما وضعت أول مرة .

استقرار الأمور

ابتدأت الحال تستقر على هذا الوضع في الجهة الغربية : رؤساء ترهونة في بلادهم ،
وسوف في العزيزية ، وتمتد منطقة نفوذه من العزيزية إلى زاوره ، ومن يفرن إلى الزاوية .
وأخذ الناس يسيرون أمورهم في شئ من التؤدة والحذر ، حريصين على التوفيق ، شأن
حديث العهد بالإدارة وسياسة الأمور . وبذلت الهيئة الإدارية ما في وسعها لتسيير الأمور
في طريقهما . وبقيت نفوس الذين رأوا أنفسهم أولى بالأمر متأثرة بموت ما كانوا
يؤملون فخذوا على هذا النظام ، وأخذوا يعملون لتنفيذ ما في نفوسهم . وفي مدة هؤلاء
سلطان بن شعبان وحرب النابلي . وستظهر نتيجة مساعي هؤلاء بعد اجتماع الناس
بضيق الذين بمسلاتهم .

حصار مصراتة

وقفنا من أخبار رمضان السويحلى عند رجوعه من معركة القرضابية لحصار مصراتة .
وقد أنبنا على أخبار أرفلة وترهونة ، مفصلة كما وصلت إلينا من أوثق المصادر وأصح

الروايات . وكان حصار ترهونة ورغلة في وقت متقارب وزمن يكاد يكون متحداً . أما حصار مصراته فقد طال زمنه ، واقتضت معاناته جهوداً كبيرة .

* * *

وصل رمضان مصراته بعد حوالي عشرين يوماً من يوم القرضابية وفي هذه المدة كان رمضان يرسل رساله ليأتوا اليه بأخبار العدو ، وليدلوه على مسالك البلد ، ومن أين يمكن دخولها .

وكان لسقوط ترهونة وأرغلة في يد المجاهدين أثر سيء على نفوس الطليان ، كما كان مشجعاً لرمضان ومن معه على الإقدام للوصول إلى مثل هذه النتائج الحمودة .

وأول ما بدأ المجاهدون بحصار القوة الإيطالية التي كانت في تاورغاء ، فلما أحست بالخطر تهددها طلبت نجدة من مصراته لإنقاذها ، فأرسلت إليها ، وانفقوا على موعد الالتقاء على أن تقوم القوة المحاصرة بهجوم في وقت تكون القوة التي جاءت من مصراته لنجدتها قاربت تصل تاورغاء . وقد تمكن المجاهدون من رد القوة التي كانت خارجة من مصراته وبقي من في تاورغاء محصورين .

ولسوء حظ الإيطاليين كانت تاورغاء محاطة بسبخة من جميع الجهات إلا مسالك قليلة معلومة يسلكها الداخل إليها والخارج منها . وهذه السبخة أرض رخوة مشبعة بالمياه تترامى للناظر أنها أرض ولكنها لا تثبت عليها الأقدام ، وكل من حاول المشي عليها ابتلعه وهو إلى غير قرار .

وقعد المجاهدون على أبواب تلك المسالك ، فكلما حاول الطليان اقتحامها عليهم أصولهم ناراً حامية من بنادقهم فتقهقروا . وقد حاولوا الخروج من غير هذه المسالك فضلوا الطريق ، وحاولوا خوض السبخة فابتلعتهم عن آخرهم . وعهدك بالرجل منهم يسبح — للاستغاثة — بيده ثم يندقيته ، ثم تنطبق عليه الأرض فلا تجد له أثراً ، فكان حرب الطبيعة أشد عليهم من حرب البنادق والمدافع . وكفى الله المجاهدين شر هذه الفرقة واتجهوا إلى حصار مصراته . وابتدأ الحصار في ١٨ من مايو سنة ١٩١٥ .

وفي أوائل يونية سنة ١٩١٥ تمكن رمضان من حصارها من جميع الجهات ، وقطع الصلة بين الطليان وبين قصر حمد ، وهو الميناء الوحيد الذي تأتيهم منه الأرزاق والإمدادات الحربية .

مناوشات

وفي أثناء الحصار حصلت معارك بين العرب والطليان أشهرها معركة رأس الطوبة ، وكانت يوم الثلاثاء ١١ من رجب سنة ١٣٣٣ الموافق ٢٥ من مايو سنة ١٩١٥ وقد أصيب فيها المجاهدون بأضرار جسيمة ، واستشهد فيها نحو مائة شهيد كان من بينهم الشيخ عمر شقوف وهو والد صديقنا الحاج الفيتوري السويحلي . ولم يتمكن الطليان من فك الحصار عليهم . ومعركة بوفار ، وكانت يوم الجمعة ١٤ من رجب واستمرت إلى يوم السبت . وبوفار سبخة جنوبي مصراتة يقال لها سبخة بوفار ، وكان يوماً مشهوداً ، دارت الدائرة فيه على الطليان وأسر منهم الكبطان فيسكي وبعض الجنود . وقد بلغ رمضان السويحلي أن الطليان يسيئون معاملة سكان مصراتة ، فاستكتب هذا الكبطان جواباً ذكر فيه مآلقيه من حسن المعاملة من رمضان ، وأخبر الطليان بأنهم إن لم يكفوا عن الإساءة لسكان مصراتة فإن حياته ستكون في خطر . ومعركة جرف المقاصبة ، وكانت في أوائل رمضان سنة ١٣٣٣ يولييه سنة ١٩١٥ .

ودام حصار مصراتة نحو خمسة وسبعين يوماً ، فشلت فيها جميع المحاولات التي بذلها الطليان لفك الحصار عنهم .

الجلاء عن مصراتة

وفي ليلة الخميس الموافق ٢٤ من رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ٥ من أغسطس سنة ١٩١٥ جمع الطليان كل ما بقى لديهم من قوة ليشقوا لأنفسهم طريقاً إلى البحر ، فتلقاهم المجاهدون بكل حماس واشتبكوا معهم في معركة دامت ثلاث عشرة ساعة وبعده قتال عنيف شقوا لأنفسهم طريقاً إلى قصر حمد ، وكانت البواخر في انتظارهم فحملتهم إلى طرابلس وتركوا مصراتة بكل ما فيها من معدات الحرب والأرزاق ، وكان شيئاً لا يحصى كثرة . واستشهد في هذه المعركة مائة وعشرون شهيداً .

120

القرآن كعادته

6121 K.L.

تقریباً آن خط

راہی عزوز



رَمَضَانَ بِكَ السَّوْجِدُ

١١) وقد التفتي في سنة ١٣٣٩ هـ إلى بعض الأفاضل في مدينة طرابلس في أواخر سنة ١٣٣٩ هـ فذكر لي بعض ما كان عليه الحال في تلك المدينة من جهة الأمن والهدوء ، وحوار مع الشيخ السال من أربع وسبعين سنة عليه راحة الله . وقد وقع في حياته كثير من مواقف البطولة فكتب عليها كتابا سماه الله من قوة الأمانة والقدرة على مقاومة الحشود .

موجز عن حياة رمضان السويحلي

هو رمضان بن الشتيوي^(١) السويحلي . وقد غلب لقب السويحلي على رمضان وإخوته وبه اشتهروا . وهو من سكان زاوية المحجوب بمصراته ، ومن قبيلة يدّر من القول أوغلية .

مولده

ولد في زاوية المحجوب بمصراته في أوائل سنة ١٢٩٧ هـ . وتربى في بيئة بعيدة عن مظاهر الحكم ووظائف الحكومة^(٢) . واشتهر والده بعفة النفس وعزة الجانب ، فكان لهذا الخلق أعظم الأثر على نفس رمضان .

تعليمه

لما بلغ حوالى السادسة من عمره أرسله والده إلى زاوية سيدى ابراهيم المحجوب لحفظ القرآن كعادة الناس في زمنه في تعليم أولادهم بالبدن بحفظ القرآن ، لحفظه قبل البلوغ في السلكة الثانية على الفقيه سويسى بن ضيف الله من أولاد المحجوب . وبعد أن حفظ القرآن أخذ مبادئ في الفقه على مذهب الإمام مالك في زاوية المحجوب على الشيخ ابراهيم عزوز ، وفي زاوية الزروق على الشيخ رمضان أبى تركية .

(١) ولد الشتيوي بن أحمد والد رمضان السويحلي سنة ١٢٦٣ هـ وتوفي في مدينة طرابلس في أواخر سنة ١٣٣٧ هـ بمرض الحمى ، ودفن بمقبرة سيدى منيدر الصحابي المشهور بالقرب من ضريح الأستاذ البهلول ، وبحوار قبر الشيخ السائق عن أربع وستين سنة عليه رحمة الله . وقد وقع له في حياته كثير من مواقف البطولة فتغلب عليها كلها بما أعطاه الله من قوة الإرادة والقدرة على مقارعة الخصوم .

(٢) أكثر سكان المدن الساحلية بطرابلس يتربون بعيدين عن وظائف الحكومة ، ويشغلون بفلاحة الأرض وزراعتها ، وبتربية الماشية في البادية بواسطة الخدم أو تأجير سكان البادية . وفي الوقت نفسه تجدهم يشغلون بفلاحة البساتين ويزرعون فيها جميع أنواع الفواكه والخضر . ولا يشغلهم هذا وذاك عن استعمال ما فضل لديهم من وقت في التجارة . لهذا تجد حياتهم ناعمة رخية بعيدة عن شظف البادية ، ورخاوة المدن وكانت حياة بيئة رمضان من هذا النوع .

وجاءت الحرب الطرابلسية وهو في عز شبابه يتقد حماساً ورجولة ، فانخرط في سلك مجاهدى مصراته ، وحضر واقعة يوم الأربعاء ٢٥ من أكتوبر ١٩١١ وفي يوم ٢٦ منه استشهد رئيس مجاهدى مصراته الحاج أحمد المنتوش فأُسندت رياستهم إلى رمضان .
وفي هذا الدور من حياة رمضان يقول عنه الجنرال جرازيانى في كتابه « نحو الفزان » ما ترجمته « في أثناء الحرب التركية الإيطالية كان أكثر تقدماً وتفضيلاً لشجاعته وإقدامه اللذين يفوقان الحد الطبيعى وكان أشد عدو للقضية الإيطالية . ولم يحجم عن عرقلة أعمالنا بأى واسطة استطاع ، ولم يتردد مطلقاً في إظهار عداوته لنا . وهو ذو عزم قوى وصلابة لا تتثنى » .

وبقى مرابطاً بمجاهدى مصراته حوالى مدينة طرابلس إلى يوم أن احتل الطليان عين زارة في ٨ من ديسمبر سنة ١٩١١ . وفي هذا اليوم جرح في صدره جرحاً بليغاً ، فاضطر إلى الرجوع إلى مصراته للتداوى . وهيات له فرصة انخراطه في سلك المجاهدين التعرف إلى الناس فكان محل إعجابهم في نشاطه واعتزازه بنفسه .
ولما احتل الطليان مصراته في ٧ من يولية سنة ١٩١٢ كان رمضان في مقدمة المجاهدين للدفاع عنها . وجرح في بطنه جرحاً بليغاً فاضطر إلى البقاء في مصراته للتداوى إلى أن وقع الصلح في أكتوبر سنة ١٩١٢ ، وكانت مصراته من البلاد التى التزمت سياسة الصلح فلزم بيته .

وكان يمش بعيداً عن الطليان ، غنياً بنفسه عن كل ما يملك الطليان التفضل به . وقد أكسبه ترفعه عن تملق الطليان حباً لدى من عرفه أو سمع به ، فكان منهم محل التقدير والإعجاب . وكانت الحرب ما تزال قائمة في فزان وغيرها ، فكان قطب دائرة إخوانه في التفكير فيما تقتضيه الظروف المحيطة بهم .

ولما انكسر الجيش الإيطالى في فزان في أواخر سنة ١٩١٤ وأوائل سنة ١٩١٥ ضاعف الطليان جهودهم لمعرفة ما تنطوى عليه نفس رمضان نحوهم . وفي المدة التى أقامها في مصراته هياً نفسه لما ينوى القيام به ضد الطليان . وبقي

ينتظر الفرصة حتى جاءت مقدمات القرضابية فكان ما سنأتى على قصصه .
وكانت واقعة القرضابية با كورة أعماله التى رفعت من شأن الوطن وأعزت جانبه .
وقد رفعت من قدره وألبسته فخراً وثناء قصرت دونهما أعناق معاصريه ، وأخذ نجمه
يتألق فى سماء الوطنية ، وسارت بذكره أسلاك البرق وقوافل البريد ، واتجهت أنظار الناس
إليه ، وعلقوا عليه آمالهم فى إنقاذ الوطن وتوالت نكباته على الطليان فكان الشغل
الشاغل لسياساتهم والصخرة التى انحسرت دونها مكائدهم وحييلهم ، وكان العدو اللدود
للإيطاليا كما صرح بذلك جرازيانى .

ولما أجلى الطليان عن مصراتة عقب القرضابية فى ليلة الخامس من أغسطس سنة ١٩١٥
شكل فيها حكومة وطنية برياسته وأظهر فيها من حسن الإدارة وقوة الإرادة ما أعجز الطليان
عن النيل منها . ودان له الناس بالطاعة عن طيب نفس من الكثيرين ، وعلى مضض
فى النفوس من بعضهم .

وكان يعتمد فى تنفيذ أحكامه على هيئة من علماء مصراتة يحول إليها كل ما يعرض
عليه من مشاكل . وتولف هذه الهيئة من : الشيخ عمر الميساوى المفتى إذ ذاك ، والشيخ
رمضان بليلو . والشيخ رمضان أبى تركية . والشيخ عبد الرحمن بن نصر . والشيخ
السنوسى بن عبد العال . وهو يتولى السلطة التنفيذية ، وإليه يرجع الأمر فى تنفيذ ما تحكم
به الهيئة الشرعية .

وأنشأ بيت مال تحفظ فيه الغنائم الإيطالية ، وجعله فى عهدة جماعة من أغنياء مصراتة
وأعيانهم ، وهم مسئولون عن كل ما فيه . وأنشأ قلم محاسبة برياسة صديقنا الفاضل التهامى
بك قلبصة مسئولا عن الداخل والخارج فى جميع ما يتعلق بأموال الحكومة وصرفها فى
وجوهها . وأنشأ قسما من الدرك يتولى حفظ الأمن وتنفيذ الأوامر ، والزمام كل واحد
بالقيام بواجبه تحو نفسه وغيره .

وجعل للجهاديين رؤساء يرفعون إليه شئونهم للنظر فيما هم فى حاجة إليه ، وهم

مسؤولون عن ترتيبهم في أما كنهم من الثغور ومراقبة حركات العدو وسكناته . وعلى بساطة هذه الترتيبات فقد كفلت للناس حياة الهدوء والطمأنينة والأمن ، وضمنت لكل واحد ماله وما عليه من الحقوق والواجبات . وقد كان في خلق رمضان من الحزم والصرامة ما جعله مهيباً في عيون الناس وتملكت مهابته القلوب فكان شبحه ماثلاً في كل مكان ، يهدد كل من تحدته نفسه بعمل يخالف مصلحة الوطن . وكانت حكومة مصراته مضرب المثل في الدفاع عن الوطن ، لما كان يحيطها به رمضان من قوة الإرادة والعزم الصادق .

ولما فشلت السياسة التركية في برقة سنة ١٩١٦ واتجهت إلى طرابلس وجدوا في نظام حكومة رمضان أكبر مشجع لهم على المضي في تنفيذ خططهم السياسية . ولما شككت حكومة الجمهورية الطرابلسية كان رمضان في مقدمة العاملين لإنجاحها . وكانت حكومته ظليتين من أكبر العوامل في تكوينها . ويمتد نفوذها إلى سرت . ويشمل كذلك ظليتين وساحل آل حامد ، ومسلاته والخمس — ماعدا المدينة — وقصر خيار .

ولما وقع صلح بنيادام كان لرمضان فيه الرأي الفصل وكان تأسيس حكومة القطر الطرابلس في سنة ١٩١٩ بموافقه كما جاء في قرار الوالي الآتي نصه .

و بعد أن انتقل من سوانى المشاشطة عقب صلح بنيادام اتخذ مسلاتة مركزاً ثانياً له بعد مصراته . وله فيها موقف سياسى وحرى سياى ذكره .

وأخبره في الحرب الطرابلسية كثيرة يجدها القارىء مفصلة عند الكلام عن أى دور من أدوار الحركة الوطنية . وآخر محاولة له في خدمة وطنه تلك الغزوة التى قام بها على أرفلة ، والتي سنفصلها في محلها . وقد ذهب ضحيتها في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ عليه رحمة الله ورضوانه .

حكومة مصر ائتد

رمضان بك السوئحلى

يعتبر يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٥ مبدأ لقيام حكومة مصر ائتد برئاسة رمضان بك السوئحلى . ولم يكن لأحد فضل عليه فى إنشاء حكومة مصر ائتد سوى قوة عزيمته وصدق بلاء إخوانه الذين عرفوا فيه علو الهمة والإخلاص لدينه ووطنه .

وأول ما بدأ به جمع الغنائم وحصرها فى دفتار ، ووضعها فى مخازن فى ضمان جماعة من أغنياء مصر ائتد وأعيانها تحت إشرافه ، على ألا يتصرفوا فى شئ منها إلا بإذنه . ثم أخذ فى اختيار من يرى فيهم الكفاية لمعاونته من المخلصين له . وكان من بينهم صديقنا الفاضل التهامى بك قليصة عليه رحمة الله . وأخذ الأمور بما تستحق من الحزم ، فاستقامت له وسارت كما يجب أن تسير .

صفى الدين فى مصر ائتد :

وبعد استيلاء رمضان السوئحلى على مصر ائتد جاء إليها صفى الدين ، فاحتفل به أهلها وأجلوا مقدمه وقابلوه بما يستحق من الترحاب وحسن الضيافة . وكان الناس يعتقدون فى السنوسية البركة لما لطريقتهم من الانتشار فى صحراء طرابلس وجهات برقة . وعلى هذا الاعتبار كان صفى الدين فى محل الاحترام من سكان مصر ائتد .

كلمة عن السنوسية :

قضى السنوسية جل حياتهم قبل الحرب الطرابلسية فى عزلة عن الناس ، وكانت إقامتهم فى الكفرة والجغبوب . واكتسب جدهم السيد محمد بن على السنوسى شهرته من طريق الدعوة إلى الله وإرشاد العامة . ومن هذه الطريق تسربت الشهرة إلى أبنائه وأحفاده . وكان بعض الناس يرحلون إلى الكفرة والجغبوب لزيارتهم . واتخذوا لهذه الزيارة تقاليد منها الاستئذان بعد ثلاثة أيام من قدوم الزائر . فلما جاءت الحرب الطرابلسية

واضطروا إلى الاختلاط بالناس صعب على صغار السن منهم الخروج عن عاداتهم وتقاليدهم في مجاملات الناس .

وكان لحجابهم في هذا أثر سيئ ، وأممكن بعض ذوى الأغراض منهم أن يستغلوا الموقف لمصلحتهم ، وكثيراً ما يصدر عن هؤلاء الحجاب أوامر وأعمال لا علم للسنوسية بها وقد لا تصلهم أخبارها .

وهذا ما حصل للسيد صفى الدين في مصراته ، فقد استغل من معه سمعته ، ونسبوا إليه أوامر وأعمالاً لا علم لها بها حتى سفر الجو بينه وبين رمضان . واضطر رمضان أن يرفض ما يصدر إليه من أوامر يزعم أنصار صفى الدين أنها صدرت عنه . ومن هذه الأوامر : الأمر بفرض ضرائب على الحيوانات . وجباية الزكاة ، وتسليم الغنائم التي استولت عليها مصراته بعد طرد الطليان منها .

وعلى حسب ما اعتادوه في الكفرة والجغبوب من الطاعة ونفوذ الأمر من حولهم كبر على أنصار صفى الدين أن يعارضهم رمضان وأن يقول لهم « لا » فيما يبلغونه من أوامر . ولما أبلغوا رمضان أمر فرض الضرائب ، وتسليم الغنائم ، وجباية الزكاة رفض هذه الأوامر وقال لهم : إن في فرض الضرائب على الناس إرهاباً لهم لأن أكثرهم في صفوف القتال ونفقاتهم على أنفسهم . وأما جباية الزكاة فلا مانع منها ممن لم يؤدها . وأما تسليم الغنائم فهذا شيء غير ممكن لأن الناس في حاجة إليها ، وهى عماد المجاهدين في هذه الحرب القائمة في كل مكان . وقد كلفت بضبطها لجنة من أعيان مصراته وتجارها الأغنياء ، وسلمت إليهم بعد إحصائها إحصاء دقيقاً ، وتحملوها أمانة في ذمهم لا يمكن أن يصرف منها شيء إلا بإذن الحكومة ، وهم مسئولون عنها أمامها . فلم يقتنعوا بهذا وأصرروا على ما قرروه .

وقد تمكنوا من التأثير على صفى الدين ، فأعلن في ملاء من الناس أن رمضان « مهجور » وأنه معزول من وظيفته . وكلمة مهجور يعاقب بها السنوسية من يفضون عليه من أتباعهم . ورمضان لم يكن موظفاً من قبل صفى الدين ولا من أتباعه . وقد أجاب الناس

صفى الدين بأنهم لا يرضون بعزل رمضان ، ولا حاجة لنا بالسنوسية في بلادنا ، ولم يكن لهذا الإعلان من صفى الدين أى أثر إلا بدء الفتنة والشقاق ، وانعكست القضية على صفى الدين وأحس بأن بقاءه في مصرارة أصبح محفوفاً بالخطر فرحل عنها إلى أرفلة حيث كان يقيم وكيله أحمد التواتى .

وفي أثناء ما كان الخلاف قائماً بين رمضان وصفى الدين في مصرارة جاء عبد النبي ليشكو له ما يلاقيه من غت من وكيله أحمد التواتى ، وحشد سيف النصر ، ولما وجد الخلاف مستحكماً بينه وبين رمضان رجع إلى أرفلة واعتزم مشاكسته ، فلما رجع إليها وجده أمامه يناصره العدا .

ولم يرق السنوسية ، وأنصارهم موقف رمضان منهم ، ونقموا عليه . وقد خيل إليهم أنهم يحدون سوقاً رائجاً في ترهونة لبث الدعاية ضده وتأييب الناس عليه ، فانتقل إليها صفى الدين ووكيله أحمد التواتى . وكان مما احتالوا به على جمع الناس لتأييبهم على رمضان أن أرسلوا رسلاً إلى أعيان النواحي وورشفانة والزاوية وزوارة للمجىء لزيارة صفى الدين . وكانت هذه الدعوة تحمل في طياتها أخبث الفوايا وهي حمل الناس على محاربة رمضان . والذي فهمناه من أعيان ترهونة أنهم ما كانوا يعلمون من أمر هذه الدعوة سوى أنها للزيارة ، ولذلك اعتبروا صفى الدين ضيفاً في بلادهم وقابلوه بما يستحقه الضيف من الإكرام والاحترام . وانتقل صفى الدين إلى مسلاتة حيث وافاه أعيان الغرب .

فتنة

ظن أحمد التواتى أن ترهونة ومسلاتة يناصرونه على رمضان ويحاربونه من أجله ، وأن وجود أعيان الغرب في هذا الجمع الزاخر يجعلهم أمام الأمر الواقع ، فيوافقون على ما توافق عليه ترهونة ومسلاتة . وقد جمع الناس في حفل حاشد ، وفاجأهم التواتى بما يدل على ما انطوت عليه نيته من فتنة كان يظن أنها واقعة لا محالة ، في أسلوب من القول في صورة استفتاء ابتدأه بقول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جده يوم الحساب .
ومضمون الاستفتاء أن رجلا عصى الحكومة السنوسية وأهان الأشراف هل يقتل
أولا ؟ فاستغرب الناس هذا الإبهام ، وهذا الاستفتاء في مثل هذه الظروف ، ولم يبد أحد
فيه رأيا ، فقال له الشيخ عمر المنصوري نحن لا نوافق على هذا الكلام المبهم . وكانت
قرائن الأحوال تدل على أن المقصود هو رمضان السويحلي ، فهو يريد الانتقام منه لمعارضته
أوامر صفي الدين . ورمضان لم يعمل ما يخالف الأصول ، ولكن رغبة التواتي في التسلط
على ما في أيدي الناس باسم صفي الدين هي التي حملته على هذا .

وقد أنكر الناس جميعاً على صفي الدين إقرار أحد التواتي على هذه الأعمال . وكانت
الفتنة متوقعة في كل لحظة ، والتواتي يرغى ويزبد ، ويأبى إلا أن يتفق الجميع على حرب
رمضان ، فتقدم إليه الشيخ سوف والشيخ عمر المنصوري ، وسليمان بن شعبان وقالوا له :
نحن دعينا إلى الزيارة ، ومن أجلها جئنا . ولو دعينا إلى الحرب ، فإما ألا نجيب ونبقى في
ديارنا ، وإما أن نجيب ونأتي مستعدين للحرب . على أنه لا يصح محاربة رمضان قبل
الاتصال به وأخذ رأيه ، واستأذنه في مقابلته .

ولما سمع رمضان بحركة التواتي اختار عدداً من الفرسان من مصراتة وظليتين وعسكر
بهم في فندق الزدام خارج ظليتين مما يلي الساحل .

وذهب إليه سوف ومن معه ^(١) واجتمعوا به وعرضوا عليه الأمر ، فذكر لهم
ما حصل بالتفصيل مما أشرنا إليه آنفاً ، فاقتنعوا بوجهة نظره ، وتحقق لديهم أن الذي قام
بهذه الفتنة هو أحمد التواتي على حسابه صفي الدين . ومما قاله لهم رمضان : إني مستعد
للقيام بكل ما يلزم لصفي الدين ومن معه من مؤن وغيرها على شرط أن يتخذ له جبهة أمام
العدو في أي مكان شاء . وقد رجع الوفد من عند رمضان بهذا الرأي وعرضوه على التواتي
فلم يقبل وأصر على الحرب ، فلم ينضم إليه أحد في هذا الرأي ، ورجع الشيخ سوف ومن

(١) روى لي بعض النقاء أن التواتي لم يتركهم يتصلوا برمضان ، فانتحلوا زيارة سيدى عبد السلام
حيلة واتصلوا به .

معه إلى أهلهم ، ولم يبق إلا صفى الدين ومن معه ، ولم يلبث أن هاجمهم رمضان فانسحبوا إلى ترهونة في فبراير سنة ١٩١٦ ومنها إلى أرفلة . فلاحقهم هناك ، وأجلاهم عنها ، وقبض على أحمد التواتى رأس الفتنة — فقتله ، ونجا صفى الدين إلى أجدابية على طررق سرت . ولم يشأ رمضان أن يتابعه بعد أن قبض على التواتى لأنه هو الرأس المفكر . وكان التواتى يريد أن يزج بترهونة ومسلاتة في حرب مع مصراتة لينتقم لنفسه بأيديهم من رمضان ، ولكن فشلت مساعيهم ، ونجا الناس من فتنة كانت محققة الوقوع لولا موقف ترهونة المحمود .

أثر اجتماع مسلاتة

كان لاجتماع مسلاتة أثر سيء في نفوس الطرابلسيين وعلى سمعة السنوسية . وكانت عاقبة آراء التواتى الخاطئة أن نقم الناس منهم سوء تصرفهم . وغادروا مسلاتة حائقين غاضبين . وبلغ الحنفق بسلطان بن شعبان أن اتصل بالطليان يأساً من نجاح العمل مع مثل التواتى .

هذا ما حصل . وهكذا كانت نتيجة انقياد السنوسية لأنصارهم .

وكان سلطان بن شعبان ذا نفوذ كبير في زوارة وما حولها ، وعند الاباضية عموماً . وقد تأثر برأيه أناس منهم حرب زعيم النوائل .

وأدرك سوف خطورة الموقف فجمع وفداً من الساعدي ابن سلطان ، وسامى خزام ، والحاج محمد البلوطى . وتحالفوا على سيدي رمضان^(١) بأن يكونوا يداً واحدة ولو لم ينضم إليهم سلطان . وذهبوا إليه في زوارة للاجتماع به .

ولسوء الحظ وجدوا عنده والى طرابلس الطلياني اميلو ، وسانى مدير السياسة ، ورجوه ألا يشق عصا الطاعة . وأن يبقى معهم . فأفهمهم أنه قد اتفق مع الطليان . وأقام لهم الدليل على صدقه بأن جمعهم بالوفد الإيطالى . واتهبز الوالى فوصة هذا الاجتماع فحاول

(١) اسمولى مدفون في العزيزية على قمة جبل ، وله مقام هناك وكان سوف إذ ذاك حاكماً في العزيزية .

إقناع سوف ومن معه بفكرة سلطان فأبوا ، وأيقنوا بحقيقة الأمر فقطعوا رجاءهم من سلطان ، ورجعوا .

وتخلف ساسى خزام فى زوارة . ولم يلبث الطليان أن احتلوا زوارة بعد رجوع الوفد . وذهب ساسى خزام إلى يفرن متأثراً بما تأثر به سلطان بن شعبان . ولم يلبث أن انضم إليه أناس ، وأشيعت عنهم دعايات لا تحمد عقباها فجهز الشيخ سوف جيشاً من العزيزية . وجيز خليفة بن عسكر جيشاً من نالوت . وجاء جماعة من أولاد أبى سيف من الجنوب . وأطبقوا على ساسى خزام ومن معه فى يفرن ، فدافعوا دفاع اليأس ، ثم غلبوا على أمرهم واستسلموا ، وأخذ ساسى خزام حياً ثم قتل .

ولا يمكن أن يكون انضمام سلطان بن شعبان للإيطاليين نكاية فى وطنه . وقد يكون عناداً لما رآه من سوء معاملة التواتى . وكان عليه ألا يتعجل الأمر ، خصوصاً بعدما ذهب إليه الوفد ورجاه فى إصلاح ذات البين . ولكن « العناد يورث الكفر » .

محمد العابد

سبق أن أشرنا إلى كتاب محمد العابد الذى أرسله إلى الطليان فى سرت ، يطلب منهم إعانة ، وقلنا إنه مبدأ ظهوره ، وفى واقعة القاهرة بفزان اتصل للمهدى السنى - وهو من أتباعه المقر بين - بالمجاهدين الذين افتكوها من الطليان ، وأخذ منهم بعض الغنائم باسمه ، ومن هنا ظهر اسمه ، ووجد أنصاره طريقاً للدعاية له .

ولا يجهل أحد ما كان للسيد أحمد الشريف السنوسى من الأعمال المجيدة فى الحرب الطرابلسية فى برقة . وكانت أعماله الباهرة حافزاً لأخيه محمد العابد على منافسته ، فتوجه من الكفرة إلى فزان ليمتدح منها ميداناً لأعماله . يجاهد كما جاهد السيد أحمد ، وينال من الفخر مثل ما نال . وقد أخطأ التقدير فى أن يكون له من الذكر الجليل مثل ما كان للسيد أحمد ، كما أخطأه التوفيق الذى لازم السيد أحمد .

فالسيد أحمد رجل صقله العلم ، وهذبته العبادة ، فغفت نفسه وكبرت همته ، وانكشفت

يده عما للناس فيه حق أو شبه حق ، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه ، وأطلق السنة الناس بمدحه والثناء عليه .

أما محمد العابد فلم يؤت حظاً من العلم مثل أو قريباً مما أوتيهِ السيد أحمد . وقد سلك إلى ما تتوق إليه نفسه من الفخر طريقاً غير موصل إلى غايته ، فانتهى به إلى النهاية الطبيعية ، لا إلى الغاية المنشودة له .

وقد وجد الطامعون سبيلاً إلى التأثير على نفسه بما أحاطوه به من أسباب الأبهة والاحترام فحبل إليه أن ذلك بسبيل من الإخلاص له ، فزينوا له غير الحسن ، وقبحوا له ما لا يمكن أن يكون قبيحاً ، فانطلت عليه حيلهم ، وتستروا بجاهه للوصول إلى مافى أيدي الناس من متع الدنيا وملذاتها ، وجروا في هذا المضمار شوطاً كان لهم فيه النعم وعليه الغرم ، وضربوا دونه سترًا من أعمال التصنع حالوا به بينه وبين الانتفاع بآراء المحبين له والمخلصين للسادة السنوسية ، فصار سجين الخيمة لا يدري من شئون الدنيا إلا ما يمرض عليه من أموال الناس بدعوى أنها مهداة إليه ، وماهى إلا أمتعة مسلوقة وأموال منهوبة ، سرقها أولئك الذين لم يخافوا الله فيه فأساءوا إلى سمعته ، وهو في خيمته أسيراً لا يدري ماذا يجري . وكان « كلب السيد » — المدعو هاشماً الزوي — رئيس تلك العصابة ، وهو الذى

تولى كبر جميع ما اقترفته ، حتى نُسى اسم محمد العابد مع اسم « كلب السيد » . ولقد كان كلب السيد فى خزعبلاته هندياً ماهراً ، متغالياً الغلو كله فيما يطعن نفس محمد العابد من جهته ، فكان يكتب إلى الناس ويوقع كتبه باسم « كلب السيد » أو « كليب الحضرة » . وتنطلى على محمد العابد مثل هذه الحيلة فيصدق أن هذا من إخلاصه له . وكيفما قلبت الأمر فلن تجد ما يبرر موقف محمد العابد من أعمال كلب السيد ، كما لا تجد من أعمال الجهاد ما ينسب إلى محمد العابد من أول حركته إلى آخرها ، وإنما هى ساسلة اجرام ارتكبت باسمه ، فأصابه منها ما جعله عرضة للانتقاد واللوم .

مسابقة

يقول المطلعون على بواطن الأمور انه كانت هناك مسابقة بين صفى الدين ومحمد العابد

لبسط نفوذها على أكبر قطعة ممكنة من طرابلس وذلك لما رأوه من تمكن نفوذ السيد أحمد في برقة ، وكان كل منهما يعمل باسمه ولنفسه .

وبينما كان صفى الدين يقوم بالدور الذى ذكرناه آنفاً فى مصراتة وأرقله ومسلاتة كان أخوه محمد العابد يقوم بمثله فى فزان وماحوا إليها .

وكان أكثر أنصار صفى الدين ومحمد العابد ممن قضوا جل حياتهم فى الصحراء حيث تنتشر الأمية وتسيطر على العقول عادات البداوة . وكلما امتد بهم الشوط إلى حيث توجد مبادئ الحضارة والعلم وجدوا أناساً يزنون الحياة بغير الموازين التى عرفوها فى باديتهم فوقفوا منهم موقف العاجز عن مجاراتهم ، واضطروا إلى الاحتفاظ بقديمهم فقلت أنصارهم ، ووجدوا من الناس جفاء ما كانوا يقدررون وجوده . وحاولوا أن يقنعوا الناس بما كان لآباء السنوسية من مكانة وشهرة . ولكن ما كان يأتيه هؤلاء الأتباع من الساب والنهب حال دون أن يقتنع الناس بمثل هذه المحاولات ، فسقط فى أيديهم وفشلت مشاريعهم .

خلاصة السلاطين :

هكذا كان يوقع محمد العابد على كتبه بهذا اللقب الذى انتحله لنفسه ولم يكن له فيه سلف ، كما لم يكن له من أسباب القوة ما يكسبه هذا اللقب ، ولعله انتحله ليصرف أنظار الناس عن السيد أحمد ، ولكن هيهات أن يكون انتحال الألقاب مما يكسب الشهرة إذا لم يصحبه العمل وقوة السيف . ولا شئ يدعو إلى انتحال هذا اللقب إلا مزاحمته لأخيه السيد أحمد فى برقة . ولكن السيد أحمد لم ينتحل لنفسه لقباً لأنه كان يجاهد الله وفى سبيل الله ، فجاءته الألقاب من حيث لا يشعر .

ولم يعد على محمد العابد من انتحال هذا اللقب إلا سخرية العقلاء وانفضاض أهل الرأى من حوله ، بل التعصب عليه ونسبة قبائح كلب السيد إليه .

ولما انتهى أمر صفى الدين إلى ما ذكرناه كانت طلائع دعاية محمد العابد وصلت إلى الجبل فيما بين نالوت وغريان .

فوضى :

وكانت دعايته تحمل جميع أنواع الفوضى من السلب والنهب تحت رعاية كلب السيد ومن انضم إليه .

وقد بلغ من أمر هذا الداعية أن قتل الشيخ سعد بن عمر جلغم شنقا . واغتصب ابنته بدون رضاها ولا رضا أحد من أوليائها . وقتل الشيخ عمر القرئيد من أعيان الشاطيء ، وكان من أهل الصلاح رحمه الله . وربط الشيخ الحبيب عز الدين الغدامسى على المدفع وخيره بين القتل ودفع مبلغ من المال ، فدفع له ألف جنيه ذهباً .

وكان لكلب السيد أعمال قبيحة لا تحصى يرتكبها باسم محمد العابد . وقد يكون كاذباً في هذا لأن شناعة أعماله لا يرضى بها أحد . وقد انضم إليه في هذا الإجرام جماعة من حفاة البادية ممن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

كلب السيد في نالوت :

وأول ما وصل كلب السيد إلى نالوت قبض على خليفة بن عسكر وأرسله إلى الزنتان مسجوناً ، واستمر إلى أن وصل إلى الجوش فقبض أيضاً على عون بن الحاج وأبى القاسم خيشة ووربطهما على المدفع .

ولما علم بأمره الشيخ سوف بعد رجوعه من مسلاتة جمع له قوة كبيرة وهاجمه في الجوش وحاصره فيه ، وطلب إليه أن يشرح له ما جاء من أجله ، وما ينبغي من وراء هذه الأعمال ، ولكنه لم يجر جواباً . فقال له : إن كنت تريد حرب الطليان فإذهب إلى زوارة وأقم هناك أنت ومن معك وعلينا كل ما يلزمكم ، ونشكركم على هذه المساعدة . وإن كنت لا تريد ذلك فارحل عنا . فأبى كل ما عرضه عليه الشيخ سوف ، فشدد عليه الحصار أربعة عشر يوماً ، فرأى أنه قد غلب على أمره وطلب أن يخلى سبيله ليذهب إلى الرحبيات فخلى سبيله ، فوجد المجاهدين سبقوه إليها فواصل سيره إلى الزنتان حيث يكثر أنصاره فاستاء من وجوده في الزنتان أحمد الصيد وعلى الشنطة وغيرها من أعيان البلد ، وطلبوا إخراجه

فأبى أنصاره . وبعد فتنه مات فيها نحو عشرة من الناس حضر الشيخ سوف في قوة من المجاهدين إلى الزنتان ، ونزل في سيدي موسى وهدد كلب السيد إن لم يرحل عن الزنتان ، تخاف ، فطلب الأمان لنفسه فأعطيه ، ورحل إلى فزان ووقى الله الناس شره بعد أن أوقد الفتنه وفرق الجماعة .

وقبل أن يطرد من الزنتان أراد محمد العابد أن يلتحق به فاعترضه أولاد أبي سيف وأجبروه على الرجوع إلى فزان حيث التحق به كلبه .
وإلى هنا ننهي من قصة خلاصة السلاطين وكتب السيد . ونكتفي بهذه الصورة المصغرة . ووراء ما ذكرناه من الحقائق المؤلمة مالا يتسع المقام لذكره .

الشيخ حرب النائي :

هو زعيم قبيلة النوائل ، ومن أشهر رجالاتها كرما وشجاعة . وبطبيعة قربه من زوارة كانت له صلة برجالها المشهورين . وكانت إذ ذاك محتملة بالظليان خيف عليه من التأثير بهذا الإحتلال . فاتصل به قائمقام الجوش الشيخ محمد بن أبي القاسم الحمودى ليتحدث إليه في عدم الاصغاء إلى الدعايات الباطلة والانضمام إلى اخوانه المجاهدين . وبينما كانت المسكاتبات جارية بينهما اذ هجم عليه الشيخ أبو القاسم خيشة الحمودى في حلقته . فدافع عن نفسه هو ومن معه .

وكانت معركة كبيرة قتل فيها من الرجال البارزين الشيخ أبو القاسم خيشة الحمودى ، والشيخ على الخنجارى ، وأخوه الشيخ سعيد من الصيعان ، والشيخ مفتاح الحرارى من الحرات وغيرهم ، وانكسرت فيها رجل الشيخ حرب .

وقد اعتبر الشيخ حرب هذا الهجوم عليه اهانة له ولقومه ، وتعدياً على كرامته فجاهر بانضمامه إلى الظليان هو ومن معه وانحازوا إلى زوارة . وفشلت فكرة محمد بن أبي القاسم في ضم الشيخ حرب إليه بسبب سوء تصرف أبي القاسم خيشة ، وكان عليه أن يتذرع بالصبر في جلب زعيم النوائل إلى صفه ، خصوصاً وأن هناك من ينافسه في استمالته إليه ، وقد انفرد بهذا التدبير الخاطيء من غير أن يستشير الشيخ سوف فذهب ضحية خطئه ،

وخسر المجاهدون قبيلة من أشجع القبائل العربية في طرابلس وهي قبيلة النوائل ، وألحق الضرر بنفسه وبغيره ، وقديماً قالوا : « في العجالة الندامة » .

الخلاف بين مصراتة وترهونة

لابد لمن يكتب في تاريخ الحرب الطرابلسية أن يلاقى بعض الصعوبات في تحرى الحقائق . وقد رأيت أن أقصر على ما ظهر لى من أسباب هذا الخلاف تاركاً ما وراء ذلك للزمن فهو كفيل بإظهار ما خفى ، أو ما ترك لأسباب اقتضت ذلك .

أسبابه

من أهم الأسباب الظاهرة لهذا الخلاف النزاع على مسلاتة فكل من مصراتة وترهونة تصر على أن تكون تابعة لها .

ومنذ أن أسست حكومة مصراتة حلت مصراتة محل مدينة الخمس ، وأصبحت كل البلاد التي كانت تابعة لمدينة الخمس تابعة لمدينة مصراتة ، ومن ضمنها مسلاتة ، خصوصاً وقد امتد نفوذ مصراتة إلى قصر خيار الذى لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق مسلاتة . وقد أقام فيها رمضان السويحلى فى أواخر سنة ١٩١٥ الحاج فرج بن إبراهيم نائباً عنه . ولما جاء إليها صفى الدين فى أوائل سنة ١٩١٦ خرج منها مندوب مصراتة فانتهزت ترهونة هذه الفرصة وأقامت فيها مندوباً عنها . وبعد أن أجلي رمضان صفى الدين عن أرفلة رجع إليها وطرد منها مندوب ترهونة . ومن هنا أخذ الخلاف يشتد . وناصر فريق من زعماء مسلاتة ترهونة ، كما ناصر فريق آخر منهم مصراتة ، واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين ونشبت بينهما الحرب فى شوال سنة ١٣٣٤ أغسطس سنة ١٩١٦ .

ولم يكن لمسلاتة فى هذا مصلحة ، ولو خبرت لما اختارت أحد الطرفين . ولكنها رغبة الزعماء التي طالما وجهت الشعوب إلى الوجهة غير الصالحة .

وانتهز الطليان الفرصة فكانوا يزيدون الفتنة اشتعالاً . وكان الوطن كله فى خطر من هذه الحرب الداخلية التي استمرت خمسة أشهر . ثم دفع الله شرها . وسنذكر قريباً كيف كان ذلك

السياسة التركية

في طرابلس وبرقة

بعد أن انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وانضمت تركيا إلى ألمانيا^(١) في الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فسكرت تركيا في الانتفاع من الثورة القائمة في طرابلس على الطليان . وقد هيأت ظروف الحرب لهذا التفكير بما جعله منتجاً . ذلك أنه بعد إعلان تركيا الحرب على الطليان أصبح كل ما بينهما من المعاهدات والاتفاقات ملغى . فإذا أضيف إلى هذا قيام الثورة فيها على الطليان ، وحاجة الطرابلسيين إلى المعونة تبين أن اتصال الترك بطرابلس جد ميسور ومفيد . ومن الممكن تقوية الحركة العدائية القائمة فيها ضد الطليان والانجليز بإمدادها بما يزيدها قوة واشتعالا من المال والسلاح سواء في طرابلس أو في برقة .

الترك في برقة

كانت الحرب قائمة في برقة بين العرب والطليان أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ ، وكان القائم بشؤونها والمدير لحركتها هو السيد أحمد الشريف . ولم تترك السياسة الإيطالية فرصة للتأثير عليه لتهدى من حدته ضدها ، كما كان الإنجليز في مصر يلتمسون رضاه خوفاً من انتائهم إلى الترك . والترك ينظرون إليه بعين العطف طمعاً في انتائهم إليهم ضد الإنجليز . ومهما كان من شأن السياسة التركية ، أو الإنجليزية ، أو الإيطالية فلا يمكن لإحداها أن تنفذ إلى برقة من غير طريق السيد أحمد السنوسي ، لذلك كان دائماً ملتقى تفكير هذه السياسات الثلاث .

وبما أن أحداثاً وقعت للسيد أحمد كان لها اتصال بسياسة مصراتة ، لذلك كان ضرورياً أن تقارها بما يجعلها مفهومة لدى من يعينهم فهم الحقائق . أما الذين يتطفلون على التاريخ ، ويستبيحون لأنفسهم التهجيم على أعراض الناس بالبهتان وقول الزور فالحقائق كفيلة بإبطال مفترياتهم .

(١) انضمت إيطاليا إلى الحلفاء في نوفمبر سنة ١٩١٥ وانضمت تركيا إلى ألمانيا في ديسمبر سنة ١٩١٥

السيد أحمد الشريف

الجهاد الخالص ، وعدو الظلميان اللدود ، ووارث سر جده السيد محمد ابن علي السنوسي وبانتقاله من برقة ماتت الدعوة إلى الله في بادية برقة ، كما انقطع الجهاد فيها .

وكانت إيطاليا ترى فيه مصدر الخطر على وجودها في برقة ، فكانت تحاول بكل الوسائل أن تلين من قناته . ففى أواسط سنة ١٩١٣ توسلت إليه بجانب الخديو عباس حامى الثانى ، فأرسل إليه وفداً من : المأمون ، والسنوسى ، ومصطفى ، أولاد السيد عبد المتعال الإدريسى ، ومعهم عبد الحميد بك شديد ، وقابلوه الجبل الأخضر ، وطلبوا منه — باسم الخديو — الكف عن القتال ، على أن يتوسط سموه لحل إيطاليا على التساهل معه ، فاعتذر للوفد ولم يقبل هذه الوساطة .

ونشبت الحرب العالمية فى أغسطس سنة ١٩١٤ وأرادت تركيا وألمانيا أن تستغلا نفوذ السيد أحمد فى برقة ، وحركة الجهاد القائمة فيها فى إحداث ثورة على حدود مصر الغربية ضد الإنجليز لشغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الإنجليزية عن المشاركة فى الضغط على قناة السويس ، فاختير جعفر باشا العسكرى للقيام بهذه المهمة ، فجاء إلى مصر واتصل ببعض رجالاتها وانتهى به السير إلى أن اتصل بالسيد أحمد فكان موضع ثقته وتقديره . ولم يلبث أن التحق به نورى بك أخو أنور باشا والكونت مانسمان ^(١) الألمانى بطريق الغواصة ، وتمكنوا بما معهم من المال أن يكسبوا أنصاراً وصاروا يعملون للغاية التى جاءوا من أجلها وهى إحداث الثورة على الإنجليز . ثم لحق بهم الشيخ سليمان البارونى فى فبراير سنة ١٩١٥ بطريق الغواصة أيضاً لهذا الغرض ولكنه عومل معاملة خاصة من السيد أحمد حتى أصبح شبه مسجون فى خيمته ، فرجع الى الآستانة فى غواصة فى ديسمبر سنة ١٩١٥ . وفى هذه السنة لحق بهم عبد الرحمن بك عزام للغرض نفسه .

ويقول أمين سعيد : « وحمل نورى بك كتاباً خاصاً من أخيه أنور باشا الى السيد أحمد يخبره فيه بإعلان الجهاد ويدعوه للاشتراك فيه ، ويقول له : « ان الخليفة عينه نائباً

(١) أقام الكونت مانسمان مدة طويلة فى بلاد المغرب وكان يمثل فيها الجاسوسية الألمانية . وهو من ضباط الجيش الألمانى المشهود لهم بالتفوق .

غاماً له في برقة ، ومنحه حق إعطاء الرتب والنياشين » (١) . وجاء نوري بصندوق منها لتوزيعه على الزعماء والرؤساء . كما جاء برتب وأوسمة - لأعضاء الأسرة السنوسية » .

وقد أصبح مفهوماً لدى السيد أحمد أن جعفر باشا ورفاقه إنما جاءوا لمحاربة الإنجليز على حدود مصر . فكان يعارضهم ، ويحاول إقناعهم بعدم نجاح هذه الحركة ، وقد أدرك حرج موقفه ، ولكن جعفر باشا ورفاقه لم يبالوا موقف السيد أحمد ، واستمروا في دعايتهم ، واختلطوا بالجاهدين ورؤسائهم ، وبمشايخ القبائل وكبار الإيوان وبذلوا من المال والدهاء السياسي ما أقنع الكثير من هؤلاء بفكرتهم ، وأفلت الأمر من يد السيد أحمد ، وصاروا ينتظرون الفرصة للتنفيذ .

وفي سبتمبر سنة ١٩١٥ أرسل السلطان حسين كامل إلى السيد أحمد وفداً من السيد محمد الشريف الإدريسي وابنه السيد محمد ميرغني ، وقابلاه في الميعة ، وبلغاه نصيحة السلطان حسين بعدم الانضمام إلى الأتراك والألمان ، وعدم الإصغاء إلى دسائسهم وحمل الوفد كذلك كتباً من السر هنري مكماهون نائب ملك الإنجليز في مصر ، ومن الجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال الإنجليزي في مصر إلى السيد أحمد ينصحه بمثل ما نصحه به السلطان حسين كامل . ويعده أنه - إذا التزم الحياد - بالمساعدة على استقلال بلاده والتوفيق بينه وبين الطليان .

وفي الوقت الذي كان الإنجليز يحاولون فيه بهذه الطرق الدبلوماسية كسب الوقت لإتمام معداتهم والتأثير على السيد أحمد كان أنور باشا يرسل إلى أخيه نوري في برقة الأمر تلو الأمر بأن يتحرش بالإنجليز ويحمل السيد أحمد على مهاجمتهم . وكان يكتب إلى السيد أحمد - في إلحاح - بمعاودة نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التباطؤ عن غزو مصر . وبلغ الأمر بنوري أن كتب إلى أخيه أنور يقول له إن السيد أحمد لا يريد معاداة الإنجليز ، وبعث أنور إلى مصر بإشاعات ضد السيد . ولما كثرت الإشاعات ضده قال الأمير

(١) هذه النياحة من قبيل المغريات السياسية التي يقصد بها التأثير على السيد أحمد لانتفاع به في تنفيذ أغراض مخصوصة . خصوصاً وقد جاءت في زمن لم تكن طرابلس فيه تابعة للاستانة ولم يكن لسلطان تركيا حق شرعي في طرابلس .

شكيب : « استدعى السيد أحمد نوري بك وقال له : ها أناذا حاضر للمسير فلا تقدر أن تقول إن العائق كان مني ؛ وإنما إذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أنا المسئول ، وركب السيد ، ومعه نوري قائداً أول ، وجعفر العسكري قائداً ثانياً . وكان كل ما جمعه من الجند أربعة آلاف »

هذا ما رواه الأمير شكيب ، وهو صريح في أن السيد اضطر أخيراً إلى الموافقة .

ولما اعتزم السيد العمل كان للانجليز جيش لا يقل عن ثلاثين ألفاً .

ولما يؤس السيد محمد الشريف الإدريسي من التأثير على السيد أحمد رجع إلى مصر هو وابنه واجتمع بالسلطان حسين وبكبراء الإنجليز وأخبرهم أن الأمر خرج من يد السيد أحمد ، وهو وإن كان شديد الرغبة في عدم الهجوم على مصر ولكنه مغلوب على أمره ، وأن الحرب واقعة لا محالة . واقترح عليهم أن يتصلوا بالسيد إدريس ، فأذنوا له أن يكتبه في ذلك فكتبه . ومن هذا الوقت تحول مجرى السياسة الإنجليزية الإيطالية إلى السيد إدريس . وجرت المكاتبات بينه وبين الطليان والإنجليز لتسوية ما بينهم وبين السنوسية من خلاف .

الهجوم

ابتدأ الهجوم على الإنجليز في ١١ ديسمبر سنة ٩١٥ واحتل الأتراك السلوم ، وجلا الإنجليز عنها إلى مطروح ، وتبعهم نوري ليتحرش بهم هناك فثبتوا له ، ودارت بين الفريقين معارك كان أشدها معركة بئر ماجد يوم ٢٤ ديسمبر سنة ٩١٥ قتل فيها نحو ٣٠٠ مجاهد . وفي ٣١ منه احتل الإنجليز مرسا مطروح . ثم معركة العقاقير يوم ٢٩ فبراير سنة ١٩١٦ ، وكانت الفاصلة وفيها أسرجعفر باشا العسكري ونجا نوري بك بأعجوبة ، واحتل الإنجليز سيدي براني ، وفي يوم ١٤ مارس سنة ١٩١٦ استرد الجيش البريطاني السلوم واستولى على معسكر السنوسية وانتقل السيد أحمد مع بعض رفاقه إلى سيوه ، ومنها إلى الواحات ، وهناك قاومه الإنجليز فارتد إلى سيوه فلحقوا به وحصلت بينه وبينهم معركة في ٨ فبراير سنة ١٩١٧ دامت

نحو ٢٠ ساعة وكانت الفاصلة . وكسر جيش السيد أحمد والتجأ هو إلى الجغبوب ومنها أرسل إلى ابن عمه السيد إدريس يستأذنه في الرجوع إلى الجبل الأخضر فأبى ، وأبدى له رغبته في عدم بقاءه في الجغبوب ، مستنداً إلى ما كتبه إليه الإنجليز ، وهو — كما يقول الأمير شكيب — « إن بقي السيد أحمد في الجغبوب فإنهم يهاجمون الجغبوب ويستولون عليها » . فسافر من الجغبوب إلى جالو على طريق صحراء قرصبة . ومات كثير من إخوانه في هذه الصحراء جوعاً وعطشاً . قال الأمير شكيب : « ولم يتوقف السيد أحمد في جالو وأوجلة إلتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدي إدريس ^(١) » فسافر إلى سوكنة . ويقول الأمير شكيب « ومعه ثلاثة آلاف » .

وخلا الجو في برقة للسيد إدريس . وتحت تأثير ما تضمنته المكاتبات التي بينه وبين الإنجليز والطلليان من اقتراحات قبض على من بقي من الترك وأنصارهم : فسجن بعضهم ونفى موسى بك اليمنى إلى الكفرة ، وبقي نوري بك والأستاذ عبد الرحمن بك عزام في البطنان فأرسل إليهم بالحضور إلى أجدابية . فحاولوا إقناعه بمحاربة الإنجليز ثانية فرفض بشدة ، ثم سافر نوري وعزام بك إلى مصرانة في أواخر سنة ٩١٦ .

وبسبب مكاتبات السيد محمد الشريف الإدريسي تهيات الفرصة للسيد إدريس السنوسي للمفاوضة بينه وبين الإنجليز والطلليان ، فسافر السيد محمد الشريف الإدريسي وولده من القاهرة إلى بني غازي مع الوفد الإنجليزي للاجتماع بالوفد الإيطالي . وكان الوفد الإنجليزي مؤلفاً من اللواء طلعت باشا وأحمد حسنين ، والوفد الإيطالي من الكلونيل بيلا ، والكوماندور بياجيني .

وسافر السيد الإدريسي مع الوفدين إلى الزويتينة حيث كان السيد إدريس ، ويقول أمين سعيد : « ان الحادثة كانت مع الوفد الإيطالي ، أما الوفد الإنجليزي فكانت مهمته

(١) جاء في معاهدة عكرمة التي أبرمت في إبريل سنة ٩١٧ على أساس محادثات الزويتينة في أواخر سنة ١٩١٦ على لسان السيد إدريس ما يقتضي منع السيد أحمد من دخول برقة . ونصه : « البند العاشر — نتعهد بأن نبعد عن قطر برقة كل سبب للفساد ، أو ساع في إيجاد الفتن بيننا وبين الحكومة الإيطالية وغيرها من أصدقائنا وأصدقائهم » . وأول من طبق عليه هذا البند هو السيد أحمد ومن معه .

التوفيق بين الطرفين ، لأنه يرى أن النزاع بين الإنجليز والسنوسية انتهى بالتغلب على السيد أحمد وإبعاده عن الحدود المصرية » واتفق السيد إدريس مع الوفد الإيطالي على أساس المعاهدة وهو : انتهاء حالة الحرب بين الطرفين . واعتراف الإيطاليين بالإمارة السنوسية للسيد إدريس على جالو . وأوجلة . والكفرة . والجغبوب . في داخل واحات برقة وهي أشبه بالصحرَاء منها بالقرى ، لا ثروة فيها ، ولا حضارة ولا علم . واحتفاظ الإيطاليين بما بأيديهم من الأراضي الساحلية وبقائهم فيها ، وإقامة الحدود بين الأراضي الساحلية ، والأراضي الداخلية^(١) .

وانفق الطرفان على صيغة المعاهدة ، وحملها الوفد الإيطالي لعرضها على حكومة رومة وفي إبريل سنة ١٩١٧ أقر الطليان مشروع المعاهدة وأخطر وا الوفد الإنجليزي بذلك . وحضر الوفد الإنجليزي والوفد الإيطالي إلى طبرق ووافقهم السيد إدريس في عكرمة — وهي بئر قريبة من طبرق — وتم الاتفاق نهائياً على المعاهدة ، ووقع عليها الأمير الالاي دويتا الإنجليزي . والكومندتور لويجي بنتور الإيطالي . والسيد محمد إدريس السنوسي . ويظهر مما نقله أمين سعيد أن المعاهدة التي نقلنا منها البند العاشر هي التي وضع أساسها في الزويتينة في أواخر سنة ١٩١٦ ووقعها الطرفان في عكرمة في إبريل سنة ١٩١٧ . وأطلق عليها معاهدة الزويتينة ، باعتبار أن قواعدها وضعت في محادثات الزويتينة . وهي معاهدة عكرمة لأنها وقع عليها هناك .

ومعاهدة عكرمة أو الزويتينة هي أول معاهدة عقدت بين السيد إدريس من ناحية وبين الإنجليز والطلليان من ناحية أخرى . ولما وقعت هذه المعاهدة كان السيد أحمد ينتقل في الأراضي الطرابلسية بين الجفرة وأراضي سرت في تلك القلة من إخوانه يفتك بهم الجوع والمرض ، وهو يتحسر ألماً لما يشاهده مما يقاسميه إخوانه من بؤس ، وحالة شاذة لا تخطر ببال إنسان إلا جرحته .

واتجه السيد أحمد إلى ناحية سوكنة ، وكان بها سيف النصر واقتضته الحال الحصول

(١) حددت بالفعل على خريطة رسمت قبل انتهاء المفاوضة .

على ما يكفي أتباعه من المأكل والملبس ولم يكن لديه منه الكفاية ولا ما يقرب من الكفاية ، فأرسل إلى نوري في مصراتة يرجوه النظر في هذا الموقف : إما بإعانتة ، أو بتسهيل الطريق له لدخول مصراتة .

سياسة تركية :

كان الأتراك في مصراتة فريقين في سياسة الاتصال بالسنوسية : فريق يريد الاتصال بالسيد أحمد على نية أن يستخدموا نفوذه في برقة ضد السيد إدريس لاستئناس الثورة على الانجليز والطلبان في برقة وعلى رأسه نوري بك . وفريق يريد قطع الصلة بالسنوسية على أي وجه ، مكتفياً بما وقع من السيد أحمد من عدم موافقته على مشروع الأتراك في محاربة الانجليز ، وبما عمله السيد إدريس مع الأتراك من طرد من بقي منهم في برقة ، وإلى هذا الفريق انضم رمضان السويحلي .

يتضح من هذا أن سياسة الترك مجمعة على كراهة السنوسية ، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادى بقطع الصلة بهم . وفريق يكتم هذه الكراهة في صدره ويريد أن يسلط بعضهم على بعض لينتقم لنفسه منهم بأيديهم .

وقد أراد نوري — بما له من النفوذ في مصراتة — أن يمد السيد أحمد بإعانة فأرسل إليه إعانة مالية وبعض البنادق . ولكن الأتراك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبروا مكيدة ضد هذه المعونة ، فأرسلوا من تربص لمن أرسلت معهم فقتلوه عن آخرهم وأخذوا ما معهم من المال . ولم يعلم رمضان بشئ من أمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها .

وكان نوري بك واهماً في إمكان الانتفاع بنفوذ السيد أحمد ضد السيد إدريس ، فإن السيد أحمد كان أشد الناس كراهة لقتال المسلمين بعضهم بعضاً ، ولم تسمح له نفسه بمحاربة السيد إدريس لما منعه من دخول برقة بعد رجوعه منهزماً من محاربة الانجليز . وقد تحمل أشد الآلام في سبيل إرضاء هذه العاطفة النبيلة .

وقد طال المقام بالسيد أحمد على تلك الحال نحو ثمانية أشهر فاتخذت له مساع من مصراتة لنقله إلى الآستانة ، وجاءته الفواصة فركبها من مرسا العقيلة في أكتوبر سنة ١٩١٧ .

هذا موقف رمضان من السيد أحمد ، ولم يكن المدبر للمكيدة وليس له بها علم ، وليس هو المرجع الأعلى حينذاك في ما يتعلق بسياسة الترك . ويعلم الله أن الترك هم الذين دبروا المكيدة لقتل من أرسلت معهم الإغاثة ، وعلى الرغم من أن نوري بك هو الذي أرسل الإغاثة فقد دبرت المكيدة مناهضة لرأيه . وما كان يقصد من هذه الإغاثة وجه الله ، ولكنه أراد بذلك استغلال السيد أحمد ضد ابن عمه بدليل أن الإغاثة كانت تشتمل على كثير من البنادق ، وما كان السيد أحمد في حاجة إليها .

ولكن المغرضين يرمون دائماً رمضان بما هو منه براء . وهم يعملون هذا يكذبون على التاريخ ، ويدلون على تحيزهم إلى الباطل وغمط الحق . وقد أعلنهم على هذا جهلهم بالحقائق وعدم التحري فيما يصل إليهم من أخبار .

ولرمضان كل العذر في أن يحتس من السنوسية ، وفي أن ينحاز إلى الأتراك الذين يذهبون إلى قطع الصلة بالسنوسية ، فإن الفتنة التي أحدثها أحمد التواتي باسم صفي الدين في أرفلة ومصراتة ومسلاتة ما تزال قريبة العهد ، وما زال الناس متأثرين بها ، ولها أنصار في كل البلاد ، ولولا ما أخذ به رمضان الناس من الشدة والحزم لما انطفأت . وما زال فتنة كلب السيد في الجبل الغربي قريبة العهد ، ولها أنصار يتربصون بالدوائر بمخوضهم . كل هذا مما يجعل رمضان على حذر من نفوذ السنوسية . وما عرف عن السيد أحمد من طيب النفس ولين الجانب يفتح الطريق أمام دعاة الفتنة . وعلى أي حال قلبت منع الأتراك السيد أحمد من دخول مصراتة لانهجده مخالفاً لمقتضيات السياسة إذ ذاك ، بل ولا للمصلحة الوطنية ، فإن كل الظروف القائمة إذ ذاك تجعل الثورة في أقرب وجوه الإمكان .

وإذا كان هناك سبب لما حصل للسيد أحمد من التعب وما قاساه من الأهوال فإنما هو منعه من دخول برقة .

وبعد أن سافر السيد أحمد إلى الآستانة كان له فيها وفي أنقره مواقف مشرفة ، ولأق هناك من التكريم والإجلال ما يغبطه عليه كل إنسان يتمنى لنفسه علو الهمة وحسن الأحذوثة . وقد ذكر الأمير شكيب في المجلد الثاني من تعليقاته على « حاضر العالم

الإسلامي « ما يجعل السيد أحمد في مصاف الأبطال .

وقد كافأه الله بإخلاصه فأطلق أسنة الناس بالثناء عليه سواء من عرفه ومن لم يعرفه .
وتوفي بالمدينة المنورة قبيل صلاة الجمعة يوم ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٥١ رحمه الله وشكر له
مناسبة :

ولهذه المناسبة نذكر نبذة تتعلق برمضان بك السويحلي من كتاب أرسل به السيد
أحمد الشريف - وهو بماردين - إلى الجاهل الكبير وصفي بك الخازمي في الحرم
سنة ١٣٤٠ . قال رحمه الله يخاطب وصفي بك :

« نعم أيها الولد المكرم المحترم ، فإنني والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل ... »
إلى أن قال : « فبالله الذي لا إله إلا هو إني كنت عازماً على إكرام رمضان بك السويحلي
وانزاله المنزلة التي ما كان يظنها . والناس الذين سمعوا في الفساد مثل أمين وغيره ، فهؤلاء
لا حاجة لهم في صلاح الوطن ، بل حاجتهم في امتلاء جيوبهم ... » إلى أن قال : « وقد
بلغني ما أساءني جداً وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلي فإنني والله تأسفت غاية
الأسف ، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد ومنفعة عمومية لأهلها . ونحن كل من سعى في
المصالح العمومية فهو حبيبنا ... » .

هذا نوع من إحساس السيد أحمد نحو رمضان وهو لا شك يعبر عن شعوره بمكانة
رمضان الوطنية . وقد جاء فيه من الألفاظ ما يدل على أن رمضان بعيد عما كان يذره الترك

السيد أحمد الشريف

في مرسين

لما كان السيد أحمد في مرسين بتركية طلب كولونيل إيطالي مقابلته ، وفي أثناء
المقابلة عرض عليه عقد صلح بينه وبين إيطاليا . فقال السيد أحمد نحن لا نكره الصلح ،
ولكن على شرط الاستقلال الحقيقي لوطننا . ثم سأله : هل عندك تفويض من
حكومتك بالصلح ؟ فقال الكولونيل : لا ، ولكن يمكنني أن أحصل على

التفويض . فقال له السيد : إذاً بعد حصولك على التفويض قابل الأستاذ عبد العزيز جاويش ، واذكر له ما تريد . واتصل السيد أحمد بالأستاذ جاويش وذكر له القصة ، وقال له اعرض على الجواب .

وبعد قرابة شهر اتصل الكولونيل بالأستاذ جاويش وأفضى إليه بما تريده حكومته ، فعرض خلاصة الشروط على السيد ، فكان جوابه ما يأتي : « قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم . وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الاقتصادية ، وأن يكون استثمار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الأجانب فأما حقوق الملكية فلا نزل عن شيء منها ، وسلاحنا لا بد يبقى في أيدينا . وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود بهما على الطليان بل هما ملك أهلها » .

فلما رجع الأستاذ جاويش إلى الطليان بالجواب علموا ألا سبيل إلى الصلح ، فأذاعوا في الجرائد أن مفاوضاتهم للسيد السنوسي غير صحيحة . وقبل أن يقدم السيد أحمد على هذه المفاوضة أخبر مصطفى كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح إذا طاب له ووافقته شروطه .

ونحن نقدر للسيد أحمد الشريف هذا الموقف المشرف من القضية الطرابلسية وتمسكه بحقوق طرابلس وبرقة على السواء واعتبارهما وحدة لا تتجزأ ، وما شرطه على الطليان من شروط كلها في مصلحة الوطن وأهله .

مدة الحرب في برقة

ابتدأت الحرب في برقة في أكتوبر سنة ١٩١١ . وانتهت في مارس سنة ١٩١٦ يوم أن استرد الانجليز السليم^(١) . وبقيت مناقشات بين السيد أحمد والانجليز في الواحات وسيوة انتهت في فبراير سنة ١٩١٧ .

(١) هذا إذا صح أن نسمي ما وقع بينه وبين الانجليز حرباً ، أما الحرب الإيطالية التي هي من أجل قضية الزنطن فقد انتهت من برقة قبل ديسمبر سنة ١٩١٥ .

بعد القضاء على حركة السيد احمد

قضى الانجليز على حركة السيد أحمد في أقل من سنة ونصف . وفي هذه المدة كانت الثورة في طرابلس مركزة في السواحل ، وتم انسحاب الطليان من جميع البلدان الطرابلسية وانهضوا في مدينتي طرابلس والتمس .

وقد أيقن ولاية الأمور في الآستانة أن برقة لم تعد صالحة لتنفيذ السياسة المعاكسة للحلفاء بعد أن تقلب الانجليز على السيد أحمد ، فالتجأت أنظارهم إلى طرابلس ليتخذوا منها مركزاً للقيام بسياسة معاكسة لأعدائهم ، فأروا أن يقدموا لهذا الأمر بما يجعلهم على بينة مما عليه الحال في طرابلس ، خصوصاً بعد ما وقع في برقة من أحداث قد يظن أن أثرها امتد إليها .

يحيى الباروني في مصراتة

فكفوا يحيى الباروني بالسفر إلى طرابلس — وكان إذ ذاك في الآستانة — لينظر الحال ويختبر وضع البلاد وشعور السكان ، فسافر في غواصة وأنزله على « بورتمة » جنوب مصراتة ، ووصل إلى مصراتة يوم ٧ من رمضان سنة ١٣٣٤ هـ ، وكان القائم بالأمر فيها إذ ذاك رمضان السويحلي ، فاتصل به وأخبره أخبار الآستانة وما تنويه الحكومة التركية من الاتصال بالثورة في طرابلس مرة ثانية وشاهد الحركة الوطنية بنفسه ودرسها عن كثب .

ولم يلبث أن عاد إلى الآستانة في غواصة ومعه الدكتور عثمان^(١) ، وبلغ حكومة الآستانة ما شاهده بنفسه وما فهمه من الزعماء في اجتماعهم ، وشرح لهم ما عليه الوضع السياسي والحربي في طرابلس . كما أن الدكتور عثمان أدلى بما وصل اليه اختباره لروح الطرابلسيين ، وما شاهده من تصميمهم على مداومة الحرب . فكانت معلومات يحيى الباروني والدكتور عثمان من أقوى الأسباب التي سهلت لولاة الأمور في الآستانة أن يلحقوا طرابلس بتركية .

(٢) الدكتور عثمان كان ضابطاً تركيا . وقد طوحت به ظروفه إلى السودان وجاء منها إلى طرابلس ، ورجع إلى الآستانة في الغواصة التي أقلت يحيى الباروني .

الإحق طرابلس بتركية

مهد الترك لهذا الإحق فاستصدروا « فرماناً » مرسوماً سلطانياً من جلالة السلطان بإحق طرابلس بتركية .

وقد جاء هذا الإحق في وقت كان الطرابلسيون محتاجين فيه إلى المساعدة فاجتبطوا له أيما اغتباط ، وهم يعلمون أن الترك لم يقصدوا من اتصالهم بطرابلس في مثل هذه الظروف نفع الطرابلسيين ولسكنها سياسة مبيتة بينهم وبين الألمان لإشعال الثورة ضد الانجليز والطلبان ربح الطرابلسيون أو خسروا . وقدمرت على طرابلس نحو ثلاث سنوات وهي مقطوعة الصلة بتركية حساً ومعنى . ولم تفكر تركية في اعادتها إليها أو الاتصال بها من يوم أن تنازلت عنها للطرابلسيين بمعاودة أوشى في أكتوبر سنة ١٩١٢ لأن الأحداث التي توالى عليها في الداخل والخارج ، والحرب العالمية التي انتهت بتمزيقها وسقوط الآستانة في يد الحلفاء أنهكت قواها وحالت بينها وبين التفكير في طرابلس . وما تغنى عنها طرابلس وهي مهددة في الآستانة ، والدردنيل على وشك السقوط في أيدي الأعداء ، إذاً فإحق طرابلس بالآستانة كان سياسة مبيتة - كما ذكرنا - بين الترك والألمان لإذكاء نار الثورة في طرابلس واستئنافها في برقة إن أمكن من طريق وجودهم في طرابلس ليتمكنوا من شغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الإنجليزية والإيطالية .

في سرت

انتبه السيد إدريس السنوسى فرصة الخلاف القائم بين ترهونة ومصراتة وأرسل جماعة مسلحين من طرفه برياسة الشيخ صالح الأطيوش لاحتلال سرت - وكانت اذ ذاك تابعة لمصراتة - فاحتلوها على أثر ما حصل بين صفى الدين ورمضان السويحلى .

الفتنة الجائحة

من حوادث سنة ١٩١٦ تلك الفتنة الجائحة التي وقعت في أوائلها . وهي حرب

الاباضية والزنتان الأولى . حرب اشتملت على كثير من الشناعات ، اقتتل فيها الإخوة والمواطنون . فكانت حرباً مخربة ، ومقتلة انتقامية أسفرت عن قتل الوطن كله بما خلفته من حزازات ، وأحقاد عجزت الأيام عن محوها .

وكانت سبباً في حرب سنة ١٩٢٠ التي كانت سبباً في استيلاء الطليان عن الوطن كله .

الباروني في مصراتة

وقد وجدت حكومة الآستانة في المعلومات التي أدلى بها يحيى الباروني والدكتور عثمان ما أقنعها بصلاحيه طرابلس لتكون مركزاً للسياسة التركية في شمال افريقية ، وأن الثورة فيها على وضع يستحق العناية وبذل الجهود . فعينت سليمان الباروني والياً على طرابلس ، وقومنداناً عاماً لها ، وأرسلته في غواصة هو والدكتور عثمان الذي كان سافر للاستئانة مع يحيى الباروني ، وأرسلت معهما ملابس ونياشين ورتباً عسكرية ، ونحو أربعة آلاف جنيه — أكثرها عملة مجيدية — وآلات حربية ، ونزل على مصراتة في ابريل سنة ١٩١٦ . ولم تترك الحكومة العثمانية التصرف للطرابلسيين في ما كانت ترسله من أموال وسلاح ، فأرسلت الدكتور عثمان مع الباروني للاشراف على ما أرسلته .

وعقب وصول الباروني الى مصراتة أرسل كقائماً الى الشيخ سوف في العزيزية — وكان رئيس المجاهدين فيها — والى الأعيان والمشايخ يخبرهم فيه بقدمه ، وهذا نصه :

« انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . عدنا والله الحمد — والعود أحمد — الى وطننا العزيز من دار الخلافة العظمى تحملنا عفاريت البحر السابحة فوق جبال الأمواج تارة ، وتحت عمق خمسين ذراعاً في لجج اليم أحياناً .

إلى أن قال : عدنا والله الحمد ، ومعنا كل ما يلزم ، واستقبلنا أهل مصراتة الكرام بكل سرور وابتهاج .

هذا وقد تفضل أمير المؤمنين أيده الله — فأمر حكومته بإحراق طرابلس الغرب بلادنا بالولايات العثمانية ، واقتضت إرادته السنية إرسالي لأجل إجراء الترتيبات اللازمة ملكية

وعسكرية وتعهد أن يوالى المدد إلى النهاية كما تطلعون على ذلك فى منشوره العالى الشأن .
وسنعرفكم من مركز مسالاة بعد المذاكرة مع البطل الغيور رمضان بك ومن معه من
الأبطال عن المكان واليوم الذى يصير فيه الاجتماع العمومى إن شاء الله ، فانتظروا جوابنا
والسلام الأسنى على العلماء الأفاضل والمشايخ ورجالكم الكرام . من أخيك
سليمان البارونى ١٩ ذى الحجة سنة ١٣٣٤

كتابه إلى إدرىس السنوسى :

وقبل سفره إلى مسالاة أرسل كتاباً إلى إدرىس السنوسى يطلب منه الانسحاب من
سرت قطعاً للفتنة والنزاع . وهذا نصه بعد الديباجة :
هذا وقد وصلت مصراتة مراسلاً من لدن حكومتنا السنية بطلب من الأهالى
بعنوان والى وقومندان طرابلس . ولدى وصولى المركز وصل الخبر بأن قوة قدمت من
جهة برقة تحت قيادة القائمقام موسى بك واحتلت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الزاندرمة
التي هناك من طرف رمضان بك السويحلى باسم الدولة العثمانية ، فبادرت بإرسال جواب
إلى موسى بك والشيخ صالح الأطيوش لأنه بلغنى أنه مع القوة المذكورة . فجاء الجواب
من الشيخ صالح مبيناً فيه أنه ما قدم إلا بأمر من سيادتكم ومن نورى باشا بعنوان
« متصرف سرت » فتأسفت لأنه كان أول أمر أصدرته متعلقاً بتجهيز قوة لمقابلة تلك
القوة المنسوبة إليكم إلا أننى أمرت قومندان القوة أن يتحاشى — ما أمكن — الدخول
فيما يكدر الخواطر بين بنى وطن واحد ودين واحد رجاء أن تتخلى القوة مختارة عن القصر
بعد أن يبلغها المنشور السلطانى الذى أرسلناه إليكم .

بناء عليه أرجو المبادرة إلى تسوية هذه المسألة إن كان أمر حركتها صادراً منكم .

٢٧ — ٢٨ من ذى الحجة سنة ١٣٣٤

فرد عليه السيد إدرىس بكتاب يقول فيه :

« » وذكرتم نزول عساكرنا بسرت فصحيح ذلك قبل قدومكم ، إذ كانت
الفتن مشتتة بين السويحلى وترهونة ، فأجبرنا الحال أن نطعمها بأى كان كما قال الله تعالى :

« وإن طائفتان » وذكر الآية . فأرسلنا الجيش ونزل بسرت من دون إذن أحد
 وها نحن أمرناهم بأن يقفوا بالقصر ^(١)
 نحن لا غرض لنا إلا اتحاد الإسلام وتخليص رقاب المسلمين فقط ، كما أننا نأمل من
 جنابكم معاونتنا على اطفاء الفتنة ونحن وأتم لا فرق بيننا ، كلنا مقصدنا شريف
 ومحارب تحت الراية الإسلامية العثمانية .

محمد ادريس ابن السيد المهدي

٨ المحرم سنة ١٣٣٥

ولم يطل الباروني للمقام في مصراته ، ثم سافر إلى العزيزية مركز المجاهدين بالجهة
 الغربية . وقد مر في طريقه بمسلاته حيث الحرب قائمة بين مصراته و ترهونة ، واجتمع
 برمضان السويحلي وبرؤساء ترهونة وتوسط بينهما بالصلح ووقف الحرب ، فقبلت هذه
 الوساطة من الطرفين وأوقفت الحرب ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١٣٣٥ ، غير أن
 الحرب لم تضع أوزارها ، ولم يتم الصلح بين الطرفين وبقي كل منهما واقفاً في مكانه
 نحو ستة أشهر .

استمر الباروني في طريقه إلى العزيزية . وهناك اجتمع بأعيان العزيزية والزاوية
 والجبل والجهة الغربية كلها ، وتلى الأمر السلطاني بإلحاق طرابلس بالولايات العثمانية كما
 قرى الأمر العالي بتولية الباروني والياً على طرابلس ^(٢) ، وكان ذلك بحضور جم غفير
 من الطرابلسيين من المجاهدين ورؤسائهم وأعيان القبائل وأشرافها .

وما زال الناس قريبي العهد بدولة الخلافة ونفوسهم متأثرة بتابعيتهم لدولة مسالمة
 تدين بدينهم وتعتمد ما يعتقدون . ولم يجدوا في نفوسهم غضاضة من إلحاق بلادهم بدولة
 الخلافة مرة ثانية ، بل وجدوا في ذلك راحة لهم وقوة على ما هم بسبيله من الجهاد . وانفض
 الاجتماع وانصرف الناس كل إلى عمله ، كما انصرف الباروني لإدارة ما أسند إليه من
 شئون ، واتخذ الزاوية مركزاً له .

(١) يعني قصر سرت وجلاوا عنها في شعبان سنة ١٣٣٥ ومن هذا التاريخ رجعت الى نفوذ مصراته .

(٢) لم تحصل على أمر الإلحاق ولا على أمر التعيين .

نوري وعزام في مصراتة

لما فشل هجوم الأتراك على مصر ، وهزم الإنجليز السيد أحمد الشريف تولى الأمر بعده في برقة ابن عمه السيد ادريس فرأى من المصلحة أن تقطع صلة برقة بالترك لأن سياستهم فيها عادت عليها بالضرر والخسارة ، فعمل لذلك ، واتصل بالإنجليز والطلليان وعقد معهم معاهدات .

وقد بقي من الأتراك ومناصريهم جماعة في برقة منهم نوري بك أخو أنور باشا ، وعبد الرحمن بك عزام والكونت مانسمان الألماني^(١) . ولما يتسوا من تنفيذ سياستهم ضد الإنجليز في برقة ، وانضح لهم ميل السيد ادريس إلى عقد معاهدة بينه وبين الإنجليز والطلليان انتقل نوري بك وعزام بك إلى مصراتة فوصلها في أواخر سبتمبر سنة ١٩١٦ وبقي الكونت مانسمان في برقة وقد أفاد وجود عزام ونوري الحركة الوطنية عنصراً آخر من النشاط . وقد تجلى نشاط عزام بك في تهذئة الفتنة القائمة بين ترهونة ومصراتة ، وما زال يسعى بالخير حتى قبلت وساطته وأتم ما مهد له الباروني . واجتمع الفريقان في روضة سيدى أبي الأجراس في فواتير مسلاتة ، وآساحا ، وتم الصلح بينهما . وكان ذلك في رمضان سنة ١٣٣٥ و بانتقال عزام ونوري إلى مصراتة انتقل النشاط السياسي التركي إليها .

اتفاق ترهونة ومصراتة

كان اتفاق ترهونة ومصراتة من أقوى أسباب نجاح الحركة الوطنية ، وكان بركة على جميع القطر ، وكل ما وقع بعده من أدوار النشاط إنما تم بسببه . وقد حصل في وقت أضيف فيه إلى الجهاد الوطنى عناصر قوية ، فكان — مع ما لا يسه من هذه العناصر — عهداً جديداً كله خير وبركة على الوطن .

(١) كان الكونت مانسمان يمثل السياسة الألمانية في برقة ولما سافر نوري بك وعزام بك إلى مصراتة ، ولم يبق أحد من ممثلي السياسة التركية في برقة لم يعد في بقائه فيها فائدة فسافر إلى مصراتة . وكانت معه نقود ذهبية كثيرة فقتل في الطريق قبل أن يصل إلى سرت ، وأخذ كل مامعه من النقود وكانت تربى على عشرة آلاف جنيه ذهباً .

تحول سياسي

كانت الغواصات الألمانية تأتي إلى برقة لإمداد القائمين فيها بالسياسة التركية بما يلزمهم . ولما فشلت هذه السياسة ، وانتقل عزام ونورى إلى طرابلس اتجهت الغواصات إلى مصراته ، وصارت تأتي بما يلزم لتغذية إدارة الحرب من المال والسلاح .

وفي ربيع الأول سنة ١٣٣٥ نزلت مركب على السميرة شرق قصر حمد بنحو ١٦ كيلو متراً برياسة محمد القابسي مرسله من الأمتانة محملة بالسلاح والأدوية وفيها ماينوف على ثلاثين دراجة . وفيها اثنا عشر صندوقاً مملوءة بالجيدى (عملة فضية عثمانية) وحضر إليها نورى من مصراته لتسلم ما فيها وقد طاردها الأسطول الإيطالى وضربها بالمدافع ، ولكنها تمكنت من الوصول إلى البر سالمه . وفي اليوم الثانى جاءت بعض قطع الأسطول وأنزلت جنوداً للكشف عنها فمكن لهم المجاهدون وضربوهم بالرصاص وكان ذلك بحضور نورى بك وعزام بك فقتل بعضهم وفر الباقون .

ولم يعد غريباً أن تصبح طرابلس مركزاً لإدارة السياسة التركية الألمانية فى افريقية لأنها أصبحت تابعة لتركىة ، وكان مركز هذا النشاط السياسى مصراته .

مصراته

لهذه المناسبة نحب أن نعرف بمصراته تعريفاً سياسياً ليكون القارىء على علم من هذه المدينة الصغيرة .

مصراته من أحسن المدن الطرابلسية وأقدمها فى التاريخ وأشهرها فى النشاط التجارى وعاصمتها المواطنين ، وهى تبعد عن البحر بنحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب الغربى . ومينائها البحرى قصر حمد ، وله شهرة قديمة بين وائى البحر الأبيض المتوسط الإفريقية . ولفظ مصراته كما يطلق على البلد يطاق على سكانه ، فيقال للبلد مصراته ، ويقال لسكانه مصراته ، وقبيلة مصراته . وكانت زمن الحكومة العثمانية تابعة فى الإدارة لمصرفية الخمس ، ويسمى رئيس الإدارة فيها قائمقاماً ، وجاء الاحتلال الإيطالى وهى على هذا الوضع .

وبعد أن أجلي رمضان السويحلي منها الطليان أسس فيها حكومة وطنية وتولى رياستها ودان له أهلها بالطاعة على طيب نفس من الكثيرين ، وعلى مضض من البعض .
وعلى هذا الوضع وجد الباروني مصراته بعد مجيئه من تركيا ، ووجدها كذلك عزام بك ونورى بك بعد مجيئهما من برقة فطاب لهما بها المقام ، ووجدا في سياسة رمضان متسعاً لنشاطهما وبذل جهودهما في الإصلاح والتنسيق . وكانت مصراته فيما بعد محطاً للغواصات ، كما كانت مقراً للأمير عثمان ومديرى السياسة التركية .

وقد اجتمع فيها من عناصر الحياة ما جعلها في مقدمة البلاد الطراباسية أثناء الحرب كلها ، بل زعيمة للحركة الوطنية في طرابلس . وأقوى هذه العناصر هي رياسة رمضان بك السويحلي عليها وصلابة عوده وعفة نفسه . ومن العناصر القوية اتخاذا مركزاً لإدارة السياسة التركية التي تتبعها إدارة الحرب . وكانت سياسة مصراته هي الميزان الذي يوزن به سياسة الحرب في طرابلس كلها .

وكانت ضرورات الحرب تلح في إكمال ما ينقصها ، وولاة الأمور يبذلون جهودهم للوصول إلى سد هذا النقص ، فنشأ فيها نوع من صناعة الحديد لإصلاح بعض القطع الحربية الصغيرة وملء الخرطوش الفارغ . ونشأت فيها صناعة دباغة الجلود لإعداد بعض ما يلزم لآلات الحرب من السيور . وأنشئت فيها مدرسة لتخريج صغار الضباط في أوائل سنة ١٣٣٥ واستمرت إلى أواخر سنة ١٣٣٦ هـ . وتبعاً لهذا النشاط الحيوى اتجهت أنظار الناس إليها من كل جهة ، وأصبحت سياسة مصراته السياسة الوطنية التي يجب اتباعها وتنفيذ خططها .

ولم يؤثر وجود الأتراك في مصراته على نفوذ رمضان بك السويحلي لأن وجهة النظر كانت واحدة تقريباً . على أن الأتراك وجدوا في صلابة رمضان ما جعلهم يتحرون اتجاهه بنوع من الحكمة .

نفوذ مصراته

وكان نفوذ مصراته المباشر يشمل : ظليتين ، وساحل آل حامد ، والخمس (ما عدا

المدينة) وقصر خيار ، ومسلاتة ، ويمتد جنوباً إلى سرت . وقد استمر هذا الوضع منذ أن أسس رمضان بك حكومته فيها في أغسطس سنة ١٩١٥ إلى أن احتل الطليان البلاد كلها في سنة ١٩٢٢ .

أما نفوذها الأدبي فقد كان لرمضان بك أنصار في جميع الجهات . ومن هؤلاء الأنصار خليفة بن عسكر في نالوت ؛ والشيخ محمد هويصة في الزاوية ومعه قسم كبير من البلاغزة ، وخليفة الدعيك — الذي اشتهر أخيراً بخليفة الزاوى — في فزان ، وكان حاكماً عليها ، ومختار بك كيمبار وأخوه الهادي في غريان . وكل هؤلاء وأتباعهم كانوا من المعجبين برمضان بك وسياسته . وكانوا يرون فيه الرجولة الممتازة والوطنية الصادقة .

هذه لمحة من حياة مصراتة السياسية في الجهاد الطرابلسي . أما حروبها وما وقع فيها من معارك فسيجدها القارئ مدونة في أما كتبها من سلسلة الوقائع الطرابلسية التي تسكب الفخر وتخلد المجد .

جديد

جد على طرابلس في سنة ١٩١٦ عناصر قوة هي : التحاق بعض العناصر التركية والعربية بها ، وتردد الغواصات الألمانية عليها محملة بالنقود والعتاد الحربي . وقد أحدثت هذه العناصر قوة ملموسة في جميع ما يتصل بحياة المجاهدين ، ونشاطاً في روحهم المعنوية ، وكان لها أكبر الأثر في انتصاراتهم التي أحرزوها في سنى ١٩١٧ و١٩١٨ و١٩١٩ ، كما أحدثت احتسكاكاً في الأفسكار كان من نتائجه أن فتحت ميدان التنافس لتعرف طرق الحياة ، وتلقى الدروس العملية فيما يجب للوطن وعلى الوطنيين . وقد استفاد الطرابلسيون من هذا الاحتسكاك في تحسين إدارتهم وإصلاح شئونهم . وأكسب وجود هذه العناصر الحركة الوطنية استقراراً بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الطرابلسيون في سنة ١٩١٥ وأواخر سنة ١٩١٤ . وتركزت في الساحل الذي يمتد من مصراتة إلى زوارة (١) .

(١) كانت الحرب في سنة ١٩١٥ وأواخر سنة ١٩١٤ حرب طراد وجولان في ميادين متقلبة بين فزان ومدينة طرابلس ، وبين سرت وزوارة .

وتولى نوري بك الإشراف على ما يتعلق بالأعمال الحربية وكان الأستاذ عبد الرحمن بك عزام نقطة الارتكاز فيما تلتقى فيه مصلحة الإدارة ومصلحة القيادة الحربية . وكان لحذقه ولعربيته المقام الأول في هذا المركز الممتاز .

وكان بيد المجاهدين كثير من الأسلحة المختلفة مما غنموه في مصراتة وترهونة وغيرهما ، من المراكز التي انسحب منها الطليان في سنة ١٩١٥ . يضاف إلى هذا ما كانت تأتي به الغواصات إلى مصراتة . فاجتمع لديهم من العتاد الحربي ما شجعهم على ملاقات العدو ، وأصبحوا على أتم استعداد لمنازلته .

نشاط العدو

وقد أبدى العدو نشاطاً كبيراً في مختلف الجهات — وخصوصاً في جهة زوارة — حتى أصبح المجاهدون يتوقعون هجومه عليهم في كل وقت . وكان المجاهدون يكتفون بجهة متصلة من العزيزية إلى زوارة . وكانت هذه المنطقة أكبر ميدان لنشاط العدو ويعلق عليها آماله في النجاح ، كما أنها كانت أكبر ميدان وقف فيه الطراباسيون أشرف المواقف ولاقوا فيه أعظم الخطوب .

وكانت العزيزية هي مركز الأساس ، والقلب النابض لهذا الميدان ، تشرف على حركة الجهاد كلها من قصر القربولى إلى زوارة وبلى العزيزية في تركيز قوة المجاهدين الزاوية ، لأنها كانت ميسرة القلب المباشرة له ، فكانت تدافع عن نفسها ، وتمدد القلب بما يحتاجه عند الاقتضاء . وكانت نقطة ارتكاز يعتمد عليها الجناح الأيسر الذي يمتد إلى زوارة في كثير من أعماله . فبينما ترى مجاهدى الزاوية يحاربون في جنزور إذا بالأمير يصدر إليهم بالذهاب إلى زوارة لملاقاة العدو هناك ، فلا يأتى مساء اليوم الثانى إلا وهم في زوارة .

وقد جمع الطليان في هذا الميدان ما أمكنهم جمعه من الجيوش وآلات الحرب ، استعداداً لمعركة فاصلة يتقرر فيها مصيرهم في طراباس . وذكر البارونى باشا في بعض كتاباته أن أحد الإيطاليين أخبره أنه كان لهم فيما بين طراباس وزوارة مائة وعشرون ألف جندي

وسيتضح للقارئ فيما سنفصله بعد أن الصراع كان عنيفاً بين الطليان والعرب لكسب المعركة ، ولكن ما أبداه المجاهدون من الصلابة وقوة الدفاع جعل هجمات الطليان الشديدة تبوء بالفشل . وبدأ المجاهدون يتحرشون بالطليان ، فلم ير الطليان بداً من مقابلة هذا التحرش بمثله بل رأوا أن يسبقوا المجاهدين بالهجوم .

هذا أهم ما حصل في سنة ١٩١٦ وكان كله استعداداً لما حصل في سنة ١٩١٧ من معارك حامية .

معركة الجديدة

ودخلت سنة ١٩١٧ وكان الطليان على أتم استعداد للهجوم . فجهزوا جيشاً عظيماً بقيادة الجنرال « لاتيني » وهاجموا على المجاهدين يوم ١٦ من يناير سنة ١٩١٧ في الجديدة بقرب بوعجيلة وثبت المجاهدون النهار بطوله ، ونازلوا الطليان منازلة الأبطال . وكان الطليان يقصدون من هجومهم على الجديدة صرف نظر المجاهدين عن بوعجيلة وجلب قوة المجاهدين منه إلى الجديدة . وكانوا أعدوا قوة كبيرة للهجوم على بوعجيلة ، وقد حصل ذلك وهاجموا عليه صبيحة اليوم التالي للمعركة وهو يوم ١٧ . وقد طير الخبر إلى الزاوية منذ اليوم الأول وجاء منها من المجاهدين ما سد النقص في بوعجيلة بدل الذين ذهبوا مدداً إلى الجديدة . وبهذا تكرر المجاهدون وفازوا بالمعركتين وارتد الطليان إلى زوارة . والنصر من ميزاته حفز الهمم وتنشيط النفوس ، فكانت هذه المعركة حافزاً للمجاهدين ومنشطاً .

وقد أراد الطليان أن يعيدوا الكرة في قوة أكثر وقيادة قائد آخر . ففي أواخر مارس سنة ١٩١٧ جمعوا جيشاً عظيماً من ناحية زوارة بقيادة الجنرال « كسانيس » ووجهته طرابلس . وقد قسم هذا الجيش إلى ثلاثة أقسام : قسم جاء على الطريق الساحلي ومعه سلطان بن شعبان . وقسم جاء على جنوبى بوعجيلة ، وقسم جاء في الوسط يشق بوعجيلة ، ووجهة الأقسام الثلاثة طرابلس على طريق صرمان والزاوية وجنزور للقضاء على من

في طريقهم من المجاهدين الذين يحتلون كل هذه المناطق .

وخرج هذا الجيش يغطي وجه الأرض بجنوده وبنوده ، فالتقى به المجاهدون في اليوم الخامس من أبريل سنة ١٩١٧ نجسوه عن التقدم ، وركبته خيل المجاهدين . وعبثاً حاول الثبات ، فكانت جنوده تسابق الريح مرتدة إلى الوراء ، وآخر نقطة وصلت إليها ميسرته زواغة « صبراة » من ناحية شاطئ البحر ، ثم ارتد من بقي منه إلى زوارة يجر أذيال الهزيمة . ووقع سلطان بن شعبان في بئر وأخرج منها ومات عقب وصوله إلى زوارة مباشرة .

سلطان بن شعبان

كان عيناً من أعيان زوارة ، وسرياً من سرائها . ورث الحسب والنشب عن آبائه وأجداده . وأول ما نزل الطليان في طرابلس كانت زوارة — وعلى رأسها هو وغيره من أعيانها — في طليعة المجاهدين ، وكانت لهم مواقف محودة في الهاني وجنزور وحروب زوارة ، وكانوا وحدة متممة لصفوف المجاهدين .

وقد وقعت مسائل يظهر أن نفسه تأثرت بها : منها أن سوف بك لما رجع من الشام عين عيسى بن سهمين قائماً على زوارة ، وكان يرى نفسه أحق بهذه الوظيفة . وحينما ذهب إلى مسالاة رأى من سوء تصرف السنوسية واستبداد التوائى في فتنة صفي الدين واجتماع مسالاة ما زاد نفسه تأثراً . وما كان من فتنة كلب السيد التي كانت من أكبر الأسباب في حرب الاباضية والزنتان . فإذا أضيف إلى هذا ما وقع في الحرب الأولى بين الزنتان والاباضية أمكن للإنسان أن يقول إن نفس سلطان بن شعبان كانت متأثرة بهذه الأسباب مجتمعة ومتفرقة . مما حمله على الاتصال بالطليان . انظر ص ١٨٥

وإنا نأسف أن يحرم الوطن من معاونه عظيم من أبنائه مثل سلطان بن شعبان . ولو استعان على نفسه بشئ من التسامح وسعة الصدر ، لساق الله على يديه من الخير الوطن ما خلد ذكره وأسعد وطنه ، ولكن شاء الله ذلك ولا راد لمشيئته .

استئناف الهجوم

وكان لهزائم الطليان المتتابعة أثر سيئ على نفوسهم ، فأحبوا أن يجددوا كرة نائشة ولكنها ليست كسابقتيها ، بل إن قيادتهم رأت أن تكون الحملة مزدوجة : يخرج قسم من الجيش من طرابلس ليشغل قيادة المجاهدين بالعزيرية وما حولها ، ويمتد بعض هذا القسم إلى جنزور وإلى الزاوية إن أمكن لتوسيع الجبهة على المجاهدين وشغل أكبر قسم منهم بالحرب حتى لا يمكنهم إرسال نجدة لمواجهة الجيش الآتي من زوارة . ويخرج قسم من زوارة ووجهته طرابلس لاحتلال بو عجيلة والزاوية والقضاء على من فيهما من المجاهدين . وتكون نتيجة نجاح هذا التدبير التقاء القوتين ، والاستيلاء على الساحل الغربي كله من طرابلس إلى زوارة . ومضت خمسة أشهر بعد هزيمتهم في أبريل سنة ١٩١٧ وهم يعدون العدة لهذه الحملة الهائلة . وخرج مع هذا الجيش يوسف خريش رئيساً على المرتزقة .

وقد ترامت أخبار هذه الاستعدادات إلى قيادة المجاهدين في العزيرية ، فكان الباروني باشا ، ونورى بك هما اللذان يشرفان على ترتيب المجاهدين ، وأعدوا للأمر عدته ، وصدرت الأوامر إلى سوف وغيره من رؤساء المجاهدين بالاستعداد لملاقاة العدو ، وجمعوا من المجاهدين ما يمكن جمعه ، وأعدوا أنفسهم للقتال .

بدء الهجوم

وفي فجر اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩١٧ ابتدأ الطليان الهجوم من ناحيتي طرابلس وزوارة ، واعترض المجاهدون هذا الزحف الهائل ، وكان سيلاً جارفاً من ناحية زوارة ، فلم يقووا على صده ، وفي اليوم الرابع احتل جهة الوادي بقرب بو عجيلة . واستمر الطليان في تقدمهم إلى ناحية الشرق فاحتلوا بو عجيلة وصرمان والزاوية وجدّام وصياد . وقد أتوا في الزاوية من الخججلات ما يندى له جبين الإنسانية : فمدوا أيديهم إلى الحرّات ، وسلبوا النساء أقراطهن وحليهن في قسوة كانت تؤدى في كثير من الأحيان إلى قطع شحمة الأذن مع القرط . وخرج النساء والأطفال والمعجزة من الرجال إلى العراء هرباً بأرواحهم ، ولم

يفن عنهم ذلك شيئاً ، فقد قتلوا في غير رحمة . وكم من أعمى قتل وهو يتلمس موضع قدمه ، ومقعد اخترقت الرصاصة قلبه وهو لا يقدر على النهوض .

أدوّن هذا وأماي كثير من الحوادث مع أناس أعرفهم ويعرفونني قتلوا على هذا النحو ، وما زال على قيد الحياة الذين شاهدوا في مدينة طرابلس أقرط النساء معروضة للبيع وفيها قطع من آذانهن . وكانت قسوة الطليان والمتطليين أشد من أن تحترم حرمة النساء . وضعف الأطفال والمقعدين . وقد تولى كبر هذه الشفاعات يوسف خريش ومن انضم إليه من المرتزقة ، وهم الآن بين يدي الله يجازيهم بما يستحقون .

وفي اليوم التاسع — وهو اليوم السابع للمعركة النقت القوتان في جنزور . وفي أثناء ما كان الجيش الآني من زوارة يتقدم إلى الشرق كانت القوة التي خرجت من طرابلس بقيادة الكلونيل بروني مشتبكة في معارك هائلة مع المجاهدين في سواني بنيادم وفندق ابن غشير . وفي اليوم الحادي عشر اشتركت القوتان : الآتية من زوارة والآتية من مدينة طرابلس في محاربة المجاهدين ، فتراجعوا إلى فندق ابن غشير وسواني بنيادم .

حسين الكريتلي

وقد ظن الطليان أنهم على قاب قوسين من النصر النهائي ، فأرادوا أن تكون الضربة قاضية ، فجاءوا بقوة أخرى هائلة فيها كثير من المرتزقة وعلى رأسهم حسين الكريتلي ، واجتمعت هذه الجيوش الإيطالية كلها واتجهت نحو العريزية وهي مركز قيادة المجاهدين . وأتيحت للمجاهدين برهة من الوقت جمعوا فيها ما يمكن جمعه . وأصبح المجاهدون أمام خطر داهم وقوة لاتعد بالآلوف بل بعشرات الألوف . ونزل الباروني باشا ومحمد سوف بك ونوري بك إلى الميدان بأنفسهم واشتركوا في المعركة ، وحفزت الهمم وثار الحمية ، وكان الموت أقرب إلى المجاهدين من أنوفهم ، واعتزموا الدفاع إلى آخر رجل منهم . وفي يوم ٢٠ من سبتمبر سنة ١٩١٧ التقى الجمعان في فندق ابن غشير ، وحمل الوطيس ، وسكت كل شيء إلا الحديد والنار ، ووجه المجاهدون نيرانهم إلى قلب الجيش الإيطالي فقتل حامل الراية ، فازدحموا على حملها ، فانتبه المجاهدون فرصة هذا الازدحام واشتدوا في إطلاق النار عليهم ،

واشتركت رشاشات المجاهدين في هذا الزحام فكانت تحصدهم حصده المشيم ، وقتل اثنان من تبادلوا حمل الراية ، واستمرت المعركة خمس ساعات على أشد ما تكون المعارك قتلاً ، ثم وقف تقدم العدو ، وقتل حسين الكريتيلى فكان قتله بدء تقهقر الإبطايين ، وحال الظلام دون استمرار المعركة . وانسحب الطليان إلى المدينة وانسحب المجاهدون إلى العريزية وكل من الفريقين لا يدري ما فعل الله بصاحبه . وكادت هذه المعركة تكون فاصلة لولا ثبات المجاهدين وقوة إيمانهم ، وما أبداه نوري بك من دقة الإشراف على فرقة المدافع الرشاشة . وهى من المعارك المعدودة في الحرب الطرابلسية التى أبلى فيها الطرابلسيون بلاء حسناً أمام جيوش الطليان الهائلة كثيرة العدد والعدد .

وقد لاقى الطليان في هذه المعركة صدمة هائلة جعلتهم يفيقون من غفلتهم ، ويحسبون لقوة المجاهدين حساباً غير ما كانوا يحسبون ، وتراجعوا عن المراكز التى أخذوها وتحصنوا في زوارة ، وأنشأوا لهم مخفراً في الجليل ، ومكثوا سنة لا يجرأون على الخروج ولا تحذتهم نفوسهم بالهجوم . ولم يقوموا بعمل حربى يستحق الذكر سوى مناوشات صغيرة كانت تقع في فترات متقطعة ، واستمرت هذه الحال الى سبتمبر سنة ١٩١٨ .

سفر نوري وعزام إلى الآستانة

قال الأمير شكيب في حاضر العالم الإسلامى : « لما استدعى أنور أخاه نوري — من مصراته — إلى الآستانة وولاه قيادة جيش القفقاس استصحب معه إلى الآستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام ^(١) . وقال لى نوري مرة هذه الجملة : « لولا هذا الشاب ما كان يمكننى أن أوفق في طرابلس » . وكان عزام يد نوري اليمنى » .

الأمير عثمان فؤاد في مصراته

قال الأمير شكيب : « لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد بن الأمير صلاح الدين إلى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها مكان نوري باشا أرسلت معه عبد الرحمن عزام المصرى ^(٢) » .

(١) سافر نوري وعزام من مصراته في أغسطس سنة ١٩١٧ .

(٢) جاء الأمير عثمان وعزام في مارس سنة ١٩١٨ .

مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانقدت المتاركة - ومن جملة شروطها إخلاء الأتراك لطرابلس - صدرت الإرادة السلطانية إلى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد فذهب إلى تونس وسلم نفسه إلى الفرنسيين ، وهؤلاء سلموه إلى الطليان الذين أفرجوا عنه ، ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهي حكومة حلفية^(١) مركزها مصراتة ، وعبد الرحمن عزام هو الذي يدير أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤاف بين الجهات المتنافرة حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم^(٢) .

وقال الأمير شكيب في رمضان :

« وقد مثل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان الشتوى الملقب بالسويحلي ، وجاهد في الطليان حق الجهاد ، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس مر العداوة . وكان يناصب السنوسية العدا^(٣) . فلما قدم عليه نوري مقتظاً مما فعله سيدى إدريس تلقاه براً وترحيباً وعزز به مركزه » .

(١) يقصد الأمير حكومة الجمهورية ، وهي التي كانت تشمل على معنى الحلف ، ولم تتخذ مصراتة مركزاً لها . ونظراً لظروف الحرب التي كانت قائمة حين تأسيسها ، فقد رأى أعضاؤها الأربعة أن يقيم كل واحد منهم في منطقة نفوذه . وفي سنة ١٩١٩ كانت أكثر إقامتهم في العزيزية .

(٢) ننقل هذا عن الأمير شكيب ، وهو من حوادث سنة ١٩١٧ . ونحن الآن في سنة ١٩٥٠ وما زال عزام باشا يحيط هذه القضية بروحه وجميع جهوده ، وكأن الله خلقه من أجلها ، وقد انغمس في العمل للقضية الطرابلسية حتى نسى نفسه . وقد أصبح المرجع الوحيد الذي لا يستغنى أحد عن رأيه فيها . فإما من حكومة - عربية أو أوربية - أو مؤسسة عالمية ، أو هيئة سياسية - وطنية أو غير وطنية - لها صلة بقضية طرابلس إلا وتصدر عن رأى عزام باشا فيما تريد أن تعمله في هذه القضية .

ومن حسن حظ قضيتنا ، أن كان عزام باشا أميناً عاماً لجامعة الدول العربية ، فقد حاول بجميع الطرق إقناع الدول العربية بأحقية هذه القضية ، وبالإلفاق في سبيل نجاحها إلى أبعد حدود الإمكان حتى أصبحت منهم محل العطف وعرفوا عنها ما لم يسكونوا يعرفونه . وإن الذين شاهدوا ما بذله عبد الرحمن عزام باشا من الجهود لنجاح القضية الطرابلسية من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٥٠ لا يشك في أن ما نقله الأمير شكيب حائقة من مسالة جهاده الطويل للقضية الطرابلسية .

(٣) سبب هذه العداوة ما وقع بين صفي الدين ورمضان في مصراتة ، بسبب التصرفات السيئة التي كان يأتيها أنصاره وقد بينا هذا في محله .

جاء الأمير عثمان فؤاد إلى مصراته في مارس سنة ١٩١٨ لتنفيذ سياسة متفق عليها بين الترك والألمان لتعذية الثورة في طرابلس ضد الطليان ، حتى إذا ما وفقوا حاولوا أن تمتد الثورة إلى برقة للاغارة على الإنجليز في مصر مرة ثانية . وكان الأمير عثمان يمثل السياسة التركية أما السياسة الألمانية فكان يمثلها البارون فريدفون توندورف ، وقد تولى هذا إدارة التلغراف اللاسلكي . وكان مجيئهما هما ومن معهما من الضباط بطريق الغواصة ، وجاء مع الأمير عثمان عبد الرحمن بك نافذ أركان حربه .

وكان مما تنطوى عليه هذه السياسة إحياء فكرة جمهورية شمال إفريقية التي قامت من أجلها ثورة الحامة سنة ١٩١٥ . وقد وجدوا من نشاط الطرابلسيين ما شجعهم على المضي في العمل من أجلها . وكان الأمير يحمل لقب « القائد الأعلى للقوات الإفريقية » إعداداً له ليكون قائداً عاماً فيما لو تحققت جمهورية شمال إفريقية ^(١) .

(١) جمهورية شمال إفريقية : كان الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقية مضرب المثل في الاستبداد بالعرب والإساءة إليهم ، وكان الأحرار من التونسيين ، والجزائريين والمراكشيين يفكرون دائماً في التخلص من هذا الكابوس الذي جثم على صدورهم وسلب حقوقهم ، وقد انتهزوا فرصة نشوب الحرب في سنة ١٩١٤ فألف جماعة منهم في الآستانة وفداً أخذ يعمل لإنشاء « جمهورية شمال إفريقية » ينضوى تحت لوأها من حدود مصر إلى حدود بحر الظلمات . وكان في مقدمة هؤلاء السادة المجاهدين السيد علي باشا حنبه ، والشيخ صالح الشريف ، والشيخ إسماعيل الصفاحي ، وهؤلاء الثلاثة من تونس ، ومعهم جماعة من الجزائريين والمراكشيين ، وزار الوفد ناظر الخارجية العثمانية وأبلغه رغبة سكان شمال إفريقية في الاستقلال ، وإنشاء جمهورية إفريقية متحدة ، وطلبوا منه إبلاغ ذلك إلى ألمانيا والنمسا رسمياً ، وأن يسمح لهم بالفر إلى برلين وفيينا لبحث مطالبهم والحصول على الوعود والمساعدات اللازمة .

وعرض اقتراح الوفد على سفير ألمانيا في تركيا ، فأبلغه بأن حكومته لا تتعهد لأبناء شمال إفريقية بالاستقلال إلا إذا ثاروا على الفرنسيين الذين يحتلون بلادهم . وغادر الوفد الآستانة عقب ذلك إلى برلين وزار وزارة الخارجية الألمانية ، وقدم طلباته وقبلتها وسجلتها رسمياً ، كما اعترفت بها النمسا وتركيا أيضاً فكان ذلك أول اعتراف دولي بالجمهورية الإفريقية المتحدة في شمال إفريقية . وقصد الوفد بعد ذلك إلى الهاي (مقر المحكمة الدولية) فسجل هذا الاعتراف في سجلاتها ، لأن عصبة الأمم لم تكن أنشئت إذ ذك .

وتنفيذاً لرغبة الألمان في الثورة على الفرنسيين ، ورجاء الوفاء بما وعدوا به الوفد من المساعدة ، وإمداد الثورة بما يلزمها من المال وآلات الحرب وإنشاء جمهورية شمال إفريقية قامت ثورة الحامة سنة ١٩١٥ فاضطرت فرنسا إلى أن ترسل من جيشها ثلاثين ألفاً لإخماد الثورة . وقد اختيرت الحامة

وباشر الأمير أعماله في مصراته ، ومعه عبد الرحمن بك نافذ أركان حربه ، والأستاذ عبد الرحمن بك عزام مستشاره . ووزع الضباط على مناطق الحرب ، فتولى اسحاق باشا منطقة الزاوية فكان فيها خير مثال للقائد الحربي .

وكانت الحرب إذ ذاك قائمة في جزيرة العرب بين الإنجليز والعرب من ناحية ، وبين الترك من ناحية أخرى ، ولم يطل الأمر حتى رجحت كفة الإنجليز على الترك ، ثم اشتد الضغط عليهم من الجيوش العربية والإنجليزية في الشام ، وتتابعت عليهم الهزائم فخارت قواهم وانهار جيشهم ، فانكسر في معارك حمص وحماه ، وحلب في أكتوبر سنة ١٩١٨ ، فرضوا بالهزيمة مكرهين وألقوا السلاح ، واستولى الإنجليز على المنطقة الممتدة من السويس حتى شمالى حلب . وعقد الترك مع الحلفاء معاهدة جزيرة « موندروس » في ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ تعهدت فيها بسحب جيوشها من جميع البلاد العربية .

ومما جاء في هذه المعاهدة مما يتعلق بطرابلس في المادة ١٧ « يجب على جميع الضباط الترك في طرابلس الغرب أن يساموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالي . ويجب على تركية أن تقطع الأرزاق والمساعدات وكل صلة مع هؤلاء إذا لم يذعنوا ويساموا » . وجاء في المادة ١٩ « تسلم جميع الموانئ في طرابلس ومصراته إلى أقرب قائد لجيوش الحلفاء » .

== مكاناً لثورة لقرها من الحدود الطرابلسية ، وليسهل الاتصال بها والاستناد إليها ، وكانت إذ ذاك على أشدها . وقد قام بهذه الثورة الشيخ سعيد دبان من أعيان جنوبي تونس ومثله في الجمعية الشورية ، فأغار على مراكز الفرنسيين في الحامة . وقد تداركها الفرنسيون بجيوشهم فأخذوها في مدة خمسة أيام ، وأسفرت عن قتل الشيخ سعيد وابنه وخادمه ، وجماعة من رجاله ، وعن نحو مائة قتل من الفرنسيين . وانتقم الفرنسيون ممن وقعوا في أيديهم من أنصار الشيخ سعيد بالقتل والشنق والسجن . والتجأ كثير منهم إلى الحدود الطرابلسية ، وجاهدوا مع الطرابلسيين ، وكنا نسميهم « المهاجرين » وكان كبيرهم الشيخ الوحيشي رحمه الله .

وكان من أكبر أسباب فشل ثورة الحامة عدم وفاء الترك والألمان بما وعدوا به من إمداد الثورة بالسلاح . وكان يوجد عدد كبير من الضباط التونسيين على استعداد للاتحاق بالثورة ، ولكن الترك والألمان لم يفوا بما وعدوا .

وكانت هذه المعاهدة آخر سلاح استعمله الحلفاء لقطع صلة الترك بالعرب ، كما كانت آخر عهد العرب بدولة آل عثمان التي تفككت أوصالها ، وتراخت بها الحياة حتى طمعت فيها الأرانب بله الأسود والفهود ، وزال ظلها عن طرابلس بعد أن حكمتها ٤١٦ سنة ، من سنة ٩٢٢ هـ إلى ١٣٣٨ لم تنقطع صلتها بها . حتى وصلت في آخر عهدها إلى أحط الدركات ، وطوى التاريخ صفحاته على ما لها وما عليها في بلاد العربية . والله در الشاعر إذ يقول :

أُوتِيتُ مُلْكًا فَلَمْ أُحْسِنْ سِيَاسَتَهُ كَذَلِكَ مِنْ لَا يَسُوسُ الْمُلُوكَ يُخْلَعُهُ

وفي هذه الفترة القصيرة التي تبتدى من محبى نوري بك والأستاذ عزام بك سنة ١٩١٦ . وتنتهى بسقوط تركية في أكتوبر سنة ١٩١٨ أخذت الإدارة تتركز في مصراته وبدأ التحسن في جميع الشؤون ادارية وصناعية وعسكرية . وأبدت الغواصات نشاطاً في امداد المجاهدين بما شد عزائمهم ، وزادهم قوة على الدفاع وصبراً على المضي فيه .

وبينما الأمور تسير في مصراته من حسن الى أحسن إذ وقعت الكارثة ، وطير الخبر الى الأمير بسقوط تركية فأحدث عنده ارتباكاً عظيماً ، وكان له وقع سيء على الذين يتولون حركة الجهاد في طرابلس . واتجهت الأفكار الى إيجاد ما يجمع الشمل ويوحد الكلمة قبل أن يتسرب الوهن الى صفوف المجاهدين ، فكانت الجمهورية الطرابلسية وليدة هذا التفكير ، وكان لها من الأثر ما سنفصله فيما بعد .

الجمهورية الطرابلسية

١٣ صفر سنة ١٣٣٧ - ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨

مقدمة :

كان لإنشاء الجمهورية الطرابلسية ظروف دقيقة ، وأسباب لم تترك للقائمين بأمر الجهاد في طرابلس وقتاً للتفكير العميق في التهديد لإشائها . فقد وجد التفكير فيها عقب مجيء الخبر إلى مصراتة في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ بسقوط تركيا في الحرب العظمى وتسليمها . ووقوع هذا الحادث فجأة وعلى غير انتظار أحدث ارتباكاً في تفكير من بيدهم تسيير دفعة الجهاد . ومن طبيعة هذا الحادث أنه يقتضى سفر الأمير عثمان ، الذى كان يمثل السيادة التركية في طرابلس والفائد الأعلى للجيش الإفريقية . وسفر الأمير يتبعه قطع المدد الذى كان يأتى من تركيا ، بل إن المدد كان سينقطع ولو لم يسافر الأمير ، لأن تركيا سقطت واحتلها الحلفاء . وقطع المدد يؤثر — بلا شك — إلى حد كبير فى نشاط المجاهدين ، ويضعف من حركة القتال . والبلاد ما تزال قريبة عهد بحروب داخلية قد يكون من المحتمل جداً أن يرى أحد الخصمين فى هذه الظروف الحرجة فرصة للتأثر لنفسه ، فتعيد الفتنة سيرتها وتقع البلاد فى شر مستطير . وقد جاء خبر سقوط تركيا إلى مصراتة فى وقت كان زعماء البلاد كل واحد فى منطقة نفوذه يدير شئونها ، وهى مناطق بعيدة عن المركز الذى يقيم فيه الأمير وهو مصراتة . كل هذه الأسباب — آخذاً بعضها برقاب بعض — فرضت على الجمهورية فرضاً لتعالج من هذه الشؤون الكثيرة ما يمكنها معالجته ، مع التغلب على ما خلفته الفتن الداخلية من الأحقاد والضغائن حتى تصفو النفوس ويسهل العمل .

وكيفما قدرت أسبابها وظروفها فقد لاقت نجاحاً باهراً بفضل ما بذل لأجلها من جهود من عناصر وطنية وغير وطنية . وكان للأخوة الإسلامية الفضل الأول فى جمع ثلاث عناصر : تركى ، ومصرى ، وطرابلسى وطنى . وكان كل منها دعامة فى إقامة هذه الجمهورية مع تفاوت بين هذه العناصر فى السعى لتكوينها ومدها بأسباب الحياة والصلاح .

وقد وجدت في ظروف أحوج . ما يكون الوطن فيها إلى حكومة تتولى منه ما يجمع شمله ويصون وحدته .

ظروفها

لما جاء الخبر إلى مصراته بسقوط تركية بطريق اللاسلكي أسره البارون فريدفون توندورت رئيس التلغراف اللاسلكي الألماني إلى الأمير مصحوباً بأمره بمغادرة طرابلس هو ومن معه من الضباط تنفيذاً لشروط معاهدة « موندروس » فوقع في حيرة ، ورأى أن بقاءه قد يعرضه إلى الخطر ، وترجح عنده السفر إلى الآستانة ، فذهب في الصباح المبكر إلى الغواصة ، وكانت في انتظاره على الرومية — شرق قصر حمد بعشرة كم — وكانت أتت معها بعبد القادر الغنای ، وذهب مع الأمير عثمان عبد الرحمن بك نافذ للسفر معه . والأستاذ عبد الرحمن عزام وسليمان باشا الباروني لتوديعه ، وكان الأستاذ عزام لا يعلم عن الأمر شيئاً ، فاتصل بربان الغواصة وسأله عن الأمر فباح له به ، فقال له عزام : وما الذي تعزمه ألمانيا ؟ فقال ربان الغواصة : ستحارب إلى النهاية . فقال له عزام : ونحن يمكننا أن نشكل حكومة عربية في طرابلس لمدة الحرب ضد إيطاليا ، على شرط أن تتعهدوا بإمدادنا بالمال والسلاح ، وعلى ألا يسافر الأمير في هذا الدور لنستعين بوجوده في تشكيل الحكومة ، فوافق ربان الغواصة على ذلك ، وبقي إلغاء سفر الأمير سرّاً بينه وبين الأستاذ عزام . ويقال إن لسفر الغواصة بدون أن تأخذ الأمير سبباً آخر وهو أن البارون فريدفون توندورت لم يؤمر بالسفر ، فتدخل في الأمر لدى ربان الغواصة ، لتسافر بدون أن تأخذ أحداً ففعل . وسافرت الغواصة بعد أن اعتذرت للأمير عن عدم نقله في هذه المرة بشدة مراقبة أساطيل العدو ، ووعدته بالعودة في أقرب فرصة .

ورجع الأمير ومن معه إلى المواطنين . وصرح الأمير للحاضرين بحقيقة الأمر . ومن هنا ظهرت فكوة الجمهورية وطرحت على بساط البحث . واشترك فيها رمضان بك ، وعزام بك ، والباروني باشا ، وسمو الأمير عثمان ، ومختار بك كعبار . وعرض على الأمير

أن يكون رئيساً لها فوافق على فكرة الجمهورية ولم يوافق على الرئاسة . لأنه كان متساهلاً بتسليم تركية ، وبقائه في طرابلس . واتفق الكل على تأسيس الجمهورية ، وأرسل رمضان إلى عبد النبي للتشاور في الأمر .

ونظراً لأن الأمير كان على وشك السفر فقد بوشر في العمل ، وأرسلت الدعوة إلى رؤساء القبائل وزعمائها وأعيان البلاد باسم الأمير عثمان لعقد اجتماع عام في مسالطة لإعلان الجمهورية وأجاب الناس الدعوة ، ووفدوا على مسالطة من جميع البلاد الطرابلسية . فوسعتهم برأ وضيافة ، وتشرفت مسالطة بهذا الاجتماع التاريخي العظيم .

وفي يوم السبت الثالث عشر من صفر سنة ١٣٣٧ الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨ اجتمعت الوفود الطرابلسية في جامع المجاورة بمسالطة ، وهو أكبر جامع فيها ، وحضر الأمير عثمان فؤاد ، وأخبر المؤتمرين أن الأستاذ عبد الرحمن عزام بك سيخطب فيهم بالنيابة عنه ، وأنه سيتمكلم بلسانه ، ورجاهم أن يوافقوا على ما سيطلبه منهم وينفذوه .

وخطب الأستاذ عزام خطبة طويلة كان المقام الأول فيها للحث على الدفاع عن الوطن والموت في سبيله ، وعلى جمع الكلمة في صفوف متراسة وأخوة متبادلة ، وعلى المثابرة على العمل للوصول إلى الاستقلال وطرد العدو عن الوطن . ثم طرح عليهم فكرة إنشاء حكومة وطنية تتوحد فيها الكلمة وتتولى أمور البلاد ، وتنظر في شئون الوطن ، فلقيت الفكرة استحساناً من الجميع ، واجماعاً بدون خلاف وسميت « الجمهورية الطرابلسية » . وأجريت الانتخابات في الحال لاختيار أعضاء الجمهورية . فأُسفرت عن انتخاب الآتية أسماؤهم :

رمضان بك السويحلي . سليمان باشا الباروني . أحمد بك المريض . عبد النبي بن خير . وهؤلاء الأربعة يمثلون البلاد الطرابلسية من حدود برقة إلى حدود تونس .

وكانت النية متجهة لانتخاب مختار بك كعبار أحد أعضاء الجمهورية الأربعة ، ولكن عرض ما يقتضي انتخاب عبد النبي ، فأبدى رمضان بك رغبة في ذلك نزولاً على ما تقتضيه المصلحة ، فتنازل مختار بك عن ترشيح نفسه وانتخب عبد النبي بدلاً منه عضواً للجمهورية وانتخب هو رئيساً المالية ، فكان هذا التنازل منه محل تقدير اخوانه جميعاً .

مناسبة

ولهذه المناسبة نقول إن وجود مختار بك كعبار في مصراتة وقت تأسيس الجمهورية كان لمهمة وطنية . وذلك أنه جاء موفداً من أعيان وزعماء الجهة الغربية للتحدث مع الأمير عثمان في طلب إمداد الجهة الغربية بأكثر مما اعتيد أن تمد به من المال والسلاح ، وذلك نظراً لكثرة الحركات الحربية فيها . وليطلب إليه التوسط في إنشاء قاعدة للغواصات في الجهة الغربية لتمدها بما يلزم الحرب من عتاد ونفقات ، لأن مصراتة مركز بعيد عن الزاوية ووسائل النقل غير متوفرة . وكان على استعداد للسفر إلى الآستانة . وقبل الوصول إلى نتيجة جاءت الأخبار بسقوط تركية فبقي في مصراتة وحضر تأسيس الجمهورية .

وقد رأى المجتمعون إذ ذاك أن من المصلحة عدم انتخاب رئيس الجمهورية حتى تستقر الحال . وكانت الآراء متجهة إلى أن تكون الرياسة للأمير عثمان ، لولا أنه امتنع نظراً لما ساوره من الشكوك في استقرار الحال بعد سقوط تركية .

وقبل افتراق المجتمعين انتخب مجلس شورى للجمهورية ، فأسفرت النتيجة عن انتخاب :

الشيخ محمد سوف بك	رئيساً أول	من الزاوية
يحيى الباروني	» ثانياً	» الجبل
الشيخ عبد الصمد النعاس	عضواً	» ترهونة
الحاج مفتاح التريكي	»	» مسلاتة
الشيخ علي بن رحاب	»	» قماطة
الحاج محمد بن خليفة	»	» الساحل
عبد السلام الجدأيمي	»	» ظليتن
الحاج علي المنقوش	»	» مصراتة
محمد المنتصر	»	» عن سرت
مفتاح التايب	»	» من أرفلة
السيد محمد بن بشير	»	» أولاد أبي سيف

عضواً

من مرزوق - فزان

عبد الرحمن بركان

محمد بن أحمد الفايدي

» الشاطي

الشيخ الحبيب عز الدين

» غدامس

إبراهيم أبي الأحباس

» الجبل

الحاج محمد فكيحي

» الرجب

الشيخ أحمد البدوي

» الزنتان

سالم البرشوشي

» الجبل - يفرن

علي بن عبد الرحيم

» ككالة

الشيخ شطية

» غريان

» علي بن تفتوش

» ورشفانة

» عبد الرحمن شلابي

» الزاوية

» علي شلابي

» النواحي الأربعة

» عبدة المحجوبي

» عن صرمان والعجيلات

وانتخب « مجلس شرعي » للجمهورية من العلماء الأساتذة : الشيخ عمر الميساوي والشيخ الزروق بور خيص ، والشيخ محمد الإمام ، والشيخ مختار الشكشوكي (١).

ولم يحضر كل أعضاء مجلس الشورى الاجتماع ، بل كان بعضهم غائباً ، وإنما انتخب توزيعاً للمسؤولية وتحقيقاً للمساواة والوحدة بين جميع القبائل . وقبل الانصراف من المسجد أقسم الحاضرون جميعاً يمين الولاء والإخلاص للجمهورية . وتوكيداً لليمين أحضروا مصحفاً وكل من أراد اليمين وضع يده عليه . وهذا نص اليمين .

« أقسم بالله العظيم قابضاً بيمدي على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسي ومالي فداء لوطني وحكومتى الجمهورية الطرابلسية . وأن أكون لعدوها عدواً ولصديقها صديقاً ، ولقانونها الشرعي مطيعاً . »

(١) الأول من الزاوية . والثاني من غريان . والثالث من الزنتان ، والرابع من سكان المدينة .

ثم وزع الأمير عثمان بعض النياشين والرتب على أعضاء الجمهورية وكثير من الأعيان والوجهاء .

ومن هذا التاريخ أصبحت الحكومة الجمهورية الطرابلسية قائمة وأصبح لها عهد في عنق كل طرابلسي يحميها مما يحى منه نفسه وماله ، وأصبح من الختم عليه الوفاء بما أقسم عليه لها من الولاء والإخلاص .

بلاغات الجمهورية

وبعد أن تم انتخاب أعضاء الجمهورية وانتخاب أعضاء مجلس الشورى والمجلس الشرعى اجتمع الأعضاء وقرروا إعلان سكان طرابلس وجميع الدول الأوربية ، بما تم من تشكيل الجمهورية الطرابلسية . وكان أول ما ابتدأوا به عملهم هذا الكتاب المبارك لتوزيعه على الناس في جميع أنحاء القطر :

« بسم الله الرحمن الرحيم

في الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك الثالث عشر من شهر صفر سنة ١٣٣٧ قررت الأمة الطرابلسية تتويج استقلالها بإعلان حكومتها الجمهورية بانفاق آراء علمائها الأجلاء وأشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد . وقد تم انتخاب أعضاء مجلس الشورى الطرابلسي ، وانتخب أعضاء مجلس الجمهورية وافتتح أعماله بتبليغ إعلان الجمهورية إلى الدول الكبرى وإلى الدولة الإيطالية .

إن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة لاستقلالها الذي اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها منذ سبع سنين ، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي أشرف ما تصل إليه الأمم وتنهى أبنائها بتمام نجاحها واتحادهم على الثبات التام في الدفاع عن وطنهم وحكومتهم الجمهورية الجديدة . والتوفيق بيد الله تعالى وحده »

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

أحمد المريض

عبد النبي بن خير

سليمان الباروني

رمضان الشتيوى

البلاغ الثاني — إلى الضباط الوطنيين :

« إلى حضرة
الوطنى

بما أن جنابك وطنى صادق ، ومجاهد فى سبيل الدين والوطن ، منذ ابتداء الحرب الطرابلسية فإننا ندعوك إلى تقديم طاعتك لحكومتك الجمهورية الجديدة والقيام بما تقلدك إياه من الخدمة والدفاع عن شرف الوطن حتى تال منها شرف الاحترام والترفع ، وتبرهن للعالم أنك ابن الوطن العزيز وأحد رجاله الذين سيحفظ لهم التاريخ ذكرهم المجيد .

البلاغ الثالث — الى رئيس الحكومة الإيطالية

« تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهورى وانتخاب نواب عنها من كافة أنحاء القطر لجلسى الحكومة والشورى ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة ، ولا تقصد إلا أن يعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الأمم التى لا تحاول غصب حقوقها .

لذلك فالحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها ، وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع .

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

ملحق

إذا قبلت المواد الآتية ووضعت موضع الإجراء فالحكومة الجمهورية الطرابلسية مستعدة للبحث مع الحكومة الإيطالية فى عقد صلح طبقاً للقواعد الآتية :

١ — فى حال دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة .

٢ — لا تقرب السفن الحربية السواحل غير المحتلة بالعساكر الإيطالية .

٣ — لا تتجاوز الطيارات حدود الاستحكامات .

٤ — لا تقع مخابرة خصوصية مع أى أحد كان لامن جهة المناطق الحربية ولا من غيرها .

• — يقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالأهالى من طرف الحكومة الإيطالية كأخذ

وإعطاء البضاعة وتوزيع الإعلانات على أى صورة وبأى طريقة كانت .

٦ - المخابرات الرسمية والدخول والخروج لا يكون إلا من الموقع الذى يصير تعيينه فى منطقة الخمس من طرف الحكومة الطرابلسية .

٧ - الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة فى شئونها وحركاتها تمام الاستقلال ، وغير مقيدة بأى شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به الحكومة الإيطالية فى طرابلس .

٨ - ضباط الترك والألمان الموجودون فى داخل طرابلس هم بمنزلة ضيوف عند الحكومة الطرابلسية ، ولا تسمح بسفرهم إلا بصورة تكفل منفعة وشرف الأمة الطرابلسية وحكومتها الجمهورية .

٩ - بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق فى إظهار حقوقها للعالم الإنسانى وبالخصوص الحكومات الموجودة قنصلها فى مدينة طرابلس مثل انجلترا وفرنسا وأمريكا فعلى الحكومة الإيطالية قبول وتوصيل ما يرسل من الحكومة الطرابلسية إليها بدون اطلاع عليه ، وأخذ سندات من القناصل المذكورين وإرسالها الى الحكومة الطرابلسية حتى لا تضطر الى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة .

١٠ - المخابرة مع الحكومة الإيطالية لا تجوز الا تحريراً . ولا يعتبر أى كلام شفهي .

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

الإمضاءات

وقد حمل هذا البلاغ مختار بك كعبار رئيس المالية فى الحكومة الجمهورية ، وذهب به إلى الخمس - وهى أقرب مدينة محتلة إلى مسلاتة - لمقابلة ذوى الشأن من الإيطاليين والمذاكرة معهم فى إبلاغه إلى حكومتهم . وقد أبوا أن يتفاهوا معه فى موضوعه ، وأفهموه أن حكومتهم لا تعترف بالجمهورية الطرابلسية ، وأنها مستعدة للحرب إلى النهاية . وبهذا الرفض أصبح موقف الطليان إزاء الطرابلسيين موقفاً عدائياً بكل ما تفيد هذه الكلمة من معنى العداوة .

البلاغ الرابع — إلى الرئيس ولسن :

« نشرف بأن نعرض على فخامتكم أن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلامها حكومة جمهورية . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ تم انتخاب مجلس شوراها ومجلس جمهوريتها . ان قواعدكم المشهورة بالنسبة لمقدرات جميع الأمم سواء كانت في أوربا أو خارجها قد شجعتنا كثيراً على أن نضع آمالنا في مقاصدكم العظيمة ونواياكم العالمية الإنسانية .

انه ليس هناك حد للحقوق والواجبات البشرية ، لذلك إننا متأكدون من أنه لا يمكنكم أن تنظروا بعدم الاكتراث الى استعباد أمة صغيرة بقوة السلاح مثل أمة طرابلس وهي تقاتل لثامن سنة ضد الغاصب المعتدى بكل متانة . وهي متأكدة من أن بسالة أبنائها قادرة على أن ترد قوات المعتدين عليها في كل زمان .

وإننا نؤمل أن عواطفكم السامية نحو الحكومات والأمم الصغيرة الحية ستحشكم على أن تمنعوا تكرار سفك الدماء بيننا وبين الطليان بتكليفهم بالاعتراف بحكومتنا الجمهورية . وفي الختام نرجو قبول احترامنا ووضع المسألة الطرابلسية على بساط مذاكرات الصلح العمومي » .

البلاغ الخامس — الى رئيس الوزراء الإنجليز .

« نشرف بأن نخيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلانها الحكومة الجمهورية . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلنت نتيجة انتخابات مجلس شوراها ومجلس جمهوريتها .

ليس بين الأمم من هو جدير بحريته واستقلاله أكثر من الأمة الطرابلسية التي تقاتل إلى الآن ثمانى سنوات ضد غاصب أرضها وحريتها . وإننا لاشك في أن إحساساتكم العالية نحو حرية الأمم والحكومات الصغيرة ، كما أن غيرتكم على حماية العرب تجبركم على العطف على جمهوريتنا الجديدة الحرة . وإننا نؤكد لكم أيضاً أن قومنا وضعوا جل آمالهم في انجلترا حاميه حقوق الأمم الصغيرة . فرجأؤنا أن تتفضلوا بوضع المسألة الطرابلسية على

بساط مذاكرات الصباح العمومية حتى تنال جمهوريتنا ما يضمن لها مستقبلها . والمرجو قبول عظيم احترامنا » .

البلاغ السادس — إلى رئيس الحكومة الفرنسية

« نتشرف بأن نحيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توجت استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلنت نتيجة انتخاب مجلسي الجمهورية والشورى إن ما قامت به فرنسا الحرة من نشر إعلان الحرية في العالم وتسكبها كل الصعوبات في سبيل حمايتها لا يجمله أحد ، وإنه لمسكتوب على صفحات القلوب بمداد الحياة تتغذى به أرواح الأحرار في كل الأقطار لا ينسخه توالي الدهور ولا تمحوه زلازل الحروب .

إن من قام في هذا العصر بطلب حرقة سواء كان بسيفه أو قلمه فإنما هو مستمد من منبع الحرية الزلال ، ومقتبس من سناها الساطع ، ومغترف من بحرها الطافح ، ومستخرج من معدنها الصافي (قاعدة فرنسا الحرة) .

فلا عجب إذا قامت الآن فرنسا لحماية حرية الأمم الصغيرة ، كأمة طرابلس الغرب التي ما برحت تريق دماء أبنائها منذ سبع سنين وزيادة في سبيل نيل حريتها واستقلالها ورد جيوش إيطاليا الغاصبة لأرضها المعتدية على شرفها .

إن الأمة الطرابلسية التي لا تجهل تاريخ فخرها القديم لم ترض أن تساق الآن بعصا الذل والهوان ، وأن تستعبد في زمن مادت فيه الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بالحروب الهائلة لأجل تحرير بني الإنسان .

إن كل من يقتبع التاريخ بإنصاف يجد أن الأمة الطرابلسية لم تملكها دولة من الدول كما تملك البلاد ملكاً مطلقاً ، بل لم تزل منذ خلقت أو عرفت بين الأمم في منازلة كل من يقصد استعبادها سواء كان من الدول الإسلامية أو المسيحية وكانت ولا تزال تفضل الجلاء وسكنى القفار على تحمل الضيم والاحتقار . وهامى أطلال بلادهم الخالية بادية ، وأنسابها المنتشرة شرقاً وغرباً شاهدة . فسعى الأمة الإيطالية وراء استعبادها الآن هو ضرب من طلب المستحيل ، ولو راجعت تاريخ أجدادها وأجدادنا

القدماء لرأت فيه ما يصددها الآن عن سفك الدماء .

لذلك تؤمل حكومة طرابلس الجمهورية الجديدة من جارتها الجمهورية الفرنسية أن تنظر إلى المسألة الطرابلسية بنظرة الاهتمام والاعتبار ، وأن تعنى بوضعها على بساط مذاكرات الصلح العمومي ، وأن تقنع حليفة ألمانيا القديمة وحليفها هي الآن حكومة إيطاليا بالاعتراف بحقنا المشروع حتى يقف تيار إراقة الدماء بين الأمتين ، وتستريح البلاد والعباد ، وتنال البلاد الطرابلسية نصيبها من هذه الراحة أيضاً فإن منفعة البلدين ومضرتهما واحدة .»



وقد أرسلت هذه البلاغات إلى الحكومات الموجهة إليها ممضاة كلها بإمضاءات أعضاء الجمهورية . وعين موظفو الإدارة في جميع أنحاء القطر ، وانصرف الأعضاء والموظفون كل إلى عمله .

وقد قامت قيادة الطليان لهذه الجمهورية ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأنفوا من أن تدعهم الجمهورية الطرابلسية إلى الاعتراف بها ، وألقت طائراتهم منشورات تهديد فيها بالقتل والفناء وتوعد بالسحق والحرق ، واستعملوا الغازات الخائقة على الزاوية وغيرها . وهم في ذلك كله يعتمدون على جيشهم الذي بقي ثمان سنوات وهو محصور في ثلاث مدن على الساحل . وقد جرب حظه مرة في ظروف وائمه فوصل إلى فزان . ولكن لم تمض عليه سنة حتى هزم تلك الهزيمة الشنعاء التي تركت أشلاء مبعثرة في كل مكان من صحراء طرابلس ، وصار يضرب به المثل في جيبه .

وعلى مثل هذا الجيش يعتمد الطليان دائماً في كسب فخرهم . وهانحن أولاء في سنة ١٩٥٠ وبعد أن سقطت روما في يد الحلفاء بنحو سبع سنوات^(١) وما زالت أصداء الهزائم التي حلت بهم في الحرب الأخيرة في سيدي براني ، وفي العالمين وغيرها ترن في آذان العالم^(٢) .

(١) سقطت روما في يد الحلفاء في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ .

(٢) في ديسمبر سنة ١٩٤٠ انكسرت جيوش الطليان في سيدي براني . وفي أول يوليو سنة ١٩٤٢

أوقفت جيوش المحور في العالمين . وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٢ تم تهطيم خطوط المحور فيه .

ولولا جيوش الألمان التي كانت تدافع عنهم لما أفلت من جيوشهم جندي واحد . وقد دالت دولة موسوليني وقتل بيد الإيطاليين في ٢٩ ابريل سنة ١٩٤٥ و بقيت جثته ملقاة على قارعة الطريق يرميها المارة بسيل من البصاق استخفافا بقدره . ثم علق على خشبة من رجليه ورأسه الى أسفل . وهكذا لاقى من الإهانة من أبناء جلدته ما هو جدير بتهوره وعجرفته^(١) .



جثة موسوليني ملقاة على الأرض تحت أقدام الثوار الإيطاليين يدوسونها ويصقون عليها

(١) كان موسوليني وعشيقته كلا راباشي أسيرين في كوخ في قرية دونجوا على بحيرة كومو . نجاهه الثوار وقتلوه رمياً بالرصاص هو وعشيقته يوم ٢٩/٤/١٩٤٥ ونقلت الجثتان إلى ميدان ميلانو الرئيسي حيث طرحتا وتزاحم الشعب يركلها ويصق عليهما في زراية واحتقار ، وقد ضرب موسوليني برصاصة في جبهته فتناثرت خلايا مخه . وفي المساء علق الجمهور الجثتين من الأرجل في إحدى محطات البنزين . وفي صباح اليوم التالي أنزلتا ونقلتا في عربة إلى فناء معرض الموتى .

بعد تأسيس الجمهورية

كان للجمهورية الطرابلسية أحسن الأثر في نفوس الشعب الطرابلسي ، ونشاط سرى في جميع مرافق الحياة وأحس الناس بتطور غريب في حياتهم السياسية اعتقدوا أن مصدره هذه الجمهورية التي رأوا فيها فتحاً مبيناً ، وثمره من ثمرات جهادهم الموفق . ولم يكن سكان المدن في طرابلس أقل فرحاً بهذه الجمهورية من اخوانهم المجاهدين ، فقد كان شعور الطرابلسيين متجها الى ناحية واحدة هي التغلب على الطليان ، وكانت الجمهورية مثالا بارزاً في التعبير عن هذا المعنى ، فكانت في محل الإجلال والتعظيم من نفس كل طرابلسي .

وقد رأى أعضاء الجمهورية أن الوضع الحربي يقضى بأن يقيم كل عضو من أعضاء الجمهورية في منطقة نفوذه يصرف أعمالها كيفما يرى متحملاً تبعه أعماله : فأقام رمضان بك في مسلاتة ، وأحمد بك المريض في ترهونة ، وسليمان باشا الباروني في العزيزية والزاوية . وعبد النبي بن خير في أرفلة . وكان من بين قرارات الجمهورية اسناد قيادة المجاهدين العامة الى عبد القادر الغناى بدلا من اسحاق باشا ، وأن تكون الزاوية مقر هذه القيادة .

الزاوية

كانت الزاوية عقدة العقد ، وشجى في حلق الطليان ، فكانت المركز الأوسط من ثلاثة مراكز حربية فيما بين طرابلس وزوارة : المركز الأول العزيزية ، وهي معسكر قلب الجيوش الطرابلسية ، ومركز قيادتهم العامة . والمركز الثاني الزاوية ، والمركز الثالث بوعجيلة وكانت الزاوية على اتصال دائم مع هذين المركزين لمدهما بالمجاهدين عند الحاجة . وكلما أراد الطليان أن يهجموا من الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب إلى الشرق كانت هي الصخرة تنكسر عليها جيوشهم . وكان أكثر الهجوم عليها من الغرب إلى الشرق .

وقد حاول الطليان احتلالها عدة مرات فلم يفلحوا إلا في بعضها ، وكان احتلالها يقتضيهم استعداداً خاصاً وجيوشاً هائلة . وقد استعدوا لاحتلالها في ديسمبر سنة ١٩١٨ ،

وجهبوا جيشين عظيمين خرج أحدهما من طرابلس بقيادة الجنرال « بنتانو » . والثاني من زوارة ، وغرضهما الهجوم من الشرق والغرب لطرد المجاهدين من الساحل واحتلال الزاوية وقبل بدء الهجوم تقدم من قبلهم بعض الوسطاء بالسعى لدى عبد القادر الفناي لتسليم الزاوية فوافق مبدئياً على التسليم وأوقف الهجوم الإيطالي . وانقضى شهر ديسمبر في المفاوضات بينه وبين الطليان للاتفاق على خطة التسليم .

وانتهت سنة ١٩١٨ والطليان مازالوا محصورين في طرابلس والخمس وزوارة .

إسحاق باشا

جاء إسحاق باشا إلى طرابلس سنة ١٩١٨ بعد أن سافر نوري إلى الأستانة وتولى قيادة المجاهدين العامة في طرابلس ، وكان مركز قيادته الزاوية . وهو أرناؤطي الأصل شجاع في غير تهور ، وحازم مع علم بثئون القيادة وتصريف أمور الجند ، قوى الاعتداد بنفسه شديد التمسك برأيه ، جبار في غير رحمة على من ثبتت ادانتهم باتهامهم للعدو أو حامت حولهم الشبهة . وكان إذا اشتبه في إنسان بأنه جاسوس سلم أذنيه حتى إذا عاد مرة أخرى كانت أذناه أقوى دليل على ادانته . أما من ثبتت ادانته فحزاه الصلب في الحال . وكانت الزاوية في أيامه أمان من عقاب الجو ، وقد أكسبته جرأته مهابة في قلوب الناس صرفتهم عن غيره . وكانت له مواقف حازمة مع الذين يتهاونون في أداء الواجب الوطني مثل موقفه مع عبيدة المحجوبى ، فقد كان يريد قتله لما رآه فيه من التلاعب والميل إلى الطليان . وقد فطن عبيدة لما بيته له إسحاق باشا فهرب إلى مصراتة فأرسل في أثره وطردته الخليل حتى دخل مصراتة فحماه رمضان السويحلى . وكانت حمايته له سبباً في فتور السياسة بينه وبين إسحاق باشا ، واعتبر هذا من رمضان تحدياً له . ولو استطاع أن ينتقم منه لما تأخر ، وقد أراد أن يبطش بالبارونى ليتخلص من نفوذه ، فالتجأ إلى ترهونة ، واحتفى بالمريض بك . وكان إسحاق يرى أنه متى كانت كل قبيلة تخضع لرئيس فلا يمكن توحيد البلاد توحيداً يمكنها من مقاومة العدو ، وبناء على هذا كانت نفسه تطمح للقضاء على جميع الرؤساء ، وهى فكرة بعيدة المنال في طرابلس من أجنبي عنها يريد أن

ينضم الطرابلسيون إليه على قتل رؤسائهم . أو التخلي عنهم ، ودون تحقيقها حروب أشد هولا من حروب الطليان .

وقد شعر الرؤساء من أعماله بما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يترصون به ، ولم يقتصر التبرم به على رؤساء العرب ، بل تعداهم إلى الضباط الأتراك ، بل وإلى سمو الأمير عثمان فؤاد ، فكان يرى في أعماله نوعاً من الاستبداد به ، واغتصاب سلطته التي خولها له جلالة السلطان ، لأنه هو الذي كان يمثل جلالته في شمالي إفريقية .

ولما تم تشكيل الجمهورية عرض عليه البقاء في منطقة قيادته فأبى ، فعينت الجمهورية بدله عبد القادر الغنای .

ويعلم الله أنه كان من قبيل استبدال الدرهم بالدينار : فاسحاق باشا في حزمه وشهامته وحسن قيادته من خيرة من شهدوا الحرب الطرابلسية . وعبد القادر الغنای ليس من طبقة اسحاق باشا لا في حسن القيادة ولا في الحزم والإخلاص ، بل ولا قريب الشبه به . ولما اعتزل اسحاق باشا القيادة ترك الزاوية وانتقل إلى غريان وأقام بها إلى أن عقد صلح بنيادم فسلم نفسه إلى الطليان . وسيأتى ذكر ذلك .

عبد القادر الغنای

هو من مواليد بنى غازى ، وتعلم في المدارس التركية وتخرج فيها ، وتقلب في وظائف الجيش التركي إلى أن بلغ رتبة أميرالای . وجاءت به الفواسة إلى مصراته ليحاول الاتصال ببرقة للترويج للسياسة التركية في مناوشات الإنجليز على الحدود المصرية . وقد اقتنع بأن محاولة مثل هذه السياسة غير ممكنة فأقام بمصراته . ولما أنشأت الجمهورية عين قائداً عاماً للجيش الطرابلسية ، وتقرر أن تكون الزاوية مركزاً لهذه القيادة . وبما أن البارونى عضو في الجمهورية عن المنطقة الغربية فقد ذهب معه إلى الزاوية لإعلام الضباط والمجاهدين بتأسيس الجمهورية وبتعيين الغنای قائداً عاماً بدلاً من اسحاق .

الغنى فى الزاوية

جاء الغنى مع البارونى إلى الزاوية بعد أن انتقل منها اسحاق باشا إلى غريان ، وأسلم القيادة ، وزار المجاهدين فى نليل^(١) ورجع إلى الزاوية ، وقد أراد الطليان على تسليم الزاوية — وعهد بهم بها لمنع من عقاب الجو — فاتصلوا به عن طريق أحد محاسبيهم ، فما زال به حتى الآن من قناته ما كان مستمعيًا . وقد أحس محمد بك فرحات الزاوى بالمسكيدة تدبر فتدخل فى الأمر ، وتحول مجرى السياسة ، وحبطت مساعى قرين الغناوى واحتمت الزاوية فى أول يناير سنة ١٩١٩ . وكان بها إذ ذاك محمد بك شلابى^(٢) قائمقامًا .

سحب الضباط الأتراك من طرابلس

كان من شروط معاهدة موندروس أن تسحب تركية جنودها وضباطها من طرابلس ومن جميع البلاد العربية . وأمضيت الهدنة العامة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ فأكدت هذا الشرط . وعلى أثر معاهدة موندروس جاء الأمر إلى الأمير عثمان فى مصرارة بالانسحاب هو ومن معه من الضباط .

وقد طلب إلى الأمير ومن معه أن يسلموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالى . ولكن الطرابلسيين أبوا ذلك وأبقوهم عندهم ضيوفًا حتى يحين الوقت لسفرهم إلى الآستانة فى عزه وكرامة . وقد ضمنوا هذا المعنى بلاغ الجمهورية الذى أرسل إلى الطليان . ولكن الطليان

- (١) قرية صغيرة إلى جوار ربوة عالية من أملاك العالقة تقع شمالى بوعجيلة بنحو ستة كيلو مترات .
- (٢) محمد بك شلابى من قبيلة أولاد الحجاج ، من أولاد عيسى « بلاعة » سكان الزاوية ، ولد فى الآستانة من أم تركية ، وتعلم فى المدارس التركية ، وأسندت إليه عدة وظائف . وعينه نشأت بك قائمقامًا فى الزاوية سنة ١٩١٢ . وكان لىن العريكة سهل الجانب ، وكان لىنه يغرى به الناس بالإلحاح عليه فى قضاء حوائجهم ولو فى غير المصلحة ، وكانوا يجردون فى حلمه ما يوصلهم إلى أغراضهم . وكان يعتز بالإلحاح إلى حد كبير . وكثيراً ما وضعه حلمه موضع الضعف وفتح الباب للتدخل فى شئونه . ومن أجل هذا كان محل النقد والمؤاخضة . وفى سنة ١٩٢٢ كان فى مقدمة الذين هاجروا من الزاوية ومرض فى غريان وطال به المرض ، ولما احتلت غريان فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ انتقل إلى أورفلة وهو مريض ، وتوفى فى وادى سونجين فى ٢٣ من شعبان سنة ١٣٤١ ودفن فى قلعة سونجين وتسمى (قلعة الشيخ) وقد صليت عليه وحضرت دفنه . وعمره إذ ذاك يناهز الستين رحمه الله رحمة واسعة .

أرادوا أن يستعجلوا الأمر لاعتقادهم أن المسير لدفة الحرب هم الأتراك فإذا ما انسحبوا من طرابلس عجز العرب عن المقاومة ووضعت الحرب أوزارها فألحوا على الحكومة العثمانية بطلب سحب ضباطها من طرابلس تنفيذاً لشروط الهدنة فلم تجد تركيا بداً من تنفيذ هذه الرغبة فأرسلت أكرم بك ابن رجب باشا إلى طرابلس مندوباً عنها لتبليغ أوامرها إلى الضباط بوجوب سفرهم إلى الآستانة . فوصل إلى طرابلس في فبراير سنة ١٩١٩ وأرسل إلى زعماء العرب يخبرهم بقدومه ، وأنه موفد من قبل جلالة السلطان في مهمة ، ويريد أن يتذاكر فيها معهم . وهذا نص رسالته :

« لحضرات السادة المحترمين أحبابي الأعزاء : أحد أعضاء مجلس الأعيان الكرام سليمان بك الباروني وأحمد بك المريض والهادي بك كعبار وسوف بك والصويحي الخيتوني وعلى بك ابن تنوش وجميع الأعيان الأفاضل الموجودين بالمنطقة أدام الله إقبالهم .

بعد إيفاء التحيات الخالصة والاحترامات القلبية اللائقة اني أعد نفسي سعيداً بتقديم هذا الكتاب لحضراتكم الذين نعدكم أحباباً خالصين مخبراً إياكم بأنني قدمت من استانبول بموجب ارادة جلالة سيدي ومولاي حضرة السلطان الأعظم إلى طرابلس ، واني متهمي العزيمة في أثر هذا الكتاب بكمال السرعة لجهتكم الفحاء لأجل الاجتماع بكم كما أن خروجي من طرابلس سيكون ان شاء الله بعد غد للعزيرية في (كهرية) ايطالية . وعليه أرجو أن تستقبلوني في العزيرية .

وفي الختام نكرر احتراماتي القلبية لحضراتكم وكافة الأعيان والأهلين . ودتم بخير وعافية .

٧ شباط سنة ١٣٣٧ (فبراير سنة ١٩١٩) أكرم رجب باشا

وقد أرسل الطليان مع أكرم بك كتابين أحدهما يتضمن العفو العام عما حصل من العرب من جرائم سياسية وهذا نصه :

« إلى حضرة اليوزباشي بالجيش العثماني أكرم بك ابن المرحوم رجب باشا وإلى طرابلس الغرب سابقاً مندوب الحكومة العثمانية لتنفيذ شروط الهدنة المختصة بقطري طرابلس الغرب و بنى غازي التي قبلتها الحكومة العثمانية .

قد وكلت حضرة اليوزباشى أكرم بك رجب بأن يصرح أن حكومة المستعمرة بناء على قصدها المتجه لرفع مآوقع من سوء التفاهم بينها وبين الأهالى قد نسيت كل ماسبق من طرف الأفراد والجموع ، ومنحت الأهالى - فرادى وجماعات - عفواً تاماً عمومياً فى كل مايتعلق بالجرائم السياسية ، وعلاوة على ذلك وكلنا اليوزباشى المومى إليه بأن يصرح بأن كل من أراد ترك القطر الطرابلسى والتوجه إلى جهة أخرى فلهم الحرية التامة فى ذلك ، ولا يصير لهم أدنى ضرر لا فى أشخاصهم ولا فى أموالهم .

رئيس دائرة السياسة
طرابلس فى ٧ فبراير سنة ١٩١٩
الماجور جنرال تارديتى

أما الكتاب الثانى فيتضمن الإذن للبارونى بمغادرة طرابلس إلى حيث يريد وهذا نصه :
« قد وكلنا اليوزباشى أكرم بك رجب بأن يصرح أن حكومة المستعمرة نظراً إلى كون حضرة سليمان البارونى قد عين قبل نشوب الحرب الأوربية عضواً فى مجلس أعيان الدولة العثمانية لا تصير له صعوبة فى أن حضرة المومى إليه سيركب على سفينة للتوجه إلى الآستانة العلية والإقامة بتركية مع كونه من أبناء القطر الطرابلسى » .

عن طرابلس فى ٨ فبراير سنة ١٩١٩
رئيس دائرة السياسة العسكرية

الجنرال تارديتى

وحمل أكرم بك الكتابين . وذهب إلى العريزية لمقابلة زعماء العرب المذاكرة معهم فى تنفيذ شروط الهدنة بشأن الضباط الأتراك .

وقد ظهر الطليان فى هذين الكتابين بمظهر المتفضل بمنح العفو عن أخطائهم ندم على ماقرض منه . وهى لغة سياسية لا يحفلها زعماء العرب ، ولا يخفى عليهم ماينتطوى عليه من اللف والدوران وإحداث الفتنة .

واجتمع أكرم بك برؤساء العرب وتذاكر معهم فيما جاء من أجله ، وبلغ الضباط الأتراك رغبة الحكومة العثمانية فى مغادرة طرابلس وسفرهم إلى الآستانة تنفيذاً لشروط الهدنة فلم يصغ لقوله أحد لا من رؤساء العرب ولا من الضباط الأتراك . وقد لوح أكرم بك برؤساء العرب بطلب الهدنة من الطليان والدخول فى مفاوضات للصلح . ويظهر أن

هذا العرض كان موعزاً به من قبل الطليان من قبيل الجس والاختبار ، ولم يعطوه صبغة رسمية خوفاً من رفض العرب فيكون في ذلك تحقير لهم وتسفيه لأعيانهم . وقد وطأوا له بهاتين الرسالتين ليجد أكرم في حملهما مبرراً لفتح الكلام في موضوع الهدنة . وكانت رغبة رؤساء العرب متجهة إلى أن تكون المفاوضات بينهم وبين الطليان مباشرة وبدون واسطة أجنبية ، كما كانت وجهة نظرهم في الأتراك والألمان الموجودين في غريان أنهم بعد تسليم حكوماتهم أصبحوا ضيوفاً عندهم لهم حق الضيافة والتسكريم ولا يمكن تسليمهم إلا بعد عقد الصلح واستتباب الأمن . وقد رأى أكرم بك أنه فشل في مهمته ، فسافر إلى الآستانة من غير أن يصل إلى نتيجة .

بعد الهدنة العامة

اقترن تأسيس الجمهورية بعقد الهدنة العامة في نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وانتهت مهمة جيوش الطليان التي كانت تحارب في أوروبا ، فسنحت للطليان الفرصة للإتيان بالعدد الكافي منها إلى طرابلس لفك الحصار عنهم والتقدم لاحتلال العزيزية .

وقد انتهى دور الغناى إلى تلك النهاية التي طالما تمنوها وهي احتلال الزاوية ، فأروا في احتلالها فرصة فتحت لهم باب التفكير في القيام بمعركة فاصلة يكون فيها القضاء على الجمهورية ، فجاءوا بجيوش كثيرة وعتاد حربى هائل من مختلف أنواع الأسلحة .

وكان الاشتراكيون يعارضون في الإتيان بالجنود إلى طرابلس ، ويحاولون اقناع الشعب الإيطالى وحكومته بحل المشكلة الطرابلسية من طريق الصلح ، وامتنع بعض الجنود من الذين انتهت مدتهم العسكرية بانتهاء الحرب الكبرى من الحىء إلى طرابلس .

وكان بعض الاشتراكيين يلقي بنفسه على قضبان سكة الحديد لينع القطار المقل للجنود إلى طرابلس من السفر .

ونشأ عن هذا الخلاف أن الحزب العسكرى لم يحقق رغبته في الحصول على العدد الكافي من الجنود الذى كان يرجو الحصول عليه . وإذا كان ماسفذكروه من الجيوش

الإيطالية قليلا في نظر الحزب العسكري فكم كان يأمل أن يسوق على الطرابلسيين من الجيوش يأتري ؟!

ولنقتصر في وصف هذه الجيوش وماجهزت به من معدات الحرب على ما ذكره الجنرال جرازيانى في كتابه « نحو الفران » ليطلع الناس على مقدار ما بلغه حنق الطليان على الطرابلسيين حتى بيتوا سحقهم من الوجود لو أمكنهم ذلك . قال الجنرال جرازيانى : « وابتدأت تأتى من أم الوطن وحدات كثيرة من مختلف أسلحة الجيش . وانضمت إلى الجيوش الموجودة في المستعمرة من قبل فتكونت فرقتان : ٣٨ و ٨١ . وفي أواخر فبراير سنة ١٩١٩ وصل إلى طرابلس الفرقة الأولى وهي فرقة الجنرال زوبى ، ونزلت في جهات مختلفة من طرابلس . وبهذا أصبح في طرابلس ثلاث فرق إيطالية : الفرقة ٣٨ والفرقة ٨١ والفرقة الأولى . وفي أول مارس كان تحت تصرف طرابلس الجيوش الآتية : ثلاثة قواد فرق . و ٥٦ أورطة من الجيوش المشاة ، و ٢٩ بطارية مدافع من أحجام مختلفة عدا الجيوش القيام في طرابلس والخمس وزوارة . وفي ١٧ مارس سنة ١٩١٩ قررت الحكومة الإيطالية الموجودة بهجوم كبير على سوانى بنيادام .

وبينا هي مشغولة بإعداد الجيوش اللازمة لهذا الهجوم اتصلت بزعماء العرب وحجرت بينها وبينهم مفاوضات للصالح فأوقف الهجوم .

ولما فشلت المفاوضات استأنفت الحكومة إعداد الجيش ، وقررت الهجوم في ١٧ من أبريل سنة ١٩١٩ . وكان ترتيب الهجوم هكذا :

يهاجم الفرسان سكة الحديد الممتدة بين العزيزية وطرابلس وتمتلكها ، والفرقة الموجودة في الزاوية وجنزور تهاجم ترينة وسوانى بنيادام لاحتلالها ، والفرقة ٣٨ تهاجم فندق ابن غشير لاحتلاله . والفرقة الأولى خصصت للاحتياطى لتمد مواضع الضعف في الجيش بما يسد النقص . وتقرر أن يكون الهجوم على جبهة طولها خمسون كيلومتراً ، من الزاوية إلى بئر الفرجاني ، وعلى أن يكون الجيش متصلاً بعضه ببعض ليكون التعاون تاماً بين وحداته إلا الجيش ذا الألوان — وهو مؤلف من سبع أوط — وجيش خريش غير النظامي ،

والفرقة ٨١ وهذه الوحدات كان عليها أن تعتمد على نفسها لبعدها عن الجيش الأبيض^(١). وكان الجيش الذى وكل إليه احتلال المنطقة من جنزور إلى بئر الفرجانى مكوناً من ٢٩ أورطة^(٢)، يشد أزرها سبعة طوابير مدافع رشاشة، و ١٨ بطارية مدافع متحركة. وكان مع الجيش المختلط من الحبش وغيرهم أربع بطاريات مدفعية. وكان لدى قيادة الجيش العامة سبع بطاريات من المدافع بعيدة المدى لتمهد الطريق لتقدم الجيش. يضاف إلى هذه الجيوش ٢٧ أورطة لحماية القواعد.

وجعل لسكل فرقة من الجيش ٤٤ سيارة لحمل الماء والأمتعة: وأعدت مائة وستون سيارة فى جنزور للنقل السريع لسد ماعساه أن يطرأ على الجيش من نقص فى أقصر وقت ممكن، والغرض من كثرة الاستعداد الوصول إلى النتيجة بطريقة اتصال الأشياء بعضها ببعض بحيث إذا نقص شئ حل محله غيره بنفسه من غير أن يحتاج إلى من يضعه فيه: «أتوماتيكى» على التعبير الفرنجى.

وبينما كانت هذه الجيوش قد استكملت عدتها وتنتظر الأمر بالهجوم^(٣)، أشيع فى الدوائر السياسية أنه حصلت مفاوضات فى الصالح بين الحكومة وزعماء العرب، فأوقف الهجوم حتى تنتهى المفاوضات.

وكان يجب أن نسيطر على المستعمرة من طريق استعمال الآلات الحربية وانتصار الجيش، لا من طريق السياسة الواهية وهى المفاوضات والصالح فى بلد علمنا من تقاليده أن السيطرة عليه لا تكون إلا بالقوة.

(١) الجيش الأبيض هو المسكون من جنود إيطاليين. والجيش المسكون هو المسكون من أحباش وغيرهم. وجيش خريبش هم المرتقة الذين باعوا ضمايرهم وحاربوا وطنهم لقاء درهمات قليلة برياسة يوسف خريبش، لاسد الله جوعتهم.

(٢) الأورطة من ٨٠٠ إلى ألف جندى.

(٣) لم تكن هذه الجيوش منتظرة الأمر بالهجوم، بل كانت تخوض غمار الحرب بالفعل، وكانت الحرب مستمرة من جنزور إلى الزاوية. وفى وسط هذا الجحيم نبئت فكرة الصلح.

وهذا الاتفاق مع العرب عطل الاستيلاء على مصراته أيضاً ، وكان قد أعد جيش هائل لاحتلالها ^(١) .

وفي الوقت الذي كان في طرابلس ثمانون ألف جندي لاحتلال البلاد بالقوة رضعمت الدوائر السياسية إلى هذا الصالح المشين لحكومة خرجت منتصرة من الحرب العظمى . وقد نقلنا هذه الترتيبات الحربية الهائلة من كتاب الجنرال جرازيانى « نحو الفزان » ليرى القارئ مبلغ الاستعدادات التى يعدها الطليان للقضاء على الطرابلسيين . وليدرك الأسباب التى من أجلها ركن الطليان إلى الصالح وعندهم هذه القوة الهائلة التى جمعت بين قوى البر والبحر . وقد أحس المجاهدون بما يعده الطليان من هذه الجيوش الجاررة فهبوا نفوسهم لملاقاتها ووصلوا جبهة دفاعهم بالزاوية على طريق ترينة ولم يمهل المجاهدون الطليان بل هاجمهم فى ترينة والزاوية عدة مرات . وفى آخر مرة تقهرت قوة الطليان فى الزاوية ، وتمكن المجاهدون من مطاردتهم فى شوارعها وبين البيوت وأصبحت مهددة بالسقوط واستشهد كثير من المجاهدين فى واقعة ترينة .

وكانت فكرة الصلح تبدو مستحيلة التنفيذ من ناحية الطليان لتفوقهم بكثرة الجيوش وآلات الحرب . وما كان أحد يشك فى أنهم يريدون الانتقام من الطرابلسيين والثأر لشرفهم العسكرى الذى لصقت به أكبر سبة لصقت بجيش أوربى لما أصابه من النكبات المتكررة والهزائم الشنيعة . وفى وسط هذه المعارك الطاحنة والجيوش المتقاتلة نبتت فكرة الصلح .

سبب طلب الصلح

عجيب جداً أن يركن الطليان إلى الصلح فى مثل هذه الظروف المواتية لهم . ويرجع السبب فى ذلك — فى نظر ممثلى السياسة العسكرية ، وفى مقدمتهم الجنرال جرازيانى — إلى سياسة الضعف التى سلكتها الحكومة فى التقرب من العرب ، ومبادلتهم رغبة الصلح ويرجع — فى نظر ممثلى السياسة المدنية — إلى ما دلت عليه التجارب الطويلة من فشل السياسة العسكرية فى الاستيلاء على البلاد بالقوة المسلحة وقد مضت على الجيش ثمان سنوآت منى فيها بهزائم مريعة فى كل مكان ، من فزان إلى البحر ، وهو الآن محصور

في ثلاث مدن على البحر لا يتجاوز حماية الأسطول ، فمن الواجب إذا الوصول إليه من طريق الصلح .

وهناك سبب آخر وهو اشتداد الخلاف بين ممثلي السياسة المدنية وممثلي السياسة العسكرية وتعصب كل إلى رأيه . وكل من الفريقين غير واثق بانتصار هذه القوة الهائلة التي يحدونها ، وقد بدت عليها بوادر الضعف في معارك الزاوية وترينة . ولو قدر على هذه الجيوش الهائلة أن تنكسر لكانت القضية على الطليان في طراباس .

ومن كان يعمل لإقناع الطليان بمسكرة الصلح محمد بك فرحات الزاوى وهو عنصر قوى فى رأى الطرابلسى فإنه كان من الذين بنوا سياستهم على أخذ ما يمكن أخذه من طريق الحجة وأساليب السياسة ، وكان مقتنعاً بأنه إذا اتفق رؤساء العرب على هذه السياسة وعملوا لها مخلصين فسيكون كسبهم من الطليان — من هذه السياسة — أكبر من كسبهم من سياسة الحرب والقتال . فما عند العرب من عتاد الحرب شيء محدود لا مورد له ومآله الفناء طال الأمر أو قصر . وما عند الطليان شيء غير محدود ، ولهم من صناعاتهم ومواردهم وعمالهم ما يجعله أضعافاً مضاعفة .

والطليان يعلمون منه هذه السياسة ، ولكنهم يعلمون أيضاً أن الرؤساء الذين بيدهم الأمر على خلاف رأيه ، فكانوا لا يعلقون عليه آملاً كبيراً ، وكان يؤكد للطليان دائماً أن سياسة السلم فى طرابلس أجدى عليهم من سياسة الحرب . ولما نجح فرحات بك فى سياسته ضد عبد القادر الغناى ، عدوا هذا نجاحاً لسياسته وتأثرت أفكارهم بآرائه .

وبقى فرحات فى الزاوية يعمل لسياسة التقريب بين العرب والطليان رغم ما يقوم به الطليان من حشد الجيوش ، ورغم ما قام به المجاهدون من الهجوم على الزاوية . وكتب رؤساء العرب فى العزيزية فوجد منهم ما شجعه على المضى فى مهمته .

وأذكر أن من الذين وسطهم الطليان للصلح بينهم وبين العرب خلافو ناحوم ، وهو يهودى من أكبر تجار طرابلس ، وله صلة صداقة بمرضبان بك السويحلى ، فأوفدوه إليه ليحمله على الصلح فى مقابلة إصدار عفو عام على الطرابلسيين ورد ما اغتصب منهم من أملاك

— وكانت قليلة إذ ذاك — وهى سخافة أراد الطليان أن يخفوا بها ضعفهم أمام العرب .
وشبيه بها ذلك العرض الذى عرضوه عليهم بواسطة أكرم بك . انظر ص ٢٣٩ .

وقد ردت هيئة الجمهورية على هذا التلاعب من الطليان بكتاب قالت فيه : « اننا قوم لانأبى الصلح ، ولكننا لانرضى المذلة والعار . ونحن الذين يجب أن نمنحكم العفو على هذا الاعتداء الفظيع . وإذا أصر الطليان على هذا العناد فسنواصل الحرب إلى النهاية .

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جباناً
وقد كانت لهذا الكتاب أثر كبير فى دائرة السياسة الإيطالية ، وفهموا منه أنهم واهمون فى تقدير موقف العرب ، وأن العرب عازمون على مواصلة القتال مهما بلغت التضحية . واقتنع الجنرال تردى رئيس دائرة السياسة بما جاء فى كتاب الزعماء من الرغبة الأكيدة فى الصلح . وكان يصرح بعد عقد الصلح بأن كتاب الزعماء كان له أثر بالغ على نفسه فى وجوب مبادلتهم رغبة الصلح .

والطليان فى مجموعهم مقتنعون بأن العرب ميالون دائماً إلى الصلح ، ولكنهم لا يريدون أن يفسروا شروطه كما يفسرها العرب ، ولذلك تراهم دائماً يعرضون العفو ورد الأملاك ، يحاولون بذلك صرف اتجاه العرب إلى مثل هذه الأمور التافهة . فلما جاء رد الجمهورية صريحاً فيما تعترقه من الدفاع ، وخاب أمل قيادتهم العسكرية فى الحصول على نصر عاجل رجحت كفة أنصار السياسة المدنية فى طلب الصلح وأذعنوا إلى تفسير شروطه بما يجب أن تفسر به الشروط التى بذلت فى الحصول عليها الدماء الطاهرة والأرواح الغالية . واشتد الخلاف بين أنصار السياستين العسكرية والمدنية ، وفشلت أعمال السبر والاختبار التى قام بها الطليان فى الزاوية وترينة ، وعلى أثر ذلك تقدم إلى ميدان العمل أنصار الصلح وأخذوا فى تهيئة أسبابه .

هيئة المفاوضات

تتكون هيئة المفاوضات فى صلح بنياد من : الهادى بك كعبار ، والصويعى الخيتونى ، ومحمد فكينى ، وعلى بن تفتوش . ثم التحق بهم بعد عدة جلسات أحمد بك المريض .

وقبل أن تباشر المفاوضات في مسألة من المسائل تتبادل الرأي فيها . مع رمضان بك السويحلي وسليمان باشا الباروني والأستاذ عبد الرحمن بك عزام ومختار بك كمبار وغيرهم من ذوى رأى حتى إذا ما انتهوا إلى رأى تقدموا به إلى المفاوض الإيطالى ليناقشوه رأيه ، ويبينوا له وجهة نظرهم .

عبد النبي بن خير

أما عبد النبي بن خير الذى هو أحد أعضاء الجمهورية الأربعة فقد سافر إلى ورفلة قبل البدء فى مفاوضات الصلح ليجمع المجاهدين ويرسلهم إلى صف القتال ، ولكنه انتهرها فرصة وبقى هناك . وكان كلما طلب منه القدوم إلى جبهة القتال حيث يقيم الرؤساء أبدى المماذير ، وعد بما ينوى عدم الوفاء به . وقد فتحت المفاوضات بين الطليان والعرب ، وأصبح صلح بنيادام قاب قوسين فلم يهتم لذلك .

ولما انتهت المفاوضات وقع على القانون الأساسى بالنيابة عنه الهادى كعبار والصويحلى الخيتونى ، وبعد انتهاء الصلح رأى الرؤساء أن يستطلعوا جليته ويقفوا منه على هذه الشكوك التى تساوره فأرسلوا إليه وفداً مكوناً من الشيخ عبد الصمد النعاس ، والحاج فرج ابن إبراهيم المسلاتى ، والصويحلى الخيتومى ، والشيخ أحمد الفساطوى ، واجتمعوا به فى وادى بنى وليد فأخبرهم أن رمضان السويحلى يريد أن يقتله ، وحذرهم منه ، وحاول أن يقنعهم بضرورة الانشقاق عنه ، فأفهموه أن هذه شكوك فى غير محلها ، وأظهروا له رغبتهم فى الجمع بينهما ليزول سوء التفاهم ، واتفقوا أن يكون الاجتماع فى ترهونة ، فجاء معهم إلى ترهونة وأرسلوا إلى رمضان فى سوانى المشاشطة يطلبون قدومه إلى ترهونة للبحث فى سوء التفاهم الحاصل بينه وبين عبد النبي . ولكن رمضان السويحلى وكثيراً من الناس رأوا أن هذه فتنة يرمى من ورائها عبد النبي إلى تفريق الكامة والتحزب ضد رمضان .

والحقيقة أن ما لجأ إليه عبد النبي من القدح فى رمضان والتخوف منه ودعوة الناس إلى الانفضاض من حوله لم يكن له سبب ، ولم يحدث بينه وبين رمضان ما يكدر الصفو ولا ما يقتضى العداوة ، وعلى ضوء هذه الحقيقة رأى رمضان بك أنه لا داعى لهذه المواجهة

في ترهونة ، وإذا كان ولا بد من التفاهم فيصح أن يكون هنا حيث يوجد زعماء البسلاد وأعيانها فلم يقتنع عبد النبي بهذا ، ورجع إلى أرقله ، ووقف الأمر عند هذا الحد .
والواقع أن عبد النبي مصاب بحب الذات حريص على أن يسكون زعيما لا من طريق التضحية والعمل ، بل من طريق التدليس والدعاوى الكاذبة . لأننا لم نر عبد النبي يتقدم الصفوف إذا جد الجد وفتح الرصاص والمدفع ميدان التضحية والفداء حيث مقام الزعامة ومنبر الصدارة . وهاهو تاريخ الحرب الطرابلسية نقله صفحة صفحة لنعثر فيه على عبد النبي في صفوف المجاهدين فلم نعثر له على أثر . ولكننا وجدناه يتقدم صفوف الطليان وهم ذاهبون إلى محاربة السيد محمد بن عبد الله في فزان ، انظر ص ١٣٢ . ورأيناه يركن إليهم في طرابلس ويحيا حياة البذخ على حساب خزانةهم ، ويركن إلى الخلف وتفريق الكلمة بعد إنشاء الجمهورية وفي مؤتمر غريان ، وبعد تغلب الطليان وجلاء المجاهدين إلى أرقله سنة ١٩٢٢ . وقد سبب له حب الذات الوسواس ومركب النقص ووجهه ، وجهة سوء ، فهو يرى كل عمل لا يأتي على يديه ناقصا ، وهو لم يعمل شيئا ، ويرى كذلك كل أعمال الرؤساء إنما يقصد بها مناوأة أو ضرره من قريب أو بعيد . وكانت نيته نحو رمضان بك سيئة إلى أبعد درجات السوء لا شيء سوى أن عدم إخلاصه قصر به عن إدراك تقدير الأمة له كما تقدر رمضان . وقد رأى رمضان بك أن من الصواب إهمال شأنه وإذا بدر منه أي شر فعلى أعضاء الجمهورية أن يفكروا في رده .

بدء المفاوضات

اجتمع الفريقان في خلة الزيتونة في مارس سنة ١٩١٩ للمفاوضة فيما يكون أساسا لشروط الصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهر لم يصلوا فيها إلى نتيجة . وكان الطليان يهددون بجيوشهم الهائلة التي جمعوها ، ولكن أعضاء الجمهورية لم يمنعهم هذا التهديد من التمسك بحقوقهم . وفي ١٨ من إبريل سنة ١٩١٩ أعلن وقف الحرب واتفاق العرب والطليان على قاعدة للصلح وهي « منح الشعب الطرابلسي دستورا يحول له مباشرة حقوقه المدنية والسياسية ، ويعطيه الحق في القيام بجميع واجباته الكبرى كاشعوب المتمدنة كما

هو من شروط الحرية الحديثة . وإلى أن ينفذ هذا الاتفاق ويصير العمل بمقتضاه تعطى للزعماء ضمانات وامتيازات ، ويحولون حقوقاً .

على هذا اتفق الطرفان اتفاقاً وقتياً ، ولكنه كاف لأن يكون ضماناً ناجزاً من الناحيتين .
وقد استاء كثير من الطليان — وفي مقدمتهم الدوائر العسكرية — من قبول الصالح على هذه القاعدة ، واعتبروه تسليماً من الطليان بدون ترو ، وقال بشأنه الجنرال جرازيانى :
« إنه من التمويه والتضليل أن يسمى ما جرى فى خلة الزيتونة صلحاً ، بل هو إزالة لسلطتنا عن طرابلس » ويلقى التبعة على سياسة الحكومة الخاطئة التى تورطت بسببها فى قبول هذا الصلح .

ولم يخف جرازيانى تعصبه العسكرى وامتعاظه من هذا الصلح فى مناسبات كثيرة .
وصرح بأن « العرب فسروه بأنه دليل على ضعفنا لأن عظام جنودنا الذين قتلوا فى سنقى ١٩١٤ و ١٩١٥ ما تزال إلى الآن تظهر بيضاء ملقاة على الأرض فى ترهونة وبنى وليد ، وعلى السهول المهجورة . وكانت سنة ١٩١٩ سنة تحقير لإيطاليا وكره لها . وليس لهذا من سبب سوى سياسة الضعف والملاينة التى كانت ترسم خططها فى الخفاء على مقتضى تلك الكلمة التى طالما بهمت بها « كلنا إخوان » .

وفى نظر الطليان أن إعطاء الطرابلسيين صلحاً على هذه القاعدة خاطئة سياسية وخطأ ارتكبه أنصار فكرة الصلح . فإن الطرابلسيين فى نظرم لا يستحقون صلحاً على هذه القاعدة التى تعطىهم من الحقوق أكثر مما يستحقون .

قطع المفاوضات

وقطعت المفاوضات ، وكادت الحرب تعيد سيرتها لتشدد الطليان فى كثير من المسائل ، واضطرار العرب لمقابلة هذا التشدد بمثله . وفى آخر لحظة سويت المسائل المختلف عليها واستؤنفت المحادثات مرة ثانية فى خلة الزيتونة فى مايو سنة ١٩١٩ لإتمام ما تضمنته القاعدة المتقدمة وتفصيل شروط الصلح . وانهى المفاوضات إلى الاتفاق على الصلح ووضع القانون الأساسى فى أول يونية سنة ١٩١٩ ووافق عليه الطرفان .

وإلى هنا تم الصلح ووضعت الحرب أوزارها ، ودخل الناس في عهد سلم وأمان ، واستقبلت البلاد عهد النضال السياسى كما استقبلت قبله عهد الحرب والمقارعة بالسلح .

خاتمة

إلى هنا ينتهى الدور الثالث من الجهاد الوطنى فى طرابلس الغرب ، وبانتهائه انتهت مهمة الجمهورية بعد جهاد دام ثمانية أشهر ، حصلت بعده على استقلال لم يتحصل عليه غيرها فى عشرات من السنين .

وقد صحبها التوفيق فى هذا العمر القصير ، فأدارت دفعة الحكم فى ظروف أقسى ماتكون من الحرج ، وكانت الشؤون العسكرية فى المقام الأول من واجباتها . وشغلت من أفكار قادة الطليان العسكريين والمسدين ما هم فى حاجة إلى الاستعانة به فى تنظيم أمورهم ، ووقفت منهم فى مفاوضات الصلح موقفاً مشرفاً فلم تان قناتها ، ولم تتخاذل أمام قوة الطليان الهائلة ، ودلت بنشاطها على أن نظام الحكم الجمهورى فى طرابلس أحسن نظام يوحد كلمة الشعب ويدير شؤونه . وكانت فى محل الإجلال والإكبار من جميع طبقات الشعب . وكانت رمزه الذى يحيطه بكل ثقته واحترامه ، مما سهل عليها القيام بأعباء الحكم فقامت بها خير قيام .

وقد هياً لهذا الدور ما حصل فى الدور الثانى من انتصارات باهرة للمجاهدين ، وهزائم للطليان مريرة أقنعت الكثير منهم بأن امتلاك طرابلس بالقوة المساحة غير ممكن ، فجاء صلح بنيادم نتيجة حتمية لهذا الضعف العسكرى من ناحية الطليان ولنشاط الجمهورية من ناحية العرب .

وكان دور صلح بنيادم دوراً سياسياً محضاً ، وكان الطرابلسيون فيه مضرب المثل فى الوفاء بالعهد . ولما كان من مقومات السياسة الأوربية الغدر وعدم الوفاء صار الطليان يتحينون الفرصة لنقض القانون الأساسى ، وانضم المدينون منهم الذين كانوا يؤيدون فكرة الصلح - يوم أن كان الضعف آخذاً من جيشهم كل مأخذ - إلى العسكريين الذين نظموا أنفسهم وظهرت بوادر الشر منهم فى كل حركة وكان من أمرهم ما سنفضله فى الدور الرابع .



سليمان باشا الباروني أحد أعضاء هيئة المفاوضات في صلاح بنياد



جماعة من المجاهدين في طريقهم إلى مواجهة العدو

الدور الرابع

من الجهاد الطرابلسي

دور الحرية

ن اکلا ایل و ملالت سبباً قیومیت الیه ...

دور الحریه

صلح بنيادام

في يونية سنة ١٩١٩

مقدمة

هذا هو الدور الرابع من أدوار الجهاد في طرابلس الغرب . ويمتاز عن غيره من الأدوار التي تقدمته بالنضال السياسي الذي وقع فيه . فبعد أن فشلت جميع محاولات الطليان في تحسين مركزهم في طرابلس ، وظهورهم بمظهر المتفوق الغالب ، وفي إزالة ما لصق بهم من عار من الهزائم المتكررة في سنة ١٩١٤ وما بعدها . وبعد أن عجزت جيوشهم عن التقدم بل وعن مجاوزة حماية الأسطول — بعد هذا كله سئموا هذا الموقف المشين أمام دول العالم وأمام أنفسهم فأرادوا التخلص منه بأي طريق وعلى أي شكل .

وقد كان في أملهم أن يتوصلوا على صلح يملونه كما تشاء لهم الأعياب السياسية وعلى وفق أغراضهم . ولكنهم وجدوا من انتباه أعضاء الجمهورية ما خيب آمالهم وأبوا إلا أن يكون صلحاً شريفاً تفال فيه طرابلس من الحقوق ما يتفق مع تضحياتها وجهادها ، فوضوا — مسكرهين — في إتمام إجراءات الصلح ، ولكنهم بيتوا القدر واعتزموا الخيانة . فما كادت الحرب تضع أوزارها ويبدأ تشكيل الهيئات التي نص عليها القانون الأساسي حتى بدت منهم محاولات نقض نصوصه وما جاء فيه مما يكسب الطرابلسيين شيئاً من الحرية . وقد وقف الطرابلسيون أمام هذه الألاعيب الإيطالية موقفاً مشرفاً ، استعملوا فيه أساليب الإقناع والحجة إلى أبعد حدودها ، وتذرعوا فيه بالأناة حتى ضاقت الصدور . ولكن الطليان كانوا أزمعوا أمرهم على نقض هذا الصلح ، فلم تغن الحجة والإقناع ، فاضطر الطرابلسيون إلى مقابلة عناد الإيطاليين بمثله ، وقامت الحرب الرابعة في ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٩٤٠ (٢٦ من يناير سنة ١٩٢٢) وسنفصل قريباً ما شتمت عليه من أحداث إن شاء الله .

القانون الأساسي

للقطر الطرابلسي

الصادر بتاريخ ١ يولية سنة ١٩١٩

(نحن) ويتوريو عمانوئيل الثالث ملك إيطاليا وبفضل الله ومعونة الأمة .

بعد الاطلاع على الفصل الخامس من قانون المملكة الأساسي ، وبعد الاطلاع على الأمر المملوكي المؤرخ في ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ رقم ١٢٤٧ المحول قانوناً بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ رقم ٨٣ . وبعد الاطلاع على القانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ . وبناء على ما عرضه علينا وزيرنا ناظر المستعمرات . وبعد استماع مجلس الوزراء (أمرنا ونأمر بما يأتي) .

باب في (الشيتادينانسة)

وهي (الوطنية)

(الفصل الأول) في القطر الطرابلسي . يعتبر وطنيين إيطاليين (شيتادينيني إيتالياني) بناء على الأحكام المندرجة في هذا الأمر . أولاً — المولدون في القطر الطرابلسي حين تاريخ هذا الأمر أينما أقاموا إذا لم تكن لهم صفة وطنيين أجنب ، أو صفة تبعة أجنب حسب القوانين الإيطالية . ثانياً — من أبوه وطني بموجب الفقرة السابقة . ثالثاً — من أمه وطنية بموجب الفقرتين السابقتين إذا كان أبوه مجهولاً ، أو لم تكن له وطنية إيطاليا ولا وطنية دولة أخرى أو تبعيتها . رابعاً — المولد في القطر الطرابلسي إذا كان والداه مجهولين ، أو لم تكن لهما وطنية إيطاليا ولا وطنية دولة أخرى أو تبعيتها . خامساً — المرأة التابعة للدولة الإيطالية أو لدولة أجنبية المتزوجة بمن يعتبر وطنياً إيطالياً بموجب الفقرات السابقة .

(الفصل الثاني) كل من سكن عادة واختياراً في القطر الطرابلسي وليس من الوطنيين الإيطاليين بالمملكة أو من الوطنيين الأجانب ، أو من التبعة الأجانب يحمل على أنه وطني

حسب الفصل الأول (الفصل الثالث) لأجل إجراء الحقوق المذكورة في هذا الأمر وإلى حين تأسيس دوائر النفوس فالشهادات اللازمة لإثبات الشروط المذكورة في الفصل الأول يعطيها مختارو المحلات أو القبائل التي يسكن فيها صاحب الحق عادة بتصديق المحكمة الشرعية فيما يخص المسلمين ، وبتصديق محكمة الأحرار فيما يخص الإسرائيليين .

(باب فيما للوطنيين وما عليهم)

(الفصل الرابع) في القطر الطرابلسي : كل الوطنيين الإيطاليين بلا تمييز بينهم على حد سواء أمام القانون (الفصل الخامس) تبقى للوطنيين المذكورين في الفصل الأول أحكامهم الخاصة بالأحوال الشخصية والموارث ، ولهم الحقوق المدنية والسياسية الآتية : أولاً — أن تصان حريتهم الشخصية فلا يجوز تقييدها إلا فيما هو مقرر بالقانون الجارى في إيطاليا من الأحوال والوجوه . ثانياً — حرمة المنزل ، فلا يجوز لأرباب الضبط دخوله إلا عندما يقتضيه القانون المذكور مع مراعاة الكيفية المقررة فيه والعوائد المحلية . ثالثاً — حرمة الملك إلا إذا وجب الانتزاع (الاستملاك) للمصلحة العامة بعد دفع عوض مناسب حسب القانون ، وذلك إذا لم تمنعه العوائد المحلية منعاً صريحاً . رابعاً — حق المسابقة إلى الوظائف المدنية والعسكرية المذكورة في التراتيب المحلية وهي أيضاً شرائط المسابقة وكيفيةها . خامساً — حق مباشرة الحرف العالية حتى في إيطاليا بشرط حصولهم على الشهادات اللازمة . سادساً — أن ينتخبوا أو ينتخبوا (بضم الياء) وذلك على ما يبينه ترتيب مخصوص من الشرائط والكيفية . سابعاً — عرض مطالبهم وشكاياتهم على مجلس الأمة . ثامناً — حق الإقامة . تاسعاً — حق الخروج من القطر ، وذلك على ما يبينه ترتيب مخصوص . (الفصل السادس) احترام الدين والأصول والعوائد المحلية مضمون . (الفصل السابع) تقررت حرية الطبع والاجتماع وتستصدر في ضبطها تراتيب محلية يبين فيها عقاب من تجاوز الحدود . (الفصل الثامن) إن الوطنيين المذكورين في الفصل الأول لا يجوز إجبارهم على الخدمة العسكرية وإنما يجوز إحداث قوى عسكرية محلية بتجنيد اختياري سينظم بمقتضى نظامات خصوصية . (الفصل التاسع) لا يجعل في القطر الطرابلسي ضرائب

حكومية مضروبة مباشرة (تريبوتى ديريتى) إلا إذا عمت جميع سكانه أو كل من له مصالح فيه ووافق عليها مجلس النواب المحلى والمجلس أيضاً أن يقرر كيفية تنفيذها وتوزيعها على من جعلت عليه تلك الضرائب . ولا تصرف الواردات الناشئة مما ذكر إلا فى مصالح القطر الطرابلسى لا غير . (الفصل العاشر) التدريس الخصوصى أى غير الرسمى حر ولكن للحكومة النظر عليه بواسطة مأموريها . وماعدا المسكاتب المختصة بالتعليم الابتدائى الإجبارى ستحدث الحكومة دروساً للتعليم المتوسط والتعليم العالى أيضاً فيما بعد ، وأما فيما يخص المسلمين فالتعليم الإجبارى مقصور على المذكور فقط . (الفصل الحادى عشر) فيما يخص المسلمين تدرس باللغة العربية جميع مواد التعليم الابتدائى ، وجميع المواد العلمية فى التعليم المتوسط ، وفى جميع الصفوف يجب تعليم اللغة الإبطالية أيضاً ماعدا الصفوف الثلاثة الابتدائية الأولى فإن تعليمها فيها اختيارى . (الفصل الثانى عشر) لا يجوز تعليم المسلمين أصولاً مخالفة لدينهم .

باب فى حكومة القطر الطرابلسى

وإدارته المختارة (آوتونما)

(الفصل الثالث عشر) ترأس القطر الطرابلسى حكومة مؤلفة على ما يأتى : أولاً — من وال ينصبه جلالة الملك وهو يجمع كل السلطة المدنية والعسكرية مما يدخل فى دائرة الصلاحية الموكولة إليه بمقتضى الأحكام المتعلقة بذلك (ثانياً — ومن مجلس نواب محلى ينتخبه أهل البلاد وفيه عدد محدود من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقتضى وظيفتهم وغيرهم يعينهم الوالى طبق ما فى الفصل الخامس عشر الآتى . ثالثاً — ومن دوائر رئاسية مدنية وعسكرية يعين رؤسائها بأمر ملكى . (الفصل الرابع عشر) إن أعضاء مجلس النواب المحلى ينتخبون باعتبار عضو واحد عن كل عشرين ألف نفس من سكان البلاد (الفصل الخامس عشر) إن رؤساء الدوائر الرئاسية للحكومة يستحقون الجلوس فى مجلس النواب المحلى بمقتضى وظيفتهم ، ولهم صوت قرارى ، ويجوز للوالى أن ينصب غيرهم من الأعضاء لهذا المجلس من بين رؤساء دوائر الإدارة المحلية غير أنه لا يجوز أن تتجاوز

جملتهم بحساب أعضاء الاستحقاق سدس الأعضاء المنتخبين . إن أعضاء الاستحقاق ينوبون عن المجلس في الحكومة . ينتخب مجلس النواب المحلى رئيسه من بين أعضائه من المسلمين (الفصل السادس عشر) لا ينتخب (بضم الياء) عضواً في مجلس النواب المحلى إلا من تجاوز عمره الثلاثين سنة وكان من الوطنيين حسب القانون ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ وأطبق ما في الفصل الأول من هذا الأمر . (الفصل السابع عشر) إن الوطنيين الإيطاليين المذكورين في القانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ لا ينتخبون أعضاء في مجلس النواب المحلى ولا يعطون صوته في الانتخاب إلا إذا أثبتوا أنهم سكنوا في القطر الطرابلسي مدة خمس سنين متوالية لينتخبوا أعضاء ، ومدة ثلاث سنين لإعطاء الصوت . (الفصل الثامن عشر) إن الوطنيين الإيطاليين المذكورين بالقانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ والوطنيين المذكورين بالفصل الأول من هذا الأمر ليس لهم أن يعطوا صوته في انتخاب أعضاء مجلس النواب المحلى إلا إذا تجاوز عمرهم العشرين سنة وذلك ماعدا الشروط التي سيقورها الترتيب الخاص . (الفصل التاسع عشر) إن أعضاء مجلس النواب المحلى لا يجوز رفعهم لدى الحاكم الجزائية بلا إذن المجلس المذكور إلا إذا كانت الجريمة مشهودة . (الفصل العشرون) إن الترتيب اللازمة لإجراء الأصول المندرجة في هذا الأمر يوافق عليها مجلس النواب المحلى قبل صدورها . وللمجلس أيضاً القرار فيما يأتي (١) في جعل الضرائب الحكومية الموضوعة مباشرة مع ما يخصها من كيفية التنفيذ والتوزيع على من جعلت عليه تلك الضرائب (٢) في القواعد المرشدة للخدمات المدنية العامة الجارية بالمبالغ المخصصة لها في القسم الاعتيادي لميزانية القطر الطرابلسي بشرط أن لا تزيد المبالغ المطاوعة على القدر المعين في الميزانية . (الفصل الحادي والعشرون) يقسم القطر الطرابلسي إلى ألية وقضاءات ونواح . ويرأس كل قسم من الأقسام المذكورة رئيس اللواء وهو المتصرف ، ورئيس القضاء وهو القائمقام ، ورئيس الناحية وهو المدير . (الفصل الثاني والعشرون) يحدد اختصاص الدوائر التنفيذية للحكومة في الترتيب السياسي الإداري (الفصل الثالث والعشرون) إذا خلا منصب متصرف أو قائمقام أو مدير بعد ابتداء العمل

بهذا الأمر يقع التعيين في الوظائف المذكورة بأمر من الولى بعد استماع هيئة مخصوصة تسمى (مجلس الحكومة) يرأسها الولى أو من ينوب عنه وهى تتألف من عضوين يعينهما الولى وثمانية أعضاء ينتخبهم مجلس النواب المحلى من خارج المجلس . وتحدد الهيئة المذكورة عند كل انتخاب جديد لمجلس النواب المحلى . (الفصل الرابع والعشرون) قبل انتخاب مجلس النواب المحلى فالأعضاء الثمانية يعينهم الولى بأمر منه بوجه وقتى بناء على إشارة من رؤساء جهات طرابلس المختلفة بالاتفاق بينهم . إن الأعضاء المذكورين يبقون فى وظائفهم مادام مجلس النواب المحلى الأول . (الفصل الخامس والعشرون) كل من يتولى رئاسة اللواء والقضاء ، وكذلك فى الفاحية إذا لزم له أن يجعل مجلساً ينتخبه أهل البلاد من بين الوطنيين الساكنين بالمكان . إن مجالس الأولوية والقضاءات والنواحي يرأسها المتصرفون وقائموا المقام والمدىرون ، ولها القرار فيما يتعلق بالإدارة الاعتيادية حسب ما يبينه الترتيب السياسى الإدارى . (الفصل السادس والعشرون) مدة مجلس النواب المحلى أربع سنين وأما مدة سائر المجالس فثلاث سنين ويجوز للولى حل المجالس المذكورة ولكن يجب عليه أن يحدد الانتخاب فى أربعة أشهر من تاريخ أمره بحل المجلس . فى أثناء بطلالة مجلس النواب المحلى وعند تأكد الضرورة للولى أن يباشر ما للمجلس من السلطة بشرط موافقة المجلس على ما فعله . عند بطلالة سائر المجالس فالعمل على ما ذكر لرؤساء الإدارة .

باب فى البلديات

(الفصل السابع والعشرون) كل مركز قضاء أو ناحية هو عادة مركز بلدية . تؤلف إدارة البلدية من رئيس ومجلس ينتخبه الوطنيون كل ثلاث سنين ويجوز أن يلحق بالبلديات التى تزيد على غيرها أهمية ناظر من الحكومة لإجراء المراقبة على جميع شئونها ، وأيضاً لإجراء التفتيش عند اللزوم اسائر بلديات القطر الطرابلسى ولو بواسطة مندوبين منه . يتولى رئاسة البلدية العضو الذى حصل فى الانتخاب على أكثرية الأصوات بشرط أن يعرف القراءة والكتابة . (الفصل الثامن والعشرون) للمجلس القرار فى جميع المواد المتعلقة بالمصالح المحلية إذا لم تكن من اختصاص غيره طبق القوانين والنظامات وينفذ قراراته بواسطة رئيس البلدية .

باب في العدلية

(الفصل التاسع والعشرون) الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية وحقوق العائلة والموارث والمناسك الدينية ترفع إلى المحاكم الشرعية فيما يخص الوطنيين المسلمين ، وإلى محاكم الأحبار فيما يخص الوطنيين الإسرائيليين . (الفصل الثلاثون) إن أمور العدلية مدنية كانت أو جزائية تتولاها المحاكم الاعتيادية برئاسة حاكم من المحاكم المنتظمين في سلك العدلية وذلك ماعدا الأمور المذكورة في الفصل السابق .

إن الوطنيين الذين يدعون إلى المشاركة في المحاكم حسب أحكام الترتيب لهم صوت قرارى . أما المسائل المدنية الواقعة بين أصحاب ملة واحدة من الوطنيين المذكورين في الفصل الأول فيجوز إحالة النظر فيها إلى المحاكم الشرعية وإلى محاكم الأحبار إذا تبينت مناسبة ذلك . (الفصل الحادى والثلاثون) تعيين قضاة القطر الطرابلسى يוכל — على طريق النيابة — إلى مجلس النواب المحلى إلا أن الأعضاء غير المسلمين يجب عليهم الإمساك عن إعطاء الصوت في أثناء الانتخاب .

باب في نيل الوطنية في المملكة

(الفصل الثانى والثلاثون) كل من هو من الوطنيين الإيطاليين المذكورين في الفصل الأول له أن ينال صفة الوطنيين في المملكة طبقاً للقانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ إذا طلبها وتوفرت فيه هذه الشروط : (١) أن يكون عمره ٢١ سنة كاملة (٢) أن يكون ذا زوجة واحدة أو عزباً (٣) إن لم يصدر عليه حكم في جنائية يقتضى حرمانه من الحقوق السياسية (٤) أن تثبت إقامته بإيطاليا أو بالقطر الطرابلسى خمس سنين إقامة اعتيادية . وفضلاً على ماسبق يجب أن يوجد فيه أحد الشروط الخصوصية الآتية : (١) أن يكون قد خدم بشرف وصدق في الجيش الملوكى أو في البحرية الملوكية أو في غيرها من قوى الدولة العسكرية (٢) أن تكون له شهادة إحدى المدارس الإبطالية ، ولا أقل من شهادة إتمام الدراسة الابتدائية (٣) أن يكون من أرباب وظائف الحكومة أو ممن أحيل إلى

التقاعد بسبب خدماته السابقة في الإدارات العمومية (٤) أن يكون قد قلّد وظيفة عمومية انتخابية (٥) أن يكون صاحب نيشان أو رتبة شرف منحتها له الحكومة الإيطالية وأن يكون أبوه وطنياً إيطالياً طبق ما في الفصل الأول وصار وطنياً في المملكة حينما تجاوز ٢١ سنة (الفصل الثالث والثلاثون) إن زوجة من كان وطنياً إيطالياً طبق ما في الفصل الأول وصار وطنياً إيطالياً في المملكة بعد زواجها يجوز لها أن تطلب نيل صفة زوجها .

باب في أحكام عمومية

(الفصل الرابع والثلاثون) إن الوطنيين المذكورين في الفصل الأول الساكنين في الخارج أو الناقلين سكناهم لا يجوز لهم أن يكتسبوا صفة وطنيين أجنب أو تبعه أجنب إلا بعد حصول الرخصة في ذلك بأمر ملوكي ، ويفقدون هذه الصفة بمجرد وجودهم في القطر الطرابلسي أو في المملكة أو في المستعمرات الإيطالية . (الفصل الخامس والثلاثون) ستقرر بترتيب مخصوص الأصول الواجب اتباعها في نيل الوطنية المذكورة في الفصل الأول أو عدمها فيما يخص التبعة الأجنب وذلك بمراعاة المعاهدات الدولية كما ستقرر أيضاً الأصول المتعلقة بنيل الوطنية المذكورة في الفصل الثلاثين وفي الفصول التالية أو عدمها فيما يخص الوطنيين المذكورين في الفصل الأول (الفصل السادس والثلاثون) لتنفيذ أحكام القانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ تعتبر مدة الإقامة في القطر الطرابلسي إذا كانت تالية لتاريخ ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ . (الفصل السابع والثلاثون) الترتيب اللازمة للعمل بالأصول المندرجة في الفصول السابقة وسائر الترتيب العامة المتعلقة بإدارة القطر الطرابلسي ستوضع بأوامر ملوكية . (الفصل الثامن والثلاثون) إن القوانين والأوامر والنظامات الصادرة بعد تاريخ هذا الأمر إذا وضعت فيها أحكام جديدة تتعلق بالوطنية لا تجرى على الوطنيين المذكورين في الفصل الأول إلا إذا شملتهم بوجه صريح وسبق وفاق مجلس النواب المحلي عليها . (الفصل التاسع والثلاثون) في جميع الأوراق الرسمية وعند إجراء الأعمال لدى الدوائر العمومية في القطر الطرابلسي يجوز استعمال كل من اللغتين الإيطالية والعربية . إن القوانين الصادرة بعد التوقيع على هذا الأمر الواجب امتثالها على الوطنيين المذكورين

في الفصل الأول أيضاً تنشر باللغتين الإيطالية والعربية . (الفصل الأربعون) عند ابتداء العمل بهذا الأمر يبطل فيما يخص القطر الطرابلسي الأمر السابق المؤرخ في ٦ إبريل سنة ١٩١٢ رقم ٥١٣ . وسيعرض هذا الأمر على مجلس الأمة حتى يصير قانوناً .

نأمر بإدراج هذا الأمر المحتوم بطابع الدولة في المجموعة الرسمية لقوانين مملكة إيطاليا وأوامرها وعلى كل من يجب عليه ذلك أن يمثلها ويسعى في امتثاله من الغير .
حرر في روما في ١ جوني سنة ١٩١٩



انتهى نص القانون الأساسي

وهذا القانون ليس كل شيء فيما يلزم الحرية الشعوب واستقلالها ، وهو كذلك قليل بالنسبة لتضحيات الطرابلسيين وما قدموا لوطنهم من فداء ، ولكنه باب فتح بين الطرابلسيين والحرية ليشهدوا من جهالها ما يحفزهم للتمسك بحقوقهم ، ولجسارة الأمم التي وصلت فيها إلى حد ما زالوا دونه بمراحل ، وسيجد الطرابلسيون بين مواده ما يوسع أفاقهم السياسي ، ويفتح أمامهم المجال للمطالبة بتعديل ما يحد من نشاطهم ويحف بحقوقهم ، ويتخذون منه سائلاً للوصول إلى دستور يكون أشمل لأنواع الحرية ، وأوسع مادة في بناء الأمة ، ولو صحبه حسن النية من الطرفين لما قصر دون تحقيق بعض هذه الأمنيات فيما يستقبله الشعب الطرابلسي من حياته . ولكن غدر الطليان جعله حبراً على ورق ، وجعله مولوداً ميتاً لم يسمع أهله له صوتاً ، ولم ينعموا بحياته ساعة .

شروط خاصة

قد احتفظ أعضاء الجمهورية بشروط أخرى خارج القانون الأساسي ، ووافق الطليان عليها وهي :

- ١ - أن يكون لهم الحق في تجنيد عدد من الوطنيين للخدمة المحلية .
- ٢ - التزام الحكومة الإيطالية بإبدال الأوراق العثمانية بالأوراق الإيطالية .
- ٣ - عدم دخول الجنود الإيطالية المراكز الآتية : الزاوية ، العزيزية ، جنزور ،

مصراته ، سرت ، ترهونة ، غريان ، الريانة ، لالوت ، بنى وليد ، على أن يكون للطلليان فيها ممثل برتبة ضابط يقوم بعملية الاتصال بين العرب وحكومتهم ، ومعه بعض الجنود للمحافظة عليه والقيام بأعمال البريد والتلغراف .

٤ - عدم أخذ السلاح من العرب .

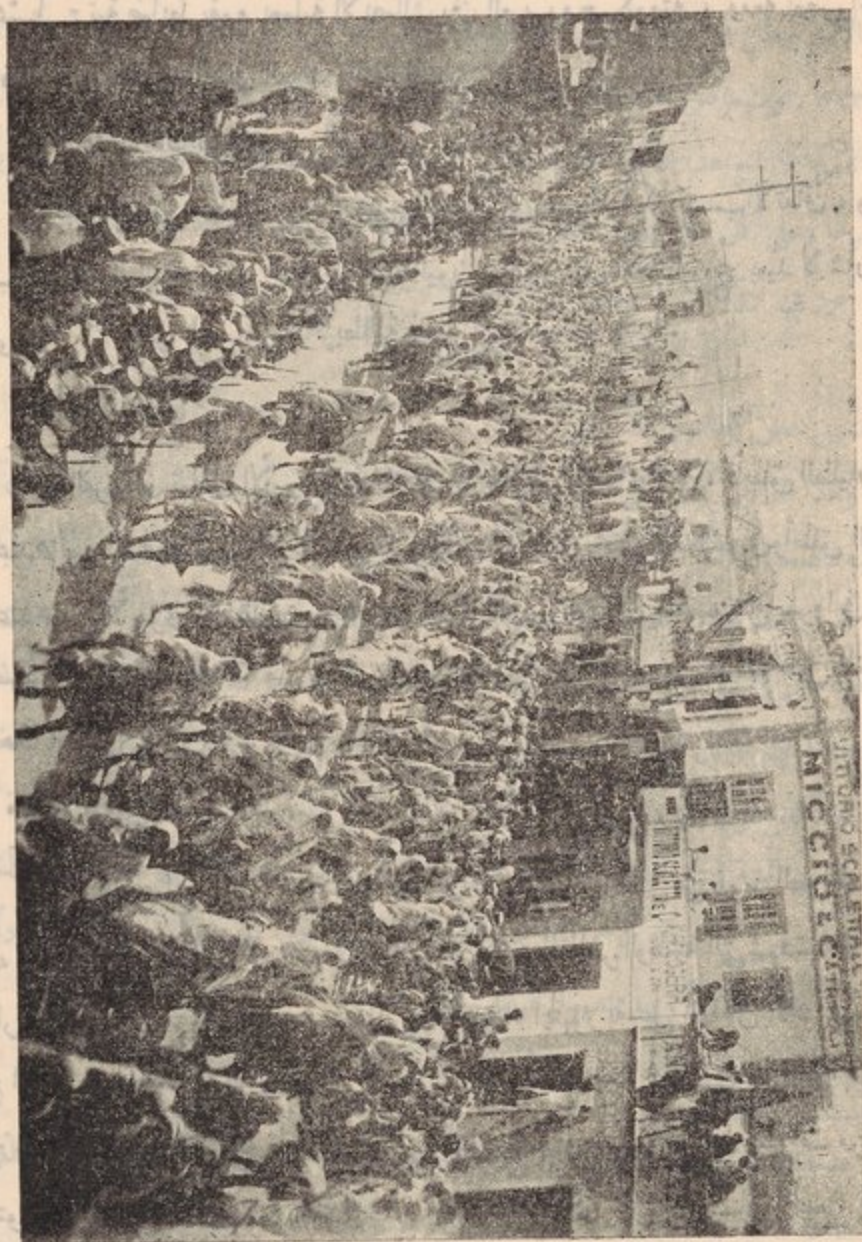
وقد قبل الطليان هذه الشروط ، وعينوا ضباطاً في هذه المراكز حسب الاتفاق ، وتولى العرب إدارة شئونهم ، وبقى الضباط الإيطاليون ينظرون إلى الأعمال من بعيد لا شأن لهم في شيء إلا فيما يتعلق بالحكومة الإيطالية فيبلغ إليهم ليبلغوه إليها .

تبادل الأسرى

وقرر الفريقان تبادل الأسرى دليلاً على الإخلاص وصفاء النية ، فأطلق الطليان من عندهم من المساجين العرب وكان من بينهم الأستاذ الشيخ مختار الشكشوكي وأطلق العرب من عندهم من الأسرى الإيطاليين ويبلغ عددهم قرابة ستمائة وكان بعضهم ممن أسروا في أرفلة وبعضهم أتت به الغواصات من عرض البحر ممن أمكن التقاطهم من الأساطيل المفرقة . وتم هذا التبادل يوم ٢٦ من يونية سنة ١٩١٩ .

مظهر وطني

كان لإعلان صلح بنيادم ، وصدور القانون الأساسي أثر حسن على نفوس الطرابلسيين ، وقابله الناس بفرح وسرور بالغين ، وتلاه مظهر من أروع المظاهر الوطنية التي شهدتها طرابلس في تاريخها الحديث . وذلك أنه بعد أن وقع أعضاء الجمهورية على القانون الأساسي وزال شبح الحرب ، واطمأنت النفوس إلى السلم ، وقبل أن يرجع المجاهدون إلى بيوتهم رأوا أن يزوروا أم الوطن (مدينة طرابلس) التي حيل بينهم وبينها زهاء ثمان سنوات من أول أكتوبر سنة ١٩١١ إلى يونية سنة ١٩١٩ وكان هذا الرأي محل استحسان الجميع ، إلا أن رمضان بك السويحلي أبدى رغبته في تأخير دخوله هو إلى فرصة أخرى . ولكن الطليان ألحوا في دخوله وفسروا موقفه هذا بأنه غير راض عن الصلح . وإزاء هذا الإلحاح وإظهاراً لحسن النية أجاب الرغبة ودخل مع الداخلين .



موكب وطني حافل يتل دخول المجاهدين الى طرابلس بعد اتمام صلاح بنينام

وقد هياؤا لهذا الحفل ٦٠٠ فارس ، ورتبهم صفوفاً ينقدمهم أعضاء الجمهورية فالزعماء فالرؤساء ثم الأمثل فالأمثل ، ودخلوا المدينة في يوم مشهود بين زغاريد النساء وأناشيد الفتيات وكانت أصواتهن تشق عذان السماء وهن مطلات من قلايات المنازل ^(١) ونوافذها يرددن أنشودتهن الوطنية :

ينصرُ جيش الجمهورية اللى خلا الطليان رعية
وكان الحماس بالغاً ، والنفوس في جذل تكاد تثب من الصدور ، وحادى الخيل يستفزها في نغم كادت به تجن ، ولولا شكشكة اللجم لما سمعت إلا حممتها .
وكان هذا المشهد الرابع في يوم ٦ من ذى الحجة سنة ١٣٣٧ .
وقع هذا على مرءأ من الطليان ومسمع ، وصرت بأذانهم تلك الهمات القومية المدوية ، وأحضروا آفاقاً من جنودهم لحفظ النظام . وكان لهذا الموكب الوطنى المنقطع النظير أثر بالغ في بعث النشاط في الطرابلسيين حتى لكأنهم بعثوا من القبور .
وتقابل الزعماء مع الوالى « مينز ينجر » ومكثوا معه قليلا في السراية الحمراء ^(٢)



رمضان بك السويلى خارج من قصر الوالى بعد مقابلته ، ومعه الجنرال تاردينى

(١) القلاية كلمة عربية طرابلسية يطلقونها على البلدة . (٢) هى قصر الحكومة .

وأبى رمضان بك أن يبقى في ضيافة الحكومة ، وخرج بعد مقابلة والى مباشرة إلى محل معسكر المجاهدين في سوانى المشاشطة .

حكومة وطنية

كان مما جاء في القانون الأساسى الاعتراف بحكومة وطنية مقرها مدينة طرابلس . وقد شكلت من ثمانية أعضاء . وصدر أمر من والى الإيطالى بتعيينهم ، وهذا نصه :
« إن والى طرابلس بعد اطلاعه على فصلى ٢٣ و ٢٤ من قانون أساسى القطر الطرابلسى الصادر بتاريخ أول جونيئو سنة ١٩١٩ عدد ٩٣١ . وبما أنه فى التحرير المؤرخ ٣ سبتمبر الجارى المتقدم من أحمد بك المريض إلى الحكومة قد صار عرض الثمانية الوطنيين المنتخبين أعضاء فى مجلس الحكومة . وأن هؤلاء الثمانية قد صار تقديمهم علناً بمراسم احتفالية إلى والى من طرف رمضان بك شقيوى الذى كان برفقته جمع كثير من رؤساء وأعيان القطر الطرابلسى . وحيث إنه من التحرير المبحوث عنه ، ومن الاحتفال الواقع تحقق أن العرض المذكور حصل باتفاق من رؤساء جهات طرابلس المختلفة .
يأمر بما يأتى :

إن الذوات الآتى ذكرهم قد صار تعيينهم أعضاء لمجلس حكومة القطر الطرابلسى .

عمر بك أبو دبوس	أحمد بك شقيوى	على بك الشنطة
أحمد بك الفساطوى	محمد الصويى بك	الحاج محمد فكينى بك
محمد بك مختار كعبار	محمد بك ابن الفقية حسن	

وسيصير تعيين منحصاصاتهم بأمر آخر »

حرر بطرابلس فى ٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ .

الوالى

صورة مطابقة للأصل

الإمضاء : مينز بنجر

كاتب الوالى

صار الاطلاع عليه

طابع الحكومة

طابع الحكومة

الوالى

وعين الهادى كعبار فى وظيفة « متصرف المركز » وقد طلب أن يكون مركزه مدينة طرابلس بحجة أنه لا يمكنه معرفة مصالح السكان إلا إذا كان مقيماً بطرابلس لأنها عاصمة القطر وجميع المراكز مربوطة بها ، وقد سلك الطليان معه مسلك المراوغة فلم يمكنوه من اتخاذ مركزه فى العاصمة .

واجتمع مجلس الحكومة فى مدينة طرابلس وصارت مراكز القطر كلها مربوطة به ، وكان عبد الرحمن بك عزام موجوداً مع الأعضاء ، وله بهم أكبر الصلة . وامتنع البارونى عن الدخول فى هذه الهيئة بعد اللاحاح عليه بدعوى أنه عثمانى ويريد الاحتفاظ بعثمانيته وبوظيفته فى مجلس الشيوخ العثمانى . وكان يريد انتخاب موسى قرادة عضواً فى مجلس الحكومة ، ولكن الزعماء خالفوه لأنه لوحظ فى انتخابهم ألا يكون العضو مقيماً بالمدينة وقت الانتخاب ، ولهذا السبب عينه لم ينتخب من بينهم أحمد بك المريض لأنه كان مقيماً بالمدينة ، وكان موسى قرادة مقيماً بها إذ ذاك فلم يوفقوا على انتخابه احتراماً لهذه القاعدة ، ولم يشذ عنها إلا انتخاب محمد بك الفقيه حسن لأنه قصد باتخابه تمثيل أهل المدينة . وأيضاً فإنه لم يكن له محل إقامة فى غيرها . وإلى هنا وقفت المسألة .

وبقى البارونى فى طرابلس بعيداً عن كل شىء يتعلق بالحركة الوطنية إلى أن سافر إلى الآستانة فى ١٢ صفر سنة ١٣٣٨ . ولما وصل إلى الآستانة لم يجد من الحكومة التركية إقبالا بسبب البلاغات التى قدمها فى حقه إسحاق باشا وبعض الضباط الأتراك ، وصادف قدومه إلى الآستانة وقت الانقلاب الذى قام به مصطفى كمال . وقطع الأتراك معاشه من عضوية مجلس الشيوخ ، فلم يطب له المقام بها فسافر إلى رومة ، ومنها إلى باريس ، وبقى فيها إلى أن رجع إلى طرابلس سنة ١٩٢٠

وحاولت هيئة الحكومة أن تباشر أعمالها فى دائرة سلطتها . ولكن الطليان سرعان ما أفسدوا الجو بالدسائس فلم يصف لها الجو للعمل .

وفى أثناء محاولات مجلس الحكومة سلطته كان رمضان بك مقيماً بسوانى المشاشطة بمنزور ليرقب الحلال عن كشب ومعه قسم كبير من جيش المجاهدين النظامى بقيادة عبد الله

تمسكت ، ريثما يطبق القانون الأساسى ، وينتخب مجلس النواب ، وتتخذ آخر الترتيبات لاستقرار الحال ، ومعرفة كل من العرب والطلّيان دائرة اختصاصه ، وبقى رمضان السويحلى فى سوانى المشاشطة إلى نوفمبر سنة ١٩١٩ .

حزب الإصلاح الوطنى

رأى الطرابلسيون وهم فى بدء نهضة جديدة ، أن الظروف تحتم عليهم إنشاء حزب شعبى سياسى ، فأسسوا حزب الإصلاح الوطنى فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٩ وأسندوا رياسته إلى أحمد بك المريض ورياسة شرفه إلى رمضان بك السويحلى .

وكانت مبادئه :

- ١ — المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة فى القانون الأساسى كاملة .
- ٢ — التمجيل بتنفيذ القانون الأساسى ، خصوصاً ما يتعلق بالإصلاح ، وما ينص على تدريب الطرابلسيين على حكم أنفسهم حتى يصلوا إلى حريتهم فى أقرب وقت .
- ٣ — تحقيق التضامن بين العرب والإيطاليين على أساس المساواة التامة واتحاد المصالح .
- ٤ — نشر التعليم بكل الوسائل ، مع المحافظة على العادات الإسلامية ، لتدعيم الأخلاق العربية .

٥ — بذل العناية لإصلاح الحالة الاقتصادية وتوزيع الثروة الوطنية على أساس عادل . وأنشأوا جريدة « اللواء الطرابلسى » لتكون لسان حاله . وكان الحزب يستمد قوته من الشعب ، واستندت الحكومة الوطنية على الحزب فى تأييدها وإقناع الطليان بمطالبها ، وأبدى الطليان مراوغة فى انتخاب مجلس النواب الذى ينص عليه القانون الأساسى ، فكان حزب الإصلاح الوطنى يلح فى تنفيذه . وكانت جريدة اللواء الطرابلسى تعبر عن هذا المعنى فى إلحاح وجراءة .

واتخذ الناس من جريدة اللواء منبراً يصارحون عليه حكومة الطليان بأرائهم وبما يرجونه لوطنهم من خير فى الإسراع بتنفيذ القانون الأساسى . وكان لعبد الرحمن بك عزام جولة على صفحاتها يأمضاه . ع كانت دائماً مطمح الأنظار ومحل الانتظار . وكان وجود

رمضان بك السويحلي في المشاشطة هو ومن معه من جيوش المجاهدين يمد الحزب والحكومة الوطنية بالتأييد المعنوي اللازم للمثابرة على المطالبة بحقوق الوطن .

ومما كان مثاراً للخلاف بين الطليان والعرب الصفة التي تكون لصوت البرلمان الطرابلسي ، فالطرابلسيون تمسكوا بأن يكون صوته قرارياً كما جاء في القانون الأساسي ، والطليان يتمسكون بأن يكون استشارياً . والقانون الأساسي صريح فيما تمسك به الطرابلسيون ولكن الوالي يريد أن يجعل لنفسه صلاحية التغيير فضلاً عن التفسير ، فكانت هذه المراوغة منهم من أقوى أسباب الخلاف .

وقد وجد الطرابلسيون أنفسهم بين عشية وضحاها في مركز اجتماعي هائل يجمع حكومة



رمضان السويحلي في إحدى مقابلاته لرئيس دائرة السياسة وبعض الضباط الإيطاليين يومه عيد الرحمن بك الشيلاني

وطنية ، وحزباً وطنياً ، وجيشاً وطنياً ، ثلاث قوى يؤيد بعضها بعضاً في المطالبة بحقوق الأمة وإلزام الطليان بتنفيذ القانون الأساسي ، فأوجدت فيهم هذه الحال نشاطاً كبيراً رأى الطليان فيه خطراً على سياستهم .

الدسائس الطليان

رأى الطليان في هذا الصلح غبناً ، ورأوا من بوادر النشاط من العرب ما جعلهم يتوجسون خيفة منهم ، فعملوا على إفساد هذا الصلح وسعوا بالتفريق بين الناس ، واتصل أذئابهم ببعض ضعفاء النفوس فزينوا لهم الانشقاق فاستجابوا لهم وأصبحوا معاول للهدم . وفهم جماعة من البربر من عدم دخول الباروني في هيئة الحكومة أنه غير راض عنها . فانكمشوا عن العرب . وفهم الحاج محمد فكيني والشيخ على الشنطة - خطأ - من امتناع الباروني أنه يريد معاكسة العرب ، بل ذهب بهم سوء الظن إلى أبعد من هذا ، فقالوا إنه يريد أن يؤلف في الجبل حكومة بربرية مستقلة عن العرب ^(١) . وأخذوا يناوئونه في مناطق نفوذه في الجبل ، وأخذ الباروني يحذر البربر من سوء عاقبة دعايتهما . ورأى بعض أعضاء هيئة حكومة القطر الطرابلسي في أعمال فكيني والشنطة خروجاً عن دائرة اختصاصهما ، وهو شئ يمس كرامة الحكومة التي هم من أعضائها وحذرهم عاقبة هذا العمل .

وقد أحدثت قن الطليان عدم انسجام بين أعضاء الحكومة العربية ، فانتهزوها فرصة للتدخل في شئون العرب ، وما زالوا يسوفون تنفيذ القانون الأساسي ، ويلتمسون أسباب الفتنة بين العرب ، ويوغرون الصدور بالدسائس ، حتى فسد الجو السياسي بينهم وبين العرب ، وانهت الحال إلى ما سنقصله بعد .

مكيدة

رأى الطليان أن في بقاء رمضان السويحلي في جنزور (سواني المشاشطة) ومعه قسم كبير من العسكر والمجاهدين تهديداً لهم ، وتقوية لمركز الحكومة العربية في طرابلس ،

(١) ذكر جرازاني في كتابه « نحو الفران » أن الباروني قدم مذكرة للحكومة الإيطالية سنة ١٩١٣ يطلب فيها إمارة بربرية في جبل نقوسة مستقلة بأعمالها عن العرب . وجرازاني مشهور بالدس على الطرابلسيين والسكيد لهم .

فدبروا مكيده للقضاء على الجيش وتسريح المجاهدين ، فأشاروا على من لهم بهم صلة أن يسعوا في تسريح المجاهدين وإدخال الجيش النظامي إلى ثكنات المدينة . وأخذ هؤلاء في تنفيذ الفكرة ، فاتصلوا برؤساء المجاهدين ، وصاروا يتسللون جماعات وفرادى . وعلم بهذا أحمد بك السويحلي في المدينة فطير الخبر إلى أخيه فاتصل برئيس الجيش عبد الله تامسكت وأخبره الخبر ، وأنبه على حصول مثل هذا وهو لا يشعر .

وقد أصبح من الخطر على رمضان البقاء في جنزور ، فاعتزم الانتقال إلى مسلاتة ريثما ينجلي الأمر ، وتجه الأمور وجهة واضحة . وقبل مغادرته سوانى المشاشطة جمع العسكر والمجاهدين وشرح لهم الموقف ، وأن هناك تدبيراً قام به بعض الناس للقبض عليه ، ولإدخال الجيش إلى المدينة ليتمكنوا من أخذ سلاحه وتشتيته ، وحذرهم من الإصغاء إلى هذه الآراء التي لا يقصد منها إلا نشيت شملهم . وتكفل لهم بإمدادهم بكل ما يلزم من السلاح والمؤونة وبنجدهم في أى وقت ، وأخذ معه قسماً من العسكر والمجاهدين وذهب إلى مسلاتة وكان ذلك في صفر سنة ١٣٣٨ وبقى الجيش وبقية المجاهدين في جنزور .

ودعى عبد الله تامسكت إلى جنزور فذهب ، فوجد في انتظاره أحمد بك المريض والصويحي الخيتوني وترجمان دائرة السياسة ، ودار الحديث معه حول دخول الجيش إلى المدينة ونزوله في كشلة بوسته ويبقى هو قائداً عليه ، فأجل الجواب إلى ما بعد التشاور مع رؤساء الجيش . وقد أوجس الجيش خوفاً على تامسكت فلمحق به بعض الضباط والجنود في أثناء الاجتماع . ولما انفض المجلس رجعوا إلى معسكرهم في سوانى المشاشطة . وفي صبيحة اليوم التالي حضر أحمد بك المريض إلى معسكر تامسكت وأعاد الحديث في موضوع دخول الجيش إلى المدينة ، فرفضوا الدخول إلى المدينة واقترحوا أن يحمل لهم معسكر في زهونة أو غيرها من الأماكن البعيدة عن نفوذ الطليان فلم يؤخذ برأيهم ، وصمم ضباط الجيش على عدم الدخول . وانفض المجلس ولم يصلوا إلى نتيجة . وفي اليوم الثالث حضر الشيخ أحمد القسّاطوي وترجمان دائرة السياسة وأعادوا الحديث في الموضوع ، وعبثاً حاولوا إقناع ضباط الجيش بالإقامة في المدينة .

وانتقل الجيش من سوانى المشاشطة فالتحق بعضه برمضان السويحلى فى مسلاطة ،
وذهب بعضه إلى غريان وترهونة .

بعد انتقال رمضان

كان انتقال رمضان بك من سوانى المشاشطة با كورة فوز السياسة الإيطالية فى تفريق
الكلمة ، وبداية تحرش كل من الفريقين بالآخر ، وبوادر فتنة أخذت تتجمع أسبابها
فى كل مكان .

وعلى أثر انتقاله رأى أعضاء حكومة القطر الطرابلسى أن هذه الأعمال من الطليان
تدخل فى شئون العرب فى غير محله ومخالف لروح القانون الأساسى ، بل هو عمل عدائى ضد
العرب ينقض شروط الصلح من أساسها ، يضاف إلى هذا ما كانوا يلاقونه من عنف من
الوالى فى تمسكه بأن يكون صوت البرلمان استشارياً بدلاً من أن يكون قرارياً . ولما اشتد
الخلاف بينهم طلبوا إلى الوالى أن يعرض الأمر على حكومة رومة فأبى ، وقال إن الفصل
فى هذه المسألة من اختصاصه بصفته نائباً عن حكومته فى طرابلس . فقالت له هيئة
الحكومة : ونحن ننوب عن الأمة الطرابلسية بأسرها . وعبثاً حاولوا اقناع الوالى بوجهة
نظرهم ، فتخرج الموقف ، ووقف دولاب العمل ، ولم يسع أعضاء الحكومة إلا الاستقالة ،
فأجمع رأيهم عليها ، وسلموا كتاب الاستقالة إلى على الشنطة ليرفعه إلى الوالى . وقد رأى هو
وبعض الأعضاء العدول عن الاستقالة ، ورضوا بأن يكون صوت النواب استشارياً ، وعلى
ذلك عدل عن رفع كتاب الاستقالة إلى الوالى . ولكن مختار بك كعبار ، وأحمد بك السويحلى ،
وعمر بودبوس ، ومحمد بك الفقيه حسن لم يوافقوا على ما عدلوا إليه ، وأصرروا على الاستقالة
احتجاجاً على تلاعب الطليان ونقضهم العهد . وغادروا مدينة طرابلس ، وبقي الشنطة
ومن على رأيه فى المدينة . ولكن الطليان لم يقبلوا منهم رأياً حيث إن نصف أعضاء
الحكومة استقالوا .

ولم يتمكن الأستاذ عبدالرحمن عزام بك من الخروج مع من خرج وكان الطليان يودون
أن يبقى فى المدينة ، بل سعوا لذلك ولسكنه أفلت منهم حيث اتخذت لخروجه ترتيبات خاصة

فتمكن من الهرب هو والأستاذ خالد بك القرقي والتحقا برمضان بك السويحلي بمسلاته .
وبقي بعض أعضاء حزب الإصلاح الوطني في طرابلس ومنهم الأستاذ عثمان القيزاني
محرر جريدة اللواء الطرابلسي ، فكان يقوم بواجبه الصحفي خير قيام ، ويلج على الطليان
في تنفيذ القانون الأساسي لا يترك فرصة تمر إلا نادى فيها بحقوق طرابلس في تنفيذ القانون
الأساسي . وكلما ألحوا في الطلب تمادى الطليان في التسويف وصار المتعلمون من الأمة
— داخل العاصمة وخارجها — يغذون جريدة اللواء بأرائهم فيما يجب اتباعه حيال المطالبة
بحقوق الوطن .

حكومات عربية

وبمقتضى شروط الصلح أنشئت حكومات عربية : في الزاوية ، والعريزية ، وجنزور ،
ومصراتة ، وسرت ، وترهونة ، وغريان ، والريانة ، ونالوت ، وأرلفة ، وسارت على ما
ذكرناه آنفاً .

وقد رأى الطليان أن وجودهم مع العرب على وضع لا يمكنهم من مباشرة الأمور
لا معنى له من الناحية العملية ، فأخذوا يعملون لإفساد هذا النظام بالتدخل في شئون
العرب لسبب ولغير سبب ، وقابل العرب هذا التدخل بشيء من الشدة تمسكاً بحقوقهم .
وأدى هذا التشدد من الطرفين إلى الاصطدام في أكثر من مناسبة : منها ما حدث
للماجور شيتاريلا^(١) في الزاوية ، فقد هدده الشيخ علي بنيني بالقتل وشهر عليه بندقية ،
ولكنه احتسب بمحمد بك شلابي فخماً . ومنها أنه في ١٥ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل الطليان
بعض الجنود التابعين لخليفة بن عسكر ، فقابل أعمالهم بالمثل واعتقل الموجودين منهم بمحطة
اللاسلكي — وكانوا تسعة — وأخذ ما معهم من السلاح .

وقد اتصل رمضان بهذه الحركة فكان يكتب الذين تقع عندهم مثل هذه الحوادث
ويطلب إليهم عدم التساهل مع الطليان . وحدث في الريانة شبه ما حدث في لالوت .
ونشط الإيطاليون في إفساد النظام القائم بينهم وبين العرب بالتماسهم الأسباب للتدخل

(١) كان متهماً بتحرير عبيدة المحجوبي على معاكسة أعيان الزاوية ويسعى بينه وبينهم بالفتنة .

في شئونهم . وكما أمعن الطليان في هذه المشاغبات فابلهم العرب بما يصون حقوقهم ، وساد الموقف السياسي شبه قنور . وكان وجود رمضان السويحلي بمسألة يحول دون مجاهرة الطليان العرب بالعداء . ويتجنبون الاضطدام به ما أمكنهم ، ولكنهم يعملون جاهدين للتخلص منه من طريق الدس والمكيدة .

رمضان السويحلي في مسألة

بعد أن انتقل رمضان السويحلي من سوانى المشاشطة اتخذ مسألة مركزاً ثانياً لأعماله وصار يفتقل بينها وبين مصرأة . وكان يطيل المقام بمسألة لقربها من منطقة النفوذ الإطالى ، فوجوده فيها يمكنه من مراقبة أعمال الطليان وحركات جيشهم ، ومن الاتصال بطرابلس لتغذية أعضاء حزب الإصلاح الوطنى وجريدة اللواء بما يلزم .

وقد تجاهل ما دبرته السياسة الإيطالية للقبض عليه في سوانى المشاشطة رغبة في الوصول إلى نتيجة صلح بنيادم . ونظراً لما وقع من الطليان في نالوت وغيرها من تعديهم على حقوق العرب التى خولها لهم القانون الأساسى كان يقابل أعمالهم بالحذر والاحتجاج عليها ، وتقوية مركزه رغبة في السلام وأملا في تنفيذ المعاهدة .

وقد وقف منهم موقفاً دقيقاً ، فلم يترك لهم أى مجال للتدخل في شئون المنطقة التى يتولى إدارتها من مسألة إلى سرت في غير ماخولته لهم شروط المعاهدة ، وكان حر التصرف في منطقة نفوذه يحبى الضرائب ، وينفذ الأحكام في الخصومات المدنية وغيرها ، ويشرف على البريد الإطالى ، ويفتش السفن الإيطالية التى ترسو على سرت ومصرأة . ولما رجعت من مصر إلى طرابلس في أواخر ذى الحجة سنة ١٣٣٧ رست بنا السفينة على سرت ، فصعد على ظهرها حاكم سرت ومعه بعض من الجنود الوطنيين لتفتيشها . وكانت لبس الجندى طربوشاً أبيض من القماش وبذلة من الصوف الوطنى ، ويحملون بنادق إيطالية . وكان لا يسمح للمندوبين الإيطاليين أن يتصرفوا في شئ من مصالح العرب ولا يتعدون اختصاصهم وهو : مباشرة أعمال البريد والتلغراف ، والنظر في ماله صلة بحكومتهم من شئون العرب . وعمدى الطليان هذه الدائرة المتفق عليها هو الذى

أدى إلى قطع العلاقات فيما بعد وقيام الحرب . وكان رمضان لا يسمح للوطنيين بالانصال بالطليلان إلا فى الدائرة العامة التى لا بد للحياة المشتركة منها .

الماجور غاليلاني

كان موظفاً من قبل الحكومة الإيطالية بمصراته بمقتضى الشروط الأربعة التى اتفق عليها العرب والطليلان خارج القانون الأساسى ، وليس له حق التدخل فى شىء .

وقد حدث أن أوعز الطليلان — بواسطة غاليلاني — إلى بعض المفسدين بإغراء أرفلة على مناوأة مصراته . فأرسل رمضان بك احتجاجاً إلى الإيطاليين على هذا العمل المخالف ، فتلقى الرد بأن الحكومة لا علاقة لها بهذه الأعمال ، ولكن رمضان لم يصدق هذا ، واعتبره مراوغة سياسية يقصد منها التعمية ، والحقيقة أن هذه الأعمال كانت بإيعاز من الطليلان بواسطة غاليلاني مندوبهم فى مصراته .

واستطاع دعاة الفتنة أن يجعلوا الطليلان يصدقون بأن عملهم سيؤثر على مصراته . وعلى هذا توهم غاليلاني أن مركزه سيكون حرجاً أمام رمضان فيما إذا هاجم هؤلاء المفسدون مصراته ، فأخذ ينتحل المعاذير لسفره إلى طرابلس .

وحدث أن امرأة قتلت اسوء ساوكها ، فاتخذ من هذا مبرراً لسفره بدعى أنه عمل يخل بشرف حكومته . فأفهمه رمضان بأنه سيحقق فى الموضوع وإذا ثبتت إدانة المتهم حكم عليه بما يستحق ، فلم يقتنع وصمم على السفر ، فأذن له رمضان . وذهب معه صديقنا الفاضل التهامى بك قليصة إلى مرسا قصر حمد وفى أثناء الطريق أفهمه التهامى بك بأن سبب سفره لا كما يدعى ، ولكنه يخاف افتضاح أمره لأنه هو المذبر لفتنة أرفلة فاعترف بذلك .

ومن هذا الوقت تغيرت السياسة بين الطليلان ومصراته وأخذوا يفكرون فى مهاجمة مسالاة ، فأرسلوا من يختبر لهم الطريق الموصل من جهة قصر خيار للتأكد من صلاحيتها عند اللزوم ، وليعلموا مقدار يقظة رمضان وانتباهه لأعمالهم . وفى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٢٠ خرجت سيارتان إيطاليتان وفيهما ضباط وعساكر إيطاليون قاصدين قصر خيار — وقصر خيار من مناطق نفوذ رمضان بك بمقتضى شروط الصالح — فما كان للطليلان أن يدخلوها

بدون إذنه ، فلما وصلوا إلى قصر خيار طير حاكم المنطقة الشيخ على بن رحاب الخبر إلى رمضان في مسالاة بالتلفون ، فأمر بالقبض عليهم ، فقبض عليهم وأرسلوا إلى مسالاة .

نخوة عربية

كان من بين المقبوض عليهم الماجور شيتار يلا ، وكان قريب عهد بالزواج ، فلما سمعت زوجه بالقبض عليه جن جنونها ، وأبت إلا أن تلحق به . وعبثاً حاولت الحكومة إقناعها بالعدول عن رأيها ، فأباح لها الخروج وأفهمتها أنها غير مسئولة عنها ، فخرجت من الخمس قاصدة الساحل ، فعثر عليها العسس من العرب فأثروا بها إلى قائمقام الساحل محمد بك الذيب فأكرمها وأرسلها إلى رمضان بك في مسالاة . ولما سئلت عما جاء بها أفادت بأنها جاءت لتشفع في زوجها ، فقبل رمضان بك شفاعتها وأطلق لها زوجها ، وأرسلهما في خفارة بعض رجاله إلى أن وصلا مدينة الخمس . وكما كان محب الطليان شديداً من هذه المروءة العربية . وقد استاء رمضان بك من هذا الاعتداء المتكرر من الطليان فأمر الحاج على المنقوش قائمقام سرت بالقبض على من فيها من الطليان — وكانوا نحو مائة — فقبض عليهم وأرسلوا إلى مصراته ، وقبض على من في مصراته أيضاً وأصبحوا جميعاً أسرى ، وبهذا الحادث انقطعت العلاقات بين رمضان بك السويحلي والطليان .

واعتبر الطرابلسيون هذا العمل من رمضان عملاً وطنياً يستحق عليه التقدير . واحتل من قلوب الناس مكان الاحترام بهذه المواقف المشرفة ، واتجهت الأنظار إليه في طول البلاد وعرضها ، وصار له أنصار وأصدقاء في كل مكان : في الزاوية برياسة الشيخ محمد هويسة^(١) ، ونالوت برياسة خليفة بن عسكر ، وغريان برياسة مختار بك كمبار ، وكان من أشد أنصاره وأعز أصدقائه ، وغيرها من البلدان الطرابلسية .

(١) هو من أولاد الواعر من قبيلة أولاد عيسى من بلاعزة الزاوية . وكان كريم الخلق طيب النفس . حارب الطليان في جميع أدوار الحرب الطرابلسية وكان من ألد أعدائهم ، واشتدت عداوته لهم حينما علموا بانتصاره لرمضان السويحلي . وقد حاولوا قبض عليه مراراً فلم يفلحوا . وكان من المعجبين برمضان ومن أنصاره المخلصين . وهاجر من الزاوية في حرب سنة ١٣٤٠ . ومات في هنشير بودريهيسية من أراضى ترهونة في ٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣٤١ عليه رحمة الله .

واقتمع العرب — بسبب تكرار هذه الحوادث من الطليان — أنهم يقصدون إفساد شروط الصلح من طريق الخداع وانتهاز الفرص للوثوب عليهم ، وأن هذا تعد على حقوقهم . فسرت فيهم روح الثورة ، وكانوا في اتجاههم إلى الثورة يعتمدون على قوة رمضان وجيشه المنظم .

وكان الطليان شرعوا في تمثيل دور في غريان مثل الدور الذي مثله في نالوت وغيرها ، فجاءوا بزكى امقيق وجماوه قائمقاماً في غريان ، وأخذ يناوئ مختار بك كعبار . وأعانه على ذلك بعض صغار النفوس ، وفطن مختار بك كعبار للأمر الذي يرتب ضده فعمل للقضاء عليه ، وأمر بالهجوم على الطليان في قصر الحكومة في غريان . وكان مأمور السياسة السكبتان دسكاتا فهجم عليهم العرب يوم ٨ يونية سنة ١٩٢٠ فسلموا أنفسهم بدون دفاع ، وكانوا نحو سبعين جندياً وأخذ العرب كل ما في المركز من سلاح وأمتعة . وفي هذا اليوم أغار العرب على سيارة البريد الإيطالي في وادي القواسم وأخذوا ما فيها ، وقطعت أسلاك التليفون بين العزيزية وغريان ، وبين المراكز الموجودة في نفس غريان بعضها مع بعض ، وفي مساء اليوم نفسه جاء مختار كعبار ومعه قوة من الفرسان وأخذ الطليان أسرى واعتقلوا في بيت كعبار وجرت بينه وبين الطليان مخابرات بشأنهم ، فاتفق معهم على أن يسلمهم إليهم في فندق الشيباني ، وفي يوم ١٩ منه أرسل هؤلاء السبعون أسيراً إلى فندق الشيباني ومن هناك تسلمهم الطليان وذهبوا بهم إلى طرابلس . ولم يحتفظ بهم مختار كعبار كما احتفظ رمضان السويحلي بمن عنده ، لأن غريان لم تكن مستعدة للانفاق عليهم ، ولم يكن في قتلهم — وهم أمرى — ما يعود على البلاد بخير ، فأثر تسليمهم على الاحتفاظ بهم .

متفرقات

كل الطرابلسيين يعلمون — مع الاقتناع التام — أن مصراته هي مركز الحركة الوطنية وقلبها النابض ، لا شيء سوى أنها مركز لأعمال رمضان السويحلي . وقد عرف رمضان — بصلابته وقوة إرادته — كيف يكون من سكان مصراته وما جاورها من البلدان أنصارا يعتمد عليهم في تنفيذ رغباته وقد أتت مصراته فرص لم تتح لغيرها

من البلدان الطرابلسية ، فقد هيأها موقعها الجغرافي لتكون محطاً للغواصات الألمانية .
وليس الموقع الجغرافي وحده هو الذى هيأها لذلك ، بل وجود رمضان فيها هو الذى هيأ لها
هذه الظروف الصالحة ، وجعل منها مقراً لحكومة عربية كانت لها سمعة ووجود قبل مجيء
الغواصات ، وكانت زوارة أولى بهذا المركز لو وجد فيها مثل رمضان السويحلى .

وكان جندياً بطبعه : فيه طبع الجندى الباسل ومميزات الزعيم ، كما يقول « جرازيانى »
وفيه حب الاستقلال بالأمر فى غير استبداد أو محاباة .

وقد قال عنه جرازيانى — والفضل ما شهدت به الأعداء — فى كتابه « نحو
الفران » إنه : « فى أثناء الحرب التركية الإيطالية كان أكثر تقديرًا وتفضيلاً لشجاعته
واقدامه للذين يفوقان الحد الطبيعى . وكان أشد عدو للقضية الإيطالية ، ولم يحجم عن
عرقلة أعمالنا بأى واسطة استطاع ، ولم يتردد مطلقاً فى إظهار عداوته لنا ، وهو ذو عزم
قوى وصلابة لا تتثنى » .

هذا بعض ما يقوله عنه جرازيانى ، فى حين أنه يذكر غيره بما أغدقه عليه الطليان
من الألقاب الكبيرة والأموال الطائلة .

وهو فوق ما وصفه جرازيانى بكثير ، فقد كون نفسه بسيفه فى مواقفه المشهودة ، ولم
يصف جرازيانى غيره فى واقعة القرضابية بالانتقاض على الجيش الإيطالى والإيقاع به ، ولم
ينسب هزيمة الجيش الإيطالى فى تلك السكارثة لغيره . ولم يظهر تألمه من أعمال أى شخص
مثل ما أظهره من أعمال رمضان السويحلى ضد الطليان مدة حياته كلها .

وليت الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، يطالعون ما كتبه عنه
جرازيانى فى واقعة القرضابية ليعلموا من هو بطل هذه الواقعة الهائلة : أهو رمضان
السويحلى ؟ أم غيره من الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .

ولم يترك رمضان السويحلى فرصة تمر إلا قوى فيها مركزه ، وأحاط حكومته بما
يثبت دعائمها ، وكان شديد السهر عليها ، يراقب الصغيرة منها والكبيرة ، وينال من
موظفيه على ما يطلع عليه من إهمال أو تقصير . ومن هذا الطريق اكتسب طاعة الناس

في غير ذلة ولا استبداد . وأصبحت شخصية رمضان محترمة وأوامره نافذة ، وحكومته محط الآمال ومعقد الرجاء . وأصبح لديه جيش منظم أحسن تنظيم حسبما تقتضيه الحال إذ ذاك ، لا يقل عدده عن ثلاثة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وبعض المدافع الرشاشة . وقد طعن عليه جرازيانى بأنه يقتل الذين يساعدون الأسرى الطليان^(١) ويقطع أيديهم ، وليس في هذا طعن على مصراته ولا على رمضان ، بل هذا مما يزيد شرفاً .

حقيقة

والحقيقة أن الأسرى في مصراته كانوا يعيشون كما يعيش أهل مصراته : لا ينفقهم أكل ولا ملابس ولا مسكن ، آمنين على أرواحهم . وقد بلغ من إكرام أهل مصراته لهؤلاء الأسرى أنهم تقاسموا كثيراً منهم ، وصاروا ينفقون عليهم مما ينفقون على عيالهم ، وأصبحوا مسؤولين عنهم أمام الحكومة . هذه هي الحقيقة التي عرفها التاريخ ، والتي يشهد بها لمصراته أمام الأجيال القادمة .

أما قتل الذين ساعدوا بعض الأسرى على الهرب ، فلا يمكن أن يكون غيره جزاء لأولئك الذين أسدوا تلك المساعدة حتى عند جرازيانى . وتفصيل ذلك :

أن أحمد السنن بن المنتصر كان في طرابلس ، وقد كلفه الطليان أن يخرج إلى رمضان لمفاوضته في إبدال الأسرى . فخرج من طرابلس لهذا الغرض وقابل رمضان وأخبره بما جاء من أجله ، فاحترمه وأكرمه ، واعتذر له عن قبول هذه الوساطة الآن ، وأقنعه بأن تؤخر حتى يجيء وقتها المناسب ، ووقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن السنن المنتصر لم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يعمل سراً تهريب الأسرى ، فانفق مع بعض الفوتية لياخذ بعض الأسرى في مركبه حتى يوصلهم إلى طرابلس وقد نفذت هذه الفكرة ، وحملوا معهم كتاباً منه ومن العرابي بن عطية ، ووضع هذا الكتاب في علبة من الصفيح ليتمكن خبؤه إذا اقتضى الحال في ظهر المركب مما يلي الماء ،

(١) يقصد أحمد السنن بن المنتصر الذي قتله رمضان .

وسافر الفتية بمن معهم من الأسرى ، وبتلك الكتب المصفحة . ويريد الله أن يفضح الأمر . فهاج البحر بتلك المركب الصغيرة ورمى بمن فيها إلى قعره ، وطفئت تلك الصفايح التي فيها الكتب على وجه الماء وظل يقذفها حتى رمي بها على ثمد حسان فعثر عليها بعض الناس . ومن الصدف أن نوري بك كان ماراً بتلك الجهة فسلمت إليه ، فلما فتحت وقرئ ما فيها فإذا هو قصة تهريب الأسرى ، ممضاة بامضاء السنوسي المنتصر والعراقي ابن عطية فلما سئلا عما في الكتب اعترفا بما فيها وبتوقيعهما ، وجيء بالسهم كرى محمد ابن حسونة الذي لحم علبة الصفيح فاعترف ، فشنقوا الثلاثة .

هذه هي قصة رمضان السويحلي مع الذين ساعدوا الأسرى على الفرار والتي ينتقده من أجلها جرازياي . وماذا كان يصنع جرازياي لو وقع له مثل هذا . ولكن كراهته لرمضان جعلته ينتقده حتى فيما يسلم هو بصوابه .

وقد صرح جرازياي غير مرة بأن رمضان السويحلي هو العدو اللدود لإيطاليا ، فهو يكرهه من ناحية عداوته للطلليان . وعداوته للطلليان هي التي أحبه من أجلها مواطنوه ، وأحلوه من نفوسهم محل التعظيم والاحلال ، فكرهه إنسان لا تستدعي الكذب عليه ، كما لا تسوغ انتقاص أعماله الموافقة للصواب .

ولكن جرازياي إيطالي قبل كل شيء فكذبه على رمضان بك السويحلي ليس أعظم من تلك المجازر التي كان يقتل فيها الطرابلسيين بالعشرات والمئات ظلماً وعدواناً .

التفكير في غزو أرفلة

أسباب

أحسن رمضان - بعد صلح بنياد - بحركة من الطليان ، لا يشك أحد أنهم يقصدون من ورائها إفساد هذا الصلح . وقد وجد الطليان من أصاخ لدعوتهم واتخذوا منهم أداة للافساد ، وفي مقدمة هؤلاء يوسف خريش الذي انضم إلى الطليان في تلك الجموع الهائلة المسلحة من المرتزقة . وقد وقع ما أشرنا إليه من حوادث الزاوية ونالوت وغيان ومصراته ، فكان ذلك من بوادر ما يمتد إلى الطليان للغدر بالطربلسيين .

وقد أراد رمضان أن يتدارك هذه الحال قبل أن يتفاقم خطبها بتوسيع نفوذه وإخضاع بعض البلدان لحكمه ليتمكن الضرب على أيدي بعض أنصار الإيطاليين ، وليفتح الطريق بينه وبين أنصاره في غريان والجنوب . ومن غريان يسهل عليه الاتصال بأنصاره في السواحل وجبل نفوسة . وحينما فكر في هذا كان يعلم أن هناك أناساً يتسمعون لهذه الفتنة الإيطالية ويروجون لها في السر . ومواقفهم السلبية لا تقل عن الصراحة في عدم مؤازرة الحركة الوطنية .

ومن الذين وقفوا هذه المواقف المريبة عبد النبي بن خير في أرفلة ، فهو منذ أن ابتدأت مفاوضات صلح بنياد انتقل إلى أرفلة ، وبقي فيها ولما كان رمضان في أرفلة ذهبت بعثة إيطالية إلى عبد النبي ، وحصلت اتصالات بين عبد النبي وبعض خصوم رمضان . واقتنع بأن هناك تدبيراً ضده فأخذ يعد للأمر عدته . وقد حدث بعد هذه الاتصالات ما قوى هذه الشكوك عند رمضان ، وهو أن أحد خصومه اتخذ أرفلة مركزاً له وصار يغير على أراضي مصراته ويستولى على مواشيتهم من ناحيتها .

ومركز أرفلة الجغرافي مركز مهم يمكن للمستولى عليه التأثير في الحركة الوطنية قوة وضعفاً ، فإذا أضيف إلى هذا أنه تحت سيطرة عبد النبي ، وهو رجل مصاب بالشكوك والوساوس ، يتخيل عداوة الناس لأوهي الأسباب ولا يسعى في غير مصلحته وما يقي نفسه

مما يتوهم من عداوات الناس له . وقد وقف من أعمال الطليان موقف المتفرج ، فلم يشارك في الحركة الوطنية حتى ترجح كفتها ، ويحس بقوته أنصار الفتنة فتخف وطأتهم ، ولم يجاهر بالعداء ليعامل معاملة الأعداء . وإنما كان يعمل في الخفاء لتنفيذ أغراض الطليان ، وفي الحق أن ظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى الصداقة ، لأنه — وهو في هذا الموقف السلبى — كان متصلاً بالطليان ، وكانت قوافل أرفلة تغدو وتروح على طرابلس متخذة طريقها على حدود ترهونة الشرقية مما يلي غريان ، وتمر بالعزيزية ؛ فإذا أضيف هذا إلى ذلك ، وأضيف إليهما ما حدث من التحرش بمصراتة ممن تحميمهم أرفلة وتحرضهم على هذا التحرش تبين أن بقاء أرفلة على ذلك الوضع خطر على الحركة الوطنية ولا شك ، وتبين أنه من أقوى أسباب ضعفها ، وأن إزالة هذا الخطر مما يزيد لها قوة ونشاطاً . والبدء بإخضاع غيرها من البلاد الطرابلسية قد لا يكون مضمون النجاح لأن وجودها في الجنوب يجعلها تسيطر على ما أمامها من البلاد الشمالية ، فكل حركة في الداخل يناصبها عبد النبي العداء في أرفلة بمساعدة أنصاره تكون معرضة للخطر .

كل هذا فسر فيه رمضان طويلاً وحسب حسابه ، وانتهى منه إلى نتيجة هي غزو أرفلة أولاً ، حتى إذا ما وفق إلى الاستيلاء عليها سهل عليه الاستيلاء على غيرها . وقبل أن يشرع في غزو أرفلة أراد أن يكون له منها أنصار ، فاتصل بكثير من رؤساء قبائلها فخبذوا له الفكرة ، ووعدوه بالمساعدة على الاستيلاء عليها وبذل ما يمكن بذله ، وكان في أرفلة قسم من العسكر ، فلما اتصل بهم الخبر ، وجد هوى في نفوسهم لأنهم كانوا متبرمين بمعاملة عبد النبي ، ووعدوا بالمساعدة . وقد وجد رمضان من موافقة أهل أرفلة ما قوى عزمه على تنفيذ الفكرة ، فاعتزم الأمر وأخذ يعد نفسه للتنفيذ .

غزو أرفلة

كان رمضان بك السويحلى يعلم أن غزو أرفلة عملية شاقة محفوفة بالأخطار ، ولكنه كان الخطر الذى كان يحذق به من أرفلة وأنصارها ومن الطليان أشد بكثير مما كان يتوقع من

غزو أرفلة ، فلا بد من القيام بهذه العملية للقضاء على آمال المتلاعبين ، ولإنقاذ مصراته من هذا الموقف الحرج ، فألف جيشاً يقرب من ألفي مسلح . وكان رمضان يعلم من دهاء عبد النبي ما لا يعلمه غيره ففوق ذلك يعلم أن له مكانة عند أرفلة ، لذلك أوصى بعدم قتله ، وبذل ما يمكن بذله في المحافظة على حياته .

وتوجه الجيش إلى أرفلة في حوالى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وتولى قيادته بنفسه ، وكان الحر شديداً ، والمسافة تقتضيهم ثلاث مراحل ، لأن الجيش تجمع على دوفان ومن هناك ابتداء سيره . ويظهر أن الترتيبات التي اتخذت لتوفير الماء للجيش كانت أقل مما يجب أن يكون ، ولم تتخذ التدابير الكافية للاستيلاء على الآبار ، فكان عدم توفر الماء السكافي لجيش رمضان هو العنصر القوى الذى تحكم فى المعركة ، وكان الفصل فيها له .

وفى فجر يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ صبح رمضان بجيشه أرفله على حين غفلة من أهلها ، وكان الجيش منهوك القوى من التعب ومتأثراً من العطش إلى حد كبير ، ومما زاد فى تأثيره من العطش شدة الحر وحارّة القىظى .

وأول ما نزل الجيش على قصر أرفلة ونصب المدافع أمامه . وكان من الترتيبات التى اتخذها رمضان أن كلف جماعة بالقبض على عبد النبي ، فقسلت هذه الجماعة إلى بيته فى الصباح المبكر ، وكان أحد أفرادها عمر العوراني من ساحل آل حامد ، فدخلوا عليه فى حجرة نومه ، وأيقظوه على صوت « أجب دعوة رمضان السويحلى » فلم ينتبه إلا وهو فى قبضتهم ، وفى أثناء إخراجهم من حجرة نومه لاحت له فرصة للافلات منهم فانهزها وصاح فى بعض رجال كانوا بالقرب من منزله ، فصاحوا هم بدورهم فيمن كان قريباً منهم ، فامشر الخبر وتجمع الناس للقتال ونشبت المعركة ، وتسابق رجال عبد النبي إلى الآبار حتى أصبحت كلها فى حوزتهم . وخذل رمضان أعيان أرفلة ورؤساؤها الذين وعدوه بالمساعدة لما رأوه من اتفاق عبد النبي وبعض أنصاره ، وصلته بالطليان ، ومجئ بعثة من الطليان إلى عبد النبي فى أرفلة ، فتوهموا أن ذلك يسبب فشلهم وعملوا على ذلك ، واشترك كثير منهم فى المعركة ضده ، واشتد العطش برجال رمضان فأحيط بهم ، وأسفرت المعركة عن

قتل رمضان شرقى قصر أرفلة بالقرب من شعبة ابن فايد ، رحمه الله رحمة واسعة ، وهكذا انتهت هذه الحياة المملوءة بجلالات الأعمال بهذا النوع من النهايات الذى لم يكن منتظراً^(١) . وقد كرس حياته لخدمة طرابلس فكان لا يعمل لغيرها . وغامر من أجلها عدة مغامرات : فى القرضابية ، وفى حصار مصرانة ، وفى سوانى بنيادم ، وفى غيرها كثير ، فكان التوفيق حليفه ، وكان هذا التوفيق لا يزيده إلا تواضعاً لإخوانه وإمعاناً فى خدمة طرابلس . وكانت الأمنية التى لا يخطر على قلبه سواها هى خدمة طرابلس . ولهذا الغرض كان يحيط جيشه وحكومته بعزماته الصادقة ليَجْمَلَ منها أداة صالحة للدفاع عن وطنه . وكانت حكومته هى الوحيدة من نوعها فى طرابلس كلها .

هذا قصص ما يتعلق بهجوم رمضان السويحلى على أرفلة نقصه للحقيقة والتاريخ على من يريدون إنصاف الناس ومن يقدرُونَ ظروف الأحوال ومقتضياتها وماتقضيهِ واجبات الوطن من تضحية ، ومن أخذ الأمور بالحزم ، حتى تكسر قرون الفتنة ويقضى على دعائها ، وهم لا شك واجدون فيها ما يبرر موقف رمضان من أرفلة ، ومقدرون له هذه المغامرة التى أودت بحياته فى سبيل خدمة طرابلس ، وهو وإن لم يصحبه التوفيق فيها فقد صحبه فى كثير من أمثاله مما رفع به شأن طرابلس وخلد له من الذكر الطيب ما سيحفظه له التاريخ فى صفحاته البيض .

ويشيع بعض خصومه أن غزو أرفلة غلطة من غلطات رمضان أملاها عليه حب التسلط وغرور النفس . ولكن ما اقترن بهذه الحادثة من أسباب لا يدل على شيء من هذا ، بل ما كان يبدو فى أفق السياسة من تحزب ضده ، وتحريض الطليان عليه ، وتلاعب عبد النبي وأشياعه ، واتصالهم بالطليان ، كان يحتم عليه القيام بمثل هذه الحملة كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

(١) ولهذا المناسبة يقول الجنرال جرازيانى : « وعلى هذه الحال انتهت حياة الرجل الذى كان أشد الناس كراهة وحقداً للاسم الإيطالى ، وكان ذلك من حسن حظنا ، لأنه كان يتصف بجميع مميزات الزعيم مع جدارة وخبرة نادرة المثال فى التنظيم العسكرى والسياسى ، مع ما نال من شهرة تدن قوى ، فلو بقى حياً لكان أماننا عمليات شاقة ومصاعب جمة . »

كارثة

هي كارثة حقاً ، بل هي كارثة الكوارث تلك التي تفقد بها طراباس رجلها الوحيد رمضان بك السويحلي لا يمارى في ذلك أحد غير خصومه ومنافسيه ، وهكذا تنتهى حياة العظماء في سبيل الوطن والمبدأ الشريف . فقدت طراباس هذا الرجل الفذ في أشد الأوقات حاجة إليه ، ففقدت فيه أبر أبنائها وأخلصهم لها ، وكانت تعلق عليه آمالاً لا تنتهى دون الحرية الكاملة وتطهيرها من العدو ، فانفرط بموته عقد هذه الآمال وذهبت مع أحلام الحاميين . وفي اليوم الذى توفى فيه رمضان كان أخوه أحمد بك في قوة من الخيل يطارد أحد أنصار عبد النبي في قرارة القطف لأنه كان من المنضمين إلى الطليان ، وكان يحارب من أجلهم . ولكنه لم يقبض عليه ، وهرب على حصانه وترك ثيابه وسلاحه . وانتهى به الهرب إلى بنى وايد ملتجئاً إلى عبد النبي — وهو أحد أنصاره ومشايخه — فوجد المعركة قد انتهت بقتل رمضان .

وبعد يومين من انتهاء المعركة تسامع الناس بخبر موته فانقض على رؤوسهم انقضا الصاعقة . ونشرت جريدة اللواء الطرابلسي الخبر تحت عنوان « موت عظيم من عظماء المسلمين » وبلغ الناس من حب رمضان وإكبارهم إياه أنهم لم يصدقوا بموته مع اقتناعهم بحضوره المعركة ، وبقيت هذه الإشاعة نحو ستة أشهر لم تنقطع ، واستغل الموقف مدعو البركة فأخذوا يؤكدون لبسطاء العقول أن رمضان لم يمت وسيظهر عما قريب .

ولم أنس أنى اجتمعت بصديقنا الفاضل التهامي بك قليصة^(١) أيام مؤتمر غريان في غريان فسألته عن جليلة الأمر — وكان يعلم قوة الإشاعة وانتشارها — فأكد لى أن رمضان قد مات ، وعلى الناس أن ينظروا في غير هذا الشأن فقد أصبح مما لا شك فيه . إلى هذا الحد بلغ إكبار الناس لرمضان وإعجابهم به ، وإلى هذا الحد رفع الناس من شأن رمضان بما قدمه للوطن من الأعمال الجليلة حتى لم تسمح نفوسهم بالاعتراف بموته . فموت مثل هذا كارثة على الوطن أى كارثة . رحمه الله وشكر له .

(١) كان من أعيان مصراته ومن رجالاتها الذين كان رمضان يعتمد عليهم في تصريف الأمور .

أحمد بك السويحلي



اقترن موت رمضان بالفتنة التي كانت قائمة بين الزنتان والبربر عقب تلك الحرب الطاحنة ، وخيف أن ينتهز الطليان هذه الفرصة للهجوم على مصراته ، كما خيف أن يجد خصوم رمضان من هذه الفرصة سبيلا إلى تنفيذ أغراضهم .

وبعد جهود بذلت لتلافي الموقف ، سعى الناس لجمع الكلمة على رجل يخاف رمضان في منصبه ، فاجتمعت الكلمة على انتخاب أخيه أحمد بك السويحلي وأسندت إليه رئاسة حكومة مصراته ، وكان ذلك في أواخر أغسطس سنة ١٩٢٠ وأسندت إليه كذلك رئاسة الجيش ، فكان الضباط يتصلون به مباشرة وبهذا العمل استقر الأمر في مصراته . وكان انتخابه في مصراته بالإجماع وظهر بعض المخالفين في ظليتين ، ولكنهم لم يقووا على مناوأة الأثرية ووافق ساحل آل حامد ومسلانة وقماطة وكل من كان تابعا لحكومة رمضان . وكان لعبد الرحمن إشا عزام فضل كبير في تهدئة الخواطر وجمع الكلمة شكر الله له .

وبقيت حالة طرابلس العامة فيها شيء من الاضطراب : فأرقلت تعتبر هجوم رمضان عليها إهانة لكرامتها فهي تسعى لجمع أنصارها للثأر لنفسها ، وإن كانت هي التي فازت في المعركة . وخصوص رمضان يرون في موته فرصة للوصول إلى غايتهم . وفتنة الزنتان والبربر فتنة عمياء تهدد الوطن كله من أقصاه إلى أقصاه . والطليان من وراء ذلك كله يتحفزون بجيوشهم الهائلة للقضاء على الوطن وما في الوطن .

وعقب استنساب الأمر للحكومة مصراتة ذهب عبد الرحمن باشا عزام إلى ترونة — وكان بينها وبين مصراتة فتور وسوء تفاهم — لمقابلة أحمد بك المريض للسعي في حسن التفاهم مع مصراتة وإزالة ما في النفوس ، وقد كلل الله مسعاها بالنجاح . وأراد الله بالطرابلسيين خيراً فلمست رحمته قلوب الخيرين منهم فقاموا بدعوة إلى عقد مؤتمر يمثل البلاد من أقصاها إلى أقصاها للنظر فيما آلت إليه حال الوطن . وكان في مقدمة هؤلاء الخيرين عزام باشا فكانت دعوة متقبلة وجدت من القلوب الحل اللائق بها ، واستجاب لها الطرابلسيون من جميع الجهات ، وهيئت الأسباب لعقد مؤتمر غريان .

حرب الزنتان والبربر :

وقعت بين الزنتان والرجبان من ناحية ، وجماعة البربر من ناحية ، حروب طاحنة فقدت فيها طرابلس من أبنائها ما لا يعلم عدده إلا الله .

وقعت الحرب الأولى بينهم سنة ١٩١٦ وخلفت من الضغائن بين الفريقين ما كان سبباً من أكبر الأسباب في الحرب الثانية التي دارت رحاها في سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢١ . وكان لرؤساء الفريقين سبب مباشر في هذه الحرب وتلك . ولهما أسباب ومقدمات ملتوية ومتداخلة ، تتصل بالطليان تارة ، وبغيرهم أخرى . وقد يقتضينا ذكر هذه الأسباب الملتوية المتداخلة التعرض إلى أشياء لم يحسن وقت التعرض إليها بعد .

والاحتفاظ ببعض الحقائق إلى أجل قد تدعو إليه ظروف تحتم على الإنسان مراعاة شعور مواطنيه وخواطريهم ، لذلك رأيت أن أقتصر على ما لا بد منه ، وأترك ما وراء ذلك إلى المستقبل .

وللتاريخ مناسبات تحد من نشاطه في ذكر الحقائق ، كما لغيره من أمور الحياة الأخرى كان من نتيجة الحرب الأولى سنة ١٩١٦ أن جلا البربر عن أوطانهم في جبل نفوسة ، وأقاموا في زوارة وما حولها من البلاد الساحلية ، وقد طالت بهم الهجرة وألحت عليهم الحاجة ، فلم يجدوا بداً من العودة إلى أوطانهم ، فسعوا بكل وسيلة حتى تم لهم ذلك فيما بين شهرى نوفمبر وديسمبر سنة ١٩١٩ .

ولم يرق هذا الرجوع الحاج محمد فكيكى وعلى الشنطة خوفاً من أن يتحرش بهم البربر مرة أخرى وتتشب بينهم حرب ثانية . ولكن هذا لا يبرر أن يترك البربر أوطانهم . وبقي البربر في عزلة عن الزنتان ، وقابل الزنتان هذه العزلة بمثلها . وسعى الطليان للاتصال بكل من الفريقين لإغرائه بصاحبه .

ومما كان يعترض مصالح الطليان في إثارة هذه الفتنة خروج خليفة بن عسكر عن طاعتهم وكان يحقد عليهم حقداً لا حد له ، ووقف أمامهم عدة مواقف عدائية : فخرض عليهم أهالى لالوت سنة ١٩١٤ ومنع الأورطة الإيطالية من دخول نالوت التى كانت ذاهبة إليها لأجل المحافظة على الحدود ، ومنعهم من إقامة نقطة عسكرية في « بو الشول » . وكانت فرقة من المهجاة ذاهبة إلى غدامس فمنعها من الذهاب إليها . وفي سنة ١٩٢٠ طرد ضابط الاتصال الذى كان بنالوت هو ومن معه ، واستولى على كل ما لديه من أمتعة الحكومة كل هذا محفوظ لخليفة بن عسكر لدى الطليان . وهو يعرفه من نفسه ، ويعرف الطليان أنه من أكبر أنصار رمضان السويحلى وأنه مستعد لعمل أكثر من هذا ، ولكنهم يودون أن ينضم إليهم بأى ثمن ، لأنه مادامت العداوة قائمة بينه وبينهم فلا يمكن أن يصلوا إلى ما يؤملونه من إثارة الفتنة بين الزنتان والبربر .

وقد استاء الطليان من أعماله فأرسلوا إليه في أوائل سنة ١٩٢٠ ليكشف عن مناوأتهم فوعد بذلك سياسة منه لتسكين غضبهم ، وأبى أن يستسلم لهم .

واستغل الحاج محمد فكيكى عضويته في حكومة القطر الطرابلسى ، فتدخل في فصل المراكز الجبلية بعضها عن بعض فلم يرق هذا خليفة بن عسكر . وأخذت هذه الحركة على

فكيني واعتبرها بعض أعيان البربر تدخلا في شئونهم الخاصة . ولعبت أصابع الطليان في توسيع الخرق ، وتمكنت أيدي الفتنة من الدخول فيه وتهيات النفوس للشر .
وأعاد الطليان الكرة في وساطتهم لدى خليفة بن عسكر . وقام بهذه الوساطة سليمان باشا الباروني ، وقبلت الوساطة .

ولم يختلف اثنان من الطرابلسيين في قيام الباروني باشا بهذه الوساطة . ولكن الذي اختلفت فيه وجهات النظر هو أسبابها .

ابتدأ الباروني باشا وساطته في يونية سنة ١٩٢٠ وجاء مع بن عسكر إلى طرابلس في يولية سنة ١٩٢٠ . ورحب الطليان بمقدمه ، وأصدرت الحكومة عفواً عنه ورجع إلى نالوت .
وبمقتضى هذا التغير في سياسة ابن عسكر تغير الموقف فيما يتعلق بحرب الزنتان والبربر . وسيتغير مجرى الحديث عنه تبعاً لما يظهر على أعماله من آثار هذه السياسة الجديدة .
ويظهر أن موت رمضان بك السويحلي كان من العوامل التي فتحت طريق اليأس إلى نفس خليفة بن عسكر لأنه كان يعتز به وينتصر له ، وكان وجوده يبعد عن نفسه شبح الحرب بين الزنتان والبربر . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان يمثل رمضان في جميع مظاهر السياسة الوطنية .

ولم ينس الطليان خليفة بن عسكر مواقفه منهم وما ألحقه بهم من ضرر ، وأنه ثالث ثلاثة : رمضان السويحلي ومختار كعبار ، وأنه وطني متطرف لا تلين قفاته . فلم يروا في استسلامه هذا أي مبرر للركون إليه ومعاملته معاملة المخلص لهم ، فلما أمكنتهم الفرصة منه قتلوه شنقاً ، وحين ذاك أدرك الباروني أنه خدع . وأدرك ابن عسكر أنه سقط في يده ، وأن الحذر لا يمنع القدر .

بدء المناوشات

رجع ابن عسكر بعد مقابلة الطليان إلى نالوت ووقعت مناوشات بينه وبين أبي الأحباس وبما أن أبا الأحباس كان ينتهي إلى الزنتان والرجبان أرادوا أن يحولوا بينه وبين ابن عسكر وانتصروا له ، وجاء حسن فكيني في خيله إلى الحراية انتصاراً لأبي الأحباس واصطدمت

خيله بنخيل ابن عسكر . وكانت أول معركة في الحرب الأخيرة بين العرب والبربر ففتح فيها باب الشر على مصراعيه ، وهزم حسن فكيني وأخذ بعض أصحابه أسرى .

وحاول الزنتان أن يوقفوا الأمر عند هذا الحد ، فأرسلوا وفداً لابن عسكر من خمسة عشر فارساً ، منهم : شايب عينه البوسيفي ، وعمر المحروق الزنتاني ، ومسمود العايب وخاطبوه في رد الأسرى وكانو يعتقدون أنه لا يرد وساطتهم لأنهم لم يشاركوا في الحرب التي قام بها حسن فكيني ، فامتنع ، فرجموا منه غضاباً . وقد أخطأ ابن عسكر في انتهاز هذه الفرصة لوقف الحرب ، لأنه كان في إمكان الزنتان أن يؤثروا على الرجبان في وقف الحرب ، وقد تأثروا برد وساطتهم فانضموا إلى الرجبان ووقعت معارك طاحنة ، واحتل البربر تاردية بلد الرجبان وأحرقوها يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وقتل في معركتها حسن فكيني ، وغلب الزنتان والرجبان وارتحلوا إلى « رأس الحصان » ^(١) وارتد ابن عسكر وخيله إلى فسّاطو .

وفي أواسط إبريل سنة ١٩٢١ اصطدم الزنتان والبربر في « السيج » ^(٢) وكانت معركة صبر فيها الفريقان على الموت ، وفقد فيها الوطن من أبنائه نحو ٢٦٠ قتيلاً . والتجأ البربر إلى فسّاطو . واتصل الزنتان والرجبان ببلادهم تاردية وتاغرمين . وفي أوائل يونية سنة ١٩٢١ اتصل ابن عسكر بالبasha الباروني في يفرن .

وبعد معركة السيج تغير الموقف ، ونشط الزنتان والرجبان ، وأحس البربر بهذا النشاط فأعدوا له عدة .

وفي أكتوبر سنة ١٩٢١ هاجم الزنتان والرجبان البربر في يفرن ، وأجلوا عنها ابن عسكر والبasha الباروني إلى فسّاطو فلحقوا بهم هناك وأجلوهم عنها في حالة ماسمع بها إنسان إلا جرحت عواطفه ، وكان محل الغرابة منه كيف يقسو الإنسان على جاره ومواطنه بهذه القسوة . وحل بفساط ماحل بتاردية من حرق وتخريب وساب ونهب .

وفي ١٣ منه وصل إلى الوطنية نساء البربر وأطفالهم والعاجزون عن الحرب منهم .

(١) مكان جنوبي السيج بنحو ستين كيلو متراً .

(٢) مكان سهل بين الرجبان وفساطو .

والتجأ ابن عسكر ومن معه إلى نالوت ، وجعل كابواً مركز قيادته ، ووقف النشاط الحربى إلى أوائل ديسمبر سنة ١٩٢١ واستعد كل من الطرفين لصاحبه . وفى اليوم السابع منه التقى الفريقان ، وحاول ابن عسكر أن يحتفظ بمضيق فرسطة فاضطر إلى التخلي عنه ، وارتحل إلى الجفارة فى سيف الجبل الشمالى . والتحق من بقى من نساء البربر وأطفالهم ، فيما وراء فرسطة إلى نالوت ، بإخوانهم فى الوطنية . وأصبح الجبل — من يفرن إلى نالوت — خالياً إلا من أصوات البوم وعواء الذئاب ، وإلا من حممة الخيل الغازية ، وطلقات الرصاص المتتالية ، واستحال ما كان فيه من أنس وحياة إلى وحشة وموت . وتناوحت الدور المتهدمة والخرائب الموحشة ، فلا تمر من شعبة إلا على أشلاء القتلى ، ولا من طريق إلا وحواليك ضحايا الرصاص وأسلاب الحرب .

حرب تجرد فيها الإنسان من كل عاطفة وإحساس . وأصبح لا قيمة عنده لحقوق الجوار ، ولا لأوامر الدين ، ولا للنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ولا لحرمان الحرائر وضعف الشيوخ والأطفال .

حرب اختلط فيها المظلوم بالظالم ، وتطاحن فيها الآباء مع الأبناء ، والأخ مع أخيه . لم تترك فى الجبل بيتاً إلا أنذرت ساكنيه بىتم البنات وبشكل الأمهات ، ولا قرية إلا صاحت فيها بصوت غراب البين : هلموا إلى الرحيل فقد آن خراب الديار .

حرب تولى قيادتها رؤساء لم يكن لهم من الدين وإزع ، ولا من الأخلاق رادع ، رؤساء أخلصت لهم الرعية فاستعملوها فيما يغضب الله ولا يرضى الإنسان ، وساقوها إلى الجازر لتنحر ولا تدرى لماذا تنحر ، واهتبلوا طاعتها لأغراضهم بدون رحمة ولا شفقة ، فقسفت قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

حرب ضاعت فيها نفوس بريئة على مذبح مطامع الرؤساء وشهواتهم ، وفقد فيها الوطن من شيوخ أبنائه وكهولهم ألوفاً كانوا على استعداد للدفاع عنه يوم ينزل به البلاء ، ويحيط به الأعداء ، فما كان أغناه عن موتهم وأحوجهم للحياة له ، وإذا سئلت تلك النفوس البريئة — يوم يقوم الناس لرب العالمين — بأى ذنب قتلت ؟ فسيكون جوابها : « ربنا إنا أطلعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آثمهم ضعفين من العذاب » .

البربر في الوطنية

اجتمع من البربر في الوطنية بعد أن التحق بهم ابن عسكر ومن معه نحو ١٠٠٠٠ بين نساء وأطفال ورجال ، وكانوا في حاجة إلى الاستقرار لينالوا قسطاً من الراحة مما نالهم من عناء الجلاء ، وليتدبروا فيما يدفع غائلة الجوع عن أنفسهم ، وبقوا نحو أربعة أشهر في راحة من الحرب .

وقد استغل الطليان منهم هذه الحال فعرضوا على بعضهم الانخراط في الجندية ، وتولى يوسف خريش هذه الدعاية فاستجاب له بعضهم كما استجاب له كثير من غير البربر ، وشكل جيشاً برياسته كان الضربة القاتلة للوطن كله . ولقد أسرف هذا الرجل في الانتقام لنفسه ولسكن ممن لا يستحقون الانتقام . أما الزنتان والرجبان الذين تسببوا في إجلاء البربر عن أوطانهم فلم يلحق بهم أى ضرر .

القبض على ابن عسكر

لم ينس الطليان لابن عسكر تلك المواقف الوطنية التي كان يقفها منهم ، وتلك العداوة الصريحة التي كان يصارحهم بها وينازلهم القتال من أجلها ، فعملوا من أول وهلة لإبعاده وعدم تمسكه بما يقوى سلطته ونفوذه .

ولم ينس ابن عسكر عداوة الطليان له وما أنزلوه بوطنه من نكبات ، وهو يعتقد أنهم لم ينسوا عداوته لهم ، فكل من ابن عسكر والطليان يقرأ في وجه صاحبه ما يقرؤه الثاني من عداوة وبغض . ومن أول وهلة تقدم ابن عسكر لجزائري بطلب تشكيل جيش برياسته لاحتلال الجبل وإرجاع البربر إلى أوطانهم . وقد أبدى هذه الرغبة إلى ووالي وبادوليو حينما جاء إلى العسة ، فطلب منهم تأليف جيش برياسته ومبلغاً كبيراً من المال . وقد احتال لتنفيذ غرضه بأن أفهمهم أن الزنتان والرجبان ينوون الهجوم على الوطنية ليسرع الطليان في إجابة مطالبه . ولسكن الطليان اعترضوا القبض عليه لعدم اطمئنانهم له ، ولو علموا أنه لا يستعمل مطالبه ضدهم لأجابوه إليها . فكانت كل طلباته تقابل بالتسويق والمراوغة

اكتساباً للوقت إلى أن تحين الفرصة المناسبة للقبض عليه .
وعلى ضوء ما فهمه جرازيانى من نوايا ابن عسكر ، وعلى ما يحمله له من عداوة قديمة
أخذ يكتب التقرير تلو التقرير إلى وولي ويحرضه على القبض عليه . وما زال به حتى
استصدر أمراً بالقبض عليه .

ولم يكن من السهل القبض على ابن عسكر علانية وبدون تحيل خوفاً من غضب
أنصاره له ، لأن ابن عسكر ما زال مرموقاً بتلك العين الوطنية الخاصة . ولهذا الأسباب
صرح جرازيانى بأنه كان مضطراً إلى التحيل للقبض عليه . وكان من الحيل التى اتخذت لذلك
أن قبض على كثير من الناس : من أنصاره وغيرهم لأسباب مختلفة مختلفة لتتجه الأنظار
إلى هؤلاء المقبوض عليهم ، ويزيد ذلك فى اطمئنان ابن عسكر وأنصاره .

وفى أواخر شهر مايو سنة ١٩٢٢ تحركت جيوش جرازيانى من زوارة إلى الوطنية ،
ومعها جماعة ابن عسكر . وقد صفت هذه الحیوش بما فيها أنصار ابن عسكر للتفتيش عليها .
ومسألة التفتيش معروفة حينما تريد الحیوش الحركة من مكان إلى آخر . ولو تمت حيلة
التفتيش لتكنوا من القبض على ابن عسكر وأنصاره ، ولكنه لم يخف عليه وعلى أصحابه
هذا التدبير ، ويقول جرازيانى : انهم كانوا مستعدين للطوارئ . ويقول أيضاً : ولم يكن
هذا كافياً للقبض عليه خوفاً من أنصاره لأنهم كانوا يطيعونه طاعة عمياء ، وقد يؤدى إلى
تدمير جماعة البربر على العموم . واشتكى ابن عسكر من تصفيف رجاله بهذا الشكل ، فاحتمل
جرازيانى للأمر بأن طلب التحدث إلى ابن عسكر وبعض رجاله ، ولما ذهبوا إلى محل
القيادة لمقابلته كانت الأوامر أعطيت إلى الجيش بالقبض على أنصاره ، كما اتخذت التدابير
للقبض عليه وعلى من معه داخل القيادة ، ونفذت الخطة ونجحت الحيلة .

ويقول جرازيانى فى كتابه « نحو القزان » : « وكنت مع خليفة بن عسكر فى
مقصورة منفردين . وفى هذه الأثناء كان يقبض على أنصاره الواحد تلو الآخر ، ومن الصدف
أن وقع سقف الحجرة التى كنت فيها أنا وابن عسكر علينا . فلما خرج من الحجرة قبض
عليه ووضع الحديد فى يديه ^(١) » .

(١) سمعنا هذه الإشاعة عند القبض على ابن عسكر . ولولا أنه كتبها جرازيانى لما صدقناها ؛

وكانت هذه الحادثة يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٢ . وفي هذا اليوم أخذ إلى طرابلس حيث أودع السجن انتظاراً للمحاكمة . ولهذا المناسبة يقول جرازيانى :

« وهكذا اختفى من الغرب رجل خطر جداً كرمضان السويحلى »

وفي يوم القبض عليه قبض على جميع أفراد أسرته ونزع السلاح من أتباعه . وبعد القبض على ابن عسكر أمن الطليان جانب أكبر عدو لهم كانوا يرهبون جانبه ويخشون سطوته .

وقد أثبتت الحوادث أن ابن عسكر بعد انتماه إلى الطليان لم تتغير نواياه نحوهم ، وكان يعتبرهم ألد أعداء الوطن ، فكان يعمل لما يخلصه ويخلص أنصاره من قبضتهم . كما أن الطليان لم يروا في انتماه إليهم ما يستحق الاطمئنان إليه ، فكانوا يعاملونه بكل حذر ، وقال جرازيانى فى حقّه : « يحب معاملته بحذر كعدو » وقد عملوا للقضاء عليه وعلى أنصاره من أول وهلة .

وبفقده فقد الوطن رجلاً من أبرز رجالات الوطن إخلاصاً وشجاعة . شكر الله له وجزاه أحسن الجزاء . وبعد انتهاء هذه الرواية المحزنة اتجهت جيوش الطليان إلى الجوش على طريق الهبيلية لاحتلال الجبل .

يوسف خريش

كان يوسف خريش من البربر الذين انحازوا إلى الوطنية . وقد استماله الطليان وعمل لمصلحتهم أعمالاً دلت على أنها كانت برغبته واختياره حتى أصبح محل ثقتهم . وقاد جيوشهم وفتح لهم الأمصار والقرى ، وسلم لهم الوطن لقمة سائفة ، وفى أحد عشر شهراً أوصلهم إلى غاية حاربوا من أجلها اثنتى عشرة سنة فلم يفلحوا ، وهى استيلاؤهم على طرابلس من زوارة إلى مصراته ^(١) . وقد أباح لجيشه أموال الناس فما وقعت أيديهم على شىء إلا أخذته ، ولا تركت شيئاً إلا امتدت إليه حتى أصبح أغنى رجل فى طرابلس ، ومنحوه أكبر نشان يحمله غير الإيطاليين .

(١) ابتداء زحفه من زوارة على الزاوية فى إبريل سنة ١٩٢٢ واحتل مصراته فى ٢٦ فبراير

احتلال الجبل

وأول ما فكر فيه الطليان بعد القبض على خليفة بن عسكر احتلال الجبل ليؤمنوا رجوع البربر إلى أوطانهم . فألقوا جيوشاً أربعة ، برئاسة : جرازيانى ، وبتسيري ، وفليشو ، وبلي ، يتألف من مجموعها ثمانية آلاف جندي بين فرسان ومشاة ، وعشرة مدافع ، وقد عهد إلى جرازيانى باحتلال الجوش . وكان معه ثلاثة آلاف مقاتل . وثلاثمائة فارس ومدفعان . وعهد إلى الجيوش الأخرى أن تسنده من الجهة الشرقية لتشغل المجاهدين في غريان من ناحية العزيزية ، وفي يفرن من ناحية بئر الغنم خوفاً من إرسال نجدة إلى جهة الجبل الغربية ، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا مستولين على الجبل كله : من غريان إلى نالوت .

ابتداء الأعمال الحربية

تحرك جيش جرازيانى في ٢ يونيو سنة ١٩٢٢ من زوارة قاصداً الجوش . ولما مر بآبار قصور غدو والجمراء لم يجد فيها من الماء ما يكفيه فمات كثير منه بالعطش ، وقبل وصول الجيش إلى آبار السكردى اعترضته جماعة فسينى ، فناوشته دونها ولم يصل إليها إلا وهو في آخر رمق ، ولم يمكنه مواصلة السير إلى الجوش بدون التعرض إلى خطر الزنتان والرجبان برئاسة الحاج محمد فسينى .

وفي اليوم الثالث أرسل الطليان كشافة وقع أكثر رجالها في أيدي العرب وبقى العرب يحاصرون الطليان على آبار السكردى نحو عشرة أيام . وكانت الطائرات ترميهم بالقنابل صباحاً ومساءً حتى جاءوا بقسم من الهجانة من رقدالين ، وفي ليلة ١٢ يونيو جاءتهم نجدة في سواني السكردى فتمكنوا من فك الحصار وساروا إلى الجوش من طريق عين الجديدة . وبقى الجيش الإيطالى في طريقه من زوارة إلى الجوش ١٢ يوماً منها نحو عشرة أيام في الحصار ،

القتال في الجوش

وصلت جيوش الطليان إلى الجوش يوم ١٢ يونية سنة ١٩٢٢ وكان فيه جماعة

من الزنقان والرجبان والحراة والصيعان . وكانت الطائرات تمطرهم بقنابلها بدون انقطاع لأنها اتخذت لها مطاراً في سواني الكردي . وبعد ثلاث معارك اضطر العرب إلى الانسحاب نحو شكشوك ، واحتل العدو قصر الجوش في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم ١٢ منه بعد قتال شديد . واعترف الطليان بأنهم أصيبوا بخسائر كبيرة في الضباط والجنود . والتجأ العرب إلى الجبل قاصدين جادو .

وفي صبيحة يوم ١٤ منه خرجت قوة من الوطنية متجهة إلى تيجي ، ثم منها إلى كاباو لاحتلالها . وكان خريش بصحبة هذه الحملة ، فوصلت كاباو واحتلتها يوم ١٦ منه . وفي يوم ١٨ منه هاجم خريش السلامة واحتلتها بعد معركة دامت من الصباح إلى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وفي يوم ١٧ منه زحفت القوة التي احتلت كاباو على فساطو فاحتلتها في يوم ١٩ منه . واتجهت قوة أخرى من كابا إلى نالوت فاحتلتها في يوم ٦ يولية ١٩٢٢ وتقدم الطليان في زحفهم حتى تاردية وتاغرمين فاحتلوهما . واضطر فكيني ومن معه إلى الاتجاه إلى الجنوب « القبلة » ونزلوا على بئر الكلاب وبئر علاق ، وسانية الجديد .

وعلى أثر معارك الجوش التجأ كثير من العرب إلى القبلة ، ولم يبق إلا قليل قاموا بمناوشات لتأخير تقدم العدو مؤقتاً حتى يتمكنوا من النجاة .

وكانت جيوش الطليان تمتد من زوارة إلى الجوش على طريق الوطنية والهبيلية والزير .

الزحف على يفرن

استمر الزحف على يفرن من جادو من يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ إلى يوم ٣١ منه . وفي يوم ٢٩ وصلوا الريانية وفي يوم ٣٠ منه وصل خريش ومن معه إلى الرومية واحتل يفرن يوم ٣١ منه .

احتلال غریان

اتخذ الطليان الأهبة لاحتلال غريان . وفي يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٢ صدرت الأوامر بإحتلالها . واتخذت خطة للاطباق عليها من جميع الجهات . فتقدم جرازيانى من يقون إلى جنوب غريان وشرقيها لمنع المدد من ترهونة . وكان معه ٣٥٠٠ مسلح و ٣٥٠ فارساً وأربع بطاريات ، وتقدم بللى من الغرب على طريق سفح الجبل ليحتل بوغيلان ، ومعه ٦٠٠ مسلح و ١٠٠ فارس . وتقدم بتزاري ومعه ٢٢٠٠ مسلح ، و ٣٠٠ فارس من الغرب ، وخرجت قوة من العزيزية لمحتل « بوعرقوب » ، والسايح ، والجيلانى . وأطبقت هذه القوى الأربعة على غريان ، ونفذت كل واحدة خطتها فجلا المجاهدون عنها واحتلت يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

مؤتمر غريان

انتهى بنا الحديث عن سرد حوادث حرب الزنتان والبربر إلى احتلال غريان في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مع أن بعضها وقع بعد مؤتمر غريان الذي عقد في نوفمبر سنة ١٩٢٠ وقد أخرجنا الكلام عنه لنتمكن من سرد ما ترتب عليه من أعمال الإدارة الوطنية وحوادث الحرب. وقد ألمعنا آنفاً إلى أن الطليان أخذوا يعملون لنقض صلح بنيادم بالمرأوة في تنفيذ القانون الأساسي تارة، وبالذس بين الطرابلسيين لإيقاد الفتنة الداخلية بينهم تارة أخرى. وقد وجدوا من الفتنة القائمة بين البربر والعرب ميداناً جروا فيه إلى مهاية الشوط وأيقظوا منها ما كان نائماً، فكانت أوسع باب ولجوا منه للقضاء على الوطن. وقد ضاع كل أمل للعرب في إصلاح الحال ووفاء الطليان بما عاهدوا عليه، ففكروا في عقد مؤتمر عام يمثل البلاد من أقصاها إلى أقصاها للنظر فيما آلت إليه الحال، وما يجب اتخاذه لإصلاح الموقف، فاستقر رأيهم على عقد مؤتمر غريان.

مؤتمر تحضيرى

وقد مهدوا لعقد مؤتمر غريان بمؤتمر تحضيرى عقد في العزيزية في المحرم سنة ١٣٣٩ أكتوبر سنة ١٩٢٠ لينسق أعمال مؤتمر غريان ويحضر له المواد التي يبحثها. وكان من أعضاء هذا المؤتمر: الشيخ عمر الميساوى. والشيخ على الهمالى عن مصرانة والشيخ أحمد الرجيبى والفقيرة على بن حسن عن الزاوية. والشيخ الزروق الأجهري عن ظلماتين^(١). وبقي منعقداً نحو أسبوع.

وكان فيما قرره (١) انتخاب وفديسمى « وفد الإصلاح » ليصلح بين الزنتان والبربر (٢) الشروع في انتخاب أعضاء مؤتمر غريان (٣) تقسيم البلاد إلى مناطق وتحديد الأعضاء لكل منطقة (٤) إرسال دعوة إلى جميع المناطق التي تقرر اشتراكها في مؤتمر غريان لانتخاب أعضاء وفد الإصلاح ومؤتمر غريان.

(١) حضره أعضاء آخرون لم نخبرني أسمائهم.

وفد الإصلاح

انتخب وفد الإصلاح وكان مكوناً من حضرات السادة : الشيخ الطاهر الزاوي من الزاوية . والأستاذ عبد الله أفندي الشريف من ساحل طرابلس . ومحمد بن حمد من ترهونة . وعلى المشلوخ من الأصابعة . والشيخ محمد ابن خليفة من ككالة . والشيخ محمد بو زويذة من ورشقاة . وكل واحد من هؤلاء الأعضاء كان يمثل بلده وبلاداً أخرى ضمت إليها في هذا التمثيل ، حتى أصبحت جميع البلاد الساحلية ممثلة في هذا الوفد . ولم تمثل فيه زوارة ولا سكان الجبل والجنوب لأن حالة الحرب حالت دون الاتصال بهم .

وقد اجتمعنا نحن أعضاء الوفد في بئر الغم ، وسافرنا في أواخر الحرم سنة ١٣٣٩ إلى الجبل حيث مقر البربر ، على طريق تاغمة ، وكان بها الشيخ سوف فزودنا ببعض النصائح في مهمتنا ، وكان أملنا في النجاح ضعيفاً لأن الزنتان والرجبان كانوا انتقلوا إلى الجنوب على أثر هزيمتهم ، أما البربر فما زالوا في الجبل وجيوشهم تتجول فيه حرة . وكل من قابلناه من الأعيان لأخذ رأيه كان يتمنى لنا النجاح ، ولكنه كان يشك في الحصول عليه .

ومررنا في طريقنا بالريانة فوجدنا أهلها منقسمين إلى قسمين : قسم يرأسه عبد الله الرجبي^(١) وهو من أنصار الزنتان والرجبان . وقسم يرأسه أحمد جابان وعبد الله بن حسين وهما من أنصار البربر وكان الحزبان على أشد ما يكون من الخلاف ، وقد حاول الوفد أن يصلح بينهما ، فأرجئت إجابة رغبته إلى ما بعد الانتهاء من الصلح بين الزنتان والبربر .

وتقدم الوفد إلى « فساطو » وكان رئيس جيش البربر الموجود بها إذ ذاك عمرو بن عسكر أخو خليفة بن عسكر واجتمعنا فيها بيوسف خريش والشيخ سليمان بن سعيد وبعض أعيان البربر ، فأظهروا استعدادهم للصلح وعلقوا الأمر على استعداد عدوهم لقبول هذا العرض . ولا أرى هذا إلا من قبيل الجمالة ، لأنهم يرون أن عدوهم لا يرضى بالصلح عقب

(١) هو من أعيان الريانة من بلدة « العين » . وكان يناصر الزنتان والرجبان في حروبهم ضد البربر ولما استتب الأمر للطلبان قتلوه رمياً بالرصاص يوم الثلاثاء ٩ من يناير سنة ١٩٢٣ . وحكم على عشرين رجلاً من أنصاره بمصادرة أموالهم ، وبالسجن من خمس سنوات إلى عشرين سنة .

تلك الهزيمة المفكرة ، وأيضاً فإن الزنتان والرجبان انتقلوا الى الجنوب ، واتضح فيما بعد أن هذا الانتقال كان لجمع شتاتهم وحشد جيوشهم للأخذ بالثأر ، وأصبحت أمام الوفد مهمة شاقة ، وهي لحاقه بالزنتان والرجبان في الجنوب لأخذ رأيهم . وبما أن الاستعدادات كانت قائمة لعقد مؤتمر غريان فقد أرجأ الوفد مهمته إلى ما بعد انعقاده ليستشير برأيه .

ورجع الوفد إلى غريان — مكان اجتماع المؤتمر — بدون أن يتصل بأحد من الزنتان والرجبان ليبلغ المؤتمر نتيجة مهمته ورأيه فيما يجب اتخاذه . ووصل غريان في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٣٩ نوفمبر سنة ١٩٢٠ فوجد بعض أعضاء المؤتمر قد وصلوا إليها .

ملحوظة

كان الوفد معترفاً بكتابة تقرير بما شاهده ، وبما يراه صالحاً لمعالجة الحال كما هو شأن الوفود التي ترسل في مهمة حكومية أو شعبية . ولكن بعض أعضاء المؤتمر أوعز إلى أحد أعضاء الوفد أن يكتب ما يتراءى له ، وأسر إليه بأمور يضمها ما يكتبه لغرض في نفس هذا العضو . وانتهى الأمر بالاكتفاء بما أملاه أو كتبه عضو الوفد بدون أن يطلع بقية أعضائه على شيء منه .

ويتصل بهذا الموضوع مهزلة أخرى ، وهي : أنه لما كنا في الريانة أظهر هذا العضو ورقة مكتوبة ، ادعى أنها وقعت من الباروني ، يخرض فيها البربر على عدم قبول الصلح وعدم الانضمام إلى العرب . وأنا أعتقد أن هذه الورقة مزورة لحاجة في نفوس بعض الناس ، وهي هناة تؤخذ على من أرسل لإصلاح ذات البين ، وجمع ما فرقه التعصب للعنصرية والأغراض الشخصية . كما تؤخذ هناة مثلها على من يتصدر لحضور المؤتمرات للنظر في مصير أمة بأسرها وهو لا يملك من نفسه أن يستمع إلى الحقائق . فإذا كانت نفسه تحرض على مثل هذا في مثل هذه الظروف التي يقف فيها الوطن على الهاوية لغرض لا يعدو أن يكون انتقاماً أو إثارة فتنة فكيف يرجى من مثله أن يحسن التصرف في شئون الوطن العامة ؟

وفي مثل هذه المهازل عبر لا يسع العاقل أن يمر بها بدون أن يعمل على عدم تكررها
فقد كان لها من الآثار السيئة مالا يحفى على أحد .

اجتماع المؤتمر^(١)

اجتمع المؤتمر في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٩ . نوفمبر سنة ١٩٢٠ بعد أن اختار كل
بلد من يمثل فيه ماعدا بلاد البربر . وأسفرت النتيجة عن انتخاب :

أحمد بك المريض رئيساً

الأستاذ عبد الرحمن عزام مستشاراً

محمد بك فرحات مختار بك كهبار

الصادق بك بن الحاج عبد الرحمن زبيده

عمر أبو دوس الحاج محمد بن عمر

صالح بن سلطان عبد السلام الجدايى

التهامى قليصة نوري السعداوى

الشيخ أحمد الرجيبي بشير السعداوى

اليساوى بوخنجر حسين بن جابر

محمد التايب سالم البجباح

عثمان القيزاني الصويعى الخيتوني

على بن تنقوش

ودامت جلساته ١٥ يوماً .

(١) بمجرد أن ساءت العلاقات بين الطرابلسيين والطلليان ، وظهرت فسكرة عقد مؤتمر غريان خاف
الطلليان أن يكون من نتائج هذا المؤتمر اتحاد برقة وطرابلس فسعوا لدى السيد لادريس وعقدوا معه معاهدة
الرجة في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ ، وهي التي بمقتضاها أعطوه الإمارة ، وقد عقد هذه المعاهدة بدون
أن يستشير الطرابلسيين في شيء . ودعى إلى روما لمقابلة ملك إيطاليا في نوفمبر سنة ١٩٢٠ . وبقي ضيقاً
على الحكومة إلى أن رجع إلى برقة في يناير سنة ١٩٢١ . وجاء في هذه المعاهدة (الحكومة تفوض
إلى الأمير السنوسي رئاسة وإدارة واحات أوجلة وجالو والكفرة والجغبوب) وهذا ماخص السيد لادريس
من برقة ، وهي واحات في جنوب برقة لا ثروة فيها ولا علم ، يعيش أهلها على بلح النخل وما يجلبونه
على ظهور الإبل .

وقد انتخب المؤتمر بالإجماع أحمد بك المريض رئيساً للمؤتمر . وكانت الظروف إذ ذاك تقضى بهذا الانتخاب . فرمضان بك السويحلي الذي كان يظن أنه ينافسه هذا المنصب كان قد توفي ، وما يتصف به المريض من دماثة الخلق وسهولة الطبع كان الناس في أشد الحاجة إليه في تلك الظروف التي ظهرت فيها قرون الفتنة في كل ناحية . وكانت تودته في الأمور ورزاقته في التفكير من أسباب توجه الناس إليه ، وعقد الرجاء به .

وهذه المميزات هي التي وجهت المؤتمر لانتخابه رئيساً لهيئة الإصلاح المركزية أيضاً . وقد تحمل هو وإخوانه أعضاء الهيئة أعباء الحكم في تلك الظروف التي كان يحيط بها كثير من عوامل الفساد والانحلال وبذلوا في الإصلاح وسعهم ، وما عليهم إذا لم يوفقوا ، فإن التوفيق بيد الله يؤتیه من يشاء .

وقد وقفت حكومة الطليان من مؤتمر غريان موقف الحذر ، وسعت في إخفاقه بكل ما أمكنها من السعي بالرغم على أنها كانت وافقت على انعقاده . ونظراً لما كان بين البربر والزنتان من الحرب فقد امتنع من الاشتراك فيه هم وأولاد أبي سيف والمشاشية . وامتنع كذلك عن الاشتراك فيه عبد النبي بن خير ، نظراً للحرب التي وقعت بينه وبين مصراته . ولم تتأثر مصراته بموت زعيمها ، فقد تناسته في سبيل مصلحة الوطن ونزلت عند إرادة الأمة . وأظهرت استعدادها للتفاهم مع عبد النبي ، ولكن شكوكه ووساوسه أبت عليه أن ينظم إلى صفوف الأمة واستمر في انشقاقه . وكانت له صلة متينة بالطليان فكانت رسله وقوافله تغدو وتروح بينه وبينهم متخذة طريقها إلى طرابلس بين حدود غريا وترهونة وكان يمثل أرفلة عبد الرحمن زبيدة والسيد محمد العيساوي بوخنجر بموافقة خصوم عبد النبي وموافقة المؤتمر .

وقد امتنع الباروني عن حضور المؤتمر لأنه كان متأثراً بالحرب التي وقعت بين الزنتان والبربر وأرسلت إليه دعوة خاصة من مؤتمر العزيزية التحضيرى فلم يقبل . وأرسل إليه أحمد بك المريض بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر بأنه مستعد للتنازل له عن الرياسة فأبى ، وأصر على موقفه ولما أيس المؤتمر من اقناعه استمر في أعماله . وأصدر بعد انتهاء جلساته قراراً بهذا النص :

« إن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ، ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامى بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها ، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة » .
وانتخب حكومة وطنية أطلق عليها اسم « هيئة الإصلاح المركزية » وكانت مكونة من :

رئيساً	أحمد بك المريض		
مستشاراً	الأستاذ عبد الرحمن عزام		
أعضاء {	محمد فرحات	حسين بن جابر	بشير السعداوى
	سالم البجباح	محمد التايب	عبد الرحمن زبيده
	صادق بن الحاج	عمر بودبوس	عثمان القيزانى
	الصويمى الخيتونى	الحاج محمد فكيفى	مختار كعبار

وقرر المؤتمر إرسال وفد إلى روما ليطالب بتنفيذ قراراته . وانتخب هذا الوفد من : محمد بك فرحات الزاوى رئيساً . ومحمد نورى السعداوى . والصادق بن الحاج : وخالد القرقي أعضاء .
وعبد السلام البوصيرى كاتباً « سكرتيراً » .

وانفض المؤتمر ، وأبلغ قراراته إلى الحاكم الإيطالى فى طرابلس ، وطلب إليه أن يبلغها إلى حكومة روما . وذهب كل فرد من أعضاء الحكومة العربية الجديدة إلى بلده ليمثلها فى إدارة شئونه . وكان النفوذ الإيطالى إذ ذاك لا يتجاوز زوارة ومدينتى طرابلس والخمس وجاء دور إرسال الوفد إلى روما . وقبل أن يتهيا للسفر ذهب إلى أرفلة ^(١) لإقناع عبد النبي بضرورة موافقته على قرارات المؤتمر ودخوله فى هيئة الإصلاح المركزية . وعبثاً حاول التفاهم معه ، وأصر على امتناعه .

وقبل سفر الوفد إلى روما قابل الحساكم الإيطالى فى طرابلس « مراكمياي » ليستأذن

(١) ماعداً خالداً فإنه كان فى رومة .

منه في السفر ، فنانع وأغلظ في القول ، وهدد بالاستقالة إذا قبلت حكومة روما الدخول معهم في المفاوضات . وبعد جدال طويل رخص له بالسفر بعد أن وضع في سبيله كل المعوقات والمتبطات ، واستوثق من حكومته بأن توصل في وجهه جميع الأبواب .

سفر الوفد

سافر الوفد إلى روما في ديسمبر سنة ٩٢٠ وحاول الاتصال برجال الحكومة وذوى الشأن فيها فلم يفلح ، فاضطر إلى مغادرتها إلى البلاد الإيطالية الأخرى واتصل برؤساء الأحزاب ومحركى الجرائد ، وتمكن من الإعلان عن قضيته في بعض الجرائد ، وأخيراً اتصل بالحزب الاشتراكي ، فكان من حجتة أننا نخاف من غضب الشعب إذا ساعدناكم والأسرى مازالوا في أسرهم ، فإذا ما أطلقتموهم أمكننا أن نساعدكم ، وبناء على هذا الوعد أطلق الأسرى في رمضان سنة ١٣٣٩ ، ولكن الاشتراكيين لم يبرأوا بوعدهم واتضح أنها كانت خيانة منهم . وفي إطلاق الأسرى تسرع من بيدهم الأمر حيث إنهم لم يستوثقوا من الاشتراكيين بما يكفل هذه المساعدة .

وفد المعارضة

وقد تمكن الطليان من التأثير على بعض الموظفين ، فآلفوا منهم وفداً ليعارض الوفد الذى أرسلته الحكومة الوطنية إلى روما ليطالب باستقلال البلاد . وكان هذا الوفد مؤلفاً من أربعة أشخاص : حسن باشا القره مانلى . والشيخ أبى الإسعاد العالم . وموسى قراده . والحاج مصطفى بن قداره . وذهبوا به إلى روما في أوائل سنة ٩٢١ ، وبكل جرأة أخذوا يناوئون وفد مؤتمر غريان ، ويصرحون بأنهم لا يوافقون على مطالبه ، ولا يقرون قرارات المؤتمر . ومضى وفد الأمة في مطالبته بحرية الوطن واستقلاله ، ويقول إن الأمة لا يصالح شأنها إلا بتنفيذ قرارات مؤتمر غريان ، ولا يمكن الاتفاق إلا على أساسها احتراماً لإرادة الأمة الممثلة في مؤتمرها . ووفد المعارضة يرفض كل هذا ويعارض في تنفيذه .

وكان من حجة وفد الأمة أن وفد المعارضة لا يمثل الأمة لأن أعضائه موظفون لدى الحكومة ، وقد استأجرتهم بهذه الوظائف ، فهم ينطقون بلسانها ويعبرون عن آرائها .
وبقي وفد مؤتمر غريان في روما نحو تسعة أشهر ، وعبثا حاول التفاهم مع الطليان ، ولما أعيته الحيل من جميع الطرق في فتح المفاوضات رجع إلى طرابلس . وتحلف خالد بك القرقي في إيطاليا ، ثم ذهب إلى فرنسا ، ورجع إلى طرابلس على طريق البر من جهة تونس ، والتحق بالهيئة أثناء مفاوضات فندق الشريف سنة ١٩٢٢ .

وقابل الطرابلسيون هذا الإعراض بالسخط الشديد ، والإصرار على تنفيذ قرارات مؤتمر غريان مهما كانت التضحية .

وتخرج الموقف بعد رجوع الوفد ، وأظهر الطليان نشاطاً عسكرياً وشدة مقاومة للروح الوطنية . واعتقلوا أناساً ممن ينتمون إلى حزب الإصلاح الوطني .

مطاردة أعيان البلاعة

كان الشيخ محمد هويصة والشيخ محمد صهيب من أعيان البلاعة ومن أنصار رمضان بك الشويحلي ، وبقيا — بعد موته — يعملان بهذه الروح لمناهضة الطليان . بكل ما يمكنهما وقد علم الطليان منهما هذه الروح العدائية لهم ، فأخذوا يفتهمون لها القرص للقبض عليهما . ورأى الكبطان « كسطيني » رئيس البوليس الإيطالي بالزاوية في تخرج الموقف بعد رجوع الوفد فرصة سانحة للقبض عليهما ، فجهز جيشاً كبيراً في الزاوية وخرج به في رمضان سنة ١٣٣٩ للقبض عليهما وعلى غيرهما من أعيان البلاعة ، وكانوا إذ ذاك يقيمون في البادية فذهب قسم من الجيش إلى بئر هويصة^(١) للقبض على الشيخ محمد هويصة ، وذهب القسم الآخر إلى جديد كرداسة^(٢) للقبض على محمد صهيب وعلى البشت . ولم تتمكن القوة التي ذهبت إلى محمد هويصة من القبض عليه . أما القوة التي ذهبت للقبض على محمد صهيب وعلى البشت فإنها لما التقت بعلى البشت دافع عن نفسه ، وتسامع الناس بها فأطلقوا عليها

(١) موضعان ببادية الزاوية على مسافة نحو ٣٠ كيلو متراً إلى الجنوب .

الرصاص ، فقتل منها نحو اثني عشر جندياً وبعض الخيول ولم تتمكن من القبض عليه ، وقبضت على محمد صهيب بدون مقاومة ، فأركبوه فرسه ، وأخذ أحد الجنود بلجامها يقودها به ، فاتهز منه غفلته وخلع لجامها وركضها فانطلقت به كالريح ، فأطلقوا عليه الرصاص ، وجرت خيلهم وراءه ففجأ منهم ، وذهبت الحملة في طريقها إلى بئر الغنم ، ثم رجعت بدون أن تكسب شيئاً .

وعلى ضوء هذه الحوادث أيقنت هيئة الإصلاح المركزية أن الحال سنتهي إلى الحرب لا محالة فأخذت تعد للأمر عدته .

الامارة

كان مما قرره مؤتمر غريان إقامة حكومة بزعامة رجل مسلم . ولما قرر هذه الزعامة لم يكن متجهماً إلى تحقيقها في شخص بعينه ، وإنما ترك تعيين هذا الزعيم إلى وقت حاجة الأمة إليه فتختاره من بين تلك الطبقة الممتازة التي تقدم للأمة من جلائل الأعمال ما يستحق به التقدم ، فتفرضه أعماله على الأمة فرضاً ، وتوحى به إلى ضماير أبنائها فيختارونه لدفع السكوارث التي تحيط بالوطن العزيز . وما كان يدور بخلد أعضاء المؤتمر أن الزعيم يكون من غير هذا النوع .

بين طرابلس وبرقة

منذ أن احتل السيد إدريس سرت سنة ١٩١٦ وطرده منها موظف مصراتة حصل فتور بين البرقاويين والطرابلسيين ، وامتد هذا الفتور نحو خمس سنوات . وترتب عليه من التعديبات على الأموال والأشخاص ما لا يصح أن يكون بين المواطنين . وقد رأى بعض الخيرين من أعيان برقة أن يسعوا بالخير لقطع هذه المنازعات . وحصلت مكاتبات بينهم وبين حكومة مصراتة أعقبها حضور الشيخ مفتاح الفيل والشيخ عبد الله بوقشاة إلى سرت لرسم خطة للقضاء على هذا الخلاف . واتفقوا مع بعض الأعيان ومثلى حكومة سرت على الاجتماع في جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ الموافق يناير سنة ١٩٢٢ في سرت

ووصلت هذه الأخبار إلى الطليان فقامت قيامتهم وصمموا على استئناف الحرب مهما كانت النتيجة ، فأعدوا قوة هائلة في البر والبحر . وكانوا يعلمون أن مصرانة هي منبع الحركة الوطنية فبيتوا الهجوم عليها وصاروا ينتظرون الوقت المناسب .

اجتماع سرت

جاء الوقت المحدد لاجتماع سرت ، وسافر الأعضاء للاجتماع . وكان يمثل طرابلس في هذا الاجتماع أحمد بك السويحلي ، وعبد الرحمن بك عزام ، وعمر بودبوس ، ومحمد نوري السعداوي ، والشديوي بن سالم ، والصويحي الخيتوني ، والحاج صالح بن سلطان . ويمثل برقة : الشيخ صالح الأطيوش ، والشيخ نصر الأعمى ، والشيخ خالد القيصية ، والشيخ صالح السنوسي بن عبد الهادي البراني . واجتمع الوفدان عدة جلسات استعرضوا فيها الحال القائمة في البلدين وبحثوا أسباب الخلاف وما يصاح علاجا لها .

وفي الوقت الذي قرر فيه مؤتمر غريان إقامة حكومة بزعامة رجل مسلم كان الطليان اعترفوا بإمارة السيد إدريس السنوسي على دواخل برقة^(١) . فلما عرض مؤتمر سرت لتوحيد كلمة طرابلس وبرقة ذكرت الإمارة كسبب من أسباب هذا التوحيد فكان مما لفت النظر أن وجود السيد إدريس أميراً — على الرغم من أنه لم يؤخذ رأي الطرابلسيين في هذه الإمارة — قد يستأنس به لتحقيق هذه الرغبة ، وتتوحد الكلمة بتنصيبه أميراً على طرابلس وبرقة . ولم تكن هذه الملاحظة محل اتفاق أو بحث جدى ، وإنما كانت مما يتطرق إليه الحديث ، خصوصاً وأن مؤتمر غريان ترك الباب مفتوحاً لتحقيق الزعامة في أي شخص إذا ترتب عليها توحيد الكلمة . وهذا نص القرار الذي اتفق عليه مؤتمر سرت : « الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد . ألف بين قلوب المسلمين وجعلهم خير أمة للعالمين . والصلاة والسلام على رسول الهدى والرحمة الذي نجا يدعونا إلى العزة والإباء ، ويعلمنا كيف نقاتل الأعداء .

وبعد فقد اجتمعنا نحن الموقعين على هذه المعاهدة المفوضين من قبل طرابلس وبرقة ،

(١) دواخل برقة : جالو ، وأوجلة ، والكفرة ، والجفوب .

وقررنا بعد مداولة الفكر المواد الآتية المتضمنة اتفاق القطر الطرابلسي البرقاوى على الاتحاد والتعاون فى السراء والضراء :

- ١ — يجب أن نوحّد كلمتنا ضدّ عدونا الغاصب لبلادنا وضدّ المفسدين .
- ٢ — يجب أن يكون عدونا واحداً وصديقنا واحداً .
- ٣ — إن كافة ما وقع بين الطرفين من التجاوز لا يطالب به أحد الآخر إلى أن تستقر الحالة فى الوطن ، وتتعين وضعية البلاد العمومية . ومع ذلك يجب أن يسعى الطرفان فى المساحة بين العربان . ومن يتعدى بعد الآن فعلى الحكومة التابع لها أن تعاقبه بما يستحق .
- ٤ — كل من يخالف الجماعة ويدس الدسائس الأجنبية ، على الحكومة المنسوب إليها إعدامه ومصادرة أمواله حسب الشريعة الإسلامية .
- ٥ — يرى الطرفان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضدّ العدو المشترك تقضى بتوحيد الزعامة فى البلاد ، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة .
- ٦ — يتخذ الطرفان الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الغاية المذكورة فى المادة الخامسة وأن تكون تولية الأمير بإرادة الأمة .
- ٧ — متى تحققت الغاية المذكورة فى المادة الخامسة يجب انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد . وقبل ذلك ، وتمهيداً لهذه الأعمال ، يجب على الفريقين أن يرسل كل منهما مندوباً للبلدين لأجل أن يشتركا فى سياسة البلاد والتدابير المقتضاة للدفاع عن الوطن .
- ٨ — يتعهد الطرفان ألا يعترفوا للعدو بسلطة ، وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الأماكن المتمحصن فيها الآن . وفى حالة وقوع حرب يتظافر الفريقان على حرب العدو ، وألا يعقدوا صلحاً أو هدنة إلا بموافقة الفريقين .
- ٩ — إذا خرج العدو من حصونه مهاجماً جهة من الجهات وجب على الجهة الأخرى أن تمد المهاجم بالمهمات الحربية والمسال والرجال ، وأن تنذر العدو بالكف عن التجاوز ،

وإذا لم ينكف تهاجمه هي بدورها .

١٠ — تجتمع هيئة منتخبة من أهالى طرابلس و برقة مرتين فى كل سنة فى شهر المحرم ورجب للنظر فى مصالح البلاد .

١١ — يشترط أن توافق على هذه المعاهدة كل من حكومة برقة والهيئة المركزية فى جهة طرابلس .

١٢ — مهمة الهيئة المذكورة تأييد العلائق الودية بين الطرفين وتأييد هذه الاتفاقية .
قصر سرت فى يوم السبت ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ (٢١ يناير سنة ١٩٢٢) .

ووصلت أخبار هذا المؤتمر إلى الطليان منذ التفكير فيه فخافوا أن يترتب على اتفاق طرابلس و برقة ما لا تحمد عقباه ، ففكر وولبى فى احتلال مصرانة قبل أن يصل العرب إلى نتيجة فى مؤتمر سرت . وكانت أفكار العرب مشغولة بمؤتمر سرت ، وأكثر الجنود يقيمون فى عبد الرؤوف لتغيير الهواء فى فصل الربيع ، ولم يبق فى قصر حمد إلا عسس ، قليل ، فاتهمزها الطليان فرصة ونزلوا فى قصر حمد .

احتلال قصر حمد

٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ (٢٦ يناير سنة ١٩٢٢)

أسباب

إن تغلب الزنتان على البربر أوجد في البلد شعورين متضادين : شعور الألم والحزن لما أورثته هذه الحرب الطاحنة من العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد قد لا تقوى الأيام على محو آثارها السيئة ، ولما أحدثته هذه الحرب من النقص في الأموال والأنفس من الفريقين المتحاربين ، وكلهم أبناء الوطن وعدته يوم الدفاع عنه . . . وشعور الفرح بالنصر والظهور من قصار النظر وصغار العقول الذين لا يقرأون العواقب ، ولا يعلمون ما يترتب على المقدمات من نتائج .

وقد خلق الطليان من بين هذين الشعورين فرصة لبث الفتنة ، فنشطت دعايتهم لاستمالة بعض المتأثرة نفوسهم بهذا الحادث ، فصغت بعض القلوب إلى دعايتهم . وجرى الطليان في هذه الحوادث شوطاً كان له أسوأ الأثر في تأصيل العداوة وحب الانتقام . وكان ضعف الحكومة الإيطالية ، واختلاف الرأي فيها وعدم الاستقرار على خطة في سياستها نحو طرابلس . ومعارضة الاشتراكيين في رومة مشاريع الاستعمار وبذل دماء أبناء رومة وأموالها في هذا السبيل مما يحمل حكومة الطليان دائماً على محاولة الكسب من طريق بث الفتنة وتفريق الكلمة . على أن بث الفتنة هو أساس السياسة الاستعمارية دائماً . ولا أدل على هذا الضعف من أنها بقيت أكثر من اثنى عشرة سنة لم يتجاوز احتلالها السواحل وحماية الأسطول ، يضاف إلى هذا ما أحدثته وفاة رمضان بك السويحلي في صفوف الطرابلسيين من ضعف وماترتب عليها من خلاف في الرأي ، وكانت مصرارة هي منبع القوة ووجهة الأمل في الانتصار على الطليان ، لذلك اتجهت أفكار الطليان إلى احتلالها . وصادف - في هذه الظروف الحرجة - أن عين وولي حاكماً على طرابلس في يولييه سنة ١٩٢١

وهو من أنصار الاستعمار . وأول ما فكر فيه احتلال مصراته . وقد خاطب حكومة رومة في سبتمبر سنة ١٩٢١ بما يعتزمه وطلب منها إمداده بقوة لتنفيذ رغبته فلم توافقه على ذلك . وقد مرت شهوراً كتوبر ونوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢١ في مراجعة الحكومة ولكنها لم توافقه . وأخيراً اعتزم تنفيذ فكرته بالقوة الموجودة في طرابلس . وقد جاء فيما كتبه : « قررنا في السر الاستيلاء على قصر حمد ، وعزمت على القيام بالأعمال الحربية في يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٢٢ . . . ويرجع الفضل في نجاح الحملة إلى سرية التجهيز وشدة التسكّم في المفاجأة حتى أن العرب لم يشعروا بنزول جيشنا إلا بعد ثلاث ساعات من نزوله حتى وجدوا أنفسهم أمام مدافعنا ورشاشاتنا » .

وكانت الحملة مكونة من : ١٥٠٠ بندقية ، وأربعة مدافع جبلية ، و ٣٤ مدفعاً رشاشاً وكان الأسطول مؤلفاً من ١٨ قطعة . وفي فجر يوم الخميس ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ الموافق ٢٦ من يناير سنة ١٩٢٢ رست قطع الأسطول على شاطئ مصراته . وفي الساعة السادسة نزل بعض الجنود الإيطاليين ومعهم مدفع رشاش فاستولوا على المحل الذي كان يقيم به العسس بعد أن أسروه ، ورفعوا الراية الإيطالية على الرصيف ، وأرسل وولبي كتاباً مع أحد العسس إلى حكومة المواطنين يخبرها فيه بأن الحكومة استولت على قصر حمد وقصدها البقاء فيه والتفاهم مع العرب .

وذهب الصرينخ إلى المواطنين فجاء الجند والمجاهدون الأول فالأول إلى قصر حمد وما حانت الساعة العاشرة حتى اشتد إطلاق الرصاص بين العارفين وحى وطيس المعركة . وتوجه الأسطول إلى « بوشعيفة » وأُنزل فيه قسماً من القوة تحت حماية مدافعه . واقتحم العرب المعركة في جراءة كانوا فيها عرضة لنيران العدو ، وتدافع الفريقان مدّاً وجزراً حتى اضطر الطليان إلى التراجع . وكانت ملحمة هائلة استشهد فيها في اليوم الأول نحو ثمانين شهيداً من العرب . وفي يوم ٢٩ منه جاء الطليان بأورطة من المشاة ووحدة من المدفعية الثقيلة لتخفيف ضغط المجاهدين على الجناح الأيسر .

وفي يوم ٤ من فبراير سنة ١٩٢٢ هجمت فصيلة من الأحباش على بيوت دكيران ،

وكان فيها قسم من المجاهدين ، فتواثبوا لهم وتطاعفوا بالخناجر ، واستشهدوا أكثر من في البيوت من المجاهدين وتمكنوا من إجلاء العدو عن البيوت وأرجعوه إلى الساحل ، وقطعوا المواصلات بينه وبين بوشعيفة ، وحاول الأسطول أن يبعد المجاهدين ولكنه لم يفلح رغم شدة إطلاق المدافع ، وأصبح مركز الطليان في « بوشعيفة » مهدداً .

وقد جمعوا قوة كبيرة للقيام بهجوم كبير لتثبيت مراكزهم وتأمين مواصلاتهم وفي ١١ فبراير « يوم السبت » ١٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٠ اشتد إطلاق المدافع من الأسطول وخرجت جيوش الطليان تغطي وجه الأرض جنوبى طريق المواطنين ملتفة إلى اليمين ومعها ثلاث سيارات مصفحة فاستمات المجاهدون في الدفاع ، وأسروا إحدى المصفحات وقتلوا من فيها ، وغنموا منها ثلاثة مدافع رشاشة ونسفوها بالديناميت . وكانت معركة هائلة استمرت خمس ساعات ، واستشهد فيها نحو ٢٦٠ شهيداً ، وتعرف في أيام المعارك الطرابلسية « بيوم السبت » . واستمر القتال ١٧ يوماً - من يوم ٢٦ يناير إلى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ - وبعد هذه المعركة أمكن الطليان أن يتنصروا بالمتاريس ، وأن يثبتوا أقدامهم في قصر حمد ووقف المجاهدون أمامهم بمنعهم من التقدم إلى المواطنين . واستمر هذا الموقف إلى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ حينما تقدم الطليان من الناحية الغربية واحتلوا المواطنين ، وسند كذلك قريباً . وهذا أول هجوم قام به الطليان على الطرابلسيين بعد صلح بنيادم ، وبهذا الهجوم قطع الطليان ذلك الركود الذى خيم عليهم حوالى سنتين ونصف ، وأصبحوا مهاجمين بعد أن كانوا واقفين .

وقد وجد وولجى معارضة شديدة من الاشتراكيين فى استئناف الهجوم على مصراتة لأنهم كانوا لا يريدون الاستيلاء على طرابلس من طريق القوة ، ويرون من العبث بذل الأرواح والأموال فى سبيل الاستيلاء عليها ، وقوبات مساعيه فى روما بمعارضة شديدة ، رغم أنها أثرت فى روح العرب المعنوية تأثيراً شديداً لأنها كانت ضد وعود الطليان لهم ، ونقضاً لشروط صلح بنيادم واعتداء على القانون الأساسى ، ولكنه نجح فى مهمته ، وأمكنه أن يجعل الحكومة أمام الأمر الواقع ، واضطرها إلى الدخول فى الحرب .

و يقول الجنرال جرازيانى : « وقد رأى الإيطاليون فى احتلال مصراتة إرجاعاً لهيبة حكومتهم . . . وأحدث فى العرب نشاطاً حملهم على إعداد أنفسهم للمستقبل » .

وكان احتلال مصراتة بعد أن انتهى مؤتمر سرت من مهمته بخمسة أيام . وبينما كان الوفد فى طريقه إلى مصراتة مروا بـممد حسان فأخبرهم عامل التلفون به أن الطليان احتلوا قصر حمد ، فأرسل أحمد بك السويحلى — وكان حاكم مصراتة إذ ذاك — البريد إلى سرت يأمر القائمقام — الحاج على المنقوش — بأن يرسل فى أثر الوفد البرقاوى يخبرهم بما حصل ، ويطلب إليهم تنفيذ المادة التاسعة من قرار المؤتمر ، فنفذ الحاج على المنقوش الأمر وأرسل فى إثرهم وأخبرهم بما حصل ، وواصل الوفد سيره إلى مصراتة فوجدها تشتعل ناراً . أما الوفد البرقاوى فلم ينفذ شيئاً من قرارات المؤتمر ، وخاض الطرابلسيون الحرب بأنفسهم . وانتشر خبر نزول الطليان فى قصر حمد فى سرعة مدهشة فثارت ظليتين ، ومسلاتة وترهونة . وامتدت الثورة إلى الزاوية فى نحو أسبوع . وفى يوم ٩ فبراير سنة ١٩٢٢ حوصرت العزيزية وكان فيها نحو عشرة آلاف جندى ، وقطعت سكة الحديد بينها وبين طرابلس . وهى إلى الجنوب الغربى من مدينة طرابلس على مسافة ٤٥ كم . وفى يوم ١٩ مارس قطعت سكة حديد زوارة واستولى العرب على الزاوية برياسة فرحات بك ، وكان فيها نحو ألف عسكري إيطالى ، ولكنهم تمكنوا من الهرب تحت جنح الليل وتحصنوا فى الرأس الأحمر ^(١) . وفى أواخر مارس لم يكن يمسد الطليان إلا طرابلس والخمس وزوارة ، وقصر حمد ، ومواصلاتها بطريق البحر .

وكانت جماعات من المجاهدين ترابط فى عدة أماكن تختلف قلة وكثرة بحسب أهمية المكان . فكان يوجد فى جنوبى زوارة ٧٠٠ مسلح منهم ١٠٠ فارس و ١٧٠٠ مسلح حوالى سوانى بنيادم وجنزور منهم ٣٠٠ فارس ، و ١٢٠٠ مسلح فى منطقة بنغشير منهم ١٥٠ فارساً ، وألف مسلح حوالى العزيزية منهم ٢٥٠ فارساً ، و ٤٠٠ مسلح شرق الجينين بين مشاة وخيالة ، و ٣٠٠ مسلح فى ترينة منهم مائة فارس . فيكون مجموع جيش المجاهدين

(١) ربوة عالية شرقى مدينة الزاوية بنحو كيلو متر

حوالى ٤٣٠٠ مسلح في خط يمتد من زوارة إلى ترهونة حوالى ٢٠٠ كم .
والجيش الإيطالى المهاجم يتألف مما يأتى : أربع أرط من الطليان ، و ٤ أرط من المرتفعة
وأرطتان من الأحباش ، و ٤ أرط من الأحباش وغيرهم واسكدرونان من الخيالة و ٣ مجموعات
سبايس ، و ٣ بطاريات مدافع جبلية ، ومجموعة من المهرست ^(١) (راكبي الإبل) . وثمان
مصفحات بمدافع رشاشة . فيكون مجموع جيش الطليان حوالى ١٥ ألفاً و ٥٠٠ جندي وهذا
عند بداية الحرب ، ولكنه ما كادت الهدنة تنتهى بالفشل حتى جمعوا من الجيوش
ما يفوق الثلاثين ألفاً .

مقارنة

وإذا قارنا بين الجيشين وجدنا الفرق بعيداً بينهما ، يضاف إلى الفرق بينهما فى كثرة
العدد الفرق بينهما فى كثرة الأسلحة وأنواعها التى يمتاز بها الجيش الإيطالى : من البنادق
والمدافع الرشاشة ، والمدافع السياره المحمولة على البغال والوريات ، والمدافع الجبلية ،
والطائرات وكثرة المخازن المملوءة بما يلزم لهذه الأسلحة . فى حين أن العرب لا يوجد لديهم
إلا البنادق وقليل من المدافع الرشاشة تعد على الأصابع .

وكانت جيوش الطليان هذه قليلة جداً بالنسبة لجيوشهم فى سنة ١٩١٩ إذ كانت تبلغ
ثمانين ألف جندي بما معها من أنواع الأسلحة الحديثة ، ومع ذلك فقد تمكنوا من التغلب
على المجاهدين فى سنة ١٩٢٢ ، ولم يتمكنوا من التغلب عليهم فى سنة ١٩١٩ حيث أرغموا
على الصلح وعلى الاعتراف بالقانون الأساسى . وهذا يرجع إلى ما طرأ على الطرابلسيين من
اختلاف فى رأى وتفرق فى الكلمة لسبب : أولاً : خلوميدان الجهاد من رمضان بك
السويحلى لأنه كان قوة هائلة فى رأيه ، وفى حزمه وإدارته . ثانياً : ما أحدثه عبدالنبي بن خير
من انشقاق عن الجماعة ثم انحيازه إلى الطليان . ثالثاً : ما أحدثته الحرب بين الزنتان والبربر من
نقص فى الرجال وتفرق فى الكلمة . رابعاً انفصال البربر عن العرب وهم كثرة لا يستهان بها .

(١) عدد أفراد الأربعة نحو ألف ، وعدد أفراد الاسكدرتون نحو ٣٠٠ . والمجموعة يختلف عددها
قلة وكثرة . ويلزم للبطارية الجبلية نحو ٢٠٠ جندي . والسبايس : الجندرمة .

كل هذا أحدث نقصاً في صفوف العرب وضعفاً من الناحيتين المادية والمعنوية ، مما سهل على الطليان التغلب عليهم بقوة أقل بكثير من قوة سنة ١٩١٩ .

خدعة

وقد رأى الطليان أن يخدعوا العرب من طريق الهدنة ليكسبوا الوقت الكافي لإتمام استعدادهم ، لأن وولي كان مصرّاً على أحد أمرين : إما تسليم العرب بلا قيد ولا شرط ، وإما الحرب . وتنفيذاً لهذه الخدعة أرسلوا الأستاذ عثمان القيزاني ، والأستاذ مارتينو إلى مصراتة للدخول في المفاوضات . وقد أخبرت الطائرات بقدميهما فأخيت لهم الطريق من قصر حمد إلى المواطنين ، وانفقوا مع حكومة مصراتة على وقف الحرب مدة شهر ، وأن المفاوضات ستكون في فندق الشريف ، ورجع مارتينو إلى الباخرة حيث أقبلته إلى طرابلس وأبلغ حكومته ذلك ، وبقي الأستاذ القيزاني مع المجاهدين وابتدأت الهدنة في أوائل رجب سنة ١٣٤٠ (٣ مارس ١٩٢٢) .

مفاوضات فندق الشريف

ابتدأت المفاوضات في فندق الشريف في مارس سنة ١٩٢٢ ، وقد حضرها أحمد بك السويحلي ، وأحمد بك المريض ، وفرحات بك الزاوي ، وعزام بك ، والصويحبي الخيتوني ، والصادق بك بن الحاج ، وحسين أفندي بن جابر ، ومختار بك كعبار ، وعمر بودبوس والأستاذ عثمان القيزاني ، وخالد بك القرقي ، والحاج محمد بن عمر ، وعبد السلام الجدامي والحاج سالم البخباح وغيرهم من الأعيان ، وكانوا يتداولون الرأي فيما يعرضه الطليان من حلول ، وفيما يعرضونه عليهم منها ، ويبلغها بعضهم إلى الهيئة الإيطالية المفاوضة . أما الشيخ سوف فلم يكن من المفاوضين ولكنه كان يعد نفسه لما تسفر عنه المفاوضات .

وأنايب الطليان عنهم في المفاوضات « بيلاً » أحد أعيان الطليان وتجارهم ، ووكيل الوالي ومعهما ضابطان . وابتدأت المفاوضات ، واستعرضت المسألة الطرابلسية بمذافيرها ، وما أظهره الطليان من مراوغة في تنفيذ شروط صلح بنيادم ، والتدخل في شئون العرب فيما كفله لهم

القانون الأساسي . وقد تظاهر الطليان باستعدادهم لحسن النية في المستقبل ، وطلبوا فك الحصار عن الجيش المحاصر في العريزية فلم يوافق الطرابلسيون على ذلك وأجّلوا هذا الطلب إلى آخر المفاوضات . وكان مما عرضه الطليان عدم التعرض لشئون برقة وحصص المفاوضات فيما يتعلق بطرابلس ، ولكن هيئة الإصلاح لم توافق على ذلك ، وأبدت رغبتها في حل المشكلة بتوحيد الزعامة بين برقة وطرابلس . وقد مهدت لهذه الرغبة في مؤتمر سرت بين الطرابلسيين والبرقاويين ، ولم يقبل الطليان هذا الحل ، وبعد محاولات رضوا بزعامة تمثل طرابلس فقط ، على أن يكون لكل من طرابلس وبرقة إدارة مستقلة عن الأخرى .

وكان الطليان — أثناء المفاوضات — يعدون أنفسهم للحرب فيما إذا فشلت المفاوضات وقد أدرك الطرابلسيون منهم ذلك فكانوا حريصين على تقوية جانبهم بما يمكن ، وكانت الموائيق التي أخذوها على أهل برقة في مؤتمر سرت مشجعا لهم على التشدد في المفاوضات مع الطليان ثقة بوفائهم وإخلاصهم لما عاهدوا عليه . وقد مر على اتفاق سرت أكثر من شهرين ولم يظهر له أي أثر من ناحية برقة . وكان يجب كذلك أن يكون لتقاعس أهل برقة اعتباره فيما يعلق عليهم من آمال .

وتمسك الطرابلسيون بوجهة نظرهم في وحدة برقة وطرابلس وحاولوا إقناع الطليان بذلك ، وأن يخففوا من وطأتها على عقولهم ، وأفهموهم أن توحيد البلدين بالنسبة المصالح الإيطالية لا يفتقر في شيء عن انفراد كل واحدة منهما . ولكن الطليان أصروا على عدم القبول بتاتا . وقابل العرب هذا الإصرار بمثله وقرروا تمسكهم بطلب توحيد الزعامة . وتوترت العلاقات بين الفريقين ، وفي أثناء هذا التوتر سافر الوالي وولبي إلى روما لمشاورة حكومتها ، وجاء يحمل تعليمات منها بأنه لا يمكن الاتفاق مع العرب على أي شيء إلا إذا استولت الجيوش الإيطالية على جميع البلاد ورجعت إلى مراكزها في فزان ، وعند ذلك يتقدم العرب إلى الحكومة بمطالبهم لتنظر فيها ، وعلى أثر إبلاغ هذه التعليمات للعرب أوقفت المفاوضات .

ولما اتضح للعرب أن الطليان اعتزموا الحرب ، وأنهم لا ينفون استئناف المفاوضات

كتبوا تقريراً بوجهة نظرهم في أسباب هذه المفاوضات وما كان يقصد منها وأرسلوه إلى وولبي حاكم طرابلس فكان الصخرة التي تسكسر عليها كل أمل في تجنب الحرب . وهذا نص التقرير :

« باندفاع أسلافكم مع تيمار الفتنة والتفريق حدث في البلاد اضطرابات وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج ، فاضطرت الأمة إلى عقد مؤتمر في غريان وأبلغت مقرراته الصائبة إلى الحكومة . وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه إلا الإعراض والاستخفاف بمهمته مع استمرارها في خطة المراوغة والتفريق . ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرّة على تلك السياسة الممقوتة ، وتحقق أهل القطرين طرابلس وبرقة ، أن حياتهما محفوفة بالخطر في الحال والاستقبال ، وأن مادهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما وأن إدارتهما إلى عهد الاحتلال واحدة . عندئذ تبادل عقلاء القطرين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الإخاء ، ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية في سبيل الحالة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسي . فقرر الفريقان بالإجماع في سرت اتفاقية من جملة نصوصها المطالبة بتوحيد إدارة القطرين ، وهو الحل النهائي الذي لا يبقى ريباً لهذه القضية المعضلة التي لا تريدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الأمد إلا تحكيماً في عقد الخلاف ، فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها ، فضلاً عما تصاب به الأمتان من الخسائر وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى .

أما نحن أهل القطرين فإن الأدوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا إلى حل هذه المشكلة حالا لحظنا فيه المنافع الإيطالية : سياسية كانت أو اقتصادية ، وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الأمة وتكون له السلطات الإدارية جميعها مع السلطة الدينية . ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد إن تجردت عن ملاحظة الأشكال والاعتبارات ، ووجهت نظرها إلى الحقائق والجوهريات .

كنا قررنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة علمنا خلالها أن سفركم إلى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحيية واسعة تخول لكم المفاوضة للحصول على ما يرفع الخلاف الذى لا تتحمل البلاد دوامه . ورعاية لأحكام اتفاق سرت المذكور فإننا فى انتظار مندوبى برقة الذين قرب وصولهم لإشعار سمو الأمير السيد محمد إدريس ، ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التى لا نشك أنها ستبنى على أساس الإخلاص وحسن النية . والأمل وطيد فى أن دولتكم ستضمون إلى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر فى حل المشكلات .

ولما وصل هذا القرار إلى الوالى الإيطالى فى طرابلس رفض كل ما جاء فيه ، وانقطعت المفاوضات يوم ١٠ ابريل سنة ١٩٢٢ واستعد كل من الطرفين لما يتمخض عنه المستقبل . وكان من أقوى الأسباب التى حملت وولبى على التشدد مع العرب ورفض مطالبهم أن الفاشستية أخذت تغفل فى إيطاليا وقوى حزبها ، وأصبحت وشيكة أن تستولى على مقدرات إيطاليا .

ولمناسبة ذكر الفاشستية نذكر كلمة عن مبادئها نقلاً عن الأمير شكيب من تعليقه على حاضِر العالم الإسلامى .

الفاشستية

من مبادئ الفاشست السامية الوصول إلى أغراضهم بكل وسيلة ولا يجدون فى نفوسهم غضاظة إذا كانت أعمالهم مخالفة للانسانية أو للحقوق العامة متى كان فيها مصلحة لهم أو لوطنهم . ولا ينجلهم أن يعلنوا فى صراحة بأنهم لا يعرفون الحرية ، ولا يقصدون الحقوق العامة ، ولا يحترمون العهود متى كان ذلك ضرورياً لمصلحة إيطاليا . ويقول الأمير شكيب فى هذا المعنى : « لموسوليني خطب كثيرة وكتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون إشكال ، فلماذا لم يبق فى إيطاليا لا حرية قول ، ولا حرية كتابة ، وكل شيء يصادم إرادة الفاشست فهو ممنوع » مهما كان مصدره .

ولا ينكر أحد أنهم من أنصار الكاثوليكية المخلصين ، ولكن لما أراد البابا أن يشكل جمعيات كاثوليكية عارضوه وقفوا أبوابها خوفاً من أن توجد أحزاب تعارض الفاشستية ، وقد مزقوا صورة البابا في الشوارع وداسوها بالنعال ، لا كراهة في الكتلثة والبابا . ولكن تعصباً لمبدئهم ، وخوفاً من ظهور المناوئ لهم ولو كان البابا نفسه أو من ينتمي إلى البابا . وإذا كانت الفاشستية تظهر في إيطاليا بهذا المظهر فظهورها في طرابلس أقسى وأشد .

ومن المعروف عن الدول الأوربية أنها تحافظ في بلادها على مبدأ الإنصاف واحترام الحقوق إلى أبعد حد ممكن ، وعلى نقيض هذا تعامل العرب والمسلمين في بلادهم . ويكاد الإنسان لا يستثنى واحدة من الدول الأوربية من هذا المقياس . فهذه الجزائر ، وتونس ، وهذه طرابلس وفلسطين . بل وهذه مصر أيضاً فقد دهمتها هذه العاصفة الأوربية الهوجاء في عدة مناسبات ومنها دنشواى وحوادث قبلها وبعدها مما شاهدناه ولسناه . فإذا ارتكب الإيطاليون ما ارتكبهوه في طرابلس في تلك القسوة القاسية فإنما هي شئنة عرفناها من الأوربيين ، وخلق من أخلاقهم درسناه عن كذب لا يمارى فيه إلا من لم يعرف نفسه .

وقد أرتنا الحرب الطرابلسية من أخلاق الأوربيين ما كان العقل البشرى لا يتصور وجوده في بنى الإنسان . وقد أراد الله أن يكون ظهور هذا الجنون في الانتقام من بنى الإنسان على يد موسولينى وقومه من أبناء رومة ليهيئهم لهذه العاقبة السوأى التى ذاقوا فيها وبال أمرهم ، وقد أخذهم الله من الطريق الذى أخذوا به الناس وكانت عاقبة أمرهم خسرأ .

حقيقة

كانت هيئة الإصلاح المركزية تعلم علم اليقين ما سيعترب على تمسكها بتوحيد الرئاسة في برقة وطرابلس من تشدد الظليان في معارضة هذه الفكرة . ولكنها لم تقدم عليها إلا بعد أن أذن السيد إدريس لأعيان برقة بحضور مؤتمر سرت ، وبعد أن اتفق مؤتمر سرت

على التعاون الوثيق بين الطرفين وخوض الحرب جنباً إلى جنب سواء في برقة وطرابلس ومؤتمر غريان حينما قرر انتخاب حاكم مسلم لم يكن في نيته تحقيق هذا المعنى في شخص السيد إدريس ، وإنما ينتظر لانتخابه الظروف المناسبة .

وحينما أثبتت مسألة الإمارة في مفاوضات فندق الشريف كانت محل جدل شديد ونقاش حاد . وكان من أشد المعارضين فيها محمد فرحات بك الزاوي . ومختار بك كعبار ، وخالد بك القرقني ، لأن معاهدات السيد إدريس مع الطليان في سنتي ١٩١٧ و ١٩٢٠ بدون أن يشرك معه الطرابلسيين أو يستشيرهم في شيء دلت على أنه يريد الانفصال عن طرابلس ، وقد وثق الطليان من هذا ، فالتمسك بإمارة السيد إدريس يعرض المفاوضات للخطر . وهذا المعنى لا ينكره الفريق الذي يتمسك بها .

ولكن الظروف التي أحاطت بالطرابلسيين بعد مؤتمر سرت هي التي جعلت إسماعيل الإمارة إلى السيد إدريس ضرورة لا مناص منها . وقد سهل على هيئة الإصلاح ارتكاب هذه الضرورة ما وافق عليه وفد برقة في مؤتمر سرت ونص عليه في المعاهدة بأنه إذا هاجم العدو جهة فعلى الجهة الأخرى أن تمدّها بالمال والرجال . ويعلم الله أن التباطؤ في تنفيذ معاهدة سرت وعدم إرسال النجدة من برقة إلى طرابلس هو الذي خيب الأمل ومكن الطليان من الاستيلاء على طرابلس وبرقة . وكان بين نزول الطليان في مصراتة وقطع المفاوضات شهران ونصف لم ينفذ فيها أهل برقة شيئاً من قرارات مؤتمر سرت . وهو وقت يكفي لإرسال النجدة من برقة إلى طرابلس لو كان السيد إدريس يجمع ذلك ، كما أنه وقت يكفي لتعديل رأى الهيئة في معاهدة سرت حينما رأت هذا التأخير ، ولكن الأثرية مضت في رأيها وقررت الإمارة ، وبناء على ما قرره الأثرية وقع ما خافته الأقلية .

وفي أثناء مفاوضات فندق الشريف كان الطليان يعدون أنفسهم للحرب . وكان جرازاني يريد أن يؤلف جيشاً وظيفياً برياسة أحد الطرابلسيين فلم يجد من ينفذ له هذه الفكرة إلا يوسف خريش ، فقد حضر إلى زوارة يوم ٧ إبريل سنة ١٩٢٢ وأخذ في جمع

الحاربين . ولم يأت عليه يوم ١٥ منه حتى تمكن من جمع ألف محارب . ويتضح من هذا التاريخ أن الطليان كانوا يتهيأون للحرب والمفاوضات جارية .

إعلان الحرب

انقطعت مفاوضات فندق الشريف في ١٠ إبريل سنة ١٩٢٢ وأول رصاصة أطلقت لاستئناف الحرب كانت في الزاوية يوم الجمعة ١٥ من شعبان سنة ١٣٤٠ . وضيق مجاهدو الزاوية الخناق على الطليان في الرأس الأحمر ونصر بن ربوح . وكان الأسطول الإيطالي يقذف حممه على الزاوية قذفاً لا هوادة فيه ، فكانت قنابله تهدد البيوت وتحصد النخل والزيتون ، وتعلأ الفضاء بما ينفجر منها من رصاص وشظايا . وقد بقيت المعركة في الزاوية بين مد وجزر نحو عشرة أيام . وأحس الطليان بشدة المقاومة لأنهم كانوا يهاجمون العرب وجهاً لوجه من الرأس الأحمر ونصر بن ربوح . ورأت قيادتهم أن تقوم بهجوم من الجهة الغربية ليكون الهجوم مزدوجاً .

والزاوية بطبيعة موقعها الجغرافي تقع بين مدينة طرابلس وزوارة . وكانت نقطة ارتكاز الهجوم الأولى طرابلس ومنها كان يأتي المدد للجيش الموجود في الرأس الأحمر ونصر بن ربوح^(١) ، فأحبوا أن يقوموا بهجوم ثان تكون نقطة ارتكازه زوارة . فجمعوا جيشاً يشتمل على نحو اثني عشر ألف جندي من بعض المرتزقة والأحباش والطليان الحمر ، وساروا به إلى الزاوية ليضر بوها من الخلف .

وخرج هذا الجيش من زوارة في ٢٢ إبريل سنة ١٩٢٢ ومعه خريش ومرترقة بقيادة جرازاني قاصداً نحو الزاوية فوصلت طلائعه إلى صرمان يوم ٢٣ منه . وفي هذا اليوم تقدم الجيش الذي كان معسكراً بالرأس الأحمر ونصر بن ربوح واحتل الحارة^(٢) ، وتقهقر المجاهدون إلى بساتين شلابي فعسكروا فيها .

(١) اسم ولي مدفون فوق ربوة عالية شمال الزاوية تشرف على البحر .

(٢) القسم الذي يسكنه اليهود بالزاوية يسمى الحارة ، أو حارة اليهود .

وكان عبدة المحجوبى من الرجال البارزين فى صرمان ، وكان مشهوراً بملاينة الطليان وإذا ابتعدوا عنه ظهر بمظهر الحايد الذى لا يعمل مع الطليان ولا مع العرب . ووقوفه موقف الحايد هو عمل فى مصلحة الطليان ولا شك ، لأن عدم مشاركته فى الأعمال الوطنية هو ومن ينضم إليه فى رأيه إضعاف لها ، ويد يقدمها للطليان وقت أن يقتربوا منه يستشفع بها لديهم ومثل هذه المواقف المريبة سجنه إسحاق باشا وأراد أن يقتله ، فأخرجه البارونى من السجن ونجا إلى مصراته . وقد اتصل الطليان بعبدة فى صرمان وأرادوا أن يحتالوا به على أهل الزاوية ليأخذوهم على غرة ففعل .

واقعة الزاوية

فى غرة رمضان سنة ١٣٤٠ (٢٤ و ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٢)

كانت الزاوية فى الدرجة الأولى من الأهمية عند الطليان للتمكن من إتمام احتلال طرابلس . وهى تقع غربى مدينة طرابلس بـ ٤٣ كم . وقد دلت التجارب على أن الذى يملك الزاوية من أحد المتحاربين هو الذى يسيطر على الموقف . وعلم الطليان هذه الحقيقة فحاولوا احتلالها فى عدة مناسبات . من الغرب تارة . ومن الشرق أخرى ، ومن الشرق والغرب كذلك ، وذلك لوقوعها فى الوسط بين العاصمة وبين أقرب مدينة إلى الحدود الغربية وهى زوارة ، وتتصل كذلك من الجنوب بغيران ، ومن الجنوب الشرقى بالعزيرية ، فالذى يستولى عليها يمكنه مهاجمة هذه الأماكن إن كانت محاربة ، ومدّها بالقوة اللازمة إن كانت تابعة له ، لذلك كان كل من الفريقين المتحاربين حريصاً على الاستيلاء عليها مهما كلفه ذلك من ثمن .

ولما وصل جيش زوارة إلى صرمان يوم ٢٣ منه دبر جرازيانى مكيدة بالاشتراك مع عبدة المحجوبى لأخذ أهل الزاوية على غرة فأرسل عبدة إلى محمد بك شلابى يطلبه للمذاكرة معه فيما يجب عمله ، ليصرف الناس عن التفكير فى احتمال خروج الطليان من زوارة . وكان محمد بك شلابى ومن معه لا يعلمون شيئاً عن خروج الطليان من زوارة ، وقد جاء رسول عبدة إلى محمد بك شلابى ليلة ٢٤ منه وأبلغه الرسالة فركب شلابى فى أربعين فارساً وتوجه

إلى صرمان يوم ٢٤ منه لمقابلة عبيدة . ولما وصلوا بلدة « بوعيسى » التقوا بطلائع جيش الطليان ، وإذا به جيش عرمرم يملأ ما بين البحر « وحسنى الحمرة » فتصدى الفرسان الذين مع شلابي لمسكافته ، وأرسلوا نذيراً لمن وراءهم في الزاوية بالتأهب للقتال . وفي هذا اليوم اتصلت ميسرة هذا الجيش بميمنة الجيش الذي احتل الحارة في اليوم الذي قبله ، وكون الجيشان شكل هلال أحاط بالمجاهدين من الغرب والشمال والشرق ، واشتد وطيس المعركة جنوبى الحرشا في الرملة ، ودامت المعركة إلى ما بعد الظهر استشهد فيها نحو مائة مجاهد من الزاوية منهم الشيخ محمد الشيباني من أولاد صقر^(١) . والشيخ محمد خماج البلعزى^(٢) . وكانت الغلبة للسكرتة ، وانسحب من بقى من المجاهدين إلى الجنوب . وفي يوم ٢٥ منه تم الاستيلاء على الزاوية . وهذه آخر معركة وقعت في الزاوية في الحرب الطرابلسية .

بعد احتلال الزاوية

اجتمعت الجيوش الإيطالية في الزاوية ، وما زال أمامها التغلب على المجاهدين في جنزور وسوانى البيابضة وفندق ابن عشير ، وعلى المجاهدين الذين يحاصرون العزيزية ، فتوجه قسم من الزاوية إلى بئر الغنم وحصلت معركة بينه وبين المجاهدين برياسة طاهر أفندى شلابي وخالد بك القرقي ، وجرح فيها طاهر أفندى شلابي ، ثم انحدر إلى الشمال الشرقى ليهاجم المجاهدين الذين يحاصرون العزيزية من الجنوب . وتوجه قسم منها إلى العزيزية رأساً ليهاجم الذين يحاصرونها من الشمال . وخرج جيش آخر من سيدى بلال ليهاجم المجاهدين في جنزور ، وسوانى البيابضة وسوانى بنيادم . وفي يوم ٢٩ من إبريل ابتدأت هذه الجيوش الهجوم على المجاهدين في وقت واحد فلم يقووا على الثبات أمامها . وفي يوم ٣٠ منه تم فك الحصار عن العزيزية بعد معارك شديدة ، وانسحب المجاهدون إلى الجنوب

(١) مشهور بالبريطاجي .

(٢) من قبيلة أولاد الواعر ، من بلاعزة الزاوية ، أولاد عيسى .

ناحية بئر السايح ، وعسكروا في بوعرقوب وحوش الصويحي وحواليهما . وتم تمكن
الطلليان من العزيزية وجنزور والزاوية وصرمان . وبهذا أمنوا طرق مواصلاتهم البرية
بين طرابلس وزوارة . وأخذوا يستعدون لاحتلال غريان حيث مقر الحكومة الوطنية
(هيئة الإصلاح المركزية) .



صورة الأستاذ عبد الرحمن بك عزام وهو على جواده حينما كان مع هيئة الإصلاح المركزية في غريان

وفد الدعوة

وفي أثناء ما كانت الحرب في الزاوية رأت هيئة الإصلاح المركزية أن توفد وفداً إلى السيد إدريس السنوسي في برقة لتدعوه إلى الحضور إلى طرابلس لتبايعه بالإمارة تنفيذاً لما قررت في فندق الشريف ، وسمى هذا الوفد وفد الدعوة ، وهو يتألف من الشيخ محمود المسلاتي ، والشيخ الطاهر الزاوي ، والشيخ محمد بن حسن ، واجتمع الوفد في مصراتة . وقبل أن تغادرها جاءتنا الأخبار بسقوط الزاوية في يد العدو .

وقبل سفرنا منها وصل إليها الشيخ عبد العزيز العيساوي ، موفداً من قبل السيد إدريس ليمثل حكومة أجدابية لدى هيئة الإصلاح المركزية حسب شروط معاهدة سرت في تبادل التمثيل بين حكومة طرابلس وحكومة أجدابية . وكان من رأيه أن السيد إدريس لا يحجى إلى مصراتة ولا يقوم بأي عمل حربي قبل أن يبايع بالإمارة . وقد صرح بهذا حكومة مصراتة وأكده لها ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش الطليان تتوغل في طرابلس والجاهدون يعانون من ضغط الطليان الأمرين . وكان من رأيه أن الوفد لا يذهب إلى أجدابية إلا ومعه البيعة . وبما أن هيئة الإصلاح قررت سفره ، وكان على أهبة السفر فلم ير هذا الرأي ، وسافر ليطلع بنفسه على حقيقة الأمر . وقد تحقق رأى الشيخ عبد العزيز العيساوي ، واعتذر السيد إدريس عن إجابة الدعوة ، مما يدل على أن ما أخبر به الشيخ عبد العزيز كان متفقاً عليه .

وتوجهنا من مصراتة في أواسط رمضان سنة ١٩٤٠ يونيه سنة ١٩٢٢ ووصلنا إلى أجدابية — وهي المكان الذي يقيم فيه السيد إدريس إذ ذاك — في شوال سنة ١٣٤٠ وخصص منزل السيد محمد الهوني لنزول الوفد . ودعى الوفد بعد ثلاثة أيام لمقابلة السيد إدريس ، وأبلغه الوفد مهمته التي جاء من أجلها ، فاعتذر عن الذهاب إلى طرابلس بشدة الحر وانحراف صحته ، ووعد بالسفر عند ما تخف شدة الحر وتحسن صحته .

ولما وصل الوفد إلى أجداية كانت صلة السيد إدريس بالطليان ما تزال حسنة . فصلته بالطرابلسيين ، ومجىء الوفد لدعوته إلى طرابلس لمبايعته بالإمارة بعد أن رفض الطليان الاعتراف بها في مفاوضات فندق الشريف قد يكون لها أسوأ الأثر على صلته بالطليان ، وهو اتصال — لاشك — على غيرهم رغبتهم لأن فكرة اتحاد طرابلس و برقة هي التي كانت سبباً في قطع مفاوضات فندق الشريف ومن أجلها أعلن الطليان الحرب على الطرابلسيين .

وقد قام الطليان وقعدوا لوجود الوفد في أجداية ، وأحس السيد إدريس بمخرج مركزه ، فليس من الهين عليه أن يغضب الطليان ، فر بما أعلنوا عليه الحرب فكانت المصيبة أكبر ، ولا هو قادر على إغضاب الطرابلسيين لأن مؤتمر سرت أيد الصلة بينهم وبين البرقاويين فأغضابهم قد يكون فيه إغضاب البرقاويين ، فلم يكن أمامه مندوحة للخروج من هذا المأزق إلا أن يعتذر بالمرض ويسافر إلى مصر للتداوى .

وفي أثناء بقاء الوفد في أجداية جاء مشايخ القبائل وفي مقدمتهم :

الشيخ عبدالسلام السكره	من العواقر
» صالح الأطيوش	» المغاربة
» محمد بوشديق	» البراعصة
» الفضيل الممشش	» المرابطين
» قطيط الحاسي	» الحاسنة
» محمود بولطيف	» العبيدات

للسلام ومناقشتنا في عدم اتياننا ببيعة الامارة للسيد إدريس . وكان من كلامنا لهم أنهم لم يفوا بما جاء بمعااهدة سرت فيجب الوفاء بها قبل كل شئ وجدت إمارة أو لم توجد . أما البيعة فلم نعط بها عهداً إلى الآن . ورغمما على هذا فإن الحكومة الطرابلسية اعتزمتها إلا أنها تريد أن تكون في طرابلس حيث يشترك فيها أكبر عدد ممكن من الأعيان وأهل

الرأى . وإن أكبر دليل على اعتزامها مبايعة السيد إدريس بالإمارة هو تمسكها بتوحيد الزعامة للقطرين في مفاوضات فندق الشريف . وكان تمسكها بهذه الفكرة سبباً في قطع المفاوضات واستئناف الحرب . ولم نجد عندهم أى فكرة لإعلان الحرب وفاء بمعاهدة سرت وكان ما صرح به عبد العزيز العيساوى للوفد في مصراته هو محور الجدل بيننا وبينهم . وبعد أن قابل الوفد في أجداية بأيام قلائل غادرها بدعوى مقابلته وزير المستعمرات الإيطالى لهذا كرهة معه في مصلحة البلاد . وكانت هذه للمقابلة محوطة بشئ من الغموض لوقوعها بعد مجيء الوفد مباشرة .

ويظهر أن تمسك الحكومة الطرابلسية في مفاوضات فندق الشريف بإمارة السيد إدريس الذى كان على خلاف رغبة الطليان ، ومجئ الوفد إلى أجداية لدعوة السيد إدريس للبيعة حمل الطليان على استطلاع رأى السيد إدريس في هذا الموضوع . ومن أجله حصلت هذه المقابلة للتأكد مما اعتزمه السيد إدريس .

ولما ذهب السيد إدريس لمقابلة وزير المستعمرات أناب عنه أخاه الرضا في أجداية . وفى الليلة التى تلى يوم سفره دعى الوفد إلى محل الرضا وكان موجوداً معه صفى الدين ، فتكلم صفى الدين بالنيابة عن الرضا ، وأبلغ الوفد : إن السيد إدريس ذهب لمقابلة وزير المستعمرات الإيطالية للتكلم معه في مصلحة البلاد ، ونظراً لما بينه وبين الطليان من الاتفاق ووجود الوفد في أجداية قد يؤثر على هذا الاتفاق ، فهو يرجو الوفد أن « يقحز » إلى الطيبيل ^(١) .

وكان هذا الخبر نذيراً بالخطية ، ولم يقتصر الأمر على انتقال الوفد ، بل انتقل معه مندوب حكومة طرابلس الأستاذ بشير السعداوى . وفى الوقت الذى يطرد فيه مندوب الحكومة الطرابلسية من أجداية إبقاء على صلة سياسة الطليان كان مندوب حكومة أجداية الشيخ عبد العزيز العيساوى يقيم مع هيئة الإصلاح فى غريان معززاً مكرماً . وقد شعر الوفد

(١) مكان شرق أجداية على مسافة ساعتين لاشئ فيه إلا الرمال تدروها الرياح وحر الشمس اللافتح ومعنى « يقحز » ينتقل مسافة قليلة .

من حديثه مع الرضا بمقدمات خيبة الأمل ، ولكنه انتظر حتى تنتهى مقابلة السيد إدريس للوزير ليرى ماذا يتم .

وبعد بقاء الوفد في الطيبيل نحو ١٥ يوما جاءه كتاب من السيد إدريس مع الشيخ صالح الأطيوش هذا نصه ^(١) .

« تحريراً في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٤٠ » .

من خادم الملة الإسلامية محمد إدريس المهدي السنوسي .

حضرات ذوى الفضيلة الشيخ الطاهر أفندي ، والشيخ محمد بن حسن أفندي والشيخ محمود أفندي المسلاتى حفظهم الله ورعاهم آمين .
أهديكم سلاماً عاطراً واحتراماً فاخراً .

إننى قد اجتمعت بسعادة الوزير وتذاكرنا في المسألة الطرابلسية وكان مفاد المذاكرة هو أنه لا يمكنهم توقيف الحرب إلا بعد أن أهل طرابلس يخبروا الحكومة هناك بأنهم أوقفوا الحرب ومستعدون لحسن التفاهم مع الحكومة فينبذ الحكومة مستعدة لتوقيف الحرب من جهتها . وسعادته قال : هذا كل ما يمكنه عمله من حسن التفاهم مستعد له .

فمن حيث المسألة هكذا وتسيطر فصل الحر مع عدم مساعدة صحتي للسفر أظن أن سفرى للقطر الطرابلسى سيتأخر بالرغم عن إرادتى لغاية فتور الحر وتقدم الصحة قليلا ، ولعل أن يصادف توقيف الحرب في تلك الأصقاع لأنه مما يسهل علينا السفر .

بناء عليه يمكن لفضيلاتكم التوجه للهيئة وإعلامها بالأسباب جلية . وفي الختام تفضلوا بقبول إهداء تحياتى .

ختم

محمد إدريس بن السيد المهدي

رجوع وفد الدعوة

وبعد أن تسلم الوفد هذا الكتاب لم ير لبقائه من فائدة فسافر من الطيبيل في أواخر

(١) لم تغير شيئاً من ألفاظ الكتاب محافظة على نصه .

ذى القعدة سنة ١٣٤٠ (أغسطس سنة ١٩٢٢) ووصل إلى مصراتة في ذى الحجة . وواصل سيره إلى غريان حيث مقر هيئة الإصلاح فوصلها غرة المحرم سنة ١٣٤١ (أكتوبر سنة ١٩٢٢) . وأبلغ الهيئة ما دار بينه وبين السيد إدريس من الحديث ، وأطلعها على كتابه الذى ذكرنا نصه آنفاً . وقد عملت الهيئة بما نسبته السيد إدريس إلى وزير المستعمرات من طلب وقف الحرب ، وأرسلت إلى الوالى الإيطالى فى طرابلس تخبره بأنها قررت وقف الحرب بناء على اقتراح وزير المستعمرات على السيد إدريس السنوسى . وقد أهل الطليان هذا الكتاب ، ولم يحظ منهم حتى بالرد فضلاً عن العمل بما جاء فيه ، بل ما زادهم إلا اشتداداً فى الحرب ، وكانت بشائر النصر تلوح لهم . وكانت الحرب دخلت فى شهرها الخامس بعد انتهاء الهدنة ، وتم للطليان احتلال السواحل من زوارة إلى طرابلس وخرجوا إلى الجبل ، وظهر على الحالة العامة فتور لا شك أنه بداية النهاية .

كل هذا والطرابلسيون مازال عندهم بقية من أمل فى وفاء البرقاويين بما عاهدوا عليه فى معاهدة سرت . وهم إلى هذا الوقت لم يرسلوا معونة إلى الطرابلسيين لا من الرجال ولا من الأرزاق ، ولم يملنوا الحرب على الطليان . وليس هذا فقط ، بل إن السيد إدريس مازال محافظاً على علاقته بالطليان كما صرح به صفى الدين بالنيابة عن وكيله فى أجداية . وقد رأت الهيئة ألا تبقى عذراً للسيد إدريس فقررت بيعته بالفعل وانتخبت وفداً لحل كتاب البيعة إليه ، مكوّناً من الأستاذ عبد الرحمن بك عزام ، والصادق بك بن الحاج القره مانلى ، وسافر الوفد من غريان فى صفر سنة ١٣٤١ (نوفمبر سنة ١٩٢٢) ووصل إلى أجداية فى ربيع الأول من هذه السنة وقدم إلى السيد إدريس كتاب البيعة وهذا نصه :

نص كتاب البيعة

« إلى سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه تحية تليق بالمقام الرفيع والجناب الأسنى المنيع . وبعد فإنه غير خاف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائماً بيننا وبين الحكومة الإيطالية . وذلك لأنها وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعياً

وسياستها وإداريتها . وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية ، ونحن خير أمة أخرجت للناس لا نتحمل ضيماً ، ولا نرضى أن تضمحل شريعتنا ، ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كأننا ما كان ، الأمر الذي حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب المتوالية ، معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيته القومية ألا وهي تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع مجلس نيابي ينتخب الأمة أعضائه ، وبهذا يسلم وطننا ويتم أمر ديننا وتصلح أحكام قضائنا ، ويحفظ شرعنا وعقيدتنا التاريخية الباهرة . وهذا لا ينافي ما تدعيه إيطاليا وما دأبت عليه في خطب رجالها من أنها لم تحتل ديارنا بنية الاستعمار ، وإنما ساقتها دواعي السياسة الدولية في البحر المتوسط . ولو كانت صادقة في دعواها هذه لما عرضت بلادنا للخراب بتوالي المهاجمات واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى . وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مخنفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفوا حول أمير واحد يرضيانه .

وحيث كان سموكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجمع في ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن « هيئة الإصلاح المركزية » الحائزة للوكالة المطلقة من « مؤتمر غريان » الذي يمثل الأمة الطرابلسية بانتخاب واقع منها قد وجدت في سموكم أميراً حازماً قادراً على جمع الأمة حائزاً للثقة العامة محبوباً ، فهي لذلك تباع سموكم أميراً للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوّه عنها . على أن مبايعتكم كانت مضرة في كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبي القطرين في « سرت » وكان السبب في تأخير تحقيقها تلك طوارئ التي طوحت بكل واحد من أعضاء الهيئة ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية .

وبهذه المبايعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين . ومتى سفتح الفرصة عند تشريفكم إيانا ، حسب رغبة الأمة ، تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم .

والله سبحانه وتعالى يمدكم بروح من عنده ، ويجعل البركة في البيت السنوسى المؤسس على التقوى والصلاح » :
(فى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٠)

رئيس هيئة الإصلاح المركزية
مستشار هيئة الإصلاح المركزية
أحمد المريض
عبد الرحمن عزام

الأعضاء :

محمد بن عمر
بشير السعداوى
حسين بن جابر
محمد فرحات
عبد الرحمن زبيدة
محمد التايب
سالم البجباح .
عثمان القيزانى
عمر بودبوس
محمد صادق بن الحاج
محمد مختار كعبار
محمد فكيني
الصويعى الخيتونى

الأعيان :

محمد الديب
محمد سوف
عمر ضياء
على بوحبيب
أحمد الشتيوى
محمد سعدون قائد الجيش الوطنى
فرحات القاضى
محمد القرقنى
أحمد السنى
البغدادى بن معيوف
محمد الصغير المريض

وقد قبل السيد إدريس البيعة مقتبطاً ، وقرأ كتابها فوجده موقعاً عليه من ستة وعشرين رجلاً من رجال طرابلس وأعيانها وأعضاء حكومتها وقواد جيوشها ، فامتلاً فرحاً ، وأعطى من العهود والمواثيق على نفسه بالقبول والعمل بمقتضاها بكل ما بلغته قوة إنشاء الكاتب وتحييره . وقد اتضح أن هذه الوعود كانت تكتب وركابه على جناح السفر إلى مصر .

وقد أجاب السيد إدريس عن كتاب البيعة بما نصه :

نص الرد على كتاب البيعة

« من خادم الملة الإسلامية محمد إدريس المهدي السنوسي إلى أصحاب السعادة رئيس هيئة الإصلاح المركزية وأعضائها وعموم الموظفين ورؤساء الجيوش وكافة الأعيان والأهالي الطرابلسيين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان ، وجاهدتم لها جهاداً صادقاً بالأنفس والثمرات في شخصي فأخذتها داعياً الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكمل مساعيها كلها بالنجاح .

ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول ، وأن أتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الأمة تكليفي بها ، فعلى إذن أن أعمل بجد معكم ، ولكن لا تنسوا أنني بغير إقدامكم وجدكم لا قدرة لي على شيء .

إنني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمة لا للأفراد ، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هي التي تنصرف إلى صالح الجميع ، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة . إن من حق كل شعب أن يسيطر على شؤونه ، والناس منذ نشأوا أحرار . وقد أظهر شعبنا في كل أدواره مقدار محبته للحرية ، فدفع مهورها غالية ، فلا يصح لأحد أن يطمع في استعباده والاستبداد بشؤونه .

لقد اشترطتم على الشورى وهي أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها . هذا وقد رأيت أن أقر الأمور على ما هي عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد ، فلذلك أكل إلى الهيئة المركزية لما أبدت من الحمية والعدل والدراية أن تستمر على إدارة شؤون القطر الطرابلسي ، ولي الثقة العظيمة في حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيدوا مساعي الهيئة المليية أن يتحملوا مشاق المسؤولية بصبر لتثبيت دعائم البناء الوطني الذي شيده .

وأسأله تعالى أن يمد الجميع بعنايته ، وأن يثبت الأقدام ويقهر الأعداء ويمن بالنصر الموعود إنه على ما يشاء قدير .
الامضاء

في ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٤١ محمد إدريس المهدي السنوسي
وبعد وصول وفد البيعة إلى أجدابية حمى وطيس السياسة ، وكان من فرسان هذا الميدان عمر منصور الكيخيا للبحث عن رأى يوفق بين سياسة السيد إدريس مع الطلبان وسياسته مع الطرابلسيين ، وحصلت مشاورات واجتماعات ، واستمر هذا الميدان مفتوحاً نحو أربعين يوماً ولم يهتد الباحثون إلى الجمل المنشود ، حتى قفل بمغادرة السيد إدريس أجدابية في طريقه إلى مصر في اليوم الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣٤١ (٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٢) .

سفر السيد إدريس

كان لسفر السيد إدريس أكبر الأثر في حل العزائم ووهن القوى . فقد اشتدت الحرب على الطرابلسيين ، وكانوا يؤملون من وراء هذه البيعة اتفاق الكلمة وإعلان السيد إدريس الحرب على الطلبان وفاء بمعاهدة سرت وشروط البيعة ، وقد مضى نحو سنة والطرابلسيون يصلون الحرب ويصارعون هجوماً الطلبان عليهم ، وكانت آمال الطرابلسيين معلقة على هذه الإمارة ، ويرون في وعود السيد إدريس وتأكيداته لهم بالوفاء مدعاة لانتظار هذا الوفاء في مثل هذه الظروف الحرجة . وكان بعض البرقاويين يألم لألم إخوانهم الطرابلسيين وكانوا يتمنون المساعدة ولكنهم لا يملكون التنفيذ . وبودهم لو تقدم السيد إدريس إلى الميدان ليفقوا بما عاهدوا عليه في مؤتمر سرت . وعلم الطرابلسيون من سفره هذا أن مسألة الإمارة قد فشلت .

وقد اضطرب مركز برقة بعد سفر السيد إدريس اضطراباً كبيراً دام نحو ١٦ شهراً ، وانتهى الأمر بإعلان الطلبان الحرب على البرقاويين بأول هجوم على أجدابية في رمضان سنة ١٣٤٢ (أبريل سنة ١٩٢٤) بعد سنتين وأربعة أشهر من إعلان الحرب على

الطرابلسيين على مرءاً ومسمع من السيد إدريس السنوسي ، ولم يف لا بما جاء في معاهدة سرت ، ولا بما تضمنته شروط البيعة بالإمارة .

بداية النهاية

كانت بيعة السيد إدريس بالإمارة آخر سهم رمى به الطرابلسيون سعياً وراء الحصول على القوة للوصول إلى النصر . ولما لم يف بشروط البيعة وسافر إلى مصر تسرب اليأس إلى عزائم المجاهدين وأحسوا بقرب النهاية .

في غريان

كانت غريان مركز الحكومة الطرابلسية . وبعد أن سافر السيد إدريس إلى مصر وأيقن الطرابلسيون بعدم مجيء العون من برقة فكرت هيئة الإصلاح المركزية في تقوية صفوف المجاهدين . وكان من رأى الهادى كعبار أن ينشأ خط دفاعى يمتد من ترهونة شرقاً إلى فساطو غرباً ليتمكن الوقوف في وجه العدو ، والدفاع عن غريان مركز الحكومة . وقد أصبحت وجهة العدو . وكان الهادى كعبار يلح على أحمد المريض بتجنيد أكبر عدد ممكن من ترهونة ليسد النقص الذى أصبح بادياً في صفوف المجاهدين من كل ناحية ، ومرت الأيام ولم تتحقق هذه الرغبة التى كانت الضرورة تحتم تحقيقها ، وكان الهادى يرى أن اتخاذ غريان مركزاً للحكومة الوطنية مما يعرضها لانتقام الطليان فيما إذا تغلبوا . فكان يلح على رئيس الهيئة في تجنيد المجاهدين بكل وسيلة وخصوصاً من ترهونة .

وفي الوقت الذى كان يلح فيه الهادى على الهيئة بالتجنيد كان الضعف بادياً في صفوف المجاهدين ، وفي معنوياتهم وقيادتهم ، وكانت عوامل الفناء والوهن تحيط بالوضع الحربى من كل مكان .

ومما أغرى الهادى كعبار بهذا الإلحاح تقدم الطليان في الجبل من الجهة الغربية قاصدين غريان . وقد هدد بالالتجاء إلى الطليان إن لم تسرع الهيئة في إحضار المجاهدين للدفاع عن غريان والجبل . ويظهر أن عوامل أحاطت برئيس الهيئة لم تمكنه من جمع القوة الكافية

للدفاع . وكانت النتيجة أن تقدم الطليان إلى يفرن . ومنها إلى غريان ، فاضطرت هيئة الحكومة إلى مغادرتها ، واحتلوها يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ كما ذكرنا آنفاً وبقى الهادى فيها رجاء أن يتمكن من تخفيف الضغط عنها . ولكن الطليان دخلوها بدون أن يحسبوا لاستسلامه حساباً . وقد ترك فيها حراً بضعة أيام مع المراقبة ، ثم نقل إلى الخمس تحت المراقبة ، ثم نقل إلى مصراتة . وهناك حوكم فى يولية سنة ١٩٢٣ وحكم عليه بالإعدام فقتل شنقاً .

ويقول جرازيانى : « إن ما لافاه الهادى وأمثاله المتلاعبون الذين لا يثبتون على مبدأ هو جزاء تلاعبهم وردع لغيرهم » .

ولجرازيانى أن يقول ذلك بعد أن وضع الهادى بين يديه حياته ومصير غريان . ولولا الخداع الهادى بوعوده وتأكيداته له بالأمان التى لم يف بشيء منها لأمكن للهادى أن يهاجر وينجو بحياته ، ولدفع جرازيانى ثمن احتلال غريان غالباً كما دفعه فى غيرها .

ويقول جرازيانى : « إنه كانت — إذ ذاك — مساع مبذولة من حسن باشا وأحمد المنتصر لخضوع المريض وضمان الأمان له » وليقل جرازيانى ما شاء . فإن هذه المساعى — على فرض صحتها — لم يكن لها أى أثر على نفس المريض ، بل ترك وطنه فى سبيل المحافظة على شرفه ، وهاجر إلى مصر ، وتوفى فى القيوم يوم ٧ من فبراير سنة ١٩٤٠ .

وقد انتهت حياة الهادى إلى هذا المصير الذى إن دل على شيء فإنما يدل على أن الهادى كعبار لم يكن عند ظن الطليان به ، وأن الطليان لم يجدوا فيه رغبتهم ، ولو وجدوا فيه ما وجدوه فى خربيش لما لاقى هذا المصير السيئ .

بعد احتلال غريان

باحتيال غريان ازداد الموقف تحرجاً ، وضاق خط دفاع المجاهدين ، فأصبح يبتدىء من رأس أبى عرقوب قبالة العزيزية من الشرق الجنوبى ، ويمر بباطس وفوليجة ، فثنية^(١)

(١) الثنية : الطريق فى الجبل .

لخدود غريان الشرقية إلى كور . كل هذا والناس في انتظار ما تسفر عنه بيعة السيد إدريس من نجدة قد تقوى عزائم المجاهدين وتشد من أزرهم . ولما سمع الطرابلسيون بسفره إلى مصر أيقنوا أنه قد سقط في أيديهم ، فواجهوا الأمر حسبما اقتضته الظروف إذ ذاك ، وبذلوا ما بقي لديهم من جهود ، ولكنها كانت غير كافية لصد العدو .

ولم يخف على الطليان فشل بيعة السيد إدريس ، فشددوا الضغط على الطرابلسيين وحشدوا جيوشاً هائلة للاسراع بالقضاء على بقية المجاهدين الباقية .

حالة المجاهدين

بعد احتلال غريان بقي المجاهدون في كور^(١) بقيادة مختار بك كعبار ، وفي بوعرقوب^(٢) والساح^(٣) والمدور^(٤) وسيدى بو عيشة^(٥) بقيادة عبد الله تمسكت ، وفي ترهونة الشرقية إلى تاجوراء بقيادة المبروك المنتصر الترهوني . وهذه المناطق الثلاثة متصلة في شبه هلال تبتدىء من قبالة تاجوراء من الناحية الشمالية ، وتنتهى بمسامطة بوغيلان من الناحية الجنوبية الشرقية . وبالرغم على هذا الاتصال الذى كان بينها فقد كانت مفككة . وكان المجاهدون في حاجة إلى الماء كل والملبس ، وقد فقدوا كل نوع من أنواع النظام . وكانت الأرزاق التى تأتى من مصراته وغيرها إلى ترهونة ، لا تجد من وسائل النقل ما يوصلها من ترهونة إلى خطوط القتال^(٦) ، ولذلك كان المجاهدون في أبو عرقوب والمدور لا يجدون من الأكل كفايتهم من مخازن الحكومة في ترهونة ، فكانوا يضطرون إلى ترك مراكزهم للبحث عن القوت . ويعلم الله أن الحالة الاجتماعية والنظامية في المجاهدين كانت سيئة وذلك تبعاً لما كان عليه وضع الهيئة المركزية ، فقد كانت مفككة ضعيفة ولقد حاولت الهيئة أن تصحح

(١) من أراضي غريان الجنوبية الشرقية .

(٢) أمكنة في أراضي النواحي الأربعة .

(٣) شاهدت هذا بنفسى . وما كان فيه المجاهدون من عمر لا يمكن أى إنسان من الدفاع حتى عن نفسه فضلاً عن الوطن .

الوضع القائم إذ ذاك فعينت محمد فرحات بك الزاوى قائداً على منطقة النواحي . ولكن جاء ذلك بعد فوات الوقت ، و بعد أن استشرى الفساد فى جميع نواحي النظام .

حشد الجيوش الإيطالية

ولم يخف هذا الانحلال على الطليان فجمعوا قوى كثيرة للقضاء على هذا الرجل المحتضر : فجمعوا قوة فى تاجوراء بقيادة بيتزارى مكونة من ٣١٠٠ مسلح و ٣٠٠ فارس ، وأربع بطاريات مدافع وقصدها الخمس لتخرج منها إلى مسلاتة لتطبق على ترهونة من الناحية الشرقية . وجمعوا قوة فى غريان بقيادة جرازيانى مكونة من ٣٧٠٠ مسلح و ٣٥٠ فارساً وأربع بطاريات مدافع وقصدها الإطباق على ترهونة من الناحية الجنوبية .

وجمعوا قوة فى العزيزية بقيادة بيللى مكونة من ١٤٠٠ مسلح و ٢٠٠ فارس وأربعة مدافع وقصدها الهجوم على وادى ملغا^(١) على طريق بو عرقوب والجيلانى . وبهذا الترتيب يصبح مركز الهيئة ، والمجاهدون فى النواحي الأربعة فى مربع تحيط به الجيوش الإيطالية من جميع الجهات . واتفقت هذه الجيوش كلها على ابتداء الهجوم فى يوم واحد .

ابتداء الهجوم

ابتدأت هذه الجيوش الإيطالية كلها الهجوم فى حركة إطباق يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٢٣ وفى هذا اليوم اصطدمت القوة التى تقصد مسلاتة بمجاهدى الرواجح والزايانة برياسة المبروك المنتصر الترهونى . وجاءت نجدة من قماطة اشتركت فى هذه المعركة فخمى وطيسها وصبر فيها المجاهدون على الموت . وكان لمجاهدى قماطة الفخر كعادتهم ، وحظى منهم بالشهادة فى هذه المعركة نحو ثلاثمائة شهيد ذهبوا فداء للوطن وفى سبيل الله ، وكسب العدو المعركة . وفى يوم ٣٠ منه احتل قصر خيار .

وفى صباح يوم ٣١ منه احتلت قوة العزيزية بو عرقوب وفيه قتل عبدالسلام الشويخ أحد أعيان عكارة . وفى اليوم الخامس من فبراير سنة ١٩٢٣ احتلوا الجيلانى . وفى مساء هذا اليوم

(١) مكان من أراضي ترهونة على حدودها الغربية .

حاول المجاهدون استرداده فلم يفلحوا . وفي يوم ٢ منه وصلت قوة جراز ياني بئرغان واشتبكت مع المجاهدين في معركة دامت إلى الليل . وفي يوم ٥ منه طير مختار كعبار الخبر إلى تامسكت في الجيلاني بأنهم تخلوا عن كور واحتله العدو . وكان وصول هذا الخبر بعد انتهاء المجاهدين من معركة الجيلاني في مساء هذا اليوم التي حاولوا بها استرداده . وباحتلال كور في الجنوب والجيلاني في الشمال أصبح المجاهدون بين فكي الكباشة الإيطالية فلم يسمح لهم إلا الانسحاب إلى أراضى أرفلة عن طريق ترهونة . فانسحبوا في ليلة ٦ منه ، ورحل كثير من الأهالي النازلين بتلك الجهات . وكان من بين المنسحبين فرحات بك الزاوى عضو الهيئة المركزية ، وعبد الله تامسكت قائد المجاهدين . وكنت مع هؤلاء الراحلين . وقد مررنا في طريقنا على ترهونة ، فرحل معنا من كان فيها وفي مقدمتهم أحمد بك المريض وبقية الرؤساء . وكان معنا جماعة البلاغزة ، وفي مقدمتهم محمد بك شلابي ، وابن أخيه الطاهر أفندي شلابي والحاج علي هويصة والشيخ محمد الزويك وكثير من أعيانهم ، وسار الكل في قافلة واحدة إلى أراضى أرفلة . وما كدنا نتجاوز البويرات عاصمة ترهونة حتى احتلها العدو . ودخلها هي والنواحي الأربعة دخول الفاتحين ، فكانت جيوشه تقتل وتنهب وتقطع وتهتك ، لانخرتم وقار الشيوخ ، ولاضعف الأطفال وحرمة النساء . وكانت أكرثية هذه الجيوش من المرتزة برياسة خريش . ويلاحظ أن ما ذكرناه من عدد الجيوش الإيطالية لا يتناول جيش خريش ويقدر عدد الجيش الإيطالي بما فيه جيش خريش بنحو ثلاثين ألف مقاتل . وكادت ترهونة تؤخذ على غرة لولا عناية الله ، وخرج أهلها بدون دفاع عنها .

وفي اليوم الذي احتل فيه قصر خيار طير الشيخ علي بن رحاب الخبر إلى مصراتة بواسطة التلفون ، ولكن وصل الخبر متأخراً . وقد أمكن لمحمد سعدون السويحلي - رئيس جيش مصراتة - أن يصل إلى مسلاتة في قوة من جيشه في أول فبراير سنة ١٩٢٣ ، وواصل الطليان سيرهم إلى مسلاتة ، فسبقهم سعدون إلى النقازة ونازلهم فيها في معركة كانت شديدة . واستطاع أن يحبس الجيش عن التقدم حتى تمكنت مسلاتة

من إخلاء البلاد ونقل الحريم والأطفال . وقد استشهد في هذه المعركة أكثر الجيش الذي كان معه . وأعاد الطليان الكرة على سعدون فتخلى عن النقازة . واحتلوا القصبات عاصمة مسالنة . وانضم إلى سعدون جماعة مسالنة وشقران بعد أن أجلاوا عائلاتهم عن طريق العدو ، فأنحاز بهم سعدون إلى القطارة بقصد منع تقدم العدو إلى زليطن والساحل ، وانضم إليه كذلك جماعة من زليطن والجحافات .

وقد ترك الطليان سعدون واقفاً في القطارة وحالوا بينه وبين التقدم إلى مسالنة ريثما تجتمع جيوشهم وتنظم من جديد . وبقيت جيوش الطليان نحو عشرة أيام لا تقوم بغير حركات الاستطلاع . وفي هذه المدة اجتمعت جميع الجيوش في ترهونة ومسالنة ، وبقيت تنتظر الأمر باستئناف الزحف .

وفي يوم ٢٠ من فبراير سنة ١٩٢٣ صدر لها الأمر بالزحف على الساحل وزليطن ومصراته . فزحف بيزرى في قوة من طريق الخمس — سوق الخميس . وزحف جراز ياني في قوة على طريق الداوون والقطارة . وكانت قوة ثلاثة تعسكر في النقازة ، وبهذا تكون الجيوش الإيطالية أحاطت بسعدون من الشمال والجنوب والغرب في كماشة تحاول أن يلتقي فكها وراءه من الجهة الشرقية . وفي يوم ٢٣ منه اصطدمت قوة العدو الشمالية بجماعة من مجاهدى تاورغاء ومصراته ، فلم تقدر قلتهم على دفع كثرة العدو الجارفة ، وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وتقدمت في طريقها إلى الشرق . وحبس محمد سعدون القوة التي خرجت عليه حتى الليل ، وتقدمت قوة بيزرى حتى دخلت ظليتين يوم ٢٣ منه من ناحية الجمعة واحتلت مرتفعات ماجر الشمالية ولم تلق مقاومة . وبقي سعدون أمام ملتقى الكماشة ، وقد أدرك خطر مركزه وأن فكها سيلتقيان وراءه إذا بقى في مكانه ، فانسحب ليلاً إلى وادى ماجر قبالة ظليتين ، وبهذا خرج من وسط الكماشة ، وأمن الطريق بينه وبين مصراته .

وقد طلب سعدون من رؤساء ترهونة الثبات وجمع المسلحين لمساعدته في صد تيار العدو ، ولكن الناس كانوا في حالة يأس وعدم استقرار فلم يستجيبوا لطلبه ، وبقي هو

في قلة من المجاهدين والعسكر لبذل آخر جهد في تأخير تقدم العدو .
كل هذا وحكومة مصراته ما تزال باقية فيها . وما زال المجاهدون يرابطون على قصر
حمد . على أن الطليان لم يحاولوا الهجوم على المواطنين من قصر حمد منذ معركة يوم السبت
التي تقدم ذكرها ، وبقوا ينتظرون نتيجة الهجوم البري الذي أعدوا له العدة ، والذي قاربت
طلأته تصل إلى مصراته .

وقد أخبر سعدون — وهو في ماجر — حكومة مصراته بتقدم العدو واحتلاله ظليتين
والساحل ، وفشله في إقناع رؤساء تروونة بالشباب وجمع المجاهدين ، فرأت حكومة مصراته
أن ليس من الممكن الدفاع عنها ، لأن جميع البلاد الغربية سقطت في يد العدو . والجيش
البري في تلك الكثرة الهائلة احتلت زليطن وأصبحت على حدود مصراته الغربية .
والأسطول واقف لها بالمرصاد في قصر حمد بمدافعه وجنوده . وعلى ضوء ما يبدو من كل
هذه الظروف القاسية قررت الرحيل عن مصراته .

وقبل انتقالها بأربعة أيام تقريباً أباحت الرحيل للسكان فأخذوا يرحلون عن البلاد ،
وأخذت هي في نقل أثقال الجيش وأمتعته ، وبقى الجيش في أماكنه في مواجهة العدو حتى
يتمكن الناس من نقل ما يهمهم نقله . وكان تقدم العدو في استمرار .

وفي ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ وصلت قوات العدو إلى « بوروية » وفي هذا اليوم
غادرت حكومة مصراته المواطنين ، وفي الساعة الخامسة والنصف منه احتلها العدو .

احتلال مصراته

لا شك أن مصراته هي مركز الحركة الوطنية الطرابلسية ومنبع قوتها . وقد أثبتت
التجارب وتقلبات الأحوال في طرابلس أن حياة الحركة الوطنية فيها رهين بوجود مصراته
في يد العرب ، وما خرجت مرة من أيديهم إلا وانقطع الجهاد من طرابلس .
وإذا تتبعنا تاريخ مصراته في الجهاد الطرابلسي نجد أنها لم يستول عليها العدو استيلاء
كاملاً إلا مرتين : مرة عقب صالح أوشى سنة ١٩١٢ . وكان استيلاؤه عليها لا بالحرب
بل باستسلامها ، شأنها في ذلك شأن جميع المدن الطرابلسية . وقد أجلاهم عنها

رمضان في أغسطس سنة ١٩١٥ . أما المرة الثانية فهي هذه التي حصلت في ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ . وقد حصلت أثناء نهاية مؤلة ، فكانت ضربة قاصمة للحركة الوطنية . وكان سقوط أى مدينة غيرها من مدن القطر لا يعدو أن يحدث فتوراً جزئياً في الناحية التي تتبع تلك المدينة ، مما أثبت أن مصراته قلب الحركة الوطنية في طرابلس وشرمان الحياة فيها .

وقد كان سقوطها هذا الذي نحن بصدد تقييد حوادثه بأمضى خنجر طغنت به الحركة الوطنية فقضى على حياتها . وليس ذلك من تقصير أو تفریط من مصراته . ولكنه نتيجة لتلك الشيخوخة التي دبت — مبكرة — في جسم الحكومة الوطنية لعوامل كانت مصراته وحكومتها بعيدة عنها كل البعد .

وهكذا نجد التاريخ الوطنى في طرابلس لا يمر بمصراته إلا وقف عندها موقف الإجلال والتعظيم ، وأكبر منها مانشأها عليه البطل العظيم رمضان بك السويحلى من روح التضحية والجهاد . شكر الله له ماخلد لنا من مجد ، وما ترك لنا من حسن الأحداث . وبعد احتلال مصراته أنشأ الطليان قيادتين : قيادة في الشرق يمتد نفوذها إلى مسلاتة والخمس ، وقيادة في الجبل يمتد نفوذها إلى حدود تrehونة الشرقية . وأسندت إلى وولى جميع الأمور المدنية والعسكرية ، وبذلك جمع إلى رئاسة الحكومة قيادة الجيش من سرت إلى حدود تونس .

انتقال حكومة مصراته

خرجت حكومة مصراته من المواطنين بما معها من العسكر ، وأخرجت من أنقالها مالا يمكن الاستغناء عنه ، تتمهل في السير ليتمكن الناس من الابتعاد بأطفالهم ونساءهم عن مواطن الخطر . وتلبثت قليلا في السكت^(١) لهذا الغرض .

ولم ير محمد سعدون من الصواب رجوعه إلى مصراته ، بل ذهب من ماجر إلى « عبدالرؤوف^(٢) » وهو مستودع عتاد الجيش الحربى ومعداته ، فأمر بنقل ما فيه إلى

(١) السكت : مكان جنوبى مصراته على مسافة ساعتين .

(٢) عبدالرؤوف : مكان جنوبى مصراته ويسمونه « عبد الرؤوف » .

« أسيوطة ^(١) » ونقلوا منه ما أمكن نقله .

وكان الطليان يعتمدون في هذه الحرب على جيش المرتزقة برياسة خريش . فلم يترك في طريقه بلداً إلا أحرقه ، ولا مالا إلا نهبه . واستعملوا القتل في غير رحمة . وكم من شيخ وطفل استجار بهم فلم يجبروه . وكان الانتقام من أجلى مظاهر هذه الحرب يستوى في ذلك الحبشى والمترق والإيطالى ، ويشاركهم في ذلك القائد والضابط بدون أن نحاشى أحداً ينتمى إلى هذا الجيش . وباستيلاء الطليان على مصراتة تم لهم الاستيلاء على جميع السواحل وخط الجبل . ولجأ أكثر سكان السواحل إلى الجنوب ، ونزل كثير منهم وادى بنى وليد وامتدوا في أراضي أرفلة إلى نفد ، وذهب بعضهم إلى فزان وسرت .

محمد سعدون في أسيوطة

بقى محمد سعدون في أسيوطة ، والتحق به بقية عسكر مصراتة والذين كانوا مرابطين في قصر حمد . وكانت حالة الجلاء حالة مؤسفة لقلة وسائل النقل ، ولبطء حركة النساء والأطفال ، ولفقير كثير من الناس وعجزهم عن تموين أنفسهم ونقل أثقالهم ، فكانت هذه الاعتبارات داعية لثريث محمد سعدون في أسيوطة ريثما يتاح للناس الوقت الكافى لابتعادهم عن منطقة الخطر في طمأنينة وراحة . وبعد أن أمن الناس شر العدو ، واختاروا لأنفسهم مناطق في البادية ينزلون فيها انتقل سعدون من أسيوطة إلى أم العرفج ، ونقل ما معه من معدات الحرب ورابط فيها . وصارت دور ياته تراقب حركات العدو . واختار الناس منازل لاستقرارهم ، فنزل جماعة الحاميد والبلاعة في وادى سوفجيين بقرب قلعة الشيخ ، ونزلت مصراتة في نفد وماحوله . وتقارب الناس بعضهم من بعض ، وكانوا جميعاً يسكنون الخيام والأخصاص وقد استقر بهم المقام إلى حد ما .

حكومة مصراتة في نفد

ومنذ أن خرجت حكومة مصراتة من المواطنين جعلت وجهتها وادى نفد ، فاستقرت

(١) أسيوطة : مكان جنوبي مصراتة بنحو أربع ساعات .

فيه ، ونقلت إليه بعض المهمات عدا ما بقي مع سعدون في أم العرفج . وفي أواخر مارس سنة ١٩٢٣ اجتمع المجاهدون من البلاعزة والحاميد ومصراته وغيرهم والتحقوا بسعدون في أم العرفج ، ثم انتقلوا إلى تاجموت والتديرية لمراقبة حركات العدو من قرب لأنهم كانوا يتربصون بخروجه إلى تاورغاء . وبقي العدو في مصراته من ٢٦ فبراير إلى آخر إبريل يعد نفسه للخروج على المجاهدين .

وفي أول مايو سنة ١٩٢٣ خرج العدو من مصراته في قوة كبيرة ^(١) لاحتلال تاورغاء . وقد التقى ببعض خيالة المجاهدين في التديرية . وبعد مناوشة معهم تمكن من احتلال تاورغاء في مساء هذا اليوم . واستشهد في هذا اليوم خالد مدالي وهو من أعيان تاورغاء . وقد قرب لهم احتلال تاورغاء المسافة بينهم وبين المجاهدين . وفي يوم ٣ منه التقت دوريات المجاهدين المراقبة على تاجموت بجماعة من خيالة العدو . وفي اليوم الرابع منه خرج العدو في قوة كبيرة .

واقعة المشرك

من أكبر المعارك وأكثرها خسارة على المجاهدين واقعة المشرك . وقد خرج العدو في يوم ٤ من مايو سنة ١٩٢٣ من تاورغاء في قوة كبيرة وتلقاه المجاهدون في المشرك ونالوه القتال فكانت معركة حامية الوطيس دامت من الصباح إلى الظهر . وقد أبلى المجاهدون فيها بلاء حسناً . وكان محمد سعدون رئيس المجاهدين يقتحم صفوف العدو في جرأة فائقة مما شجع المجاهدين على الثبات والتدافع على الموت . وكانت رغبة التغلب على العدو تدفعهم إلى اقتحام صفوفه في غير مبالاة به . وكانوا أشبه شئاً بالمتبارين في النيل من العدو للوصول بنتيجة المعركة إلى رجحان كفتهم . وقد كان لكثرته جند العدو وكثرة معداته أثر واضح في الحد من وصول المجاهدين إلى الغاية . وقد انصرف كل من المتقاتلين وهو يعتقد أنه

(١) يقول جرازاني : إن هذه القوة مؤلفة من ١٣٠٠ جندي و ٢٠٠ فارس ومدفعين .

(٢) هذه هي المعركة الثانية في الحروب الطرابلسية التي ينصرف فيها المتحاربون من ميدان المعركة وكل منهما يعتقد أنه مغلوب . والمعركة الأولى هي التي قتل فيها حسين الكريتي في سبتمبر سنة ١٩١٧ .

مغلوب . وبعد هذه المعركة خرج الطليان من تاورغاء وذهبوا إلى مصراتة . وانجلى المعركة عن نحو ثلاثين قتيلًا تشرفوا بالشهادة في سبيل الوطن . وكان في مقدمة هؤلاء الشهداء محمد سعدون القائد العام للمجاهدين . ومن هؤلاء الشهداء الشيخ السنوسي الكاسح من العبادلة ، والشيخ محمد بن عبد الله الدكّام من الطبول ، ورمضان بن عبد السلام الأدغم ، وسعيد ابن موسى البرزان من مصراتة برتبة ضابط ، وعبد الرحمن أفندي التريكي من البلاعزة^(١) وجرح الشيخ علي بئني^(٢) ، وغير هؤلاء كثير من الشهداء والجرحين . ونظرًا لشدة المعركة فقد ترك المجاهدون قتلاهم في المعركة كما ترك العدو قتلاه كذلك . وفي يوم الأحد التالي ليوم المعركة رجع الناس إلى محل المعركة لنقل الشهداء ، فنقل سعدون إلى السدادة ، ودفن فيها يوم ١٩ من رمضان سنة ١٣٤١ الموافق ٥ من مايو سنة ١٩٢٣ .

بعد موت سعدون

كان لموت سعدون أثر بين في ضعف قوة المجاهدين المعنوية ، فكان — رحمه الله — شجاعاً قوى الإرادة ، مهيب الجانب ، مقداماً في الحروب ، لا يبالي أنزل على الموت أم نزل الموت عليه ، وقد أعجب بمضاء عزيمة المجاهدون والجند إلى أبعد حد ، فكان عندهم مثالا للرجولة الكاملة ، والتضحية الخالصة في سبيل الله والوطن .

ولم يكن أفراد الشعب أقل إعجاباً به من المجاهدين ، والجند فكان لاسم سعدون من نفوسهم مكان الاحترام والتقدير لما قدمه من خدمات صادقة لوطنه . وكان موته في ظرف ساءت فيه حال المجاهدين ، وتوالت انتصارات العدو . وكان العثور على مثله في ذلك الوقت في حكم المعتذر أو يكاد . لهذا كله كان موت سعدون محفوفاً بكثير من أسباب اليأس من القدرة على مكافحة العدو ، وبقصور في العزائم وهنت معه قوى الناس المعنوية .

(١) من بلاعزة المطرد — بالزاوية — وهو جندي بإسـل برتبة « ضابط » وكان من المتفوقين في استعمال المدافع الرشاشة ، ومن الذين يعتمد عليهم سعدون في حروبه . استشهد وهو على مدفع الرشاش رحمه الله .

(٢) من بلاعزة الزاوية من أولاد صقر ، جلا إلى فزان وتوفي هناك .

وقد شغل الذين يعينهم الأمر بالتفكير فيمن يخلفه في رئاسة الجيش والمجاهدين ، وقد رأوا — للضرورة الملحة — أن يعينوا بدله الحاج على المنقوش . وانتقل مجلس قيادة المجاهدين من أم العرفج إلى نقد ، ونقل إليه ما كان فيها من أثقال الجند ومتاعهم . ويظهر أن في الحاج على المنقوش حدة في الطبع جعلت ضباط الجيش يشعرون بوحشة من ناحيته ، فتقدموا إلى حكومة مصراتة بطلب تعيين إبراهيم بن رمضان بك قائداً للجيش بدلا من الحاج على المنقوش فكان ذلك .

إبراهيم السويحلي

أسندت رئاسة العسكر والمجاهدين إلى إبراهيم بن رمضان بك السويحلي ، وهو حدث السن لا يبلغ السابعة عشرة . ونظراً لصغر سنه كانت توليته محل انتقاد من بعض الناس ، لأنه كان في الجيش — بل وفي المجاهدين — من هو أكبر منه سناً وأدرى بشئون الحرب والقيادة . ولم يكن في الوقت متسع لمناقشة آراء المعارضين ، لأن مسألة الدفاع كانت تمشي إلى النهاية بخطى واسعة ، والمتقدمون أنفسهم كانوا يدركون هذا ، لذلك لم يكونوا شديدي الحرص على التمسك بآرائهم ، وترك الأمر يسير في طريقه تحيط به جميع عوامل الانحلال وسار إبراهيم السويحلي في وظيفته ، مسترشداً ببعض الآراء تحت إشراف عمه أحمد بك رئيس الحكومة . وكان عمه يمالج الأمور بما يتناسب مع ذلك الوضع القائم الذي أشرفت فيه جميع الأمور على النهاية .

صفي الدين في نقد

لا شك أن السنوسية كانوا يعرفون إلحاح الطرابلسيين في تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة ، ويشعرون بأنهم لم يفوا بشيء مما جاء فيهما . وقد أدركوا من طريق اليقين أن عدم تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة كان من أقوى الأسباب المباشرة في ضعف المقاومة في طرابلس . ويعلمون أن قبول السيد إدريس بيعة الطرابلسيين كان على خلاف رغبة الطليان . وأن سفره إلى مصر سيؤثر في حالة

المقاومة في طرابلس ، كما يؤثر في حالة الاستقرار التي كانت موجودة في برقة ، لأن
الطلليان سيهاجمونها نتيجة لقبول السيد إدريس بيعة الطرابلسيين التي يعتبرونها مناقضة لما
بينه وبينهم من المعاهدات .

فلهذه الأسباب رأوا أن يرسلوا صفى الدين إلى نفد ، حيث تقيم رئاسة المجاهدين
الطرابلسيين ، ليحاول إصلاح ما ترتب على عدم تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة من
فساد . فوصل إلى نفد في ذى القعدة سنة ١٣٤١ يولييه سنة ١٩٤٣ .

وليت هذا الحجيء كان قبل تغلب العدو وجلاء الناس إلى البادية ، وليته أيضاً كان
مصحوباً بالمعونة من المسال والرجال التي وعد بها السنوسيون ، وفاء بقرارات مؤتمر سرت
وشروط البيعة . وقد جاء في جماعة أشبه بحراس له لا يتجاوزون عدد الأصابع ، ولم يأت
معه حتى بما يقوم بنفقاته الخاصة .

وقد كاتب صفى الدين — وهو في طريقه إلى نفد — عبد الجليل سيف النصر ،
فالتحق به في سرت ، وقدموا جميعاً إلى نفد في ذى القعدة سنة ١٣٤١ . وما لبث
عبد الجليل أن غادر نفد ورجع إلى الجفرة ، وبقي صفى الدين معنا .

وقبل رجوع عبد الجليل إلى الجفرة كلفه صفى الدين بالذهاب إلى عبد النبي ليدعوه
إلى الاتفاق وتوحيد الكلمة ، فلم يرض ، لأنه يعتبر دخول عبد النبي في الاتفاق خضوعاً
لمصراتة وهو لا يوافق على ذلك .

وقد دل عبد الجليل بموقفه هذا على أنه يؤيد تهادى عبد النبي على موقفه الخالف .
وهذا ما كان الناس إذ ذاك مقتنعين به ، ومن ضمنهم السيد صفى الدين ^(١) .

وكاتب صفى الدين عبد النبي يدعوه إلى الاتحاد مع المجاهدين فلم يعبأ بذلك ، لأنه
ما زال يحفظ له ذلك النزاع الذي حصل بينهما في أرفلة عقب القرصانية سنة ١٩١٥ .

إرسال وفد إلى الزنتان

كان الزنتان والمقارحة وأولاد أبي سيف يقيمون في طبقة ، والقريات ، وقرزة ،

(١) صرح السيد صفى الدين بهذا في سياق حديث لأحمد بك السويحلي .

والوديان ، والحماة ، ولم يشاركوا في الحرب الأخيرة التي قامت سنة ١٩٢٠ لا بقليل ولا بكثير . وكان مما فكر فيه الناس إذ ذاك بعد مجيء صفى الدين إلى نغد إرسال وفد إليهم للانفاق مع المجاهدين وإرسال المعونة إليهم من المال والرجال . وانتخب الوفد من الشيخ الطاهر الزاوى ، وعبد السلام العربى ، وعبد السلام التومى ، والمبروك الغدى ، والحاج على المنقوش . والشيخ أبى القاسم الطبولى . وصدر الأمر إلى الوفد بالتوجه إلى حيث يقيم هؤلاء العربان في ٢٨ من ذى القعدة سنة ١٣٤١ (يولييه سنة ١٩٢٣) واستعد الوفد للسفر وسافر في منتصف ذى الحجة من هذه السنة . ومر في طريقه إلى الزنتان بالشيخ أحمد قرزة في « قرزة » واجتمعنا به وبالشيخ أبى بكر قرزة . وكان أولاد أبى سيف منضمين في ميولهم السياسية إلى المشاشية والبربر في حروبهم مع الزنتان والرجبان لما بينهم وبين المشاشية من صلة قديمة ورابطة الجوار والمناصرة .

وقد شرح لهم الوفد مهمته التي جاء من أجلها وطلب إليهم الانضمام إلى المجاهدين ومعاونتهم بالمال والرجال ، فكان عذرهم أن الوقت لا يسمح بمغادرتهم منازلهم لما يتوقعونه من هجوم الزنتان والمشاشية بعضهم على بعض ، وبما أن منازلهم قريبة من منازل المتحاربين فقد تنجر إليهم الحرب ، وأظهروا أن بودهم لو تتاح لهم فرصة المعاونة . ورأوا أن فيما أبدوه من المعاذير مبرراً لعدم الاشتراك في الحرب . وانتهوا مع الوفد إلى رأى : هو أنه ما لم يتفق الزنتان والمشاشية فلا يمكنهم تقديم أى مساعدة .

ومررنا في طريقنا إلى الزنتان في القرى وطبقة ، واجتمعنا في القرى الغربية بالشيخ سالم بن عبد النبى . وفي طبقة بالشيخ أحمد الأزهرى والأستاذ محمد الإمام وغيرهم من أعيان الزنتان وشرحنا لهم حالة المجاهدين وما آلت إليه من ضعف . وأكدنا لهم أن الموقف يتطلب المعونة وجمع الكلمة ، فكان غدرهم لنا هو أنهم في حالة حرب مع المشاشية وهم ينتهزون لنا الفرص للهجوم علينا ، وعلى هذا فلا يمكننا أن نستغنى عن أحد من رجالنا ، ونحن دائماً في انتظار غزو أعدائنا علينا .

مناورة

وقد أراد الزنتان أن يثبتوا هذه الحقيقة للوفد من طريق المشاهدة ، فدبروا فيما بينهم أن يحضر المسلحون على خيلهم وإبلهم في صبيحة يوم اتفقوا عليه . وفي ذات صباح عند بزوغ الشمس لم يشعر الوفد إلا بالخليل تحمل الرجال ، والإبل تحمل الأزواد والمسلحين في كثرة تعد بالمئات وهم يقنادون للحرب وللاخذ بالثأر ، فلما سألنا عن الخبر أجابونا بأن المشاشية أغاروا على مواشينا ونحن ذاهبون إلى ملاقاتهم ، فركبنا معهم وسرنا إلى حيث هم سائرون . وحوالي الظهر أبلغوا الوفد بأنه اتضح لديهم أن الخبر مكذوب .

والوفد يعلم حق العلم أنها حيلة مدبرة ليبرروا بها امتناعها عن معونة المجاهدين والاشتراك في الحرب . وقد خيل إليهم أن مثل هذه المناورة تبرر موقفهم وتقنع الوفد بصحة ما انتحلوه من أعذار . وقد ثبت للوفد أن محاولة إقناعهم بالمشاركة في الحرب ومعونة المجاهدين محاولة فاشلة لأن ارتكابهم مثل هذه المناورة دليل على الإصرار على التمتع ولا شك .

وآخر ما اتفق عليه الوفد مع أعيان الزنتان أن يسافر الوفد وبلتحق به الشيخ أحمد الأزهرى عند السيد محمد بن بشير من أعيان أولاد أبي سيف ليبحثوا الأمر بحضوره . فسافر الوفد ومصر في طريقه بأولاد أبي سيف ونزل عند السيد محمد بن بشير ، ولم يطل الوفد الانتظار عنده وسافر إلى نقد حيث مركز المجاهدين قبل أن يلحقه الشيخ أحمد الأزهرى عند السيد محمد بن بشير . واستغرقت مهمة الوفد بقية ذى الحجة سنة ١٣٤١ وأكثرت الحرم سنة ١٣٤٢ .

ملحوظة

إن أولاد أبي سيف والزنتان والمقارحة من سكان البادية ، مازالوا في حالة بدوية بدائية . ومنازلهم في الوديان ، ووادي قرزة والقريات ، وطبقة والحماة . وينتشرون في تلك الأراضي الواسعة إلى ملاحه غدامس وصحراء فزان . وهي مساحات من الأرض يحتاج الراكب في قطعها إلى سير عشرات من الأيام . وأسرع ما عندهم من وسائل المواصلات الإبل ، فإذا

أرادوا أن يتبادلوا الرأي في موضوع فلا بد من الوقت الكافي لقطع هذه المسافات على الإبل ليتصل بعضهم ببعض . وفيما إذا اتفقوا على شيء ووصلوا إلى دور التنفيذ فلا بد من الوقت الكافي أيضاً لجمع ما اتفقوا عليه وتوزيعه على القبائل ، بحسب كبر القبيلة وصغرها ، وبعد القبائل وقربها بعضها من بعض .

فهذا الوضع الاجتماعي لسكان البادية يجعل الانتفاع بهم متعذراً ، وإقناعهم بواجب الوطن يحتاج إلى كثير من الوقت للتأثير فيما ألفوه في محيطهم الضيق وتفكيرهم المحدود ، وظروف المجاهدين لا تتسع لبعض هذا لما هم فيه من مضايقة العدو وقلة ذات اليد . على أن هؤلاء الإخوان سكان البادية لم يكونوا في غفلة عن جلاء المجاهدين من السواحل ، وعن انتصارات الطليان عليهم ، وهم يعلمون أن أهل السواحل هم الحصن الذي إذا اقتحم فشلت المقاومة في طرابلس كلها . ورغم هذا كله فقد وقفوا ذلك الموقف الذي أعياى الوفد إقناعهم بالتحول عنه ، واعتذروا بتلك الأعذار التي أفهمهم الوفد أنه غير مقتنع بها . وما كان وضعهم الاجتماعي يسمح لهم بغير هذا التفكير الضيق الأفق .

وكانت الفكرة السائدة في محيط حكومة المجاهدين أن هذه الوفود وهذه المكاتبات شبيهة برقصة المذبوح ، أو بتعلق الغريق بأشعة الشمس ، وهي طرق يرى فيها المضطر تأدية ما بقى عليه من واجب حتى إذا نزلت الحمنة لم تجد نفسه طريقاً لتأنيبه على التقصير .

رجع الوفد في المحرم سنة ١٣٤٢ إلى نفذ حيث حكومة المجاهدين ، واتضح لحكومة مصراته أن السيد صفى الدين لم يأت معه بشيء لا من المال ولا من الرجال . ولم يلبث أن طلب من حكومة مصراته فرض مرتبات له ولحاشيته وأجرت عليهم نفقات يومية . واستمر معنا في نفذ نحو أربعة أشهر أنفقت عليه حكومة مصراته فيها ٨٢ ألف قرش .

وكانت حكومة مصراته تؤمل أن يأتى صفى الدين معه بجيش من برقة مزود بما يلزمه من السلاح والأرزاق ليجهاد مع المجاهدين ، ولكنه لم يفعل ، بل جاء معه بحاشية من الخدم والإخوان وأصبح هو وإياهم عبئاً على خزانة المجاهدين .

رغبة

رغب السيد صفى الدين أن يكون له الاشراف على خزانة حكومة مصراتة : مايدخل فيها وما يخرج منها . ودعم هذا الطلب بماله من الحق من النيابة عن الأمير ، وكشف حكومة مصراتة بهذه الرغبة ، فاعترضت حكومة مصراتة بأنه إذا كنت تريد أن تتمسك بهذا الوصف ، فيجب أن تطبقه على أرفلة وعبد الجليل وخليفة الزاوى فى فزان وأولاد أبى سيف والزنتان والمقارحة وعر بان سرت ، وغيرهم لأن الإمارة — إن صحت — فهى على جميع القطر لا على مصراتة وحدها ، ونحن أول من ينفذ هذه الرغبة ، أما بغير هذا فلا . وعلى كل حال فنحن مستعدون للانفاق عليك مادمت مقيماً معنا ، واتهى الحديث إلى هذا الحد .

إرسال وفد إلى مصر

أصبح الأمل فى عودة السيد إدريس من مصر كأمل الغريق فى نجاته بأشعة الشمس ، ووقر فى أذهان الناس أن البرقاويين لا يقومون بأى مساعدة إلا من طريق إدريس . على أن مجيء صفى الدين على تلك الحال أثبت لديهم أن السنوسيين والبرقاويين لا ينوون القيام بأى مساعدة حربية ، بل ولا تخطر ببالهم ، ولكن كان يغريهم بهذه الآمال الكاذبة ذلك الموقف الذى كان يتهدهم بالخطر من كل جانب : فجيوش الطليان تتقدم فى كل يوم على المجاهدين ، وإن وقفت يوماً تقدمت أياماً ، واستماتة المجاهدين فى الدفاع إنما ينشأ عنها تناقص مطرد فى عددهم وعددهم . وما فى خزانة الحكومة أصبح على وشك النفاد . وحالة الحرب ، وجلاء الناس عن أوطانهم من أقوى الأسباب التى حالت دون الاشتغال بالتجارة والزراعة . وامتناع عبد النبى عن المعاونة ، وامتناع عبد الجليل سيف النصر وأولاد سليمان وقبائل الزنتان والرجبان وأولاد أبى سيف والمقارحة عن الدخول فى الحرب — كل هذا كان سبباً فى فشل الحركة وإشرافها على الغاية .

وكان الناس يرون فى هذا التشتت المريع أقوى أسباب الانهيار . وقد يكون وجود

السيد إدريس من دواعي الإلفة وجمع الشمل، فأروا - بموافقة صفي الدين - أن يرسلوا إليه وفداً ليشرح له الحالة ويدعوه إلى الحج، فربما تأثرت نفسه بتلك الحال السيئة وأجاب الدعوة. وتألف الوفد من: الأستاذ عثمان القيزاني، وعمر أفندي المتجون، وخالد بك القرقني، ومحمد أفندي التركي، والشيخ مصطفى الترجمان. وتوجه الوفد من نفد في صفر سنة ١٣٤٢ (سبتمبر سنة ١٩٢٣). ووصل إلى مصر. وقد فطنت له السياسة الإيطالية فبذلت من المساعي لدى الحكومة المصرية ما عاق مساعيها وحالت بينه وبين مقابلة السيد إدريس، وسجن في حمام مريوط مدة من الزمن. وتوسط الطليان لدى الحكومة المصرية أن تسلمه إليهم، ولكن فشلت مساعيهم بسبب مساعي عبد الرحمن بك عزام وغيره من رجالات مصر. وانتهت مساعي الطليان بإخراج الوفد من مصر.

عبد النبي في أرفلة

منذ أن غزا رمضان بك السويحلي أرفلة اعتزل عبد النبي الطرابلسيين واتخذ وادي بني وليد مركزاً له، والتف حوله أكثر قبائل أرفلة، وكتبه مؤتمر غريان ليدخل مع بقية مواطنيه فأبى. وحاولت هيئة الإصلاح المركزية أن تقنعه بضرورة دخوله فيما دخل فيه الناس، وبذلت له من التوكيدات ما ينفي عن نفسه الخاوف من مصراته وغيرهم فأبى، ولما انتقلت حكومة مصراته إلى نفد اجتمع به رؤساء القبائل وكبار المجاهدين لإقناعه بالمشاركة في الجهاد فأبى. وقد زادت هواجسه وقلقت نفسه من هجرة هذه الجموع الكثيرة من سكان السواحل وفي مقدمتهم حكومة مصراته لأنه توهم أن حكومة مصراته وسكانها سيظالبونه بشار رمضان، فأراد أن يختبر شعور هؤلاء الناس نحوه. وفي الوقت نفسه أراد أن يحدث فتنة بين ترهونة ومصراته، فأرسل وفداً مكوناً من عثمان السكبي، وعقيلة التلمناتي، ومحمد بوحجرة، واجتمعوا بأحمد بك السويحلي في نفد، وتذاكروا معه في الحالة، وصارحوه بأن المريض يميل إلى الطليان وسينتهز فرصة وجوده في سرت^(١) للالتحاق بهم.

(١) لما هاجر سكان السواحل بعد احتلال مصراته ذهب المريض إلى سرت. وبقي أكثر المجاهدين في أراضي أرفلة حول حكومة مصراته.

وطلبوا منه الموافقة على القبض عليه . وعبد النبي لا يعتقد هذا في المريض ، ولكنها حيلة دبرها لإيقاد الفتنة بين مصراتة و ترهونة .

وفهم أحمد بك السويحلي هذه الحيلة ، وأكد للوفد أن هذا الكلام لا صحة له ، وأن المريض أبعد الناس عن العودة إلى الطليان ، ثم أكد لهم أن مصراتة لا تنوى شراً لعبد النبي ولا لغيره ، وإنما يريد الآن اتفاق الكلمة وجمع الشمل ، ورجع الوفد إلى عبد النبي وأخبره برأى أحمد بك السويحلي فلم تهدأ نفسه ، وطلب اجتماعاً آخر يعقد بقلعة الشيخ . وحدد الموعد . وعقد الاجتماع في قلعة الشيخ وحضره هو بنفسه ، وحضره من مصراتة : صديقنا التهامي بك قليصة ، وعبد السلام الجدايمي ، وشرف الدين العامي ، وصالح المضوي وعبد السلام التومي ، وصالح البصير . واتهم عبد النبي المريض بالخيانة ، ورماه بكل نقيصة وقد أكد له جماعة مصراتة أنهم لا يقصدون أرفلة بسوء ، وقد تناسوا كل شيء ، وأنهم لا يقصدون إلا الاتفاق والاتحاد . وأن ترهونة لا تقل رغبة عنهم في هذا المقصد الحسن ، وكل ما يقال خلاف هذا فهو خلاف الواقع . وقتنة يروجها سماسرة السوء .

وأظهر عبد النبي الافتناع ورجع إلى أرفلة ، ولكن هل عمل شيئاً يفيد المجاهدين ؟ كلا . ولما فشل في إيقاد الفتنة بين ترهونة ومصراتة اعتزل الناس وبقى في بني وليد يفرض الضرائب على ما يرد على سوقها من بضائع وحبوب وحيوانات ويحجبها لنفسه بصفته حاكم المنطقة . وكانت رسله تغدو وتروح بينه وبين الحكومة الإيطالية في مدينة طرابلس ويدهن الطليان بما يؤخر هجومهم على أرفلة ليكسب من الوقت ما يكفل له تغير السياسة القائمة بينه وبينهم في مصلحته . وهو يعلم أنه إذا لم تتغير سياستهم في مصلحته فسيفتكون به كما فتكوا بأمثاله من قبل .

واستمر على هذا الموقف المشين الذي كان من أكبر المعاول الهدامة في الحركة الوطنية . ومهما حاولت أن تقف له على عذر في حركته الانفصالية فما أنت بواجد ما يدفع عنه اللأمة سوى تلك الشكوك والأوهام التي أحاطت به بسبب خوفه من مصراتة ، وأمله في أن يكون انفصاله شافعاً له لدى الطليان .

وكان المجاهدون يهاجمون العدو في مصراتة على مرءأ ومسمع من عبد النبي وقبائل أرفلة فكانوا لا يحركون ساكناً ، وكان عبد النبي لا يهمه من الأمر إلا جباية الأموال وخزنها .
 وشبيهه بموقفه هذا مواقفه الأولى ، ولم يكن عنه هذا الشذوذ شيئاً فأت عطشاً في صحراء
 الجزائر طريد الطليان في نحو ٣٥ نفساً من معه ، وحفظ له التاريخ شرماء حفظه لأمثاله ممن كانوا
 يتلمسون أوهى المعاذير للعمل ضد الوطن . وقد أخطأه التوفيق في جميع أدوار الحركة الوطنية .

القبض على عبد النبي

ولما طال الأخذ والرد بين رؤساء المجاهدين وعبد النبي في التكلم في الاتفاق ، وتحقق
 لديهم جميعاً تلاعبه فسكر بعضهم في القبض عليه . وتقدم مختار بك كعبار بهذا الرأي
 إلى صفي الدين راجياً منه الموافقة عليه لاتخاذ التدابير اللازمة له ، ولكنه لم يوافق .
 وكان مختار بك رحمه الله يرى أن من السهل تنفيذ هذه الفكرة ، لأن مركز أرفلة
 كان يسكنه كثير من المهاجرين من غير أنصار عبد النبي ، وقد أخبرني بأنه كان يريد
 إدخال جماعات آخرين من أنصار الحركة الوطنية إلى مركز أرفلة في دفعات متوالية
 وأوقات مختلفة حتى إذا ما تجمع منهم العدد الكافي للمقاومة — فيما إذا حصلت ثورة —
 عينوا الوقت المناسب وأوجدوا الظروف الملائمة ، وانهزوا منه غرة لبدء العمل . وكان موقفاً
 بنجاح هذه الفكرة ولم يخامر فيه أي شك .

وكان محمد سعدون السويحلي بعد خروجه من مصراتة فسكر في أخذ عبد النبي على
 أي وجه . واستشار فيه بعض أنصاره ومنهم عون سوف ، ولكن أكثرهم لم يوافق خوف
 الفتنة . وقد سمعت من عون سوف أنه كان يعتقد نجاح هذه الفكرة وأنه من السهل
 القبض على عبد النبي ، ولكن من المرجح أن تنتشر الفتنة بين القبائل ويصطف بعضها
 إلى بعض وتصبح المسألة أشد مما لو لم يقبض على عبد النبي .

مختار بك كعبار



زعيم من زعماء طرابلس وبطل من أبطال الثورة فيها . ينتسب إلى قبيلة الشراكسة من قول أوغلية الزاوية ، انتقل أبؤه إلى غريان واتخذوها وطناً لهم وأصبحوا فيها سادة محترمين . ولد سنة ١٢٩٦ هـ في غريان وفيها حفظ القرآن ، وفي سنة ١٣١٤ ذهب إلى مدينة طرابلس لتلقى العلوم بمكتب الرشدية . وفي سنة ١٣١٧ التحق بمكتب العشائر في الآستانة ، وهو المكتب الذي أنشأه السلطان عبد الحميد لتعليم أولاد الأعيان ، لتكميل دراسته هناك ، وبقي فيه خمس سنوات ، وتخرج فيه ونال منه الشهادة^(١) . ثم التحق بمكتب الملكية — ودراسته تشبه دراسة التخصص — وبقي فيه سنة وأخذ منه الشهادة العالية . وكان في أدوار حياته التعليمية مثال النشاط والجد . وحينما تخرج من مكتب الملكية كانت سنه تناهز الثلاثين فعين سكرتيراً خاصاً للمشير رجب باشا في طرابلس ، ورجع وباشر وظيفته حوالى سنة ١٣٢٤ ، وفي هذه السنة رجع إلى الآستانة في إجازة ، وهناك عين موظفاً

(١) تساوى شهادة البكالوريا في مصر .

في جمعية متصرف أزميد إحدى الولايات التركية . وبقى في وظيفته هذه نحو ١٨ شهراً ، ثم عين سكرتيراً في مجلس شورى الدولة ، وبقى فيها نحو تسعة أشهر . وفي كل هذه الوظائف كان مثال الموظف المستقيم في أخلاقه وعمله ، وكان محل إعجاب رؤسائه وثقتهم .

وفي سنة ١٣٢٧ عين قائمقاماً في غدامس وبقى فيها سنتين ، وفي سنة ١٣٢٩ وقبل الاحتلال الإيطالي عين قائمقاماً في العجيلات وبقى فيها حتى احتل الطليان طرابلس . وفي أيام وجوده في العجيلات كثر تهديد الطليان وإشاعات احتلالهم البلاد ، فكان مثال النشاط في مراقبة البحر في منطقة نفوذه خوفاً من نزول الطليان .

واحتل الطليان البلاد في شوال سنة ١٣٢٩ فكان في مقدمة المحرضين على الثورة الغاضبين للسكرامة . وفي سنة ١٣٣٠ ، وفي أثناء الحرب الأولى انتخب ممثلاً لمركز ولاية طرابلس في مجلس المبعوثات التركي فسافر إلى الآستانة على طريق تونس وأوربا .

ونظراً لتطور الحرب الطرابلسية واشتدادها رأى أن يرجع إلى طرابلس ليشارك في الدفاع عن وطنه ، فرجع إليها بعد ستة أشهر قضاه في الآستانة عضواً في مجلس النواب ، وكان رجوعه على طريق أوربا ثم تونس ثم إلى طرابلس ، وفي هذا الوقت كان يناهز الخامسة والثلاثين من عمره . وكان يملك من عقله وتفكيره خير ما يملك شاب مثقف في سنه ، مملوءاً حماساً وفتوة تقلب في كبير الوظائف وصغيرها . فكان كبيراً في تفكيره ، شاباً في نشاطه وقدرته .

وكانت إدارة الجهاد في طرابلس إذ ذاك برياسة نشأت بك وكان مختار بك من طعن الزعماء الذين يتولون شئون المجاهدين مع نشأت . وتولى في إدارة المجاهدين ما يتعلق بتوزيع الأرزاق ومرتبات الجند عدا ما أسند إليه من شئون مجاهدى غريان ومراقبة استبدالهم والسهر على شئونهم . وكان على شيء كبير من دماثة الخلق والتأني في الحكم على الأمور ، مما مكنه من ضبط عواطفه في كثير من المواقف . وإلى جانب هذا كانت عنده صلابة في الرأي إذا ما ظهر له وجه الصواب .

ولما عقدت معاهدة أوشى في أكتوبر سنة ١٩١٢م كان من الفريق القائل بفتح المفاوضات

مع الطليان ، على أن تحتفظ بكل مالدينا من قوة وإدارة في صفوف متراسة وكلة متحدة ، ثم ندخل في المفاوضات لنكمل بها ما أهملته معاهدة أوشى من حقوقنا ، فإذا لم نوفق عرض الأمر على الأمة وقررت فيه ما تراه .

ولما حصلت الثورة بعد القرصائية سنة ١٩١٥ م كان مختار بك في مقدمة الثائرين وأجلى الإيطاليين عن غريان .

وتقلص ظل الطليان من طرابلس كلها إلا من مدينتي طرابلس والخمس واتخذ مختار بك وأخوه الهادي بك والشيخ سوف وغيرهم من الزعماء العزيرية مركزاً لإدارة المجاهدين . وهناك وقاهم الباروني باشا قادماً من الآستانة .

وفي سنة ١٩١٨ كانت الغواصات تأتي إلى مصراته ، وهي بعيدة عن خطوط الحرب الغربية ففكر هو وإخوانه أن ينشئوا محطة أخرى للغواصات غرب مدينة طرابلس . واختير ليسافر إلى الآستانة للقيام بهذه المهمة ، فذهب إلى مصراته ليسافر منها بطريق الغواصة . وفي أثناء انتظاره الغواصة جاءت الأخبار بسقوط تركية وبقى في مصراته . ونشأت فكرة تأسيس الجمهورية ، فكان مختار بك من المرشحين لعضويتها . وفي آخر لحظة رثى من المصلحة للوطن أن يرشح بدله عبد النبي بن خير فحمله إخلاصه لوطنه على التنازل عن ترشيح نفسه ليحل محله عبد النبي وتم ذلك بالفعل ، ولما كانت الجمهورية لا تستغنى عن خدماته أسندت إليه رئاسة ماليتها .

ولما شكلت الجمهورية كتبت بلاغات لجميع الدول تخبرهم بتشكيلها ، فاخترته لتبليغ تلك البلاغات إلى الحكومة الإيطالية فذهب في نفر من إخوانه إلى مدينة الخمس مخترباً خطوط الحرب وأبلغ المختص الإيطالي قرارات الجمهورية ، وكان اجتماعه به خارج المدينة . وجاء دور مفاوضات خلة الزيتونة وصلاح بنيادم في سنة ١٩١٩ فكان في مقدمة الزعماء رأياً ومشورة . وانهى صلاح بنيادم ، وشكلت حكومة القطر الطرابلسي سنة ١٩١٩ من ثمانية أعضاء فكان أحد الثمانية .

وكان من المؤسسين للحزب الوطني ، ومن أكبر المساهمين في إنشاء جريدة اللواء

الطرابلسي . وقد بذل جهوداً جبارة في إطفاء الفتنة التي كانت تهدد الوطن في سنة ١٩٢٠ . وكان رسول سلام بآرك الله في مساعيه حتى أثمرت بسبب إخلاصه لوطنه . ولما راوغ الطليان في تنفيذ شروط القانون الأساسي كان أول المحتجين على الطليان . وكان من المبرزين في مؤتمر غريان بآرائه وأفكاره . وانتخبه المؤتمر عضواً في هيئة الإصلاح المركزية .

ولما سفر الجو بين الهيئة والطليان أرادت الهيئة أن تزيل سوء التفاهم من قبيل المفاوضات فكان أحد المفاوضين الذين وقع اختيارها عليهم . ولما انتهى الأمر إلى قطع المفاوضات كان أول من حاصر الطليان في غريان حتى استسلموا له وغنم كل مامعهم من عتاد ومتاع . وقد ترأس المجاهدين في كثير من أدوار الجهاد الطرابلسي فكان لا تتمعه رياسته أن يشارك إخوانه في الغزو والهجوم . وكثيراً ما تجشم في سبيل وطنه الصعاب وبات الليالي الشاتية وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء ، لا يزيده ذلك إلا نشاطاً . وله محاولات سياسية بالغة في الجراءة ستحتل من تاريخ حياته المسكان اللائق بها ، وكانت عنده رتبة بك ممتازة من جلالة السلطان محمد الخامس وكان يحمل نيشانها .

وفي سنة ١٩٢٣ تغلبت جيوش الباطل المدججة بالحديد والنار على من بقي من أنصار الحق فتركوا وطنهم مكرهين ، فاختار الالتجاء إلى فزان أملاً منه في أن تعيد المقاومة سيرتها الأولى .

وقد أبت عليه نفسه أن يترك الميدان وفي المحاولات ما يمكنه من الهجوم على العدو ، فأرسل أولاده وحريره إلى فزان ورجع على طريق سرت ، وانهز من الطليان غرة في وادي تارسين وهاجم نقطة فيه بمن معه من المجاهدين فأبادوها عن آخرها . وحاول بعد ذلك أن يطيل البقاء في أراضي أرفلة ويحارب الطليان على طريق حرب العصابات ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، فأشرف على وطنه من أراضي أرفلة وهضابها وألقى عليه آخر نظرة وهو يعود بروحه تحت ضربات الإيطاليين القاتلة ، ولحق بأهله في فزان محسوراً مهموماً .

وفي شعبان سنة ١٣٤٨ احتلت القوات الإيطالية فزان فجاء إلى مصر على طريق

الكفرة . وأقام بالاسكندرية بعضاً من الوقت ثم ذهب إلى الآستانة ، ثم إلى أنقرة .
وبقى في الأراضي التركية يتسقط أخبار وطنه ، وينتظر ما تسمح به الظروف من الفرص
المواتية ليعود إلى ميدان الجهاد .

وقد تغير الوضع السياسي في طرابلس منذ سنة ١٩٤٣ وذهب الله بالطليان وحل
محلهم الإنجليز فعاوده حينه إلى وطنه . وألحت عليه نفسه الكبيرة باستطلاع ما عساه أن
يأتى به هذا التغير السياسي ، ولم تمنعه شيخوخته أن ينفذ ما اعتزم ، فجاء إلى مصر في يولييه
سنة ١٩٤٦ وسافر إلى طرابلس ليشاهد ما يجري فيها ، وبقي فيها نحو أربعة أشهر درس
فيها ما عليه الوضع من جميع وجوهه فرأى فيه مازاد نفسه غماً وألماً ، ورأى الفساد قد استشرى
في جميع ما وضع الإنجليز أيديهم عليه ، وقد وضعوا أيديهم على كل شيء ، فرجع إلى مصر
مثلاً بهمومه ، ولكن نفسه الفتية لم تقعه عن العمل ، فأخذ يفكر في تدبير حملة يتولى
قيادتها بنفسه ، ويهاجم فيها تدخل الإنجليز ومسايعهم في تفريق كلمة الطرابلسيين واستعمال
سلطتهم في التأثير على الرأي العام لأغراضهم . وقد اتصل باللجنة الطرابلسية فأفضى إليها
بذات نفسه وانفق معها على ما يريد القيام به . ولكن القدر عاجله ، ورمى طرابلس فيه
بسهم صائب بعد حياة امتدت به سبعين سنة قضائها كلها في خدمة وطنه وسعادة شعبه .
وتوفي بمدينة القاهرة في الساعة العاشرة من ليلة يوم الإثنين ٢٦ من صفر سنة ١٣٦٦
الموافق ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ ودفن بجوار الشيخ محمد السكيشي الغرياني بقرافته .
عليه رحمة الله ورضوانه .

تنظيم الدفاع

وعقب مجيء صفى الدين عقد اجتماع حضره هو وأحمد بك السويحلى رئيس حكومة مصراته ومختار بك كعبار وأحمد سيف النصر وسليمان التواتى من ترهونة ، وقرروا أن يذهب قسم من المجاهدين والعسكر لمناوشة الطليان على حدود مصراته وظليتين ومسلاتة وترهونة وكان ذلك فى النصف الأخير من أغسطس سنة ١٩٢٣ : فذهب إبراهيم السويحلى وعون سوف فى قسم كبير من مجاهدى مصراته والزاوية إلى مصراته . وذهب عمر أبو دبوس وعلى بحيح فى جماعة إلى ظليتين ، وذهب المهدي السنى فى جماعة إلى مسلاتة . وذهب عبدالسلام المريض إلى ترهونة . ويقول جرازيانى ما يفيد أن هذا الترتيب وقع من الطليان موقع الانزعاج والخوف .

وكان الطليان اتخذوا لهم حصوناً للدفاع فى زاوية المحجوب وفى سانية العوكلى عدا ما عندهم من الحصون داخل مصراته ، فربط إبراهيم السويحلى وعون سوف بمن معهما من العساكر والمجاهدين أمام هذين الحصنين ، وصارت بينهم وبين الطليان مناوشات لم تطل حتى تمكن المجاهدون من حصر الطليان فى زاوية المحجوب وسانية العوكلى والحيولة بينهم وبين المدد اليهم من مصراته ، ولم يتمكن المجاهدون من اقتحام البيت الذى تترس به الطليان فى سانية العوكلى إلا بعد ضربه بالدفاع ، وكان مع المحصورين على الكريتلى — أحد رؤساء المرتزقة — وبعد حصار دام يومين تقريباً سلم من فى المنزل أنفسهم ، واستسلم على الكريتلى لعون سوف ، وطلب الأمان لنفسه ولمن معه فأمنهم عون . واستولى المجاهدون على كل ما فى البيت من سلاح ومتاع ، وأرسل المقبوض عليهم إلى نقد حيث الحكومة الوطنية ، وقد شكل مجلس شرعى لحاكمة على الكريتلى ، وبعدها استجوابه ثبتت إدانته ، وحكم بقتله شنقاً بتهمة الخيانة العظمى وممالأة العدو على الوطن . ومن أعضاء المجلس الشرعى الشيخ عمر المساوى عليه رحمة الله .

وقد اتسع المجال للمجاهدين واقتربوا من حصون مصراته نفسها ، وصاروا يناوشون الطليان ، وشددوا الحصار على المواطنين نحو عشرين يوماً .

وفي يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ هاجمت خيل المجاهدين سيارة إيطالية في فوليجة كانت ذاهبة من العزيزية إلى غريان وكان فيها ثلاثة إيطاليون قتلوا واحداً وأسروا اثنين أرسلوا إلى نفد فاعترضهما عبد النبي وأبقاهما عنده في أرفلة وسيأتي لهما ذكر .

وفي الوقت الذي كان يقوم المجاهدون بحصار مصراتة كانت ميسرتهم محمية بخط دفاع يمتد من مصراتة إلى حدود غريان كما ذكرنا آنفاً . وكانت خيل المجاهدين تغزو حدود غريان من الشرق والشمال ، وأراضى ترهونة والنواحي .

وقد أقلق الطليان هذه الحركة التي أوقعتهم في شبه حصار ، ووقفت سداً بينهم وبين التقدم إلى الجنوب . فجهزوا جيشاً كبيراً وخرجوا به على عبد السلام المريض فدافعهم قدر المستطاع وقتل كثير من إخوانه ، ولم تمكنهم قلتهم من الوقوف أمام كثرة العدو ، فانسحب من بقي منهم إلى الجنوب ، واستمر الطليان في طريقهم إلى الشرق ، فكان موقف المهدي السني ، في ناحية مسلاتة ، وموقف عمر أبي دبوس وعلى بحيج في ناحية ظليتين شبيهاً بموقف عبد السلام المريض ، وانتهى الكل إلى نتيجة واحدة هي انسحابهم وتقدم العدو .

ولم يشعر المجاهدون — وهم يحاصرون مصراتة — بتقدم العدو حتى جاءهم النذير بخروج العدو عليهم ووصوله إلى جنوبى مصراتة فأرسلوا خيلهم للاستطلاع ، ولدافته ريثما يتمكنون من الانسحاب وتتاح الفرصة لجلاء أكبر عدد ممكن من السكان . وقد أخبرنى عون سوف — وهو قائد المجاهدين إذ ذاك — بأن الجيش الإيطالى كان من الكثرة بحيث لو سار في طريقه لما أمكننا أن نقف أمامه ، ولما ترك واحداً على قيد الحياة . وكان الله صور له أولئك الناس الفارين جنوداً ومجاهدين خرجوا لقتاله فتوقف عن التقدم . وتمكنت خيل المجاهدين من مكافحته إلى أن خرج الناس من مصراتة على طريق كرزاز . وقد تعقبهم الطائرات وأخذت تضربهم برشاشاتها وقنابليها ، لانفرق بين النساء والأطفال الفارين بحياتهم وبين المقاتلين . وقد أثرت يوم ذاك تأثيراً بليغاً ، خصوصاً في البغال والجمال التي كانت تحمل أثقال المجاهدين . وقد اشترك في هذه المعركة قوات الجو والبحر فأصبح المجاهدون بين نيران الجيش والطائرات . وقد استمر المجاهدون في انسحابهم إلى الكراريم .

وما وصلوا إلا بشق الأنفس ، وهناك توقفوا بضعة أيام استردوا فيها شيئاً من نشاطهم ، وأعادوا الكرة على مصراته فصاروا يغزونها وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

وقد قل عدد المجاهدين والعسكر ، ونقصت آلاتهم الحربية بفعل الجلاء من مراكزهم الأصلية ، وعدم استقرارهم في مكان ، والمعارك الكثيرة التي خاضوها . ولكن الواجب الوطني كان يحملهم دائماً على الصبر حتى النهاية .

وقد رأى الطليان أنهم لم يصلوا إلى نتيجة وأن عملهم غير حاسم مادام المجاهدون يغزون عليهم في مصراته ويقلقون راحتهم ، ومادامت أرفلة في موقعها الشاذ الذي جعل الطليان لم يجزوا بعداوتها أو صداقتها . وأرادوا أن يستعجلوا النهاية ، فجهزوا جيشاً كبيراً وكان في هذا الجيش عدد كبير من الأحباش والمرتقة فرساناً ومشاة ، وصبحوا المجاهدين في الكراريم في أواخر سبتمبر سنة ١٩٢٣ وكان يوماً مشهوداً صبر فيه المجاهدون على قتلهم على الموت ، واشتركت فيها أسراب الطائرات ، وكانت الكفة الراجحة إلى جانب العدو لكثرة خيله وطائراته وشدة هجومه ، واستشهد من المجاهدين نحو مائتين ، وجرح قائد العسكر إبراهيم السويحلي ، وقائد المجاهدين عون سوف ، وقبض العدو على كثير من العسكر والمجاهدين أحياء ، وقضت الطائرات على ما بقي لديهم من البغال والجمال التي كانت تحمل أنقاهم . واستشهد من كبار المجاهدين على بن مصطفى المستيري ، وأحمد بوطلاق ، وأحمد قليصة ابن صديقنا التهامي بك قليصة ، وكلهم من مصراته وكانت الفاصلة .

وإلى هنا انتهت الأمور إلى غاياتها وانقطع الدفاع من طرابلس .

خداع فات أوانه

لما أحس عبد النبي بمجيء دوره ، وأنه سيلاقى من الطليان جزاء سمار ، عمد إلى تلك الصفة التي كانت تكأته في جميع أدوار الحرب الطرابلسية وهي « الخداع » فأرسل مع خاله سعد بن عطية إلى أحمد بك السويحلي في نفد يعرض عليهم استعدادده للحرب ، فكان جوابه له : « الصيف ضيعت اللبن » .

احتلال أرفلة

قدمنا آنفاً أن معركة الكراريم كانت آخر معركة بين الطليان والمجاهدين في الساحل ، ولم يبق أمام الطليان إلا نفذ مركز حكومة مصراتة ، وبني وليد مقر عبد النبي . وانقضى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٢٣ بدون عمليات حربية . وفي هذه المدة استعد الطليان للقضاء على البقية الباقية من المجاهدين وابتدأوا في حشد الجيوش في منتصف ديسمبر فحشدوا منها مارأوا فيه الكفاية لهذا الغرض . وقبل تقرير الموعد النهائي لبدء الهجوم أرادوا أن يتحققوا من سياسة عبد النبي ، فأرسل إليه جرازاني كتاباً مع الحاج المبروك الحصني يؤكد فيه الأمان له ولكل من معه على نفوسهم وأموالهم ، وأنهم لا يمسون بسوء من قبل الحكومة . وأرسل إليه جواباً من حسن باشا وجواباً من أحمد الفساطوى يؤكدان له فيه ما جاء بكتاب جرازاني . وقد أرفقت هذه الكتب بمنشور من الوالي يؤكد فيه الأمان له ولكل من التجأ إليه ولم يعارض الحكومة ، وقد قال له : « نعلمك بأن العساكر إذا طاردت أحداً من الثوار لإبعاده أو للقبض عليه ، فلا شك أن ذلك في مصلحتك ولا نقصد به أذيتك مطلقاً » وتاريخ الكتاب ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ . وطلب إليه رد الجواب بسرعة . فرد عبد النبي بما ترجمته :

« جناب الجنرال جرازاني : بعد التحية .

تسلمت خطابكم وخطاب حسن اشا ، وخطاب أحمد الفساطوى وقرأت الجميع على مشايخ البلاد الذين فهموا الحقيقة ، وقرروا أنه لا داعي لأن تحتل الحكومة أرفلة بالقوة نظراً لأن أرفلة عملت كل ما يلزم لإبقائها على الحياد وعدم معارضة الحكومة ، فلما موجب لحذف القوات عليها . وهذا يعد نقضاً لما سبق الاتفاق عليه .

أرجوكم قبول تحياتي « ١٤ جمادى الأولى سنة ١٣٤٢ (٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٢٣) واحتاط الطليان للأمر فخرجت قوة على سيناون لتقطع طريق تونس عن المجاهدين ،

وقوة على طريق الوديان ، لتطاردهم الفارّين من أرفلة ، وتمنع المرور إلى الجهة الغربية ، وانتهت إلى الطابونية . وكان معها أحد العياط البوسيفي ، وهي التي التقت بجماعة الشيخ عمر الغز وسياتي ذكرها . وقوة على طريق مزدة ، ثم إلى شميخ وسوفجيين لتحاصر بني وليد . وقوة من ترهونة قاصدة بني وليد رأساً . وقوة من مصرانة قاصدة السدادة . وقد ابتدأت هذه القوات كلها الحركة يوم عشرين ديسمبر غير أنها توقفت عن الاطباق على بني وليد حتى تنتهي المسكابات مع عبد النبي . وقد وصلت القوة إلى السدادة يوم ٢٣ منه . وفي هذا اليوم جلت عنها حكومة مصرانة ، وتوقفت فيها حوالى يومين . وكنا نراقب حركاتها من سفح جبل نفد الشمالى مكان يقال له الجبود من ناحية سوفجيين .

ولما وصل جواب عبد النبي إلى جرازيانى رأى فيه أثراً من المراوغة ، فأمر ببده الهجوم يوم ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ بعد أن بعث العيون والطائرات لاستكشاف قوات المجاهدين فظهر له أنها مازال موجودة حوالى نفد وتتجول فيما بينه وبين بني وليد وظهر له من هدوء الحركة في بني وليد أن عبد النبي ينوى الوفاء بوعدده ، ولا يريد محاربة الطليان . ولم يكن هذا كافياً لاطمئنان جرازيانى ، بل أرسل منشوراً باسم والى ألقته الطائرات على بني وليد جاء فيه : « إن الحكومة أرسلت إلى الأهالى كتباً من حسن باشا وأحمد الفساطوى بواسطة عبد النبي تعدهم فيها بالأمان على أملاكهم وأرواحهم وحيواناتهم ، وتأمّرهم فيها بعدم محاربة جيوش الحكومة ، وبالتسليم لها ، والابتعاد عن الثوار » . وقد أطبقت هذه الجيوش على بني وليد من الشمال والجنوب والغرب . وفي يوم ١٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٢ الموافق ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ دخلها جيش الشمال الذى جاء على طريق ترهونة واحتلها في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، واستمروا فيها القتل ، ونهبوا أموالها وتعبدوا على حرمانها . وهرب عبد النبي إلى شميخ بعد أن أخذ معه ما خف حمله وغلا ثمنه ، وتركها تحترق ولم يدافع عنها لحظة واحدة ، وأخذ يطل عليها من مرتفعات سوفجيين ، يحاكي بذلك نيرون حينما أحرق روما وأخذ يطل عليها من رؤوس الجبال ويضحك . ولما أحس بخيل العدو تطارده انتقل إلى القرى .

وكان في بني وليد ثلاثة أسرى من الطليان : اثنان منهم أسرا في فوليجة يوم ٢٧ سبتمبر سنة ٩٢٣ في الأتومبيل الذي أحرق يوم ذاك ، وكان معهما ثالث قتل . وأرسلا إلى نفذ حيث حكومة المجاهدين ، ولكن عبد النبي أمر بحجزهما في أرفلة فبقيا هنالك ، وقتل الثلاثة قبل أن يتمكن الطليان من احتلال البلد ، وكان قتلهم من أسباب الانتقام .

بطولة

يوجد في صحائف المجد المجهولة من تاريخ الحرب الطرابلسية وقائع من مدهشات الحروب وغرائب الدفاع عن النفس والوطن .

من هذه الصحائف المجهولة ما وقع في الملاحاة غربى طبقة في طريق الذهاب منها إلى غدامس في يناير سنة ١٩٢٤ .

ذلك أنه بعد احتلال أرفلة وانسحاب المجاهدين من أراضيها ظهر الطليان على تلك الجهات وجلا الناس إلى جهات مختلفة كما ذكرنا آنفاً . وكان الحاج محمد فكيني ومن انضم إليه اختاروا الهجرة إلى فزان . وقد أشرنا آنفاً إلى أن أحد جيوش الطليان خرج على طريق الوديان ، وكان في هذا الجيش أحد العياط — نصف البوتسمين — البوسيفي ، ويوسف خريش ، ومحمد بن حسن المشاي ، وكان مع كل واحد من هؤلاء جماعات كثيرة من أنصاره كلفوا بمطاردة المجاهدين . وكان بين هؤلاء الرؤساء جميعاً وبين الحاج محمد فكيني ومن معه ثار قديم وترات يطالبونهم بها . وقد اجتمع هذا الجيش في الوعسة (فيما بين فسانو وبئر الكلاب ووديات الخليل) .

وبينا هذا الجيش في طريقه يقتفي أثر الحاج محمد فكيني ومن معه التقي — صدفة — بالشيخ عمر الغز الزنتاني قادماً من الخور في طريقه إلى طبقة في جماعة قليلة من إخوانه عددهم واحد وأربعون رجلاً . فرأى رؤساء الجيش أن أخذ هؤلاء لا يكلفهم إلا أن تمر عليهم الخليل وعربات المدافع فتقطعهم طحناً ، ثم يمر في مطاردة الحاج محمد فكيني . وماذا يعني واحد وأربعون رجلاً أمام جيش لا تقل خيله ورجله عن أربعة آلاف مجهزين بما يكفي لهم من المدافع السيارة والرشاشات ، ولكن : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

وصدرت الأوامر بأخذ هذه الجماعة فتوجه الجيش نحوها ، وبدأ الشر من الأحباش ومرتزة خريش وغيرهم ، فخرج الشيخ عمر ومن معه إلى منخفض من الأرض كان قريباً منهم وأزلوا متاعهم عن الإبل وشدوا عقالها ، وأحاطوا نساءهم وأطفالهم بما معهم من المتاع وقاية لهم ، ثم انتشروا في نواحي هذا المنخفض مما يقابل العدو ، وأمسكوا ببنادقهم ووضعوا بالقرب منهم ما كان محملاً معهم من الخرطوش ، وهلّلوا وكبروا ، وانحبست الأنفاس ، وخلا ما حولهم من كل شيء إلا من أصوات الرصاص ودوى المدافع .

تلك لحظة من أخطر اللحظات في حياتهم لا تتجاوز الثواني .

أخذ العدو يهاجمهم بخيله ورجله ، وسددت المدافع والرشاشات نحوهم ، فكنت تسمع من ناحيتهم إحدى وأربعين طلقة من إحدى وأربعين بندقية ، في أيدي واحد وأربعين رجلاً ، وكنت تسمع من الجيش الإيطالي مئات الألوف من الطلقات : من قنابل المدافع ، ورصاص الرشاشات والبنادق يرسلها عليهم جيش لا يقل عدده عن أربعة آلاف مقاتل .

وقد أخبرني السيد محمد العيساوي بوخفجر قال : حدثني الشيخ عمر الغز — أحد هؤلاء الأبطال — يحكي عما شاهده في هذه المعركة قال : كان العدو يهاجمنا في جماعات من الخيل ، وبينما نحن نشاهد صدورها وهي تشتد في عدوها نحونا ، إذا بالرصاص قد حصدها فترتمي على الأرض بمن عليها ، وإذا بفلولها مدبرة لا تلوى على شيء ، وكان يهاجمنا بصفوف من الرجال مترامة ، وإذا بهم على الأرض يتشعّطون في دمائهم . واستمرت المعركة من الصباح إلى نصف الليل في هذا القتال المميت ، ودفاع المستميت .

ويريد الله أن يكون لهؤلاء الأبطال رفقة — سبعة رجال — تخلّفوا عنهم لبعض الشؤون ، وبينما هم في طريقهم اليهم ، إذ سمعوا دوى المدافع فعلموا أنها معركة ، وأنها مع رفقائهم ، فكان من تديبرهم أن وزعوا أنفسهم وراء العدو في عدة أماكن وأطلقوا الرصاص ليوهمو العدو أنهم كثيرون ، وانطلقت الحيلة على الطليان ، ووقع في روعهم أنها نجدة جاءت لإنقاذ المحاصرين فانسحبوا يجرّون ذيل الهزيمة ، وبقي الأسود في مراتبهم جاثمين . ولما انقطع إطلاق المدافع والرصاص فهموا أن العدو انسحب فنهضوا من معاقلم

وتركوا خمسة من إخوانهم لحقوا برهبهم في أسعد الأوقات وألذ ساعات الحياة ، وهي ساعات الدفاع عن النفس والعرض . وكان من بين هؤلاء الشهداء الأستاذ الشيخ أبو القاسم الرماح من علماء الزنتان وأعيانهم . وحفظ الله على هؤلاء الأبطال نساءهم وأطفالهم . وكان من بين قتلى الطليان أحمد بن حسن العياط (نصف البوتسمين) من أولاد أبي سيف . وقد أخبرني من شاهد مكان المعركة أنه شاهد فيها ثلاثة وسبعين حصاناً ، قتلت برصاص المجاهدين ، وما يقارب عشرة أكوام من جثث الأحباش والمرزقة . وهكذا أعز الله جنده وصدق قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

وفي أثناء ما كانت المعركة حامية الوطيس وصل الخبر إلى الزنتان سكان طبقة والطابونية فجمعوا من رجالهم نحو ٣٥٠ رجلاً وثمانين فارساً ، وجهزوا من الإبل ما يكفي لحمل الرجال والأمتعة ، على كل جمل رجلان ، وتوجهوا لنجدة إخوانهم المحاصرين ، وقد وصلوا إلى محل المعركة بعد انقضاؤها ، فاقتفوا أثر العدو المنهزم حتى أدركوه في وديان الخليل ^(١) فبيتوه ثم هاجموا ليلاً ، فأوقفوا في صفوفه الرعب ، وقتلوا منه نحو مائة رجل . ورجع من بقي من فلوله إلى الجبل .

هذه واقعة من عشرات الوقائع الهائلة التي يقوم فيها الطرابلسيون بنوع من البطولة المتأخرة ، يحدها الباحث في صحائف المجد الجهولة التي يتركها الطرابلسيون مكتوبة بدمائهم الطاهرة على أرض الوطن ، لا تقوى يد الزمان على محوها ، ويجد فيها الباحث ما يشجعه على التنقيب وراء مجد الشعوب العربية وأقدار رجالها .

السيد محمد الزدام

وفي هذا اليوم ، وببداية هذا الجيش الطاغى الذي استأصل الله شأفته أخذ السيد محمد الزدام — وكان مهاجراً نحو الحدود التونسية — وسلب ماله ، ومثل بمن معه من نساء طاهرات وأطفال أبرياء ، وأخذ هو حياً إلى يفرن حيث قتل شنقاً . عليه رحمة الله .

(١) جع واد ، مصغراً

انتهاء المقاومة؛

إلى هنا بلغ الكتاب أجله ، وانتهى كل نوع من أنواع المقاومة في طرابلس من البحر الأبيض إلى حدود فزان ، وذهب الناس مذاهب في طريق النجاة بأنفسهم : فريق قصد الحدود التونسية على طريق غدامس وفيهم الطاهر أفندي شلابي ^(١) . وقد انتهى به المطاف إلى جربة وتوفي بها عليه رحمة الله ، وقسم ذهب إلى فزان للالتحاق بخليفة الزاوى منهم الفقيه على بن حسن ^(٢) . وقسم ذهب معنا إلى مصر ، ومنهم أحمد بك السويحلي وأحمد بك المريّض ، والتهامى بك قليصة ^(٣) وعمر بودبوس . والشيخ سوف وابنه عون ، والشيخ صالح بن سلطان ، والشيخ المبروك المنتصر والشيخ عبد الصمد النعاس وغيرهم كثير من مصراتة وثرهونة والزاوية ومن جميع القبائل الطرابلسية .

وكان هذا الجلاء آخر عهد المجاهدين بوطنهم بعد جهاد دام أربع عشرة سنة ، لم يتركوا منه شبراً إلا دافعوا دونه ، ولا تجد مرتفعاً من أرضه ولا منخفضاً إلا ولهم فيه دم مطول أو جسد ممزق ، وقد حفظ لهم التاريخ في صفحاته من الجهاد الحميد ما لم يحفظه لغيرهم على قلة في المال والرجال وآلات الحرب .

ولقد خاضوا هذه الحرب على رضى منهم وطيب نفس دفاعاً عن وطنهم وذوداً عن كرامتهم ، لا ينتظرون من وراء ذلك إلا ما ادخره الله لهم من ثواب المدافعين عن أوطانهم . والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

(١) ابن عبد الرحمن بك شلابي ، من أعيان البلاعة سكان الزاوية وسادتهم .

(٢) مات في فزان ، في « حجّين » وكان طيب النفس حميد الأخلاق ، انتخب نائباً عن الزاوية في مؤتمر العزيزية التحضيري لمؤتمر غريان . وهو من الكثارة من قبيلة كرادسة من البلاعة سكان الحرشا ، وكان يحفظ القرآن . عليه رحمة الله (٣) من أعيان مصراتة ووجهائها . وله أعمال بارزة في حكومة مصراتة الوطنية ومن أصدقاء رمضان بك وإخوانه الذين يعتمد عليهم . وكان رئيس مالية مصراتة . وانتخب عضواً على مصراتة في مؤتمر غريان . وكان شجاعاً ، قوى الحجة ، وكثيراً ما يرسل في مهام حكومة مصراتة . وكان على جانب من العلم . وقد ذكر في عدة مواضع من كتابنا هذا . توفي في تطون تبع مدينة القيوم بمصر يوم ١٩ من مارس سنة ١٩٣٠ : عليه رحمة الله .

ابراهيم السويحلي

قلنا في ص ٣٤٣ : إن إبراهيم بن رمضان السويحلي تولى قيادة العسكر والمجاهدين بعد موت عمه محمد سعدون . وبعد جلاء حكومة مصراتة من نفد بقى معه قسم كبير من العسكر ومدفعان ، ومدفع رشاش . وقد اتجه في أول الأمر معنا إلى الشرق ، ولما وصل إلى العقيلة اتصل بصالح الأطيوش فلم يطب له المقام فرجع إلى سرت ، وكان بها أحمد سيف النصر ، ولم يحتلها الطليان إذ ذاك . وقد حاول هو وأحمد سيف النصر أن يقوما بعمل مشترك لمنع الطليان من التقدم إلى سرت ولكنها فشلا .

وارتحل أحمد سيف النصر إلى فزان ، وبقى إبراهيم في سرت ، لا أملا في القيام بحركة مجدية ، ولكن الدنيا ضاقت في وجهه فلم يدر أين يتوجه . وخرج الطليان بقوة كبيرة لاحتلال سرت ونزلوا على بويرات^(١) الحسون على بعد مرحلتين من سرت إلى الشمال . وقد أرادوا أن يخدعوا إبراهيم فكاتبوه ليصرفوا نظره عن الحرب ليتمكنوا من القبض عليه . وقد وصل إليه يريدون وكانت الجيوش زاحفة من ورائه ، فلم يشعر إلا والجيوش محيطة به ، فأعجل عن أخذ متاعه ، وفر هو ومن معه بما أمكنهم الفرار به ، وقصدوا إلى الجفرة وكان بها عبد الجليل . وكان قصد إبراهيم أن ينتقل منها إلى فزان ليتصل بخليفة الزاوى في مرزق .

مقتل إبراهيم السويحلي

لم يرق هذا التنقل من إبراهيم نظر عبد الجليل سيف النصر . ورأى في التحاقه بخليفة خطراً عليه ، فبيت له الشر ، وطلب إليه أن يتخلى عن العسكر الذين معه فامتنع ، ورأى إبراهيم في هذا الطلب بادرة من بوادر الشر فاعتزم الخروج من المنطقة التي يشملها نفوذ عبد الجليل . ولكن عبد الجليل جمع له عدداً كبيراً من أنصاره ، وترصدوا له في طريق الرواغة — وهو طريق جبلي وعرة المسالك ، ولا بد للمسافرين من سلوكه — وبينما هم سائرون في هذا

(١) جمع بئر مصفرة .

الطريق في فجر يوم ١٩ من مارس سنة ١٩٢٥ فما شعروا إلا والرصاص ينطلق عليهم من كل جانب ، ودافع إبراهيم وصحبه دفاعاً مجيداً . وقتل من أنصار عبد الجليل نحو العشرين وأسفرت المعركة عن قتل إبراهيم السويحلي واثنى عشر رجلاً من صحبه ، وانهت هذه الحياة القصيرة الصغيرة إلى ما تنتهى إليه حياة الإقدام والجراءة التي لم تستفد من تجارب الحياة ، ولم يسعدها الحظ بالتلقى عن المرشد الخبير .

في فزان

بعد أن انتهى الجهاد في طرابلس وصحراء أرفلة ، هاجر إلى فزان جماعات كثيرة من البلاغزة ، وغريان وأرفلة ، والزنتان وغيرهم .

وكان في فزان حكومة يرأسها خليفة أفندي الدعيك المشهور بخليفة الزاوى من قول أوغلية الزاوية . وقد حاولت هذه الجماعات من المهاجرين الإقامة في فزان ، واتخاذ الوسائل لسماح الطليان لهم بالرجوع لمن أراد الرجوع منهم إلى وطنه . وكان ممن هاجروا إلى فزان فرحات بك الزاوى .

وقد بقي أوزاع من هؤلاء المجاهدين كونوا عصابات انتشرت فيما بين أرفلة ، وغدامس وفزان ، وسرت . وكلما سمحت لهم فرصة للاغارة على قوافل الطليان ومراكبهم انتهزوها . وكانت حروب عمر المختار تشغل الطليان عن أن يجهزوا جيشاً للقضاء على هذه العصابات المنتشرة في الصحراء ، فكانت هذه العصابات تستفيد من هذا الموقف ، كما كانت تستند في أعمالها إلى حكومة خليفة الزاوى في فزان . وكان الطليان ينظرون إلى هذه العصابات بعين القلق والترقب . وكانوا يكتفون في فزان بسياسة الخداع والإغراء بالوعود الكاذبة ريثما ينتهون من حركة عمر المختار .

فرحات بك الزاوى

هو من قول أوغلية الزاوية . أخذ العلم على مفتى ولاية طرابلس الأستاذ محمد بن مصطفى . وذهب إلى فرنسا فتعلم اللغة الفرنسية . وكان نائباً عن طرابلس في مجلس

المبعوثان التركي . وكانت سياسته في الحرب الطرابلسية تميل إلى مسالمة الطليان — نظراً لكون دولتهم من أكبر دول أوربا — ومجادلتهم بالحجة للوصول إلى ما يكفل للوطن الراحة والتقدم . وقد اضطر في بعض الأحوال إلى مخالفة سياسته واشترك في الحرب . وكان عضواً في مؤتمر غريان مندوباً عن الزاوية ، وانتخب عضواً في هيئة الإصلاح المركزية . وانتخب رئيساً للوفد الذي ذهب إلى روما للمطالبة بالحقوق التي قررها مؤتمر غريان . وفي حرب سنة ١٣٤٠ (سنة ١٩٢٢) انضم إلى المجاهدين لمحاربة الطليان فصودرت أملاكه وأخذت أمواله . وبما أنه كان عضواً في هيئة الإصلاح المركزية أسندت إليه إدارة الشؤون السياسية في الزاوية ، والإشراف على شؤون المجاهدين وما يتعلق بالحرب . ولما تغلب العدو على الزاوية في رمضان سنة ١٣٤٠ (ابريل سنة ١٩٢٢) انتقل مع المجاهدين إلى النواحي الأربعة وحضر معركة الجيلاني . وقد أخبرني أنه كان من رآيه الهجوم على بوعرقوب بمجرد احتلاله ، ولكن رؤساء المجاهدين لم يوافقوه . ولما تغلب الطليان على المجاهدين بعد معركة الجيلاني وجلوا عن النواحي في مساء ٥ من فبراير سنة ١٩٢٣ انتقل إلى سرت ، وكان من أشد الناس معارضة لإمارة السنوسية .

وقد فتحت عليه سياسة الملاينة للطلليان باباً من الطعن في وطنيته وجه كثير من الناس للتيل من كرامته وزميه بملائة الطليان ضد الوطن . ويعلم الله أنه لم يمنح لسياسة ملاينة الطليان مثل هذا الغرض ، وإنما حملها عليها علمه بقوة الطليان وكثرة مواردهم في الرجال والعتاد الحربي ، وضعف الطرابلسيين وقتلهم . ولما أعيته الحيلة في معارضة فكرة الحرب لم يجد مناصاً من الانضمام إلى أنصارها ، نزولاً على رأى الأكثرية — وهو مقتنع بهذا المصير الذى صارت إليه الحركة الوطنية ، وعلى رأى عمرو بن العاص « مكره أخاك لا بطل » . وآخر عهدهى به فى سرت فى رجب سنة ١٣٤٢ (فبراير سنة ١٩٢٤) ، ونحن فى طريقنا إلى مصر . وقد تقدمت به السن وضعفت قواه بحيث كان من أشد الناس حاجة إلى الراحة . وقد تركته فى سرت ، ولم يلبث أن سافر إلى فزان سنة ١٩٢٤ .

كان خليفة الزاوى هو الذى يتولى شئون فزان وإدارة حكومتها حينما ذهب إليها فرحات . وكانت مكتظة بالمهاجرين ، ومنهم كثير من أعيان البلاعة . واحتل الطليان سرت وغدامس ولم يبق أمامهم إلا فزان . ورأى فرحات بك من الخير لهؤلاء المهاجرين الرجوع إلى أوطانهم لأنه إذا احتل الطليان فزان بالقوة فسيضطشون بهم البطشة الكبرى ، وإذا جلوا عنها فستبتلعهم الصحراء ويموتون فيها جوعاً وعطشاً — وهذا ما حصل — ويقال إنه اقترح على خليفة الزاوى أن يتصلوا بالطليان لعلمهم يصلون معهم إلى حل فيه شيء من الراحة للمهاجرين ، وحصلت اتصالات مع الطليان في طرابلس عن طريق غدامس — وكانت محتلة بالطليان — قام بها كمال بن فرحات بك وبقى كمال في طرابلس نحو شهر ثم رجع إلى فزان ، ولم نعلم شيئاً عما اتفق عليه مع الطليان .



محمد فرحات بك الزاوى

مقتل فرحات

ولأسباب لم نتحققها حصل سوء تفاهم بين خليفة الزاوى وفرحات بك ، ولم يلبث فرحات بك أن كلف بالذهاب إلى براك . وكان برفقته أحمد الدرناوى ، وعلى بوسنة ، وحسن بن رخا ، ويقال إنهم كلّفوا بقتله في أثناء الطريق . ولما وصلوا إلى زلّاف نفذوا فيه أمر القتل واشتركوا الثلاثة في قتله رمياً بالرصاص .

وقبل مباشرة القتل أخبروه بما أمروا به ، فتوسل إليهم بشيخوخته للبقاء على حياته ، وحذرهم من عقاب الله على مثل هذا القتل الظلم ، ولكنه سبّحاً حاول أن يرقق من قلوبهم القاسية بوعظه ، وأفرغوا فيه بنادقهم ، فسقط مضرّجاً بدمائه وباءوا بإثمه — عليه رحمة الله .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل العظيم على يد هؤلاء الظلمة ، في ظروف اكتنفها من الغموض ما جعل أسبابها مجهولة كل الجهل . وكان ذلك في شعبان سنة ١٣٤٣ مارس سنة ١٩٢٥ .

خليفة الزاوى وأولاد سيف النصر

منذ أن وجدت عائلة سيف النصر — ويرجع ذلك إلى ١٥٠ سنة تقريباً — وهى صاحبة النفوذ الأول في فزان . وأرادت الحكومة العثمانية أن تقضى على هذا النفوذ في عدة محاولات باءت كلها بالفشل . وكل ما وصلت اليه بمحاولاتها العديدة هو الحد من هذا النفوذ في بعض الأوقات لا القضاء عليه بقاتاً .

ولما تولى خليفة الزاوى الأمر في فزان أعاد التاريخ نفسه وحاول أن يقضى على هذا النفوذ ، ووقف أولاد سيف النصر منه موقف المدافع عن نفوذهم وسمعتهم . وكل ما وصل اليه خليفة هو السيطرة على منطقة مرزق ، أما فزان الشرقية فمايز نفوذ أولاد سيف النصر عنها . وكانت نفوسهم دائماً تنازعهم إلى استرداد مرزق من خليفة وطرده منها . وكانوا يتحينون له الفرص . وفي سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م كانت الحرب قائمة بينهم وبين خليفة

الزاوى ، واستمرت نحو تسعة أشهر ، ثم اصطالح معهم على أن يترك لهم فزان ويذهب هو إلى « أوبارى » ونفذ هذا الاتفاق . وكان الطليان إذ ذاك لم يخرجوا إلى فزان ولـكنهم كانوا يستعدون لها ، فاستأنف خليفة صلته بهم وتحصل منهم على وعود رأى فيها ما يكفل له حياته ، فالتحق بهم فى طرابلس .

احتلال فزان

كانت الإدارة فى برقة وفزان غير متحدة ، فكان لكل منهما حكومة مستقلة عن الأخرى . وكان الطليان يجدون فى هذا الوضع بعض الصعاب فى الإجراءات الإدارية ، فكان لهذه التفرقة فى الإدارة أثر واضح فى عدم التغلب على العصابات المسلحة التى ما تزال منتشرة بين غدامس والجبل الأخضر . وقد فكروا — للقضاء عليها — فى توحيد إدارة القطرين ، فعزلوا حاكمى برقة وطرابلس وجيء ببادوليو حاكماً عليهما فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ وكان باديوليو فى مقدمة القواد الإيطاليين فى المقدرة وحسن التصرف . وكان إذا انتدب لحل مشكلة فذلـك لأنهم عجزوا عن حلها . وكانت السياسة الإيطالية قبل مجيء باديوليو ترى القضاء على حركة السيد عمر المختار ثم تتجه إلى القضاء على الحركات الأخرى . ولكن باديوليو رأى غير ذلك ، فأعد العدة للقضاء على العصابات المنتشرة من سرت إلى غدامس واحتلال فزان ، ثم يتفرغ لحركة عمر المختار ، فجمع جيوشاً هائلة لاحتلال فزان . وخرج جيش على طريق القريات وكان فيه خليفة الزاوى الذى كان حاكماً على فزان زمنماً ، وخرج جيش آخر على طريق سرت ، وكان معه عاكف امسيك الغريانى ، ومر خليفة الزاوى مع الجيش الذاهب إلى فزان بديار أولاد أبى سيف . واستمر فى طريقه إلى أن تم احتلال فزان على يديه يوم ٢٤ من شعبان سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م . وكان بها عبد الجليل سيف النصر فلم يمكنه الدفاع عنها ففر إلى وأو حريرة ، فتعقبه الطليان إلى هناك وقتلوا ابن عمه السنوسى بن غيث سيف النصر ، وأخذوا كل ما جمعه من أموال . ويقول البلاغ الإيطالى : إن ما أخذ منهم من الأموال يزيد على مائة كيس كانت كلها مملوءة بالذهب والفضة . وتم استيلاؤهم على فزان ، وفر أكثر من التجأ إليها من المهاجرين — من بلاعزة الزاوية وغيرهم — إلى تونس والجزائر ، والسودان ومصر ، واستسلم من لم يقدر على الجلاء .

خاتمة

إلى هنا انتهى كل نوع من أنواع المقاومة في طرابلس ، وجف قلم التاريخ من كتابة ما للمحسنين للوطن وما على المسيئين إليه . وطويت صحفه على ما كتب فيها من إحسان لمن أخلص لله عمله ، ومن إساءة لمن سهل عليه الهوان فهانت نفسه ولوث عرضه . وسيجد مواطنونا في هذه الصحائف أساساً لبناء الجسد الذي اكتسبه الطرابلسيون بجهادهم المجيد ، كما سيجد العرب في هذا الجهاد مُثَلاً للبطولة النادرة من أعمال هذا الشعب الأبي تعالى من شأنهم ، وتشق طريقها إلى الصدر، يوم تجتمع الأمم للتفاخر بما قدمت كل منها لخدمة الوطن .

الطاهر أحمد الزاوي

ذو القعدة سنة ١٣٦٣

سبتمبر سنة ١٩٤٤

المؤلف

ولد سنة ١٨٩٠ بالحرش لإحدى قرى مدينة الزاوية بطرابلس الغرب . وأخذ بعض العلوم في زاوية الابشات على أساتذته الشيخ الطاهر ابن عبد الرزاق البشتي ، والشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميد البشتي ، والشيخ الطيب بن عبد الرزاق البشتي . والتحق بالأزهر لإتمام دراسته سنة ١٩١٢ وأخذ عن أساتذته : الشيخ محمود خطاب ، والشيخ أحمد الشريف ، والشيخ الدسوقي العربي ، والشيخ علي الجهاني المصري ، وغيرهم من أساتذة الأزهر . ورجع إلى طرابلس سنة ١٩١٩ وبقي معاصراً للحركة الوطنية إلى آخرها سنة ١٩٢٤ وفي هذه السنة هاجر إلى مصر والتحق بالأزهر مرة ثانية في يونيه سنة ١٩٢٤ ونال الشهادة العالمية سنة ١٩٣٨ وتجنس بالجنسية المصرية في إبريل سنة ١٩٤٠ ووظف بوزارة الأوقاف في منتصف مايو من هذه السنة .

إيطاليا في طرابلس

صفحة من التاريخ ضاقت بما اشتملت عليه من حوادث وعبر ، فانتبت إلى غاية جرت إليها ، ثم ختمت على ما حوت من خير وشر ، وأودعت في خزائن التاريخ حيث تحفظ سجلات الأمم وتواريخها .

واللدول — كما للأفراد — أعمار لها بداية ونهاية ، وفيما بينهما يسجل التاريخ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وللتاريخ في هذه الصحائف نظرات عادلة يقيم من أجلها موازين القسط ، لتجد كل دولة ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

وسيجد التاريخ في صفحات دولة الروم التي طواها منذ ثلاثة أيام^(١) ما تسود الوجوه لفظاعته وبشاعته ، وما تتبرأ منه الإنسانية ، بل الوحوش في آجامها .

ولقد كان لهذه الدولة في طرابلس عمر قليل السنوات كثير السيئات ، لم تخل ساعة منه من ألم ممض ، أو إهانة تنفذ إلى أعماق النفوس فتذيقها حسرة . لذلك كانت كل ساعة من هذا العمر القصير لا تقل في طولها عن سنة . فقد حكمتها ٣٣ سنة بيد من نار تحرق حيثما لمست ، وبقلوب انتزعت منها الرحمة انتزاعاً ، حتى أصبحت لا تألف إلا الشر ، ولا تستريح إلا للتعذيب والقتل . وفي مقدمة حملة هذه القلوب القاسية موسوليني ، وجرازياني ، وبالبو ، ودوديأشي ، وكسطينيوطي ، ومازيتي وغيرهم ممن يسوءهم أن يمر يوم لا يقتل فيه الطرابلسيون بالعشرات والمئات . فكان جرازياني يخرج بالمصفحات وعليها المدافع الرشاشة إلى سكان البادية فينصبها عليهم ويرميهم بالرصاص حتى يببدهم ، ثم يأمر المصفحات أن تمر على القتل والجروحين ومن بينهم النساء والأطفال ، وتكرر المرور عليهم ذهاباً

(١) سقطت روما في أيدي الحلفاء يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ وكتبت هذه الكلمة بعده بثلاثة أيام .

وإبائاً حتى تختلط أجسامهم بالتراب^(١) . وتشد الرجال في الحبال والسلاسل بالعشرات ، ثم يؤمر بضربهم بالرصاص حتى لا يبقى منهم أحد . وتصلب النساء عاريات — إى والله عاريات —^(٢) أمام ذويهن وبحضور ألوف من النظارة إرهاباً لشعور الطرابلسيين وإمعاناً في النكاية بهم . ويشد الرجل والرجلان ، ويجعلان في محل الهدف يتسلى الجنود والضباط برميها بالرصاص ، ويدخل على الأسرة في بيتها فتقتل نساؤها وأطفالها ثم ترمى جثثهم في بئر المنزل وتطم عليهم^(٣) . وتملا البيوت بالرجال ثم يطلق عليهم الرصاص فيموتون ويسد عليهم باب الدار^(٤) . ويوثق الرجال في السلاسل ، ويرمون في البحر أحياء فتقتاذفهم الأمواج حتى يموتوا غرقاً . ويقذف البحر بجثثهم وهي مكبلة في السلاسل^(٥) ، ويشكو الرجل من أخذه في الجندية لأنه كبير السن وله طفل صغير يحتاج إلى رعايته فيؤتى بابنه ويقتل بالرصاص أمام عينيه . وتسلب الأموال والأموال بدون ثمن وتعطى للطلبان ينعمون بخيرها ، ويموت الطرابلسيون جوعاً في جوارها . ويحرم القسانون أن يركب الطرابلسي إلى جنب الإيطالي في سيارات الأجرة العامة ، كما يحرم على الحوذى الإيطالي أن يركب في عربته طرابلسياً .

ويأتى موسولينى إلى طرابلس فيجمع لمقابلته سكان البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، ثم يؤتى له بمدفع فيصعد عليه ، ويفرغ رصاصة من مسدسه في الهواء ويقول : « طرابلس ملكنا إلى الأبد » .

(١) وقع هذا في برقة سنة ١٩٣٠ .

(٢) وقع هذا في حوادث برقة في العقيلة . من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٤ حيث كانت النساء يشقن عاريات ويضربن بالسباط . ووقع أيضاً في الجفارة سنة ١٩٢٣ فقد شنقوا عشر نساء عاريات وبقين أياماً معلقات .

(٣) وقع هذا في تاغرمين بلد الزنتان ، وما زالت الدار مغلقة على أولئك الشهداء إلى الآن في سنة ١٩٥٠ .

(٤) وقع هذا في مصرانة في منزل الشريف فيدان ، فقد قتل في ٣٣ من أسره . بين رجال ونساء وأطفال ، ثم ألغروهم في بئر المنزل ، وأحرقوا البيت وهدموه عليهم .

(٥) قذف البحر ١٤ جثة سنة ١٩٣١ على مقربة من مرسا معاروح من الأراضي المصرية مكبلة في سلاسل واحدة .

هذه المظالم المميتة التي كان الطليان يعدونها من مفاخر حكمهم في طرابلس قابلهما الطرابلسيون بكل صبر ، ونالت من دمائهم وكراماتهم ما تعجز الجبال عن حمله ، وانطوت جوانحهم على مرارة كانوا يفضلون من أجلها الموت في أبشع صورته على الحياة مع الطليان . ودولة تأتي مثل هذه المفكرات في حماية القانون راضية بها نفوس عظمائها وملوكها ، لا شك أنها تتحدى نوااميس الحياة وسنين السكون ، وتحاول الحياة من طريق لا يؤدي إلا إلى الفناء .

ومنذ نشأة الإنسان الأول عرف الظلم ، ولكن إذا اعتقد الإنسان أن ظلمه عدل كان ذلك طريقاً إلى الزوال لا محالة . ولو علم الطليان أن الله يمهل ولا يهمل لا تعظوا بمن تقدمهم من الأمم التي أدال الله دولتها بسبب الظلم .

كان ما يأتيه الطليان — شعباً وحكومة — في طرابلس من الجور والمظالم في محل الرضا من جميع الهيئات كلها من الملك إلى السوق ، ولم يرفع صوت واحد باستنكاره . وقد تولى كبره موسوليني ومنفذو أوامره ، فنالهم من العقاب شر ما نال ظالماً في التاريخ . وكان الجزاء وفاقاً ، فرأت هذه الدولة وشعبها من الفواجع ما كان مخبوءاً في القدر مما يماثل ما أنزلوه بالطرابلسيين سواء بسواء .

وأخلف الله ظن موسوليني في طرابلس ، فخرج منها هو وقومه أذلة صاغرين . ورأوا من شتات الشمل وذهاب الدولة ما فيه عبرة لمن يعتبر .

وبلغ من هوان موسوليني على قومه أن قتل بأيدٍ إيطالية ، وبقيت جثته على قارعة الطريق تتلقى لعنات الإيطاليين ، وترك كل بأرجلهم ، وكلما مر عليها ملأ من قومه بصقوا عليها تحقيراً لشأن موسوليني وجزاء لإجرامه .

ولعل في مثل هذه الكوارث ما يُعمر نفوس النشأوى بخمرة النصر بحب الإنصاف والاعتراف للشعوب بحق الحياة الحرة ، فإن ما يخبئه القدر لهم قد يكون أبلى في النكابة مما صارت إليه إيطاليا بسبب العدوان والإمعان في الظلم . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
(أ)			
أرنست بانيت	٧١، ٥٦٦، ٤	إشاعات الصلح	٩٣
أقوال ضابط تركي	٤	أخطاء صلح أورشي	١٠٨
الأسباب التي أغرت إيطاليا	٤	إعلان الحرب العامة	١٤٠
باحتلال طرابلس		أهم الغزوات	١٤١
إهمال طرابلس	٥	أثر سقوط القاهرة	١٤٢
أنصار بنك دي روما	٩	إمباني	١٥٤، ١٤٣
أحمد فوزي باشا	١٢	إعداد الجيش	١٤٩
أحمد راسم باشا	٧٥، ٨١٢	أثر الجيش على النفوس	١٥٢
إبراهيم أدهم باشا	٢١ - ١٨	أقوال الأمير شكيب في	١٥٦
إنذار الطليان للحكومة العثمانية	٢٦	شجاعة الطليان	
إنذار بإعلان الحرب	٣٠	أثر اجتماع مسلانة	١٨٥
إنقاص الجيش	٣٦	استئناف الهجوم	٢١٤
إهمال تجنيد الطرابلسيين	٣٧	الأمير عثمان في مصر	٢١٦
إخلاء البلاد من السلاح	٣٨	أعضاء الجمهورية	٢٢٤
إخراج الضباط العرب من	٣٨	أعضاء مجلس الشورى	٢٢٦، ٢٢٥
طرابلس		إسحاق باشا	٢٣٥
إهمال طرابلس زمن الحرب	٤١	أكرم بن رجب باشا	٢٣٩، ٢٣٨
أول يوم وطلت فيه أقدام	٤٩	أحمد بك السويحلي	٢٨٤
الطليان أرض الوطن		أعضاء مؤتمر غريان	٢٩٩
أول اصطدام	٥٧	أعضاء هيئة الإصلاح المركزية	٣٠١
الأرض تنبت العرب	٦٦	الإمارة	٣٠٤
أثر واقعة الهاني في نفوس	٦٧	إعلان الحرب	٣١٩
الطليان		أسماء موقعي البيعة	٣٢٩
أهمية ميدان زوارة	٨٧	إبراهيم السويحلي	٣٤٣
		إرسال وفد الى الزنتان	٣٤٤

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
إرسال وفد إلى مصر	٣٤٨	بعد تأسيس الجمهورية	٢٣٤
إبراهيم السويحلي	٣٦٦	بعد الهدنة العامة	٢٤٠
(ب)		بدء المفاوضات	٢٤٧
بنك دي روما	١٦٠٧	بعد انتقال رمضان من	٢٧٠
بعثة إيطالية	٢٠	سوانى المشاشطة	٢٨٧
الباخرة أدرنة	٤٤	بدء المناوشات	٢٩٠
بأى ذنب رميت بالرصاص	٨١	البربر في الوطية	٢٩٣
البرنس يوسف عز الدين	٩٦	ابتداء الأعمال الحربية	٣٠٤
بدء المفاوضات	٩٧	بين طرابلس وبرقة	٣٢١
بعد المعاهدة	١٠٧	بعد احتلال الزاوية	٣٣٢
بين السلم والحرب	١١٢	بداية النهاية	٣٣٣
بعد سفر نشأت بك	١١٥	بعد احتلال غريان	٣٣٥
البارونى في يفرن	١١٦	ابتداء الهجوم	٣٤٢
بعد انتهاء المقاومة في الجبل	١٢١	بعد موت محمد سعدون	٣٦٢
البارونى وسوف في تونس	١٢٦	بطولة	
بعد احتلال بنى وليد	١٣٠	(ت)	
بونجيم	١٤١	تمهيد	١
بعد انتهاء المعركة	١٥٦	اتفاق ديسمبر سنة ١٩٠٠	٢
بدء الثورة	١٦٢	تساهل الحكومة العثمانية	٨
براكه ابن غشير	١٦٥	تهمة باطلة	١٠
بعد القضاء على حركة السيد أحمد	٢٠٢	تقرير نواب طرابلس	٣٤
البارونى في مصراتة	٢٠٤	تقصير حقي باشا	٤١
البارونى في العزيزية	٢٠٦	تصريح الصدر الأعظم	٩٧
بدء الهجوم	٢١٤	توالى الفتن	٩٧
بلاغات الجمهورية	٢٢٢-٢٣٢	الاتفاق السرى	١٠٤
		تعليق	١٠٦

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
تقسيم الجيش	١٥٠	الجللاء عن مصراتة	١٧٤
التهاوى بك قليصة	٣٦٥، ١٥٧	جديد	٢١٠
الترك في برقة	١٥٢	جمهورية شمال افريقية	٢١٩٥، ٢١٨
اتفاق ترهونة ومصراتة	٢٠٧	الجمهورية الطرابلسية	٢٢٢
تحول سياسى	٢٠٨	جيوش الطليان في سيدى برانى	٥٢٣٢
تركيز الإدارة في مصراتة	٢٢٠	جثة موسولينى	٢٣٣
تليل	٥٢٢٧	اجتماع المؤتمر	٢٩٩
تبادل الأسرى	٢٦١	اجتماع سرت	٣٠٥
التفكير في غزو أرفلة	٢٧٩	(>)	
تقرير هيئة المفاوضات	٣١٥	حقى باشا	٢٧ - ٢١، ٧
تنظيم الدفاع	٣٥٧	حسنى باشا	١٧٠، ١٦٠، ١٣
(ث)		احتجاج الطرابلسيين	١٤
الثورة	١٤٣	حوادث	١٧
(ج)		حسين كاظم	٢٤
اجتماع ٨ ابريل ١٩٠٩	٢	حماقة	٢٥
جرائد	١٣	احتجاج	٣٣
الجرائد الإيطالية	١٤	احتلال طرابلس	٤٤
جميعه	٧١	احتجاج سكان مدينة الخمس	٥٨
جان دارك الثانية	٧٩	احتلال مدينة الخمس	٥٨
جبن	٨٠	احتلال عين زارة	٦٨
جنود من مصوع	٨٢	الحماجي	٥٧٨
جزيرة الخباز	٨٧	احتلال المرقب	٨٤
جباية الزكاة	١١٧	احتلال الطليان	٨٥
جيش لاحتلال فزان	١٤٧	احتلال زوارة	٨٦
جيش القرضانية	١٥٢	احتلال جنزور	٨٨
اجتماع الجيش على بنعيزار	١٥٢	احتلال سيدى سعيد	٩١

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
احتلال مصر انة	٩٢	حقيقة	٣١٧
احتجاج الطرابلسيين على	٩٤	حالة المجاهدين	٣٣٤
الصلح		حشد الجيوش الإيطالية	٣٣٥
احتلال سرت	١١٤	احتلال مصر انة	٣٣٨
حقيقة	١١٦	حكومة مصر انة في نقد	٣٤٠
حديث الباروني إلى مجلة	١٢٧	احتلال أرفلة	٣٦٠
التيمس الإفريقيه		احتلال فزان	٣٧٠
حوادث وقعت فيما بين	١٣٠		
أرفلة وفزان			
احتلال فزان	١٣٣		
حرب العصابات	١٣٩		
حصار مصر انة	١٧٢		
حكومة مصر انة	١٨١		
حرب النابلي	١٩٠		
حسين الكريتيلى	٢١٥		
حكومة وطنية	٢٦٤		
حكومة القصر الطرابلسي	٢٦٤		
حزب الإصلاح الوطنى	٢٦٦		
حكومات عربية	٢٧١		
حقيقة	٢٧٧		
حرب الزنتان والبربر	٢٨٥		
حرق تارديه	٢٨٨		
حرق فساطو	٢٨٨		
احتلال الجبل	٢٩٣		
احتلال غريان	٢٩٥		
احتلال قصر حمد	٣٠٨		
حملة الطليان على قصر حمد	٣٠٩		

(خ)

الخارجون على الوطن	١٣
خليل بك	٧٧، ٥٥٩
خطة المجاهدين في الحرب	٧٨
خولة بنت الأزور	٨٠
خسائر الطليان	٨٣
خاتمة الدور الأول	١٣٣
خبر	١٣٦
خربة أمل	١٥٦
خلاصة السلاطين	١٨٨
الخلاف بين ترهونة ومصر انة	١٩١
خلاف بين الأحزاب الإيطالية	٢٤٠
خاتمة	٢٤٩
خليفة بن عسكر	٢٨٦
خدعة	٣١٣
خداع فات أوانه	٣٥٩
خليفة الزاوى	٣٧٠
وأولاد سيف النصر	
خاتمة	٣٧٢

الموضوع

صفحة

(د)

الديلي كرونيلك	٦٢
الدور الثاني	١٣٦
استدعاء رمضان إلى طرابلس	١٤٨
الدكتور عثمان	٥٢٠٢
الدور الثالث	٢٢١
الدور الرابع	٢٥١
دسائس الطليان	٢٦٨

(ذ)

ذهاب عبد النى إلى	١٢٩
سيف النصر بهون	

(ر)

رسائل كريسبي	٣
رسائل سالسبورى	٣
رجب باشا	٨٠٧
رد حكومة الآستانة على	١٥
الاحتجاج	
رحمى بك	٥٢١
رد الحكومة العثمانية على	٣٨
إنذار الطليان	
رأى القائد الإيطالى	٨٢
استرداد جنزور	٩٣
رحلة أولاد أبى سيف	١٣٥
رد المنهوبات	١٤٤
رأى رمضان فى جماعة التواتى	١٤٥

الموضوع

صفحة

رمضان السويحلى

١٤٤، ١٤٦٠	
١٧٣، ١٥٤، ١٤٩	
رجوع رمضان إلى مصراته	١٥٧
رد السيد إدريس على البارونى	٢٠٥
رمضان السويحلى فى جنزور	٢٦٨
رمضان فى مسلاتة	٢٧٢
الرأس الأحمر	٣١١
رجوع وفد الدعوة	٣٢٦
رغبة	٣٤٨

(ز)

زاوية العقر (النوفلية)	١٣٩ هـ
الزیدن	١٤١ هـ
زكى امقيق	١٦٠ هـ
الزاوية	٢٣٤
الزحف على يفرن	٢٩٤

(س)

السلطان محمد الخامس	٣١
يطلب التدخل	
سفير ألمانيا	٣٢
سعيد باشا	٣٣
سانية الباشا	٦٦ هـ
سوانى بوغمجة	٧٤
سدره الجلابة	٧٥ هـ
سيف النصر	٧٧، ١٣٦
سؤال كنيفا عن أسباب فشله	٨٣
سياسة الأمر الواقع	٨٣

(ش)

- شكوى الطليان من معارضة ٢٠
ابراهيم باشا
شكيب ٥٢٣
الشيخ عبد الرحمن البشتي ٦٥
يشجع المجاهدين
شجاعة ٧٩
شروط إيطاليا للصالح ٩٥
شروط الحكومة العثمانية للصالح ٩٦
استشهاد السيد محمد بن عبد الله ١٣٢
الشب ١٣٢
الشيخ حرب النابلي ١٩٠
شروط خاصة ٢٦٠

(ص)

- صورة الهادي كعبار ١٢٢
صفي الدين في أرفلة ١٦٠
صورة محمد بك سوف ١٦٧
صورة رمضان بك السويحلي ١٧٥
صفي الدين في مصرانة ١٨١
صورة الباروني ٢٥٠
صورة جماعة من المجاهدين ٢٥٠
صلح بنيادم ٢٥٢
صورة الموكب الوطني ٢٦٢
صورة رمضان السويحلي ٢٦٣
ومعه الجنرال تردتي

- سفر نشأت بك ١١٣
سفر الباروني إلى لندن ١٢٧
سفر عبد النبي إلى سوكنة ١٣١
سالم بن عبد النبي ١٤٢
السدادة ١٥٣
استسلام حامية أرفلة ١٦٠
سقوط مزدة ١٦١
سوف في العزيزية ١٧١
سلطان بن شعبان ١٨٥
السياسة التركية في طرابلس ١٩٢
وبرقة
التميد أحمد الشريف ١٩٣
السيد أحمد يتحاشى الخلاف ١٩٦
مع السيد إدريس
سياسة تركية ١٩٨
سفر السيد أحمد إلى الآستانة ١٩٨
السيد أحمد في مرسين ٢٠٠
سلطان بن شعبان ٢١٣
سفر نوري وعزام إلى الآستانة ٢١٦
سقوط روما ٢٢٢
سحب الضباط الأتراك ٢٣٧
سبب طلب الصلح ٢٤٣
سفر الوفد إلى روما ٣٠٢
سفر السيد إدريس إلى مصر ٣٣١
سعدون ٣٣٧، ٢٣٦
السيد محمد الزدام ٣٦٤

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
صورة رمضان السويحلي	٢٦٧	اعتقال سيف النصر وأولاده	١٣٢
وعبد الرحمن شلابي		عذر رمضان	١٩٩
صورة أحمد بك السويحلي	٢٨٤	عزام بك في مصراته	٥٢١٧، ٢٠٧
صورة عزام بك علي جواده	٣٢٢		٢٧٠، ٢٢٤
صفي الدين في نقد	٣٤٣	عبد القادر الغنای	٢٣٦
(ض)		عبد النبي بن خير	٢٤٦
ضرب المدينة بالمدافع	٤٨	عمل الطليان لإفساد النظام	٢٧١
ضم طرابلس إلى أملاك روما	٦٨	عبد الله الراجحي	٥٢٩٧
ضد ملك إيطاليا	٧٥	عبد النبي في أرفلة	٣٤٩
الضغط على الحكومة العثمانية	٩٥	(غ)	
(ط)		غليوم امبراطور ألمانيا	٣٢
طبراز	٨٤	الغزو على الطليان	١٤١
طرد الطليان من عين زاره	٨٥	غزوة القاهرة	١٤٢
طلب الهدنة	١٥٨	غنائم العرب من الطليان	١٧١
(ظ)		الغنای في الزاوية	٢٣٧
ظروفها	٢٢٣	غزو أرفلة	٢٨٠
(ع)		(ف)	
عدد الذين يتسلمون بالتركية	١٢ هـ	فاشودة	٢
والإيطالية قبل الاحتلال		فؤاد باشا	٣٢
عزل إبراهيم باشا	٤٠	نخري باشا	٢٣
علي فائق أمسيك	٩١	فافاريللي قائد الأسطول	٤٦
الاعتراف بتبعية طرابلس	١١٠	الإيطالي	
وبرقة للطليان		فرانسز ماكولا	٥٦٦
عبد النبي بن خير	١٢٩، ١١٧	في بلاد الناس	٧١
	١٤٨، ١٣٤، ١٣١	في مدينة الخمس	٧٧

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
في الخمس	٨٠	(ك)	
فشل السياسة الإيطالية	٨٢	كوزمان	١٩
الفاتية	١٤١	كتشنر	٣٣
في أرفلة	١٥٧	كتاب القناصل إلى قائد	٤٧
في ترهونة	١٦١	الأسطول	
فتنة	١٨٣ هـ	كتاب مراسل انجليزى	٦٢
فوضى	١٨٩	كتاب جندى إيطالى	٧٥
في سرت	٢٠٣	كتاب امليكار سبريانى	٧٦
الفتنة الجائحة	٢٠٣	السكونت سفورزا فى الأسر	١٢٦، ٨١
الفاشستية	٣١٦	كامة عن السنوسية	١٨١
في غريان	٢٣٢	كلب السيد	١٨٧
الفقيه على بن حسن	٣٦٥	كلب السيد فى نالوت	١٨٩
في فزان	٣٦٧	السكونت مانسيان	١٩٣، ٢٠٧ هـ
فرحات الزاوى	٣٦٧	كتاب البارونى إلى	٢٠٥
		السيد إدريس	
(ق)		كتب إيطالية مع أكرم	٢٣٨
قلق الطليان	٢	كارة	٢٨٣
القحط	٢٩	كتاب من السيد إدريس	٣٢٦
قناصل الدول	٤٧	إلى وفد الدعوة	
القرضائية	١٥١ هـ	كلية	٣٧٣
قسوة الطليان	١٥٦		
أستقرار الأمور	١٧٢	(ل)	
قسم الجمهورية	٢٢٦	إلحاق طرابلس بروما	٨٣
قطع المفاوضات	٢٤٨	إلحاق طرابلس بتركية	٢٠٣
القانون الاساسى	٢٥٣ - ٢٦٠	(م)	
القبض على بن عسكر	٢٩٠	مطامع الطليان	١
القبض على عبد النبي	٣٥١		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٣ هـ	المصاريف الشهرية للحرب	٤	ما كتبه أرست بائيت
	الطرابلسية	٩	المشير رجب باشا
١١٥	المفاوضات	١١	محمد علي سامي
١١٨	مكاتبة	١٢	مدارس الطليان في طرابلس
١٢٠	معركة جندوبة	١٤	مظاهرة
١٢١	مناسبة	١٧	مدام كي دافلين
١٣٥	محمد بن بشير	١٩	محاولات ابراهيم باشا
١٤٣	المجاهدون في سرت	٢٢، ٢٣	محمود شوكت
١٥٩ هـ	محمد العيساوي بوخنجر	٢٤	مطالب إيطاليا
١٦٧، ١٦٨	محمد بك سوف	٤٠	الموظفون
١٧٤	مناوشات	٤٥	مذكرة إيطالية
	موجز عن حيا	٥٠	منشور إيطالي
١٧٧	رمضان بك السويحلي	٥٤	منشور والي طرابلس
١٨٦	محمد العابد	٥٨	مدينة الخمس
١٨٧	مسابقة	٥٩، ٨٩	المرقب
١٩٦ هـ	معاهدة عكرمة	٦٢	مكاتب التيمس
١٩٨	محاولة إدخال السيد أحمد إلى مصراتة	٧٢، ٨٧	مناورة
	مناسبة	٨٠	مراسل جريدة لندن اكسبريس
٢٠٠	مدة الحرب في برقة	٨٤	مغامرات
٢٠١	مصراتة (تعريف)	٨٨	موسى بك اليني
٢٠٨	معركة الجديدة	٩٨	مؤامرة
٢١٢	معاهدة جزيرة موندروس	٩٩	معاهدة أوشي
٢١٩	مناسبة	١٠٣	ملحق معاهدة أوشي رقم ١
٢٢٥	محمد بك شلابي	١٠٣	ملحق معاهدة أوشي رقم ٢
٢٣٧ هـ	مظهر وطني	١٠٤	ملحق معاهدة أوشي رقم ٣
٢٦١	مكيادة	١٠٩	منشور حاكم طرابلس
٢٦٨		١١١	مفاجأة

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
الماجور غالياني	٢٧٣	نشأت بك	٥٦
محمد هويصة	٥٢٧٤	نص معاهدة أورشي	٩٩
متفرقات	٢٧٥	نورى بك	١١٤
مؤتمر غريان	٢٩٦	نورى بك فى مصراته	٢٠٧
مؤتمر تحضيرى	٢٩٦	نفوذ مصراته	٢٠٩
ملحوظة	٢٩٨	نشاط العدو	٢١١
امتناع البارونى من حضور	٣٠٠	نخوة عربية	٢٧٤
مؤتمر غريان	٣٠٠	نص كتاب البيعة	٣٢٧
موقف الطليان من	٣٠٠	نص الرد على كتاب البيعة	٣٣٠
مؤتمر غريان	٣٠٣	انتقال حكومة مصراته	٢٣٩
مطاردة أعيان البلاعة	٣٠٧ - ٣٠٥	(هـ)	
معاهدة سرت	٣١٢	الهجوم على جنزور	٧٣
مقارنة	٣١٣	الهجوم على المرقب	٨٩
مفاوضات فندق الشريف	٣٢٤	هجوم الأسطول الإيطالى على	٩٦
مشايخ القبائل	٣٢٥	سواحل تركية و الدردفيل	
مقابلة السيد ادريس	٣٤٠	الهادى كعبار	١٢٢
لوزير المستعمرات	٣٤٦	هجرة سوف ومن معه	١٢٨
محمد سعدون فى أسبوطه	٣٤٦	الى الشرق	
مناورة	٣٥٢	الهجوم	١٥٥
ملحوظة	٣٦٦	الهجوم على الإنجليز	١٩٥
مختار كعبار	٣٦٩	هيئة المفاوضات	٢٤٥
مقتل إبراهيم السويحلى		هيئة الاصلاح المركزية	٣٠١
مقتل فرحات		انتهاء المقاومة	٣٦٥
(ن)		(و)	
نقل المهمات الحرية إلى	٤٥	وطنية	١٦
العزيزة		ولاية حسنى باشا	١٣
نزول الطليان فى طرابلس	٤٩		



961.2:Z39jA:c.1

الزواوي، الطاهر أحمد

جهاد الإبطال في طرابلس الغرب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01057033

American University of Beirut



961.2

Z39jA

c.2

General Library

